



جامعه
دمشق
كلية الآداب
قسم التاريخ

الإصلاحات في الدولة العثمانية وانعكاساتها على ولاية حلب

١٧٨٩-١٨٧٦م
سياسياً-اقتصادياً-اجتماعياً-ثقافياً

رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه
في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف: أ. د. محمود علي عامر

إعداد: الطالب حسام حسن سليمان

٢٠٠٩/١٤٣٠هـ م



شعار الدولة العثمانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[illegible]

قَالَ امْنٌ نَقِصٌ كُنُوادِثُ اَلْاَسْمَاءُ السَّامِيَةُ السَّامِيَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ اجْعَلْ لَهُ مَا يَشَاءُ ۚ لَئِنْ كُنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ عِندَ رَبِّي فَاعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ فَاخْلَعُوا عَنْكُم مَّا كَانَتْ عَلَيْكُمْ مَلَابِغَ ۚ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ امْنٌ تَقِيْهِ اَمْنٌ رَّحْمٰتِيْ وَرَاجِعًا لِّىْ اَرْوُفٌ مَّحْفُوْظًا (البقرة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّهُ خَبِيرٌ

حجۃ الاسلام

المحتويات

المحتويات	٣
المقدمة	٧
تمهيد تاريخي	١٢

الفصل الأول

أسباب الإصلاحات الداخلية والخارجية	٢٠
أ- الأسباب الداخلية	٢٢
١- فساد النظام العسكري	٢٢
٢- التسبب الإداري	٢٩
٣- نفوذ الحريم	٣٧
ب- الأسباب الخارجية	٤٢
١- الهزائم العسكرية	٤٢
٢- الامتيازات الأجنبية	٤٦
٣- الثورة الصناعية وتأثيراتها	٤٩
٤- الثورة الفرنسية وتداعياتها	٥١
٥- السفارات العثمانية	٥٥
٦- ضرورة الإصلاح	٥٧

الفصل الثاني

محاولات الإصلاح خلال القرن الثامن عشر	٦٠
أ- محاولات الإصلاح الأولى	٦٢
١- إصلاحات السلطان أحمد الثالث ١٧٠٣-١٧٣٠ م	٦٤
٢- إصلاحات محمود الأول ١٧٣٠-١٧٥٤ م	٦٦
٣- إصلاحات عثمان الثالث ١٧٥٤-١٧٥٧ م	٦٧
٤- إصلاحات مصطفى الثالث ١٧٥٧-١٧٧٤ م	٦٨
٥- إصلاحات عبد الحميد الأول ١٧٧٤-١٧٨٩ م	٦٩
ب- الإضطرابات الناجمة عن الإصلاح	٧٠
١- إدارياً	٧٠
٢- عسكرياً	٧٢
٣- اجتماعياً	٧٣
٤- النظم الإدارية الحديثة	٧٨
ج- إصلاحات سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧ م	٨١
١- على الصعيد الإداري	٨١
٢- على الصعيد العسكري	٨٢
د- إصلاحات محمود الثاني ١٨٠٨- ١٨٣٩	٨٥
١- في المجال العسكري	٨٥
٢- في المجال القضائي	٨٧

- ٣- في المجال التعليمي ----- ٨٨
- ٤- في مجال الصحافة ----- ٨٩
- ٥- في المجال الاجتماعي ----- ٨٩
- ٦- في المجال الإداري ----- ٩٠
- ٧- في المجال الطبي ----- ٩٢
- ٨- في المجال الاقتصادي ----- ٩٣
- أ- التجارة ----- ٩٣
- ب- الصناعة ----- ٩٤
- ج- الزراعة ----- ٩٥
- ر- إصلاحات السلطان عبد المجيد ١٨٣٩-١٨٦١ ----- ٩٥
- ١- خط شريف كلخانة ----- ٩٥
- ٢- خط شريف همايون ----- ٩٩
- ز- إصلاحات السلطان عبد العزيز ١٨٦١-١٨٧٥ ----- ١٠١
- ١- على صعيد التعليم ----- ١٠٢
- ٢- على صعيد القضاء ----- ١٠٤
- ٣- قانون الولايات ----- ١٠٤
- هـ- أسباب فشل الإصلاحات ----- ١٠٦

الفصل الثالث

- سلاطين الإصلاح ----- ١٠٩
- أ- السلطان سليم الثالث ----- ١١٠
- ب- السلطان مصطفى الرابع ----- ١٢١
- ج- السلطان محمود الثاني ----- ١٢٣
- د- السلطان عبد المجيد الأول ----- ١٣٥
- ر- السلطان عبد العزيز ----- ١٤٤

الفصل الرابع

- أوضاع ولاية حلب الإدارية قبل الإصلاح وبعده ----- ١٥٤
- أ- حلب جغرافياً ----- ١٥٥
- ب- حلب تاريخياً ----- ١٥٧
- ج- حلب إدارياً ----- ١٥٩
- د- حلب والحكم المصري ----- ١٦٣
- ر- حلب قبل صدور قانون الولايات ----- ١٦٩
- ١- لواء حلب ----- ١٦٩
- ٢- لواء إنطاكية ----- ١٧٠
- ٣- لواء عنتاب ----- ١٧٠
- ٤- لواء كلس ----- ١٧٠
- ٥- متصرفية الرقة ----- ١٧٠

١٧١	٦- متصرفية الزور
١٧١	ز - حلب بعد صدور قانون الولايات
١٧٢	١- لواء حلب
١٧٥	٢- لواء مرعش
١٧٥	٣- لواء أورفه
١٧٦	٤- لواء الزور
١٧٧	س- الجهاز الإداري في ولاية حلب
١٧٧	١- الوالي وواجباته
١٨١	٢- معاون الوالي
١٨٢	٣- الدفتردار
١٨٣	٤- المكتوبجي
١٨٤	٥- القاضي
١٨٦	٦- مدير الأمور الأجنبية
١٨٧	٧- مدير المعارف
١٨٧	٨- مدير الزراعة والتجارة
١٩١	٩- مدير الأوقاف
١٩٤	ش- الجهاز الإداري في لواء حلب
١٩٤	المتصرف وكادره الإداري
١٩٥	ص- الجهاز الإداري في القضاء
١٩٦	ك- الجهاز الإداري في الناحية
١٩٧	ل- المجالس الإدارية في الولاية
٢٠٢	ف- المجالس البلدية
٢٠٧	ق- مجلس اختيارية القرى

الفصل الخامس

٢١٣	الإصلاح في ولاية حلب اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً
٢١٤	أ- التداعيات الاقتصادية
٢١٧	١- الزراعة
٢٢٨	٢- الصناعة
٢٣٧	٣- التجارة
٢٤١	أ- التجارة الداخلية
٢٤٣	ب- التجارة الخارجية
٢٤٨	٤- الضرائب
٢٥٣	٥- الرسوم الجمركية
٢٥٣	١- رسوم داخلية
٢٥٤	٢- رسوم خارجية
٢٥٥	٦- جباية موارد الولاية

٢٥٥	١- قبل التنظيمات
٢٥٦	٢- بعد التنظيمات
٢٥٨	٧- النقود والأوزان والمقاييس
٢٦٥	ب- أوضاع ولاية حلب اجتماعياً
٢٦٥	١- السكان
٢٦٧	٢- الأوضاع الاجتماعية في حلب
٢٦٩	١- فنتة حلب ١٨٥٠
٢٧١	٢- أحداث ١٨٦٠
٢٧٢	٣- الوضع الخدمي
٢٧٥	٤- الوضع الصحي
٢٧٧	ج- أوضاع ولاية حلب ثقافياً
٢٧٧	١- الوضع العلمي
٢٨٣	٢- الطباعة
٢٨٨	٣- الصحف
٢٨٣	الخاتمة
٢٨٦	المصادر والمراجع
٣٠٩	الملاحق

مقدمة:

تاريخ طويل لآل عثمان، وأحداث جسام تسللت إلى عمق هذا التاريخ، فمزقت أشلاءه فرمانات عسكرية وتدخلات نسائية وعمالة أجنبية، ورغم كل هذا الشتات المزدوج لآل عثمان، تمكّنوا من الوقوف وسط الأحداث التي أديرت ولمراحل بحركة إصبع منهم، فاعتاد مواطنوها هذه الإيماءة التي أدركوا أن الوقاية أفضل من قطع رأس تحت ذريعة مخالفة أمير المؤمنين أو تعدى حدود الشرع الشريف. عسكر وحماية وأمير مؤمنين، لكنّ المواطنين تعددت مشاربهم وتنوعت مطالبهم، فالمسلمون مطالبون وبحسب الشرع مساندة الدولة حامية ديار المسلمين أينما حلوا أو رحلوا، والمسيحيون رعايا من درجة ثانية في قانون دولة آل عثمان، أما اليهود فهم طائفة أو قوة بشرية تعيش في كنف المسلمين والمسيحيين على حد سواء.

خلال القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر الميلادية كان هذا التحليل اللوجستي مقبولاً، وليس من قلم يدونه ولا لسان يردده ولا محاولة بإزاحة لا هذا ولا ذاك، سلطان يملك ما يملك يساعده عساكر اقتنعوا بواقع تخلو منه مسؤولية حماية حدود الوطن، أو الدفاع عن عرش من طامع أو مغتصب، واستمر الأمر على هذا المنوال ليغدو العرش حملاً ثقيلاً حتى على المحظيين بتسلمه، لأن الجيل الجديد ممن ساندته النساء في ارتقاء العرش رفض تسلم العرش تحت صليل سيوف الإنكشارية، فبدأ بعضهم بالاحتجاج على واقع العرش، ودفع بعضهم ثمن هذا الاحتجاج، لكن العصر وما أنتجه من ثورة صناعية في إنجلترا وثورات يسارية في فرنسا هيأت لمن يملك حيزاً من العزيمة البدء بالإصلاح، فذهب رأسا سلطانين سليم الثالث ومصطفى الرابع، فتألم محمود الثاني لرأسي أسلافه، فصمم على المباشرة بإصلاح فعلي باشره بضرب الإنكشارية في ثكناتها سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م بعدما دامت ٤٦٤ سنة تتحكم بمجريات الأمور ولاسيما منذ منح الامتيازات إلى الدول الأوروبية سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م.

قبل البدء بالإصلاح كانت الولايات الأوروبية قد تخلص بعضها من إدارتها، في حين بقية الولايات العربية كانت تنتظر رحمة إما أن تهبط من السماء أو تقدمها أوروبية هدية مقابل واردات ستذهب إليها بإرادتهم أو من دون إرادتهم. إن للإصلاح حيثيات كثيرة ظاهرها حسن وقد يسهم في رفع سلطة سيف استانبول عنهم، وباطنها تسلل سري وغير مباشر لأوروبية إلى ديار لا تزال حتى تاريخه تعيش لآخرة قد يشهدون فيها خيراً أكثر من دنياهم..

أمّا ما سعى البحث إليه فهو تقديم صورة واقعية عن حلب قبل الإصلاح لإظهار منعكسات الإصلاح وتداعياته عليها، وواقع الأمر فإن حلب كانت أكثر ولايات الدولة العثمانية التصاقاً بفوائده أو نتائجه، لكن ما الفائدة من هذا الإصلاح الذي لم ينعم الأهالي بنتائجه، لأن صياغة القرار خرجت من ولاية بني عثمان لتصاغ في أروقة أوروبية من خلال اقتراحات تجارها وحاجات مستعمراتها.

لقد سعى البحث إلى اعتماد أقرب الأحداث صحة ودقة لواقع حلب، غير أن الوثائق التي تم الاعتماد عليها كانت مضطربة وقليلة، وما تم العثور عليه هو

استخلاص ما أورده القانون وسجلات الديوان الهمايوني، فعلى ضوء ما ورد فيهما من أحداث تهيأ للبحث منهم الأحداث لواقع حلب بعد فترة الإصلاح وصدور فرمانات الإصلاحية كلخانة خطي ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م وشريف همايون خطي ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م ودستور ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م، غير أن تراكم الأحداث أرغم البحث على عدم التسلل لا سراً ولا علانية إلى مرحلة السلطان عبد العزيز ١٢٧٨-١٢٩٢هـ / ١٨٦١-١٨٧٥م ومراد الخامس ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م والسلطان عبد الحميد الثاني ١٢٩٣-١٣٢٧هـ / ١٨٧٦-١٩٠٩م وإذا كان التعرض واسعاً فلدعم ولاستكمال منعكسات الإصلاح على حلب، فهذا لا يعني أن البحث تعرض لهم أو تم تجاهلهم لأسباب ذكرها البحث سابقاً.

أما المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها، فهي كثيرة جداً، لأن الكتاب عالجوا قضية الإصلاح العثماني من جوانب متعددة، لكن هذه المصادر والمراجع جداً مهمة، ولم يعتمد البحث على مصدر ومرجع إلا لتطرقه إلى الإصلاح ولو من بعيد. لقد تيسرت لي عملية الحصول على المصادر العثمانية من كتب وسجلات وأوامر وتقارير ومذكرات وجدول إحصائية عن أستاذي المشرف ومكتبته العامة بهذه المصادر التي لم تنشر بعد وكان له الفضل أيضاً في مساعدتي بترجمة المعلومات التي أغنت البحث.

إن تنوع المراجع أربك الرؤية في مدى فاعلية الإصلاح، فبعض المراجع تصر على أن الإصلاح ضربة قاسمة ومسبقة للدولة العثمانية والبعض الآخر أصر على أن الإصلاح جاء متأخراً، ولكن يمكن القول أن سلاطين بني عثمان لا رغبة لهم بالإصلاح، ومسيحيو الدولة العثمانية أيضاً لا رغبة لهم بالإصلاح لأنهم لم يعانون ظملاً، اليهود وحدهم هم الذين دفعوا أوروبا مع تطلع أوروبا إلى خيرات الوطن العربي على إرغام الدولة العثمانية على القيام بالإصلاح خصوصاً بعد دخولها مرحلة الرأسمالية وبالتالي زادت حاجتها إلى البحث عن الأسواق والمواد الأولية، مما جعلها تفكر في تهيئة الدولة العثمانية عن طريق الإصلاح بالشكل الذي يحقق مصالحها.

ما بين هذه القراءة وذاك، تم استخلاص منعكسات الإصلاح على ولاية حلب التي غدت أوروبا من خلال جالياتها وتجارها ترغم ولاية الأمر من العثمانيين على تطبيق الأنظمة فيها.

لقد قسم البحث إلى مقدمة وتمهيد تاريخي وخمسة فصول وخاتمة. ففي المقدمة سوّغنا دوافع البحث وصعوبات الوصول إلى رأي ينهي التساؤل من ذهن القارئ.

أما التمهيد فهو مقدمة مبسطة وميسرة لدولة جاءت من أواسط آسيا وضمن ملابس غير واضحة تمكنت من البروز كدولة ثم إمبراطورية وذلك من خلال عرض تاريخي موثق للأدوار التي مرت بها، وبمجيء مصطفى كمال تنتهي أدوار هذه الإمبراطورة التي توافد ملوك أوروبا وأمراؤها لتقبيل عتبة سلطانها الحاكم. أما الفصل الأول فقد تطرق إلى أسباب الإصلاحات بدءاً من فساد الإنكشارية والتسيب الإداري ونفوذ النساء الأوروبيات، اللواتي تزوجن بسلاطين، فضلاً عن

الهزائم التي عانتها الدولة بعدما أسندت الإدارة إلى الصدور العظام وتحجب السلاطين وسط قصر الحرمك، ولتأكيد هذا الانهيار مُنحت الامتيازات الأجنبية لتتولى أوروبة مفتاح رحمة الأهالي الذين كلفوا بتقديم مجهودهم الزراعي إلى أوروبة، ورفع أيديهم بالدعاء لسلطان غارق في حديقة النساء وعطرهن.

أما الفصل الثاني فعالج محاولات الإصلاح بدءاً من السلطان أحمد الثالث ١١١٥-١١٤٣هـ/ ١٧٠٣-١٧٣٠م وانتهاءً بعبد الحميد الأول ١١٨٨-١٢٠٤هـ/ ١٧٧٤-١٧٨٩م، مع عرض للاضطرابات التي نجمت عن تلك المحاولات الإصلاحية، كما تم استعراض إصلاحات السلاطين الذين تم في عهدهم الإصلاح سليم الثالث ١٢٠٤-١٢٢٢هـ/ ١٧٨٩-١٨٠٧ ومحمود الثاني ١٢٢٣-١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨-١٨٣٩م ثم ترافق مع الإصلاح مرحلة تنظيمات بدأها السلطان عبد المجيد ١٢٥٥-١٢٧٨هـ/ ١٨٣٩-١٨٦١ وما صدر في عهده وعهد عمه السلطان عبد العزيز ١٢٧٨-١٢٩٢هـ/ ١٨٦١-١٨٧٥ من فرمانات كانت إرضائية أي بناءً على إرادة أوروبية وليس إرادة شعبية كما تفيد المصادر والمراجع.

في حين انفرد الفصل الثالث بمعالجة سلاطين الإصلاح بإسهاب موثق بغية إدراك منعكساته على ولاية تهمة الدولة العثمانية وتهمة أوروبة وهي ولاية حلب موضوع البحث.

أما الفصل الرابع فُخصص لدراسة حلب جغرافياً وتاريخياً وإدارياً بهدف إبراز النظم المعتمدة في حلب قبل بدء الإصلاح ووصول تأثيراته إليها. وفي الفصل الخامس تم استعراض المستجدات التي شهدتها حلب بعد حدوث الإصلاح وانعكاساته على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومميزات تلك التأثيرات على حلب وسكانها.

أما الخاتمة، فهي خلاصة لرؤية تم استخلاصها من خلال ما تعرضت له حلب من أحداث قبل حدوث الإصلاح وبعده، وتعدّ نتيجة عدم استفادة حلب من الإصلاح لأن القرار غدا بيد الدول الأوروبية أهم ما يمكن الوصول إليه من نتائج فضلاً عن الفوائد الأخرى التي اكتسبتها حلب من الإصلاح ولو جاء متأخراً.

إن أستاذي د. محمود عامر وأستاذتي والدكتورة سمر بهلوان خبراء من قسم التاريخ بكامل كادره الإداري والتدريسي والتعليمي يتدفق رافة وعطفاً.

فلهم مني ألف شكر، وتقديري إلى زملائي الكرام، وأتمنى للجميع الصحة والعافية، لأساتذتي ولزملائي.

وشكراً للجميع

تمهيد تاريخي

الإمبراطورية العثمانية ليست كما حاول بعض الفلاسفة التاريخيين تصوير الأحداث على أنها أحداث متلاحقة بفعل العقل الباطني للعالم، وليست أيضاً نتيجة الكتل المادية والعلاقات الاقتصادية كما يقول ماركس وأتباعه، ولكنها وليدة الواقع الذي أفرز قيادة مبدعة، صاغت الأحداث بما يوافق فكرها الخلاق، وبالتالي فإن الإمبراطورية العثمانية هي وليدة عامل التحدي والاستجابة التي قال بها توينبي^(١) وهي بذلك لا تخرج عن مفهوم النظرية الإسلامية في نشوء الدولة التي قال بها الماوردي "إمارات الاستيلاء"^(٢) أو مفهوم ابن خلدون بقوله "التغلب" شأنها شأن الدول الإسلامية الأخرى.

تأخذ الدولة العثمانية من العالم القديم (آسيا أفريقيا أوربا) مكان القلب، مما مكنها من بسط سلطتها على المضائق والخلجان ومفاتيح البحار، فوصلت منابع النيل وأقاصي الصحاري جنوباً، وسبرت وسط أوربا وجبال القوقاز شمالاً وأما العاصمة القسطنطينية فقد تصدرت مدن العالم في الجمال والأهمية^(٣)، حيث كانت مركز جذب واستقطاب لثروات آسيا وأفريقيا وأوربا^(٤) كما أن موقعها البحري ما بين قارات العالم الثلاث حولت البحر المتوسط إضافة إلى الأسود إلى بحيرة عثمانية.

وبالنسبة للعامل السياسي الذي ساعد على اتساع رقعة الدولة العثمانية وازدياد قوتها فهو التوسع في الأناضول بدافع الجهاد. وبروز إمارة آل عثمان في الأناضول كقوة كبرى بعد أن أخذت دولة السلاجقة تتلاشى تاركة الساحة للعثمانيين، كذلك القوى المجاورة، ومنهم تيمورلنك رغم أنه هزم العثمانيين في أنقرة، فقد تفككت إمبراطوريته وأفاد العثمانيون بضربته من حيث لا يدري، حيث استعادوا قوتهم العسكرية بقوة وتنظيم كبيرين، كذلك كان سقوط دولة المماليك البحرية، وترهل الإمبراطورية البيزنطية ومن ثم فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح^(٥). هكذا استثمر العثمانيون الظروف السياسية في تلك الفترة خير استثمار وحتى في المجال الديني لم تقل براعتهم عما ذكرناه في المجال السياسي، فبعد اعتناقهم الإسلام،

(١) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية المكتب الإسلامي بيروت ط٤، ٢٠٠٢م، ص ٨٧
(٢) القاضي أبو حسن البصري الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تخريج تعليق عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٩٠م، ط١، ص ٧٧-٧٨

(٣) قال نابليون بوناپرت في القسطنطينية "لو كانت الكرة الأرضية في حوزة دولة واحدة لكان يلزمها أن تتخذ القسطنطينية عاصمة لها". أحمد جودت، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر الدنا، جزءان، دن، بيروت ١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م، ج ١، ص ٢٤

- كما أن السلطان عبد العزيز سئل في أثناء زيارته لباريس: أي المدينتين أجمل باريس أم القسطنطينية؟ فقال "إن استانبول يمكن لها أن تصبح مثل باريس، وأما هذه، فليس يوسعها أن تبلغ جمال عاصمة آل عثمان" محمد جميل بيهيم، فلسفة التاريخ العثماني-أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها، بيروت، المطبعة التجارية، ١٩٥٤م، ص ١٥٨

(٤) حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٧

(١) حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٧

تمسك العثمانيون الأوائل بالشريعة الإسلامية ، فكان في تمسكهم هذا سبيل تقدمهم ورفقيهم^(١)، وهم أنفسهم صاروا سلاطين جهاد وغزو فاعتلوا عرش الزعامة في المسرح السياسي العالمي، وأنذروا العالم برمته وخاصة أوربا بوجودهم كقوة عظمى دينها الإسلام^(٢) تنشره وتحميه^(٣).

لقد نشأ العثمانيون مثيرين الرعب في الآخرين، طبقوا بشكل دقيق نظامهم العسكري القديم (الانكشارية)، وقدموا الطاعة العمياء لأمرائهم وسلاطينهم، وأفسحوا المجال للرجال العاديين الوصول إلى المراتب العليا في ساحات القتال وفي مناصب الدولة، كافئوا على الفضيلة والشجاعة وعاقبوا المذنب على الخطيئة^(٤). فأدهشوا العالم بدقة الأسس التي اعتمدها، وبالفرة الطويلة التي تربعوا فيها عرش الصدارة العالمية، وبما امتازوا به من وحدانية المهاجمة، وإحاق الخصم بهم، وقد سلبوه قراره السياسي ، ومنحوه قدراً من الحرية الاقتصادية والاجتماعية^(٥). فمن هم هؤلاء العثمانيون؟

يعود العثمانيون في نسبهم إلى عثمان بن أرطغرل ٦٢٩-٦٨٠هـ/١٢٣١-١٢٨١م من قبيلة قايي إحدى قبائل الغز التركية التي فرت من خوارزم شرقاً هرباً من جنكيز خان باتجاه الأناضول غرباً، وقد دخلوها فاتحين مع السلاجقة (السلطان علاء الدين السلجوقي) واستوطنوا في سكودا شمال غرب الأناضول وجنوبه، ولم يكن عددهم يتجاوز الأربعمئة محارب، ولكن الخدمات التي كانوا يقدمونها للحكام المجاورين مقابل الأرض زادت في أعدادهم ووسعت في أراضيهم^(٦). فامتزجوا بالعناصر المحلية، ولا تزال بعض هذه القرى تحمل أسم قايي، وكان هؤلاء المهاجرون هم النواة الأولى للدولة العثمانية^(٧). واكتسب أرطغرل لقب غازي لما قام به من غزوات متتالية ضد البيزنطيين^(٨) وقد عمد المؤرخون إلى تقسيم تاريخ الإمبراطورية العثمانية إلى ستة أدوار^(٩) وسأوجز في سلاطين^(١٠) الدور الأول

(٢) ببهم، فلسفة التاريخ العثماني، مرجع سابق ص ١٠٨
(٣) يقول لورانس براون: "إذا ما اتحد المسلمون أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون بلا وزن ولا تأثير " خلف بن دبلان الوديني، الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى ١٣٢٧هـ-١٩٠٩م، مكة المكرمة ١٩٩٦م ص ١٩١

(٤) Halil Inalcik: The Ottoman Empir, The Classical Age 1300-1600. London 1973. p 57
الوديني، الدولة العثمانية والغزو الفكري، المرجع السابق، ص ١٣٤

(٥) رضا نور تورك، تاريخي استانبول ١٩٢٤، ج ١، ص ٣٥٥
(٦) محمود علي عامر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق، دمشق، دمشق دار الرحاب ط ١، ٢٠٠١م، ص ٥ ملاحظة (سأشير إليه في البحث اختصاراً: عامر، تاريخ ووثائق)

(١) عامر، تاريخ ووثائق المرجع السابق ص ١٦
(٢) محمد فؤاد كوبرلي قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان، تقديم د: احمد عزت عبد الكريم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م ص ١١٨-١٢٤

(٣) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، جزءان منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا استانبول ١٩٨٨م ج ١ ص ٨٧ ؛ دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشناوي، إبراهيم زكي خورشيد، دار المعرفة بيروت، د ت، ج ١ ص ١٢٤

(٤) تقسيم الأدوار التاريخية للدولة العثمانية مأخوذة عن كتابي عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ١٢٧-١٢٩، وكتاب محمود علي عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، دراسة تاريخية واجتماعية، دمشق دار الصفي ط ١، ٢٠٠٤م ص ٢٤٥-٢٤٧ ملاحظة (سأشير إليه في البحث اختصاراً: عامر، دراسة تاريخية واجتماعية)

(٥) في الملحق رقم (١) قائمة بأسماء سلاطين الدولة العثمانية لهم من النشوء إلى السقوط وسنوات حكمهم.

والثاني وسأترك الأدوار الأخرى لمتن البحث ما عدا آخر سلطان في الدور الخامس وهو السلطان عبد الحميد الثاني، والدور السادس لأنه لا يقع ضمن النطاق الزمني لفترة البحث وأما الأدوار فهي:

الدور الأول: دور التأسيس والتوسع وإعلان الاستقلال ١٢٩٩هـ/١٤١٣م ويبدأ بالغازي عثمان وينتهي بجلوس محمد الأول على العرش .

في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي كانت بعض هذه القبائل تعيش شمال غرب الأناضول على الحدود العثمانية البيزنطية، وكان عثمان ٦٨٠-٧٢٥هـ/١٢٨١-١٣٢٤م أحد رؤساء هذه العشائر، ذكياً قوياً استغل انشغال البيزنطيين بالاضطرابات في عاصمتهم والصراعات في البلقان وغيرها، فاستمرت الغزوات والفتوحات على حسابهم، وتسلم أورخان ٧٢٥-٧٦٤هـ/١٣٢٤-١٣٦٢م السلطة القبلية وكان طموحاً، فتابع سياسة أبيه في التوسع على حساب البيزنطيين، ففي عهده احتل العثمانيون بورصة عام ٧٢٧هـ-١٣٢٦م فاتخذها عاصمة له ومركزاً لانطلاق فتوحاته، واحتل نيقية في ٧٣٢هـ-١٣٣١م ثم قرصو، أوكل لأخيه علاء الدين الأكبر منه منصب الوزير الأول (الصدر الأعظم) وعهد إليه بسن القوانين والتشريعات لضمان استمرار الدولة، ثم عين ولده سليمان صدرراً أعظم بدلاً من أخيه، وقد كان سليمان رجلاً يحب الغزو والمخاطرة وفي الوقت نفسه رجل علم وتنظيم^(١)، فاستطاع خلال فترة حكمه التي بلغت ثمانية وثلاثين سنة أن يضاعف الملك الذي ورثه عن أبيه ستة مرات^(٢). ثم يأتي دور مراد الأول ٧٦٢-٧٩٢هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م لتصل جحافل الأتراك إلى سواحل أوروبا وأخذوا البلقان ووصلوا بلاد الصرب، وفي الأناضول أخذوا أنقرة والمناطق المحيطة بها^(٣). وبتوحيده للإمارات المتصارعة في الأناضول وآسيا الصغرى هياً لقيام نواة الإمبراطورية فيهما، ولتوطيد تحالفه مع حكام آسيا الصغرى زوج ابنه بايزيد من ابنة حاكم قرمان، وبمقتل مراد الأول مطعوناً من قبل أحد فدائيي الصرب تولى ابنه بايزيد مكانه ٧٩٢-٨٠٥هـ/١٣٨٩-١٤٠٢م وقد لقب بـ(يلدرم) أي البرق أو الصاعقة لسرعة حركته وبراعته في القتال، انتصر في عام ١٣٩٦م على الجيش الأوربي المؤلف من ملك هنغاريا ونبلاء فرنسا والبابا الذي بارك هذا التحالف، لكنه لم يهنأ بهذا الانتصار لأن تيمورلنك قتل له ابنه أرطغرل في سيواس ثم أسر بايزيد وابنه موسى على أثر الهزيمة المنكرة التي مني بها العثمانيون في معركة أنقرة عام ٨٠٥هـ-١٤٠٢م ومات بايزيد قهراً في الأسر. وغرق العثمانيون بعد هذه المعركة في مستنقع الحرب الداخلية لمدة عشر سنوات تقريباً، صراع ما بين أبناء بايزيد وسميت هذه الفترة عند العثمانيين بـ(فترت دوري) وانتهت لينته معها الدور الأول

(٦) خليل إينالجيك، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط دار المدار الإسلامي بيروت ط١، ٢٠٠٢م، ص ٢٠-٢١

(١) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٧

(٢) كوبريلي، مرجع سابق، ص ١٨٠-١٨٢

بتسلم العرش محمد الأول^(١) وقد تميز هذا الدور باستيلاء العثمانيين على جميع الإمارات التي انسلخت عن المملكة السلجوقية وامتلاكهم مدينة أدرنة واتخاذها عاصمة لهم، وإجبار البنظيين والصرب على دفع الجزية^(٢).

الدور الثاني: دور الفتوحات والتوسعات (١٤١٣-١٥٩٥)م

بدأ بتسلم محمد الأول (١٤١٣-١٤٢٠)م أحد أبناء بايزيد السلطة بمساعدة بعض كبار القادة، وانتهاء الحرب الأهلية، فنقل العاصمة من بورصة في الأناضول إلى

أدرنة في البلقان وسميت دار الغزاة، وحاول حل المشاكل الكبيرة التي واجهته^(٣)، لكن الدولة العثمانية لم تستعيد هيبتها إلا في عهد مراد الثاني ٨٢٥-٨٥٥هـ/١٤٢١-١٤٥١م حيث هزم ملك بلغاريا وحاصر لفترة طويلة القسطنطينية وأجبر بيزنطة على دفع الجزية^(٤) وبموت مراد الثاني يتسلم محمد الثاني ٨٥٥-٨٨٦هـ/١٤٥١-١٤٨١م^(٥) السلطة ويبدأ معه العهد الإمبراطوري للعثمانيين^(٦) واتخذ لقب فاتح لأنه فتح القسطنطينية^(٧)، بعد الفاتح دخلت البلاد في صراع الأخوة على العرش بايزيد وجم جام الأصغر ولكن والده كان ميالاً له، وعندما توفي الفاتح أخفى الصدر الأعظم محمد باشا نبأ الوفاة لحين عودة جم من قونية لتسلم العرش،

(٣) عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق ط١، ص ٣٩

(٤) عامر، تاريخ ووثائق، ص ١٣٨ عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٤٥

(١) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٤٥

(٢) عامر، تاريخ ووثائق، ص ١٣٨

(٣) قيل عن الفاتح إنه كان يتكلم التركية والعربية والفارسية والعبرانية واليونانية واللاتينية وكان مولعا بالشعر إضافة لما تمتع به من قدرات عسكرية.

(٤) كانت مساحة الدولة العثمانية قبل تولي محمد الفاتح تقارب (٩٦٤٠٠٠) كم^٢ وامتدت بجهود الفاتح العسكرية لتصل مساحتها إلى (٢٢١٤٠٠٠) كم^٢ وتمتلك اقوي جيش بري في العالم وثاني أسطول بحري عالمي بعد البندقية، توفي في المحاولة الخامسة عشر من محاولات البندقية لاغتياله، عن طريق طبيبه البندقي الذي ادعى الإسلام ودس له السم على دفعات حتى مات، فقطع الجنود العثمانيون جسم الطبيب الذي وعدته البندقية بمكافأة تعادل اليوم ١٧ مليون دولار. وقد تلقت البندقية وبقية أوروبا نبأ موت الفاتح بالرسالة التالية La Grand Aquila e morta = لقد مات النسر الكبير. يعتبر بالنسبة للعثمانيين أكبر الأباطرة على الإطلاق تلك الشخصية الخارقة للعادة، وبالنسبة لأوروبا يمكن أن يقاس بنابليون لأنه خطط مصير أوروبا بشكل واضح. وقد كتب عنه الكثير باللغات التركية والعربية والفارسية والأوربية. أوزتونا، مرجع سابق، ج ١ ص ١٧٦-١٨١

(٥) شيد السلطان محمد الثاني قلعة لحصار القسطنطينية عند أضيق نقطة في البوسفور، لكي يمنع وصول الإمدادات الأوربية إليها، ولحسن حظ العثمانيين أن بابا روما اشترط لمساعدة القسطنطينية أن تخضع له الكنيسة الشرقية، وحاصر العثمانيون المدينة لمدة تقارب الشهرين (٤/٦ إلى ٢٩/٥ من العام ١٤٥٣م) وفتحت المدينة وسمي السلطان بالفاتح و(سلطان البرين والبحرين) وأطلق على القسطنطينية عدة أسماء منها – إسلامبول، أي مدينة السلام، أو مدينة الإسلام، ثم سميت الأستانة، والباب العالي ومن ثم الأستانة. عامر تاريخ ووثائق مرجع سابق، ص ١٤٠-١٤١؛ محمد فريد بك تاريخ الدولة العثمانية العلية، ترجمة إحسان حقي ١٩٩٨، مصدر سابق ص ١٦٠-١٦٥؛ كارل بروكلمان، الأتراك العثمانيون وحضارتهم، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٩م، ص ١٤١

ولكن الإنكشارية كانت تخشى جم وتميل إلى بايزيد فقتلوا الصدر الأعظم وولوا بايزيد الثاني ٨٨٦-٩١٨ هـ/١٤٨١-١٥١٢ م الذي يعد عهده فترة جمود في تاريخ العمليات الحربية ، لكنه اهتم بتنشيط التجارة وبالأسطول، محباً للشعر والفلسفة التأملية، وقد مال إلى الزهد والتصوف فلقب بالصوفي، ومات مسموماً^(١). وبعده السلطان سليم الأول ٩١٨-٩٢٧ هـ/١٥١٢-١٥٢٠ م الذي لقب بـ(ياوز) بمعنى الشديد لصلابته وقسوته، وقد ظهر ذلك بإنابة ابنه سليمان عنه في استانبول ليتفرغ لقتل أخوته الواحد تلو الآخر^(٢) وفي عهده أيضاً تبدلت الإستراتيجية العثمانية من حيث التوسع من الغرب باتجاه الشرق، لمواجهة الخطر الصفوي أولاً، فهزمهم ودخل عاصمتهم تبريز، ثم هزم المماليك في سورية^(٣) ولاحق فلولهم إلى مصر حيث دخل القاهرة ، ورغم قصر عهد سليم الأول فقد ترك دولة عالمية كبرى وصلت جيوشه إلى المحيط الهندي وأصبح المتوسط بحيرة عثمانية^(٤) تمكن السلطان سليم الأول خلال فترة حكمه التي بلغت ثماني سنوات أن يضاعف مساحة الإمبراطورية مرتين ونصف فقد كانت ٢٣٧٣٠٠٠ كم^٢ وأصبحت في عام ١٥٢٠ م ٦٥٥٧٠٠٠ كم^٢^(٥) تولى بعده ابنه سليمان ٩٢٧-٩٧٤ هـ ١٥٢٠-١٥٦٦ م المعروف بالقانوني ، وقد وضع خلال هذا العهد مجموعة قوانين اعتبرت مكملة للقوانين التي وضعها الفاتح، وبقيت نافذة المفعول حتى القرن التاسع عشر^(٦)، ورغم أن الإمبراطورية لم تصل بعد إلى أقصى اتساع لها فإن القانوني زاد من رقعتها ما يقارب الضعف خلال سني حكمه^(٧) كما زادت في عهده هيبة الدولة عسكرياً ودولياً، ومن ناحية أخرى كان عهده بداية لكسر القواعد التي تقوم عليها أركان العثمانية، فقد تميز بتزايد نشاط اليهود، وبتخلي السلاطين عن قيادة الإنكشارية، والتخلي عن الإدارة المباشرة للدولة وإسنادها إلى الصدر العظام، وتدخل النساء في المجالس العسكرية والمدنية خاصة زوجته اليهودية روكسلانة (خرم)، كما أنه أول من سمح للإنكشارية بالزواج والإقامة خارج ثكناتهم ومنحهم الامتيازات، كما أنه الأول من سلاطين بني عثمان الذي يمنح امتيازات تجارية لدول أوربا^(٨) وبعد القانوني يتسلم العرش العثماني العالمي القوي والمهاب خارجياً وداخلياً السلطان غير المناسب سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤ م) الذي عرف بـ(السكر) أو (سليم المجنون) ولكن الدولة حافظت على مهابتها خارجياً بفضل الصدر الأعظم محمد

(٦) فريد بك، المصدر السابق ص ١٨٦-١٨٧ ، ؛ محمد الصلابي الدولة العثمانية ، عوامل النهوض والسقوط، دار المعرفة، بيروت، ط ٢٠٠٢، ص ١٨٧ ؛ عامر ، تاريخ ووثائق ص ١٤٢-١٤٣

(١) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢١٣ ؛ فريد بك، المصدر السابق ص ١٨٨

(٢) سنعالج بعض تفاصيل دخول السلطان سليم الأول إلى سورية ولاسيما حلب في بداية الفصل الرابع

(٣) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١ ص ٢٢٩ ؛ عامر، تاريخ ووثائق، ص ١٤٦-١٤٧

(٤) أوزتونا، المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٨

(٥) في الملحق رقم (٢) خريطة الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر

(٦) أوزتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٥٦-٣٥٧

(٧) عامر، تاريخ ووثائق، ص ١٤٧-١٤٩

باشا الصوقلي، فقد تم فتح جزيرة قبرص ولكن منى العثمانيين بأول خسارة في معركة ليبانتو^(١) البحرية والثانية بعد معركة أنقرة، وبعد السلطان سليم الثاني الذي مات على أثر سقوطه في الحمام تولى السلطان مراد الثالث ١٥٧٥-١٥٩٥م وفي عهده برز صراع النساء على الزعامة ما بين الأم نوربانو والزوجة صفية وبيعن وظائف الدولة لمن يدفع أكثر وزاد عدد الجواري في القصر عن الخمسمائة، واغتيل الصدر الأعظم محمد باشا الصوقلي في ١٥٧٩م، وتمردت الإنكشارية، وتعرضت حدود الدولة للاعتداءات الخارجية، وظهرت حركات التمرد في الإيالات العربية^(٢). وهكذا فإن هذا الدور كما شهد أعظم سلاطين بني عثمان وشهدت العثمانية قمة المجد والقوة والإتساع شهدت أيضاً بداية الترهل والانحدار في عهد آخر سلاطين من هذا الدور سليم الثاني ومراد الثالث.

الدور الثالث: (١٥٩٥-١٦٧٦)م دور الجمود والترهل

وهي الصفة الغالبة عليه ما عدا طفرتي القوة التي مرت على الدولة العثمانية في عهد مراد الرابع ١٦٢٣-١٦٤٠م ودور أسرة آل كوبريللي في الصدارة العظمى التي كانت نهاية عهدها نهاية لهذا الدور^(٣).

الدور الرابع: (١٦٧٦-١٨٢٦)م وهو دور الانحطاط والتقهقر

وقد بدأ بالصدر الأعظم مصطفى باشا الذي تقهقر على أسوار فيينا فكانت سبب مقتله، وينتهي الدور بالواقعة الخيرية التي أنهت الإنكشارية وفسادها من الدولة العثمانية على يد السلطان محمود الثاني في ١٢٤٢هـ - ١٨٢٦م^(٤).

الدور الخامس: (١٨٢٦-١٩٠٨)م وهو دور التجدد

ومحاولات الانبعاث في الدولة، وهو عهد سلاطين الإصلاح والتنظيمات والتغريب في الدولة العثمانية، وهو دور رضوخ الدولة لسياسة الأمر الواقع الذي فرضه الأوروبيون على الدولة العثمانية بما يخدم مصالحهم وأهدافهم ورعاياهم، والاعتراف باستقلال بعض دول البلقان، كما يشهد هذا الدور محاولة السلطان عبد الحميد تحقيق مشروع الاتحاد الإسلامي.

الدور السادس: (١٩٠٨-١٩٢٠)م وهو دور الاحتضار للإمبراطورية

وانتهاء عهود السلاطين وإلغاء الخلافة الإسلامية وظهور دولة تركية الحديثة العلمانية على يد مصطفى كمال^(٥).

(١) ليبانتو أو اينبختي (Inebahti) في هذه المعركة ٩٧٩هـ-١٥٧١م تحالفت البندقية مع اسبانيا والبابا لهزيمة العثمانيين خوفاً من امتدادها إلى إيطاليا، وكانت الخسارة للعثمانيين معنوية أكثر منها مادية، لأن شهرتهم بأنهم دولة لا تقهر قد زالت، ولشدة فرح البابا بيوس الخامس ألقى خطبة في كنيسة روما مار بطرس. فريد بك مصدر سابق ص ٢٥٧؛ أوزتونا، المرجع السابق، ص ٣٧٤-٣٧٥

(٢) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٦٧-٢٦٨

(٣) عامر، تاريخ ووثائق، ص ١٢٨

(٤) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية ص ٢٤٦

(٥) عامر، تاريخ ووثائق، ص ١٢٩

الفصل الأول

أسباب الإصلاحات

الداخلية والخارجية

١- أسباب الإصلاحات الداخلية والخارجية

سؤال عام طرح من قبل السلاطين العثمانيين وحاشيتهم (كيف يمكن إنقاذ الإمبراطورية) (الحل المركزية الإدارية، تحديث جهاز الدولة، تغريب المجتمع، علمنة القانون والتعليم ضمن حدود كثيرة، والواقع أن الدولة العثمانية تبحث عن خلاصها والأعين مثبتة على أوروبا في اقتباس النماذج التي تقدمها هذه الأخيرة كغذاء ثقافي)^(١).

ألم يتضمن هذا السؤال مواطن الخلل في الدولة العثمانية، وبالتالي هو اعتراف ضمنى بأن هذه المواطن المخلة في الدولة تقوم على أسس خاطئة أو بمعنى آخر بالية قد مرّ عليها الزمن .

وهنا يُطرح سؤال آخر ما هذه الأسس التي يقوم عليها نظام الحكم (المركزية الإدارية) المجتمع، القانون، التعليم؟ ألم تكن كلها تقوم على مبادئ الشرع الإسلامي والدين الحنيف، ومن هنا يتبادر إلى الذهن سؤال آخر وهو ؟ هل هذه المبادئ غير قادرة على مواكبة العصر ؟ وهل الحل يكمن في أن رأس الهرم يقوم بتغيير القواعد والأسس وتشذيبها أو ربما تفرغها من مضمونها تشبهاً بأهرامات أخرى، قامت على أسس ملائمة لها. ربما هذا الأمر يدعو للتساؤل أيضاً؟ السلاطين فعلاً كانوا يفكرون بالإصلاح على هذا النحو ؟ والإجابة تكمن في نتائج هذا الإصلاح فعلاً؟.

وقبل أن نبدأ في أسباب الإصلاح يجب أن نفرق بين مرحلتين من هذه العملية الإصلاحية، وبالمرور عليهما ندرك أن التاريخ لم يبخل أحدًا حقه، لأنه فعلاً كان هناك رجال مصلحون دعوا إلى إصلاح فعلي في المراحل الأولى، لكن المشكلة أنها كانت آنية تنتهي بنهاية القائم عليها.

فقد شهدت الإمبراطورية العثمانية مرحلتين من مراحل التطور والتحديث والخروج من حالة الضعف والفساد التي استشرت في أوصال الدولة وكيانها والتفريق بين هاتين المرحلتين مهم جداً . فالأولى هي الإصلاح والثانية التنظيمات، على الرغم من أن هاتين الكلمتين عبارة عن مصطلحين غربيين يرتبط ذكرهما بالتاريخ الأوروبي ودخلا إلى مجتمعنا الإسلامي مع بداية الانفتاح على أوروبا، وبقي تفسيرهما مرتبطاً بالتاريخ الأوروبي فقد جاء استخدامهما في الشرق للتعبير عن الشكل وليس المضمون^(٢) أما الإصلاح فهو سابق على التنظيم زمنياً ويختلف عنه في الغاية والهدف .

الإصلاح عبارة عن مجموعة من الاقتراحات والتصورات تصورها بعض من رجال الدولة الصالحين وعملوا على تطبيقها، ولو أنها طبقت لأحدثت تغييراً إيجابياً في جميع مجالات المجتمع عسكرياً وتربوياً واقتصادياً، وعززت العلاقة بين الدولة والمجتمع ولأكدت على مركزية السلطة^(٣) .

من ناحية أخرى إن فكرة الإصلاح ظهرت في فترة ما بين العصر الذهبي

(١) روبر مانتوران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، الفكر للدراسات، القاهرة ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٦٣.

(١) قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية (قراءة جديدة لعوامل الانحطاط)، مركز دراسات الإسلام والعالم، الدار العربية للعلوم، فلوريدا بيروت، ط ١، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤م، ص ٣١.

(٢) العزاوي، مرجع سابق، ص ٣٦.

للسلطنة وبداية فترة الضعف والانحطاط، وبالتالي كان ظهورها ضرورياً؛ لأنه توافق مع بداية تدهور الدولة العثمانية، ولا يعني ذلك أن الإصلاح انبثقت فكرته من واقع بدأ يعاني الفساد، فقاومه بحركة إصلاحية تركزت في ناحيتين؛ الأولى: محاولة إيقاف التدهور في شؤون الدولة الإدارية والمالية؛ والثانية: اقتباس عملية تحديث الجيش كما حدث في بعض بلدان أوروبا (روسيا مثلاً) حيث أدرك السلاطين أن أيامهم باتت قصيرة إذا لم يتم تحديث الجيش والنظام.^(١)

التنظيمات: هي مجموعة الإصلاحات التي أعلنت في الإمبراطورية العثمانية في الفترة (١٨٣٩-١٨٧٦م) في فترة السلطانين عبد المجيد وعبد العزيز، وهذه الإصلاحات جاءت متأثرة إلى حد كبير بالأفكار الأوروبية لتغيير نظام الإمبراطورية الثيوقراطي إلى النظام الحديث^(٢)، فهي عبارة عن إجراءات تشريعية تقوم على تقنين حركة الإصلاح أي صدورها بقوانين رسمية من أعلى سلطة في الدولة العثمانية، وهي الإرادة السلطانية^(٣).

ومن هنا جاء تمييزها عن المرحلة الأولى؛ لأنها في الواقع فُرضت على السلطنة فرضاً بموجب اتفاقيات دولية مع دول أوروبا بهذا يمكن عدّها من ضمن الضغوط الأوروبية على الدولة العثمانية التي حملت نوايا سيئة تجاه الدولة حيث برزت ظاهرة التحديث والتطوير والدفاع عن الحريات الدينية للطوائف، وفي حقيقتها تقويض أركان الإمبراطورية نفسها^(٤). وخير مثال على أن التنظيمات كانت أوروبية الإيحاء والمضمون هو الضغوط الكبيرة التي مورست على الدولة العثمانية لإصدار الخط الهمايوني الذي أقر المساواة بين جميع الملل في الإمبراطورية^(٥). وبالنظر إلى قضية التنظيمات من هذه الناحية نجد أنها تذكرنا بمسألة الامتيازات الأجنبية وبأن كلا القضيتين ذات مصدر واحد ومضمون واحد وهدف واحد، بينما الإصلاح يأتي بينهما نابغاً من معاناة الواقع العثماني. فما الأسباب الكامنة وراء هذا السعي الإصلاحي؟.

يمكن أن نقسم أسباب الإصلاح إلى أسباب داخلية وأخرى خارجية.^(٦) وهو تقسيم يشبه إلى حد ما الفرق بين الإصلاح والتنظيمات فكما ذكرنا أن الإصلاح انطلق من معاناة واقع داخلي، وبالتالي هناك أسباب داخلية لبداية السعي الإصلاحي.

وهناك التنظيمات التي ظهرت بضغط خارجي مقترنة بالأسباب الخارجية للإصلاح وسنتعرف على كل منهما بالتفصيل.

أ- الأسباب الداخلية

(٣) محمود علي عامر، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، مجلة علمية فصلية، محكمة، مطابع جريدة تشرين، السنة ٢٥، العددان [٩١-٩٢]، أيلول كانون الأول ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص ١١٠.

(٤) الموسوعة البريطانية، DVD فقرة تنظيمات، Encyclopædia Britannica Article.

(٥) العزاوي، مرجع سابق، ص ٣٦.

(١) عامر، حركة الإصلاح العثماني، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٩١-٩٢، ص ١١١.

(٢) العزاوي، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٣) ستستخدم كلمة إصلاح للتعبير عن الفترتين إصلاح وتنظيمات.

قال السفير العثماني في باريس فؤاد باشا لنابليون الثالث «إن دولتنا أقوى دول الأرض إذ تعاقب عليها قرنان من الزمان ودول أوروبا تهدم بناءها الشاهق من الخارج ونحن نهدم من الداخل والبناء لا يزال قائماً»

١- فساد النظام العسكري:

إن الغالبية العظمى من الدراسات التي تطرقت إلى قضية الإصلاح وأسبابها في الدولة العثمانية وصلت إلى نتيجة حتمية مفادها أن فساد النظام العسكري يعد العامل الأول والجوهري الذي استوجب عملية الإصلاح، لأن المؤسسة العسكرية العثمانية هي الدعامة الأساسية التي قامت عليها أركان الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف. لهذا كان من الطبيعي أن تهتز أركان الإمبراطورية كلها عندما أصاب هذه المؤسسة الخلل وبظرة سريعة إلى تاريخ هذه المؤسسة نجد أن استمرار الدولة العثمانية كان مرهوناً بإيجاد قوة عسكرية تحميها لأن البقاء والديمومة للقوى الأكثر شراسة، فاستفاد العثمانيون من الضربة المؤلمة التي وجهها لهم تيمور لنك سنة ١٤٠٢، ولولا ظروفه لقضى عليهم، لكن هذه الضربة كانت بمنزلة ناقوس الخطر الذي نبه العثمانيين إلى ضرورة إيجاد قوة عسكرية تحميهم^(١).

كان أول من أنشأ هذا الجيش هو السلطان أورخان (١٣٢٦-١٣٥٩)م، حيث جند ألفاً من الأسرى المسيحيين تجنيداً دائماً ووضع لهم قانوناً خاصاً تضمن أربع عشرة مادة أضحت النظام الداخلي للجيش ونظمت علاقات أفرادهم ببعضهم ببعض، ونصت على الطاعة المطلقة والانقياد التام لأولي الأمر. وقد اتبع نظام (الدوشرمة)^(٢) المصادرة أو ضريبة الدم كأسلوب في تجنيد الإنكشارية^(٣).

إن الهزيمة التي مُني بها العثمانيون في عهد يلدرم بايزيد الأول أمام تيمور لنك في معركة أنقرة عام ١٤٠٢م، تعالت الأصوات العثمانية المنادية بإعادة وحدة الصف العثماني واتفق الجميع أن هذا لن يتم إلا بتسليم القيادة للأجدر وتشكيل قوة عسكرية تصون البيت العثماني، فصدر فرمان الهمايوني بجمع الغلمان المسيحيين من ذوي الصحة الجيدة وحدد فرمان في البداية ألبانيا ثم شمل اليونان وبلغاريا والصرب والبوسنة والهرسك، وحرّم القانون مسيحي الأناضول حتى نهاية القرن السابع عشر وحرّم أيضاً المسلمين واليهود من الانضمام إلى هذا الجيش^(٤). وطبق نظام العثمانية على نظام الدوشرمة، حيث شهدت عناصره عملية غسل أدمغة بعد أن فصلت عن بيئتها فصلاً كاملاً أفقدها أصالتها وجنسياتها وقوميتها وحتم عليها ربط مصيرها بسلطانها ومؤسستها، ولتأكيد هوية الدولة تمت عملية أسلمة (إسلام) هذه العناصر ثم

(١) عامر، تاريخ ووثائق، ص ١٧.

(٢) الدوشرمة: وتعني الجمع والقطف أي جمع أولاد المسيحيين فقط الذين تتراوح أعمارهم ما بين (٨-١٤)، سنة وفي حال عدم تأمين الأعداد المطلوبة ما بين (١٤-١٨) وما بين (١٨-٢٠) في حال عدم الكفاية من بين الأسرى و الأبناء الذين ليس لهم آباء. وقد شمل الأناطول والبوسنة والروم والبلقان والأرمن ويطلق على الشبان الذين جمعوا اسم (suru) أي القطيع ويلازمهم هذا الاسم حتى دخولهم استانبول. تتألف لجنة الدوشرمة من أمين الدوشرمة مأمور الدوشرمة سكان الدوشرمة ومجموعة آخرين. عامر، تاريخ ووثائق، ص (٤٦-٤٧) وهامش (٥٣).

(٣) عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤م، تقديم د. أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف مصر ١٩٦٩م، ص ١٢-١٣.

(٤) ALikemal, padisah Analari, Istanbul, 1997. s 53.

تتريكها^(١).

فقد خضعوا لتدريبات قاسية وفي مقدمتها الطاعة العمياء وتحمل التعب والصبر على الجوع والتخلي بالشجاعة وعدم التراجع وكل ذلك مقترناً بالطاعة، لكي يستطيع صاحبها الوصول إلى أعلى المراتب، لكن هذه التنشئة العسكرية لم تكن هي التنشئة الوحيدة التي خضعت لها عناصر الدوفشومة فحسب بل التنشئة الدينية أدت دوراً بارزاً في ولاء الإنكشارية أيضاً، وتمت تلك العملية بمباركة دينية من حجي بكتاش، ولكن هذه الصبغة الدينية لم تحصن الإنكشارية من الأقاويل والدعايات المغرضة، فقد تردد عن بعض العامة أن أجساد هؤلاء العساكر تسكنها أرواح شريرة خبيثة، وكان لهذه الشائعات أثران الأول ايجابي إذ تخوف الأهالي منها ولزموا الهدوء والسكينة، والثانية سلبية حيث اضر لها الأهالي الحقد والضغينة لتجبرها عليهم، وكان ذلك أول حاجز وضع بين العامة وبين تلك القوات، ومع الزمن ازداد الوضع بينهما سوءاً واضطراباً بسبب الممارسات التي قامت بها العناصر الإنكشارية من المصادرة وإثارة الشغب والفوضى والتعدي على العامة^(٢). أما في ما يتعلق بعلاقة الجيش بالسلطين فقد حددها أورخان مؤسس الجيش الإنكشاري بالطاعة المطلقة والانقياد التام لأولي الأمر عندما وضع قانون الإنكشارية الخاص الذي صيغ من أربع عشرة مادة.

وقد حافظ السلطين العثمانيون على الجيش وقادوه إلى معارك النصر والظفر حتى عهد السلطان محمد الثالث ١٥٩٥-١٦٠٣م عندما بدا اختراق هذا القانون^(٣). إذ إن هناك كثيراً من المؤرخين الذين يربطون بين بداية ضعف الإمبراطورية العثمانية والصراع الدامي الذي نشب بين المؤسسة العسكرية (الإنكشارية) والسلطين^(٤)، حيث خرج الموضوع من إطار تعديل السلطين بعض القوانين النازمة للإنكشارية إلى أبعد من ذلك بكثير. فبعد أن تضاعفت أعداد المنتسبين إلى صفوف الإنكشارية طراً عليهم الكثير من التغيرات الجذرية من حيث الواجب والالتزام والطاعة، فتضاءل ارتباطهم بكنائهم بل وصل الأمر إلى عدم تواجدهم فيها إلا لتسلم الرواتب. وبدلاً من تأدية الواجب في الحرب اتجهوا نحو الداخل يخبون يدمرون ينهبون يعتدون على السكان، وتراهم وقت الحرب يتقاعسون بل يلوذون بالفرار^(٥).

ولو بقي الأمر مقتصرًا على تناول الإنكشارية على العامة وإهمالهم لشؤونهم وواجباتهم لكان الوضع مقبولا نوعاً ما في إمبراطورية كالإمبراطورية العثمانية وكان من الممكن تداركها من دون أن تؤثر على عظمة الإمبراطورية وهيبتها من حيث كونها قضية داخلية يمكن علاجها عاجلاً أم آجلاً. لكن أمر الإنكشارية لم يقف عند ذلك

(٥) محمود علي عامر، الدولة العثمانية تنهض سلاطينها، دمشق دار الصفي، ط١، ٢٠٠١م ص ١٠٧.

(١) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٣٧-٣٨.

(٢) لقد سمح للفلاحين والحرفيين الذين أموا الأستانة من الأقاليم للمشاركة في احتفالات ختان محمد الثالث بن مراد الثالث بالانخراط في صفوف الإنكشارية، وكان ذلك من المحظورات سابقاً. عوض، الإدارة العثمانية

في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ١٣.

(٣) العزاوي، مرجع سابق، ص ١٣.

(٤) عوض، المرجع سابق، ص ١٤.

فحسب بل تناولوا كثيراً إلى درجة أن قرارهم أصبح النافذ في الدولة، فموقفهم المعارض لأي سلطان عثماني أصبح كافياً لعزله وقتله ثم تولية آخر مكانه، وقد بدأت هذه الظاهرة منذ عهد السلطان بايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢م عندما أيدته الإنكشارية في صراعه مع أخيه (جام) وقاموا بقتل الصدر الأعظم قرماني محمد باشا، من بعدها وقفوا على باب قصره السلطاني وأجبروه على الموافقة على مطالبهم^(١). وفي النهاية أجبروا السلطان بايزيد على التنازل عن العرش لابنه سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) ودسوا السم له فتقاضوا ثمن ذلك بمنح العطايا لكل جندي ساند^(٢).

كما أنهم هم من أجبروه على الانسحاب من معركة جالديران ١٥١٤م وبعد عودته قتل بعض قادتهم ثم عمد إلى تشتيت قواهم بتوزيعهم على ولايات الإمبراطورية بحجة دعم النفوذ العثماني^(٣).

وفي عهد السلطان سليمان الأول (١٥٢٠-١٥٦٦م) قاموا في عام ١٥٢٥م بعملية سلب تناولوا فيها على قصر الصدر الأعظم إبراهيم باشا وديوان الجمارك وكان رد السلطان بمنحهم العطايا ثم عمد إلى تشتيتهم وقتل بعض زعمائهم وعزل بعضهم الآخر^(٤). وقد استقبلوا عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م) بمنع موكبه من دخول العاصمة لأول مرة بعد توليه العرش إلا بعد أن أجزل لهم العطاء^(٥).

أما السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) فقد تصدى لخطر الإنكشارية بشكل آخر فقد أدخل إلى صفوفهم عناصر غير مدربة محلية وكان هدفه إفساد تنظيمهم كما سمح لهم بالزواج والإقامة خارج ثكناتهم فأهملوا تدريباتهم وواجباتهم العسكرية ففقدوا قدراتهم القتالية^(٦).

ثم لم تسمح لهم الدولة بحمل أسلحتهم في وقت السلم تجنباً لاستخدامها في حركات العصيان فعادوا إلى سطوتهم من جديد في عهد السلطان عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢م)، وقد استخفوا به وثاروا عليه وأجبروه على إنهاء حربه مع البولونيين فقرر الثأر منهم، وأدركت الإنكشارية أن السلطان يريد النيل منهم فنشرت الشائعات من حوله، وكان منها أن السلطان سيذهب إلى الحج وفي طريق عودته سيحضر معه قوات عربية من الشام ومصر تكون مطيعة له وتبيد الإنكشارية فقاموا بالتجمع في ساحة (أت ميدان) وبعثوا بالدفتردار إلى السلطان يطالبونه بتسليم الصدر الأعظم عمر خوجه وأغا الكزار ولما لم يستجيب لمطالبهم هاجموا السراي^(٧) وعزلوه في ٣٠ أيار ١٦٢٢م فأسروه وضربوه وشتموه ثم

(١) من بين المطالب : ١- عزل الوزير مصطفى باشا وتعيين إسحاق باشا مكانه لتعاطف الأخير معه

٢- أن يجزل السلطان لهم العطاء بمناسبة اعتلائه العرش

٣- أن يصدر عفوا عاما عنهم وعن ما قاموا به من أعمال وسلب ونهب وقد لبى السلطان كل هذه المطالب. فريد بك، مصدر سابق، ص ١٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٨.

(٣) محمد سهيل طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ٦٩٨-١٣٤٣هـ-١٢٩٩-١٩٢٤م، دار بيروت المحروسة، ص ٢٥٠.

(٤) - فريد بك، المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٥) طقوش، المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٦) الوديناني، مرجع سابق، ص ١٦٣-١٦٤.

(١) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٧٦-٢٧٧.

أعدموه^(١). وعينوا بدلاً منه مصطفى الأول بعد أن أطلقوا سراحه من السجن، وقد شهد الإهانات التي وجهتها الإنكشارية إلى ابن أخيه عثمان الثاني من دون أن يستطيع أن يحرك ساكناً، وقد أثار هذا العمل المشين من قبل الإنكشارية الاضطرابات في الإمبراطورية وثار بعض الولاة كوالي طرابلس الشام وأرضروم وسيواس وطالبوا بمحاسبة الجناة فخشيت الإنكشارية من النقمة عليها خصوصاً أن السلطان مصطفى الضعيف لن يستطيع حمايتهم فقاموا بعزله وعينوا مراد الرابع بدلاً منه^(٢).

وكان لذلك وقع كبير في أرجاء الإمبراطورية حيث انتشرت الرهبة في الدوائر الحكومية كما علا شأن الإنكشارية وأخذوا يعينون الوزراء ويعزلونهم، وبقوا كذلك خلال فترة السنوات العشر الأولى من حكم السلطان الفتي مراد الرابع ثم أجبروا على الهدوء والسكينة، وتمكن آل كوبريللي من كسر شوكتهم فأدبهم محمد كوبريللي باشا بعد أن تولى الصدارة العظمى حيث لم يعرف الرحمة معهم عندما قتلوا الصدر الأعظم حافظ باشا بمؤامرة وتحريض من خسرو باشا المتعاطف معهم، فقام السلطان مراد الرابع بقتل خسرو باشا ورؤساء الإنكشارية وكل من شارك في الفتنة، كما قادهم رجب باشا في حركة عصيان ضد مراد الرابع فقام السلطان بقطع رأسه ورمى جثته أمام الإنكشارية فلم يحركوا ساكناً بعدها طيلة فترة مراد الرابع^(٣).

ولكنهم عادوا إلى سيرتهم بقتل السلطان إبراهيم الأول (١٦٤٠-١٦٤٨)م لمعاداته لهم والسلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧)م الذي عرف بلقب محمد الصياد لكثرة شغفه بالصيد وممارسته له، وبعد تعيينه لقره مصطفى باشا ضعيف الشخصية خلفاً لأحمد باشا كوبريللي، وكثرت أعمال الشغب واللصوصية في البلاد، إضافة إلى خسارة الدولة الحروب على الصعيد الخارجي فوجهت الإنكشارية اللوم إلى الصدر الأعظم ولم تكتفِ باللوم بل طلبت من السلطان محمد الرابع قتله لعدم أهليته في الصدارة فاستجاب لمطالبهم، وبعدها أيضاً وجدت الإنكشارية أن السلطان الصياد ليس أهلاً لعرشه، فاتفقوا مع العلماء على عزله، لأنه يترك أمور الدولة في يد الصدر العظام لتسييرها، فعزلوه عن السلطنة^(٤).

بهذا التواطؤ ما بين الإنكشارية والعلماء تسلم السلطان سليمان الثاني عرش بني عثمان وبينما هو منهمك في تسلم أمور العرش اجتمعت الإنكشارية مع السباهية في أت ميدان (ميدان الخيل) وعمت الفوضى وانتشروا في الشوارع يفعلون ما يشاؤون من قتل ونهب وتوزيع للمناصب على من يريدون فقام السلطان الجديد سليمان الثاني بتوزيع العطايا عليهم، ولكن ذلك لم يردعهم عن أفعالهم فهاجموا مقر الصدر الأعظم سياوش باشا فاعتقلوه وقتلوه، وهاجموا منازل الوزراء ونهبوها ووصل طغيانهم لدرجة أن رفع الأهالي (السنجق الشريف) للتصدي لهم حتى

(٢) إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية، المعروف بالتحفة الحليمية، الشارقة ٢٠٠٣، ص ١٢٣.

(٣) عامر، المرجع السابق، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٤) أوزتونا، مرجع سابق، ص ٤٦٩-٤٧٠.

(١) Ismail Hakki uzuncarsili, Osmanli Tarihi.c.3.p198-200

ردعوه عن أعمالهم^(١).

ظلت الإنكشارية على هذا المنوال حتى قام السلطان سليمان الثاني بتقليد منصب الصدارة العظمى مصطفى باشا كوبرلي لما لهذه العائلة من سمعة إدارية جيدة^(٢). أمّا السلطان مصطفى الثالث^(٣)، فقد عمد إلى عدم الاحتكاك مع الإنكشارية خشية أن يلقي مصير أسلافه^(٤). واستقبلت الإنكشارية حكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧)م بحركة عصيان في بلاد الصرب فاعتدوا على الصربيين بعد أن وقعت الدولة العثمانية معاهدة زشتوي عام ١٧٩٠م تعهدت فيها للنمسا بعدم التعرض للصرب ولم يكتفِ الإنكشارية في ذلك بل اشتركت في الحرب ضد الدولة العثمانية^(٥). إن عصيان الإنكشارية هذا كان على مرأى ومسمع الدول الأوروبية وكان بمنزلة الضربة القاصمة لهيبة الإمبراطورية في الخارج، إذ كان ينظر إليها أنها أصبحت غير قادرة على ضبط قواتها وإلزامها على تنفيذ الأوامر والالتزام بالمعاهدات، فكيف ستصمد هذه القوات المعارضة أصلاً في وجه الخطر الأوروبي، وكان ذلك حافزاً كبيراً للدول الأوروبية لتتجرأ على حدود الإمبراطورية، وبعد محاولات سليم الثالث الإصلاحية انتهت سلطنته بالعزل ثم القتل وسلمت الإنكشارية السلطنة لمصطفى الرابع (١٨٠٧-١٨٠٨)م، الذي انتهى إلى المصير نفسه.

ثم تولى محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩)م، الذي سعى إلى اتباع أيّ إصلاح كان من شأنه أن يضعف أو يلغي الإنكشارية، ولاسيما أنهم درجوا على مقاومة كل تغيير أو إصلاح من شأنه أن يمس امتيازاتهم ووجودهم وذهبوا إلى أن ولي الله الحاج بكتاش قد بارك فرقته حين أنشأها ودعا لها بالنصر الدائم وإلى أن بركة هذا الولي يغنيان عن كل تعليم^(٦).

استعان الإنكشارية برجال الدين الذين ذهبوا إلى أن التعليم العسكري من الأمور التي لم يعرفها الإسلام، وأن الفتوحات الإسلامية قد تمت من دون الحاجة إليه، وأن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. ولاسيما أنه من بدع الكفار وأن الأخذ به لا يعدو أن يكون تشبهاً بالكفار وأن من مبادئ الإسلام أن من تشبه بقوم فهو منهم^(٧).

لقد استعان السلطان محمود الثاني بكل الامتيازات والحيل، لدرجة الاستعانة

(٢) يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، من أول نشأتهم حتى الآن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م ص٩٤.

(٣) ALikemal مرجع سابق، 5.116.

(٤) قال الصدر الأعظم يوماً للسلطان مصطفى الثالث أفندم: أن هذا الجيش لا ينفع العصر، ومن الضروري إيجاد النظام الجديد، فاندعش السلطان ونظر يمينا وشمالا! هل موجود في محضره من يفشي هذا القول للإنكشارية؟ ثم قال: "إن جيشنا عظيم"، يريد بذلك إخفاء هذا الخبر، وغمز إلى الصدر الأعظم بالسكوت، وبعد هذا المجلس طلب الصدر الأعظم بمفرده، وقال له: إنك قلت قولا عظيما يخشى منه الخطر، أما أنا ففي حيرة من قبل توليتي السلطة بسنين عديدة في مسألة اختلال الجيش، ولكن خوفا من الخطرات العظيمة أخفي هذا الداء في جوفي كالقروح. الوديناني، مرجع سابق، ص ١٦٩-١٧٠.

(٥) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، دولة مفترى عليها ٣ أجزاء القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠-١٩٨٣م، ج ١، ص ٥١٩-٥٢٠.

(١) فريد بك، مصدر سابق، ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) العزاوي، مرجع سابق، ص ١٥.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشرق، ط٢، ١٩٩٣م، ص ١٨٥.

بالخبراء الأوروبيين الذين أسهموا في القضاء على الإنكشارية التي كانت في وقت من الأوقات لمجرد ذكر اسمها ترتعد أركان أوروبا، وكانت الواقعة النهائية للإنكشارية (الواقعة الخيرية عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م) حيث قضي عليها نهائياً^(١).

وهكذا تحولت الإنكشارية من أداة فعالة في بناء الدولة إلى معول هدم وهزيمة وتخريب وفساد وبدأ عصر التوقف والركود، وكثرت الهزائم التي مني بها الجيش العثماني واضطرت الدولة إلى عقد معاهدات متتالية لم يكن حظ الدولة منها إلا الذل والعار وفقدان أجزاء من ممتلكاتها^(٢).

كما أصبحت العاصمة ميداناً مخيفاً للمذابح البشرية، وعلى أثرها أنكرت المدن الطاعة للدولة^(٣) وأخذت الإنكشارية تتدخل في شؤون الولايات ولم يعد الولاة قادرين على ردّ مفاسدهم وتخريبهم^(٤).

وبهذا النهج الإنكشاري غرقت الحلبة السياسية العثمانية في صراع دموي أضحت بسببه غير قادرة على الخروج من دوامة التهديدات الداخلية القاتلة، وانشغل السلاطين والوزراء بدرء خطر هذا التهديد الداخلي وابتعدوا وأهملوا التحديات الخارجية^(٥). وأصبح الشغل الشاغل للسلاطين هو الإصلاح العسكري بأي طريقة أو صيغة كانت.

٢- التسبب الإداري:

قيل في المثل (الورد يلزمه الشوك، والدفينة تأوي إليها الأفاعي) فقد كانت الثروة التي جمعت بسبب التوسعات العديدة والغنائم الكثيرة داعية إلى الشهوات والوقوع في الأخطاء التي أفسدت نظام الدولة وتساهل السلاطين بالحفاظ عليها^(٦). كتب مصطفى فاضل باشا إلى السلطان عبد العزيز (إن الثورات المسيحية في الدولة ليست إلا عرضاً من مرض، ورجعية الحكومة وسوءها أصاب المسلمين الصابرين بأكثر مما أصاب المسيحيين)^(٧).

لقد كان عصر السلاطين العشرة الأوائل (١٢٩٩-١٥٦٦ م)، عصر البناء والازدهار على الرغم من بعض النكسات الخارجية والداخلية التي واجهت الدولة، فإنها استطاعت متابعة تناميها وازدهارها العسكري والعمراني، وكان السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦ م)، آخر هؤلاء السلاطين العشرة وكان عهده قمة

(٤) Lewis.Bernard:The emergence of modern Turkey.London1961 P77-78 .

(١) حسين لبيب، تاريخ المسألة الشرقية، مطبعة الهلال، ١٩٢٧ م، ص ١١٤ - ١١٥ ؛ الوديني، مرجع سابق، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) أعلن والي طرابلس استقلاله وطرد الإنكشارية من ولايته وتبعه والي أرضروم أياظة باشا الذي حمل لواء الثار للسلطان عثمان الثاني شهيد الإنكشارية فدخل أنقرة وبطش بكل من لقيه من الإنكشارية وصادر كل ما يعود إليهم، الوديني، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٣) محمد عبد اللطيف، حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩ م، دار التراث، ط ١، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م، ص ٨٣؛ الوديني، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٤) العزاوي، مرجع سابق، ص ١٤.

(٥) جودت، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٧.

(٦) البيرت حوراني، خوري (فيليب س)، ويليون (ماري ك)، الشرق الأوسط الحديث، جزءان، ترجمة أسعد صقر، ج ١، طلائع الإصلاح وتبدل العلاقات مع أوروبا، ١٧٨٩-١٩١٨ م، دار طلاس، دمشق، ط ١، ١٩٩٦ م، ص ١١.

الازدهار لمن سبقه ولمن جاء بعده^(١).
لقد تبوأَت الدولة العثمانية موقع الزعامة للعالم الإسلامي وتصدرت المكانة العالمية من حيث الاتساع والقوة والنفوذ والغنى، فوارداتها جعلت سليمان القانوني أغنى من ملوك أوروبا.

حيث كان يتناول من رعاياه المسلمين العشر ومن المسيحيين ممن يخضعون لسلطته رسم الخراج، وهناك رسوم تفرض على الأملاك والعقارات مسلمين أم نصارى، وكانت تصل إلى الدولة وارادات المكوس. وبهذا فإن عهد المهابة والقوة التي تمتع بها سليمان وإمبراطوريته لا تضاهيها أية قوة في عصره. وسطوة الدولة ومهابتها ووزنها العالمي المشهود إلى الدرجة التي ترفع فيها العثمانيون عن تنصيب سفراء لهم في العواصم الأخرى على أساس أنهم في غنى عن سائر الدول، وظلت هذه التقاليد متبعة حتى السلطان محمود الثاني في مطلع القرن التاسع عشر، وبالمقابل فسفراء الدول الأخرى يفرض عليهم تقديم هدايا ثمينة هي بمثابة جزية قبل مثلهم أمام السلطان القانوني، وهو يأنف من الارتباط بمعاهدات مع الملوك المسيحيين ويفضل بدل ذلك منحهم امتيازات له الحق وحده بالتصرف بها متى شاء^(٢).

ولكن هذا العهد على الرغم من أنه يتربع على عرش الازدهار العثماني حمل في طياته بذور الضعف لمن جاء بعده من خلال النهج الإداري الذي شرعه السلطان القانوني حيث كلف الصدور العظام بقيادة الجيوش وإعداد البريد وتوقيعه والإشراف على الدولة إدارياً وعسكرياً، مما أتاح الفرصة المواتية لتجاوز الحاشية العسكرية والإدارية مهامها والتطلع إلى المجد الخاص والثروة الشخصية^(٣).

إذاً حتى تلك الأيام كان السلاطين يديرون بأنفسهم أمور الدولة ويعتنون بشؤون البلاد وعائدات الخزينة، وكانوا يحضرون بأنفسهم الديوان السلطاني، وإذا لم يستطع الحضور يطلع على جميع الأمور، ولم يكن هناك من حاجز بينه وبين الناس^(٤).

فكانت حياتهم خالية من حواجز تباعد بينهم وبين رعيّتهم، ويطلعون على أحوالهم، وكان بإمكان رعيّتهم أن تبث شكواها لهم بدون وساطة أو خادم يحول دون منعهم من الدخول إلى الخيمة أو القصر، ولهذا كانت التضحية تقدم من دون حدود^(٥).

وفي تلك الأيام كانت الحاشية من النخبة أناس مجربين مهتمين بمصالح الدولة من دون التناول فيما لا يعينهم، ولم يكن مسموحاً لهم مناقشة السلطان حول الوزراء ورجال

(١) السير هاملتون جيب، وهارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب وأثر الحضارة الغربية في الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، دار المدى، دمشق، ط ١، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٥٧. مع العلم أن الانهيار بدأ في عهده، لأنه عهد للصدور العظام قيادة الإنكشارية في أثناء الحروب.

(٢) مجلة الاجتهاد، رئيس التحرير الفضل شلق، ورضوان السيد، مدير التحرير محمد السماك، دار الاجتهاد، بيروت لبنان، العدد ٤٣، السنة ١١ عام ١٩٩٩م - ١٤٢٠هـ، شمس الدين الكيلاني، العثمانيون والأوروبيون، ص ١١٤-١١٥. لا شك بأن هذا الشعور كان جميلاً لو أن السلطان سليمان وأحفاده ظلوا محافظين على نظام الإنكشارية.

(٣) Alikemal، مرجع سابق، 5.133.

(١) خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن ١٨، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨١م، ص ٢٢.

(٢) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٧٤.

القانون، وكل من يتسلم منصباً يكون كُفئاً له، وقد تسلمه عن خبرة ويستمر فيه من عشرين إلى ثلاثين سنة وهذا ما حصن الدولة^(١).

ومن البديهي أن أمور الدولة لا تسير سيراً حسناً ما لم تكن قيادتها فعالة، حيث أخذ جهاز الحكم بالتفكك بدءاً من السلطان محور الدولة، وابتداءً من القرن السابع عشر كانت السلسلة الطويلة من السلاطين الأقوياء الأذكياء قد انتهت وتلاها عهد ضعفاء الخلق والذكاء الذين لم يكونوا قد أعدوا إعداداً صالحاً للقيام بمهامهم^(٢)، فالأمراء من أبناء السلاطين في عصر القوة كانوا يكلفون بحكم إحدى الولايات، أو يقودون الجيوش في ميادين القتال برفقة الإنكشارية، فكان هناك تواصل وتعارف بينهم قبل وصولهم إلى سدة العرش، فيصلونه وهم قادرون على تسيير دفة الحكم بشكل جيد من خلال ما تعلموه من الحياة العملية^(٣)، وكانت النتيجة أن نشأ صراع على النفوذ بين فئات الموظفين وقوات الجيش المتحالفين مع العلماء ونساء القصر وعبيده ومن هنا فقد أصاب الإدارة الخلل وفقد نظام جباية الضرائب فائدته ونزاهته وانهار نظام تملك الأراضي الإقطاعي القديم كما أخذ الجيش يفقد انضباطه تدريجياً وكان التقويم ممكناً لو لم يكن النظام الخلقي زال أيضاً حيث ضعفت العصبية المهنية لدى نخبة العبيد والعلماء وانحل الانضباط الصارم والولاء الخالص لدى الإنكشارية.

بعد فترة القرن السادس عشر الذي عدّ العصر الذهبي للدولة العثمانية دخلت الدولة بفترة الخمول ثم التراجع في القرن السابع عشر والثامن عشر حيث بدأ عصر انعدام الرجال^(٤) ومر على الحكم خلال هذه الفترة ثمانية عشر سلطاناً لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس الحكم إلا بوساطة وزراء كانوا أحياناً مثلاً للفساد وأحياناً أخرى مشفقين على الدولة من الانهيار، كما كانوا يقومون بإصلاحات تعطي الدولة حيوية تمكنها من إدارة أمورها لعدة سنوات، ومن هذه الشخصيات التي عملت على صون هبة وسلطان الدولة السلطانين عثمان الثاني ومراد الرابع والوزراء محمد كوبريللي وأحمد باشا فاضل ومصطفى باشا فاضل وأما باقي السلاطين فمنهم من كانوا سجناء في أقبية مظلمة وانعكس سلباً على سلوكهم بعد توليهم الحكم ومنهم من كان شديد الإسراف والقتل والبعض الآخر شغل بالقنص والشراب والفساد والسطو على مالية الدولة وأخذ الرشوة وبيع المناصب والغالبية وضع نفسه رهينة شهواته ورغباته حيث أخذت نساء القصر يتحكمن بهم إلى درجة الألعوبة^(٥).

فقد أدت النساء الحسان في قصور آل عثمان دوراً عظيماً، إذ إن غالبية الوزراء ورجال الدولة الذين تولوا المناصب العليا منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانوني كانوا تحت تأثيرهن أو تولوا مناصبهم عن طريقهن، منذ عهد ذلك السلطان الذي ارتعدت أركان الغرب والشرق لإسمه قد رضخ لحبيبته وزوجته السلطانة خرم اليهودية.

(٣) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٤) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩م، دار النهار، بيروت، د.ت، ص ٥١-٥٢.

(٥) فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٥٢.

(١) Alikemalk، مرجع سابق، 5.62.

(٢) طقوش، مرجع سابق، ص ٢٤٢-٢٤٣.

وأما من حيث الصدور العظام فلم يكن سابقاً يوجه إلا لمن تثبت لياقته وأهليته بين الوزراء واستعمل في السنجق ثم في إمارة الولايات ثم في إمارة أمراء الأناضول ثم في إمارة أمراء الروم إيلي وجرب أحوال العالم لا يأخذ هدية ولا رشوة على توجييه المناصب بل كان الاستحقاق سائداً والأهلية معمولاً بها^(١).

لكن السلطان سليمان القانوني كسر هذه القاعدة عندما عين صهره رستم باشا صدرأ أعظماً له مباشرة غير أن قوة الدولة وهيبة السلطان غطت على مساوئ هذا الاختيار، ولكنه بقي مثلاً سيئاً احتذى به من جاء بعده من السلاطين إذ اتخذوها منه وساروا عليها وأخذوا يعينون في مناصب الوزراء من يرغبون فيه على الرغم من أن بعضهم كان في سن مبكرة من حياته ويفتقر إلى التجربة والحكمة الإدارية لمثل هذه المناصب فصدرت أحكامهم بحسب معرفتهم مخالفة للأنظمة والأحكام لعدم درايتهم بها ومن دون أن يستعينوا بأهل العلم والمعرفة^(٢). وهذا ما نص عليه القرآن الكريم "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"^(٣) وحتى هؤلاء الذين كان بهم أمل في تخليص الدولة من الانهيار الإداري والخلقي قد تم التخلص منهم بطريقة أو بأخرى كعائلة كوبريللي والصدور العظام الذين تخرجوا من هذه العائلة وكأنه هناك أيدي خفية كانت تضرب بقوة بأركان الأسس التي قامت عليها عظمة الدولة العثمانية وهيبتها.

ووصل الخلل والفساد إلى طبقة العلماء الذين هم في المرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان لأنهم يمسكون السلطة القضائية التي مصدرها في التشريع و الكتاب والسنة، وبالتالي فأمرها مطاع لأنه أمر الله، وقد كان الوصول إلى منصب القضاء في عهد الدولة الأول بالغ الصعوبة من حيث الدراسة والامتحانات والاختبارات التي يتعرض لها^(٤)، ولكن في عصر التدهور أخذت هذه المناصب تمنح بالوراثة والوساطة، فقد منح أبناء العلماء إجازات علمية وهم قابعون في بيوتهم، واستلموا مناصب الدولة العلمية كمنح قدمت لهم من دون كفاءة أو جهد^(٥)، ودرجت العادة في بيع مناصب القضاء لمن يدفع مقابلها المال، مما جعل هيئة العلماء تضم نسبة كبيرة ممن يجهلون الإسلام والشريعة وأحكامها، وفي تقرير لعبد الله أفندي أحد قضاة الروم إيلي يعبر فيه عن حالة الفساد التي أصابت السلطة القضائية وهيئة العلماء مبيناً أن الكثير منهم قد وصل إلى منصبه في التدريس وقاضي العسكر من دون استحقاق ولا قابلية ولا أهلية، وهم يفاخرون بذلك ويتكبرون ويتجبرون ويتبجحون بقولهم إن ما وصلوا إليه أقل مما يستحقونه^(٦).

لقد واجهت الدولة العثمانية مشكلة أساسية تمثلت في عجز الدولة عن إدارة مؤسساتها بالشكل المناسب، وذلك لمواجهة التطور والحدثة في الغرب، حيث كان المجتمع الإسلامي يتعرض لحركة تغيير مهمة انعكست على البنية الهيكلية للدولة،

(٣) جودت، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٠٣،؛ الوديناني، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٢) القرآن الكريم، سورة النساء، آية: ٥٨.

(٣) جودت، مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٤-١٢٩.

(٤) البحراوي، حركة الإصلاح العثماني، مرجع سابق، ص ٤١.

(٥) جودت، المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٦-١٢٧.

وواجهت أيضاً مشاكل مالية كبيرة بسبب الأعباء الكبيرة والمصاريف الضخمة حيث غدت القصور العثمانية تعج بقوى بشرية جمعت من أجناس مختلفة، كانت تمسك بزمام المهام والأمور المادية عدا الحاشية الداخلية كدائرة الوالدة السلطنة خصص لقصرها ميزانية خاصة بها ودائرة خزن دار أوسطه، وعدد لا متناه من الموظفين والخدمات الداخلية للقصر. كل ذلك أدى إلى أن مؤسسة السراي الهمايوني غدت تحت سيطرة الدخلاء الأجانب وحديثي النعمة وشذاذ الأفق، وأصبح أفراد الأسرة السلطانية تربى على يد تجار السوق السوداء فبيعت الألوية الأميرية ووزعت التيمارات المهمة على خدم النساء وأتباعهن^(١).

كذلك تجهيز الجيش بالأسلحة الحديثة ومحاولة الدولة سد النقص من خلال زيادة الموارد المالية، كذلك ظهرت فئات اجتماعية جديدة معادية للإدارة الحاكمة، وضعفت العلاقة التي كانت تربط السلطان وحكومته بالرعايا، وبالتالي أصبح هذا الجهاز كلياً غير مهياً لمواجهة مثل هذه التحديات الجديدة^(٢).

ومن المعروف أن حضارة أي دولة تمر بمراحل متعددة وغالباً ما يصحب عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى هزات عنيفة في أنحاء الدولة، والدولة العثمانية ذات الطابع الإسلامي بنظامها السياسي والثقافي والإداري مرت بهذه الهزات على أثر تجاوزها مرحلة المجتمع القبلي إلى مرحلة الإمارة (المؤسسة السياسية الصغيرة)، ومن ثم مرت به عند تشكيلها للنظام المركزي الأول، لكن هذا الانتقال واكبه حركة تطور داخلي في المجتمع، وبالتالي لم يحدث أثراً سلبياً في الدولة ونظام الحكم على عكس ما نراه عندما بدأت عملية التطور المأخوذة عن الغرب في المجال العسكري والثقافي والإداري وغيره، والذي لم يترافق بتطور المجتمع فأدى ذلك إلى تناقض كبير في الدولة ما بين بنية الهرم السياسي والقاعدة الشعبية فأصبحت كل منهما تدور في فلك بعيدة عن الأخرى، وهذا ما زاد الأوضاع سوءاً فظهرت فكرة تحديث الأصول بدلاً من التطور أو فكرة المعاصرة، أما التعريب أو ما يمكن قوله بمصطلحات ومسميات متعددة والمضمون واحد^(٣).

بهذا الوضع المتردي انتهت الدولة العثمانية العالمية في الربع الأخير من القرن السابع عشر بعد أن كانت في المرتبة العالمية الأولى بين دول العالم، ولكن العصر الذي كان فيها نفوذ العثمانيين عبر القارات يوجه سياسة العالم أصبح في ذمة الماضي، وقد بليت وانقرضت فيها قوة الاندفاع الفاعلية الجراءة ودهاء التوسع، ليبدأ عصر آخر تكون فيه الغاية هو الحفاظ قدر الإمكان على ما تملكه الدولة.

عندما ولّى عظماء الرجال من السلاطين والصدور العظام ولّت معهم العظمة والهبة، ففي عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م)، الذي كثيراً ما شُبه بجده القانوني وربما زاد قسوة لأن عهده تطلب إراقة الدماء لإعادة هبة السلطنة فلم يتوانَ في ذلك. وقد مر عهده بمرحلتين الأولى شهدت الفساد والخيانة والمؤامرات عندما كانت أمه السلطنة كوسم راعية للحكم في طفولته ورأى تشتت أمور الدولة

(١) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٩١-٩٢.

(٢) سيد محمد السيد، دراسات في التاريخ العثماني، دار الصحوة، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٢٢٥.

(٣) السيد، دراسات في التاريخ العثماني، ص ٢٢٦.

ما بين مغرور وحريص وطامع، وبذل السلطان في عهده الثاني ١٦٣٢-١٦٤٠م كل ذلك مدركاً أن هذا الفساد في الإدارة لا يردعه إلا القبضة الحديدية وقد فعل ذلك بشهادة مؤرخي عصره، لكن السلطان يموت ويموت عصره الذهبي معه، لأن أخاه السلطان إبراهيم ١٦٤٠-١٦٤٨م الذي كان الرجل الوحيد الباقي من سلالة آل عثمان الذي لو مات لانقطع النسل من الرجال، وقد تسلم الحكم وهو غير مؤهل لذلك فهو مريض (الشقيقة) ويفتقر إلى التحصيل العلمي والعسكري وشاهد إعدام أخوته الكبار الأربعة الذين كانوا أقوياء فائز الأمر عليه نفسياً، فقد كان يخشى من الجلادين، ويبدو عصيباً مضطرباً لا يقر على شيء، أفسدت أخلاقه المداواة التي جرت له لكي يحصل على ابن، بعد أن أبعد ندماء أخيه وسمي عهده بعهد (الفرو) ليدل على الرفاهية واللهو^(١). ويبرز في عهده نفوذ الحريم و"الكزلار أغاسي" (أغا الحريم) بعد إعدام الصدر الأعظم مصطفى باشا كمنكش بين عامي ١٦٤٤-١٦٥٦م يتعاقب ثمانية عشر رجلاً على منصب "الصدر الأعظم" واثنًا عشر رجلاً على منصب "شيخ الإسلام" وعلى منصب "الباشا دفتردار" (أمين السجلات) اثنان وعشرون رجلاً وعلى منصب "القابو دان باشا" (قائد الأسطول البحري) ثمانية عشر رجلاً. أمّا حكام الولايات فكل واحد منهم شكل حاشية حوله لاقتناعه أن بقاءه في منصبه فترة طويلة أمراً مستحيلاً وراح يسعى لسلب أكبر المغنم من منصبه^(٢).

ويتوالى بعده السلاطين الضعاف ليأت دور الصدور العظام عائلة كوبريللي للمحافظة على هذا الستار من الهيبة والقوة الذي أحاكه سلاطين القوة في الماضي، ففي عهد السلطان محمد الرابع الصغير السن (ست سنوات) ظهرت عصابة الأغوات وسلطتهم وتحكموا في البلاد، وقامت الوالدة خديجة تارخان بمحاولة جادة وصادقة لحماية ولدها السلطان الصغير السن وسلطنته المهددة بسلطة الأغوات وأعطت السلطة إلى آل كوبريللي لبيدأ عصر الصدور العظام الذهبي، محمد باشا كوبرللو الذي أنقذ الدولة من شفا هاوية وأدخلها في الدور الذي يسمى في التاريخ بدور (كوبريللي) وقد شبه بدور القانوني، وقد تمكن من خلال الثقة التي منحتها له السلطانة الوالدة تارخان وابنها محمد الرابع من القضاء على المفسدين والمخططين للنيل من هيبة الدولة وسلطانها، فأعدم في وليمة عشاء واحدة ٣١ باشا وأعدم عشرة آلاف شخص بتهمة الجلاية، توفي محمد باشا كوبريللي بعد خمس سنوات من صدارته، وتولى ابنه فاضل أحمد باشا أصغر صدر أعظم في تاريخ الدولة العثمانية عمره ست وعشرون سنة، ولكنّ تحصيله الثقافي والعسكري والسياسي جعله جديراً بهذا المنصب وقد كان في حياة والده يهتم بشؤون الإمبراطورية الداخلية وعندما تولى الصدارة تركها إلى مرزيفونلي قره مصطفى باشا وأخذ يخلد اسمه في الانتصارات الواحد تلو الآخر وتوجها جميعاً بانتصاره بفتح قلعة كانديه ١٦٦٩م^(٣).

(١) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٨٩.

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٣٥٩.

(٣) كانديه هي إحدى القلاع (الجزر) الموجودة في كريت التابعة للبندقية. ومما يدل على أهميتها أنه عندما أخذها العثمانيون قام البابا بتوبيخ الدوق الذي سحب الأساطيل الفرنسية والبابوية والمالطية بجنودها

كما أن وحشية ودموية هذا الانتصار في كانديه قد أرعب أوروبا^(١)، كما لم يسبق أن كرس جهداً لقلعة واحدة كما كرس لكانديه، ولم يسبق أن صرف على أي موقع مستحكم هذا القدر من الأنفس والأموال .

وبعد هذا التاريخ الحافل بالولاء والطاعة والمجد لخلافة آل عثمان توفي فاضل أحمد باشا بعد صدارة دامت خمسة عشر سنة متواصلة وترتيبه الخامس في طول مدة صدور العظام العثمانيين، وجاء بعده مرزيفونلي قره مصطفى باشا الذي أدار الشؤون الداخلية للإمبراطورية طيلة تلك الفترة الماضية، وسار على نهج من سبقه من عائلة كوبريللي في إعلاء مجد الإمبراطورية داخلياً وخارجياً، ولكن المؤامرات الكثيرة التي حيكّت ضده تمكنت منه ولا سيما في أثناء حصار فيينا الثاني

١٤/٧/١٦٨٣م، وللنيل من مكانة قره مصطفى باشا تخاذل مراد كيراي^(٢) في ضرب معونات الأعداء التي عبرت الجسر الذي كان بإمكانه منعهم من عبوره وسحقهم بسهولة ولكن كرهه للصدر الأعظم جعله يظن أن فشله في حصار فيينا سيسقطه من السلطة وتخاذل فعلاً، كذلك تخاذل داماد(صهر: زوج البنت أو زوج الأخت) إبراهيم باشا قائد الجناح الأيمن للجيش العثماني وانسحابه من المعركة من دون مبرر سوى أنه يكره الصدر الأعظم قره مصطفى وهذا الانسحاب سبب الهزيمة، وهكذا حصلت الهزيمة العثمانية أمام أسوار فيينا التي غيرت مجرى التاريخ العالمي، وعلى الرغم من ذلك لم تنل هذه الهزيمة من مكانة قره مصطفى لدى السلطان محمد الرابع بل اعتبرت خسارة معركة ويمكن تعويضها. ولكن الوالدة تارخان التي كانت تتبنى عائلة كوبريللي قد توفيت أيضاً قبل الهزيمة بعدة أشهر، وكان لها دور عظيم حتى وصفوا وفاتها بقولهم إن ركن الدولة الأعظم قد رحل في ١٦٨٣/٧/٥م، وأخذت المؤامرات تحاك؛ لأن كثيراً من الوزراء يتحرقون شوقاً لنيل منصب الصدارة، ولم يكن هناك ذريعة أفضل من هزيمة فيينا.^(٣)

وأخذ بعضهم يوغر صدر السلطان محمد الرابع قبل أن يتمكن قره مصطفى مرزيفونلي باشا من تعديل الوضع بعد هزيمة فيينا، وعندها لن يستطيع أحد إزاحته من منصبه. ولما لم تستطع هذه المحاولات التي دبرتها أخت البادشاه^(٤) في إقناع

الأحياء والجرحى، كذلك فإن الملك الفرنسي لويس الرابع عشر لم يوافق على مقابلة هذا الدوق طيلة حياته بعد خسارته المعركة وفقدانه هذه القلعة. أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٥١٤ .

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٥١٠-٥١٤.

(١) مراد كيراي: خان القرم حفيد جنكيز خان في البطن الثامن عشر كلفه قره مصطفى بحراسة جسر الدونا الذي يصل إلى فيينا والذي هو المنفذ الوحيد لعبور إمدادات العدو إلى المدينة، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٣١.

(٢) يقال: إن صاري (أصفر) سليمان باشا الوزير الثالث وقائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) أنه عندما سمع بخبر هزيمة فيينا أمسك منديلاً بيده وأخذ يرقص فرحاً بنبا هذه الهزيمة للصدر الأعظم، أوزتونا، مرجع سابق ج ١، ص ٥٤٢.

(٣) زوجها إبراهيم باشا قائد الجناح الأيمن في معركة فيينا الذي خان قائده الصدر الأعظم بسبب كرهه له وعندما حضر أمام السردار (الصدر الأعظم قره مصطفى باشا) قبل رداءه، ولكن الصدر الأعظم وبخه قائلاً أيها الشيخ الملعون فررت وبفرارك كنت السبب الكلي في هزيمة العساكر الإسلامية كافة، وأمر

محمد الرابع بالتخلي عن صدره الأعظم قاموا بتزوير الرسائل من الجيش تدعي بأن الجيش لا يريد مرزيفونلي وأنه سوف يعلن عصيانه إذا بقي على رأسه صدرأ أعظم مغلوباً، وقد تمكنوا من غش محمد الرابع؛ لأنه لا يستطيع مخالفة الجيش فعزله وعين مكانه قره إبراهيم باشا ١٥/١٢/١٦٨٣م، وعندما جاء هذا الخبر لمرزيفونلي قره مصطفى باشا تلقاه بهدوء وصاح بالجلاد وطلب قطع رأسه. سوت هذه الفاجعة مستقبل الدولة العثمانية وقضت على الشخص الوحيد القادر على استعادة ما فقد من أراضي الدولة وهيبته.

انتهى دور عائلة كوبريللي وبدأ الأشخاص الذين لا يستطيعون تنفيذ واجباتهم التي تقتضيها مناصبهم يتعاقبون الواحد تلو الآخر. مع العلم أن كان هناك كوبريللي زادة فاضل مصطفى باشا لكن قره إبراهيم باشا عينه خارج استانبول فوراً وكأنه كان هناك اتفاق بين العديد من رجال الدولة على التخلص من عائلة كوبرللو.^(١)

٣- نفوذ الحريم (زوجات السلاطين)

لقد شابه عرش بني عثمان إلى حد ما عروش من سبقه، من حيث إن السلاطين الأوائل لم يتأثروا بالحريم السلطاني وكان تأثيرهن بعيد تماماً عن الأمور السياسية وتسيير أمور الدولة، ولكن منذ عهد السلطان سليمان القانوني كسرت كل القواعد وخرقت المحرمات الإسلامية،^(٢) وأخذ تأثير الحريم يتنامى ويزداد، وعلى الرغم من أن السلاطين الأوائل قد تزوجوا من أجنبيات لكن كن من ذوي أصول راقية^(٣) فكان نتاج زواجهم أمراء أقوياء كان لهم دور بارز في تدعيم أركان الدولة وتقويتها، وللأسف حتى هذه القاعدة أطيح بها عندما أخذ السلاطين العثمانيون يتزوجون من المحظيات والجواري واللقيطات المستوردة عمداً من أسواق أوروبا، فأخذت سلسلة الحكام العثمانيين الأقوياء تضعف جيلاً بعد جيل، ووهنت عزائم الرجال بامتزاج الدماء وضياع الأنساب، وزاد الدم انحلالاً بدخول النسب اليهودي، فطغى بذنبيته على كل مورثات الدماء الأخرى، وأصبح من مستلزمات الحفاظ على العرش التصفية الدموية للأخوة فور استلام العرش، واتخذت هذه القضية الطابع القانوني منذ عهد محمد الفاتح الذي أصدر قانوناً يبيح قتل الأخوة من باب الحرص على سلامة الدولة وأمنها، ودعم ذلك بفتوى شرعية، فضلاً عن ذلك ما افتقده أولئك الأمراء في طفولتهم من حنان العائلة والأخوة، حيث لم يعرفوا حياة الاستقرار العائلية، وهذا ما باعدهم عن عاطفة الأخوة وأضفى على طباعهم القسوة والعنف، وبعد الوصول إلى العرش الذي لا خوف عليه إلا من الأخوة لم يتردد السلطان عن التصفية الجسدية لكل من يقلقه على عرشه^(٤).

يمكن القول إن هذا هو التأثير غير المباشر للحريم السلطاني على عرش بني

الصدر الأعظم بقطع رأس قره إبراهيم باشا الذي قال قبل قطع رأسه لرئيس مرافقي السلطان هذه الجملة (قل لبادشاهنا لا يستطيع أحد أن يتلافى ما فات غير مصطفى باشا).

(١) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٦٨-٥٤٣.

(٢) الوديناني، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٣) أميرات أوروبيات بنات أو أخوات ملوك وأمراء أوروبا أو ما يسمى بالمصاهرة السياسية أو زواج المصالح.

(١) Alikemal (مرجع سابق)، 5.167.

عثمان، أما التأثير المباشر فكانت المؤامرات والمخططات التي تحاك من قبلهن لتحقيق غاياتهن الشخصية والقومية، فأول من تزوج من أجنبية كان السلطان أورخان بزواجه من ابنة الإمبراطور البيزنطي جان باليولوج سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م واسمها هوروفير، وعرفت فيما بعد (نيلوفر) فأنجبت له مراد الأول ٧٦٢-٧٩٠هـ / ١٣٦٠-١٣٨٨م فحمل الدماء الرومية وعلى الرغم من أنه ليس بكر أبيه فقد تولى العرش، وسرعان ما حرصته أمه على حرب البلغار، ولم يقبل صلحهم حتى تزوج من ابنة ملكهم (ماريا) الذي ذاع خبر جمالها فأنجبت له بايزيد حاملاً الدماء البلغارية، فكان المؤشر واضحاً أن العثمانيين سيتركون ساحات القتال بسرعة لاسيما ضد أخوالهم، قتلاشت الدماء العثمانية أمام الدماء الأجنبية. وها هي أخت ملك الصرب (أوليفيرا) توافق بعد رفض قاطع طلب الزواج الذي تقدم به السلطان يلدرم بايزيد ٧٩٢-٨٠٥هـ / ١٣٨٩-١٤٠٢م، ولكن أخاها الملك اسطفان أقنعها بأن مصلحة شعبها توجب هذا الزواج فوافقت بشروط تضمن مصالح أمتها،^(١) وقد وافق السلطان على جميع طلباتها.

وأما التأثير الآخر للحريم السلطاني في الدولة العثمانية على الصعيد الداخلي فكان بالتدخل في حبك المؤامرات والدسائس لوصول أبنائهن لسدة العرش وفرض تعيين الوزراء والصدور العظام ممن يساعدهن في تنفيذ مخططاتهن، وقد أخذ هذا التأثير يتنامى منذ عهد السلطان سليمان الأول القانوني حيث أخذت حياة النساء في القصر العثماني تتجه اتجاهاً آخر، ومنذ هذا العصر أخذت القصور تعج بالعبيد والأغوات والجواري والمحظيات^(٢)، فقد وقع السلطان القانوني تحت تأثير زوجته (خرم) (روكسلانا) وكانت الأولى من بين المحظيات التي تحصل على صفة الزوجة بعد ولادتها سليم الثاني فسميت (جولبها) (وردة الربيع) وهي التي كانت وراء مقتل الأمير مصطفى الابن الأكبر لسليمان ليخلو العرش لابنها^(٣)، وهي من حرقت قصرها ولفقت التهمة لزوجة السلطان الأخرى كلبهار، وهي من دبّرت قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا فاتح العراق، وهي من زوجت ابنتها مهرمان من رستم باشا وعينته صدرأ أعظم، ومن خلالها حظي اليهود بوظائف ومراتب عديدة في الدولة، ودبرت مؤامرة بمساعدة اليهود أيضاً تخلصت فيها من أولاد سليمان

(٢) تمت موافقة أوليفيرا على طلب السلطان بايزيد برسالة مشروطة جاء فيها أنا الأميرة أوليفيرا ابنة ملك الصرب وأخت الملك أسطفان أرغب بالزواج من السلطان العثماني يلدرم بايزيد إذا حقق لي سعادتني القائمة على إقامة ترابط بين الدولتين، وأن تنسحب الجيوش العثمانية من بلاد الصرب، وليعلم مولاي السلطان أن الأمة الصربية فقيرة، وعلى السلطان العظيم إعفاءها من الخراج، وأن يقدم لها مساعدات سنوية، كما عليه أن يوقع مع ملك الصرب معاهدة ود وصداقة طويلة الأمد، وأن يمنع جنوده من التحرش بأراضيها، فإذا رضي فإنني سأضمه إلى صدري الدافئ وسأذهب إليه والشوق يغلبني عليه، وبعدما وقعت توقيعها ختمه أخوها بختم المملكة، عامر الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، ص ١٠٣.

(٣) Gibb,H.A.R.and Bowen,Horld:Islamic Society and the West.vol1,Part1,London1950 vol1, (٣) Part2,London 1954.,p 52

(١) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٠٢؛
Jere I.Bacharach:Amiddle East Studies Handbook,Univercity of Washigton press London 1984m. p146

الآخرين ليخلو العرش لابنها من دون منافس^(١) .
وبعد السلطان سليمان القانوني يأتي دور سليم الثاني لتتسلم زوجته اليهودية نوربانو سيادة القصر، بينما انصرف السلطان إلى لهوه ومجونه، ولولا الوزير الصوقلي باشا لانهارت الدولة من عهده^(٢) وتوفي على أثر سقوطه في الحمام أثناء ملاحظته لجارية له، وأخفت نوربانو نبأ وفاته واجتمعت مع اليهود من أبناء جلدتها لاستقدام ابنها مراد الثالث وقرروا التخلص من كل أبناء سليم الثاني الذكور.
وهكذا بقيت إدارة القصر في يد نوربانو والأمور الخارجية في يد أتباعها من العلماء والوزراء^(٣) . لأن مراداً الثالث انصرف إلى زواجه المئة والثلاثين لينجب منهن مئة واثنى عشر ولداً، ويبدو أن كيد المرأة لا يقابله إلا كيد امرأة أخرى، فقد جاءت (صافية) الإيطالية زوجة مراد الثالث، وانتزعت سيادة القصر العثماني بالقوة من حماتها نوربانو .

وما إن توفي مراد الثالث حتى قررت صافية تشييع جنازة تسعة عشر عثمانياً من أولاد مراد الثالث، وشردت جميع نساءه، وحتى الأطفال لم ينجوا من كيدها، كل ذلك في سبيل تأمين عرش آمن لابنها، وأخذت تعد الإمبراطورية كلها لخدمة دويلات ايطالية ومصالحها^(٤) .

وفي عهد السلطان إبراهيم الأول نلاحظ تأثير الحريم من حيث وصاية السلطنة الوالدة على حفيدها محمد الرابع الذي ولي العرش من قبل جدته ماهبكير كوسم سلطنة (أناستاسيا) وأبيه السلطان إبراهيم لا يزال مريضاً لكنه عاجز عن إدارة البلاد فقبل بالوصاية وبالاتفاق مع مفتي الاسلام تم الأمر حتى بلغ السلطان العاشرة من عمره فزوجوه من فتاة رومية تدعى أقاميا، وما إن اشتد ساعده حتى عزل جدته ماهبكير كوسم ووقفه الحظ بتعيين الصدر الأعظم محمد باشا كوبريللي الأرناؤوطي^(٥) .

وبتسلم عثمان الثالث بن مصطفى الثاني العرش (١٧٥٤-١٧٥٧)م وهو ابن الخمسين عاماً قضاها في معظمها في الغرفة الفولاذية فصعد العرش يتملكه الخوف والرعب وترك للحاشية تدبير أمور البلاد كأغا الكزلار أغا البنات وكذلك والدة السلطان الصربية الأصل شاهسوار (ماري) أطلقت يدها بحرية تدعمها حاشيتها الصربية وأسقطت بمخططاتها كل من يقف في طريق عرش ابنها، لقد حاولت السلطنة الوالدة ماري أن تصبغ العرش العثماني بالطابع الصربي لدرجة قد يعتقد زائر غربي يدخل القصر أنه في بلاط صربي وليس عثماني، ففي الطريق الذي سلكه عثمان الثالث إلى سدة العرش قامت السلطنة الوالدة بتزيينه بشكل غير معهود سابقاً، وملأت القصر من أبناء جنسها ومنحتهم الامتيازات وأبعدت منه أية محظية أو جارية أو عاملة مسلمة، وقامت بتزويج بناتها من رجال ذوي أصول بوسنية

(٢) عامر، الدولة العثمانية تنهم سلاطينها، ص ١١٤، ؛ عصر السلطان عبد الحميد، ص ٨٥.

(٣) الشناوي، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٥٢.

(٤) Gibb and Bowen: Islamic Society and the West.vol1,opcit.p.57

(٥) Alikemal ، مرجع سابق، 5.170.

(١) عامر ، دراسة تاريخية اجتماعية، ص ١٥٥-١٥٦.

وهرسكية ولقبتهم بـ(داماد شهريار)، ووثقت علاقة الإمبراطورية العثمانية مع بلادها بمعاهدات وعلاقات ود وصداقة وتبادل خبرات ولاسيما في المجال العسكري. وخففت الضرائب عنهم، وأوعزت إلى حكام الأقاليم في منطقة البلقان بإعمار أقاليمهم^(١).

وقامت زوجة السلطان محمود الثاني ليون الروسية اليهودية الأصل في عهد ابنها السلطان عبد المجيد الأول ١٢٥٥-١٢٧٨هـ / ١٨٣٩-١٨٦١م بدور كبير في تسير الأحداث وورطت الدولة العثمانية في مشكلات خارجية لم تتل الدولة منها سوى الخسارة والتراجع أهمها توريط الدولة في حرب القرم مع روسيا، وأما على الصعيد الداخلي فقد أغرقت البلاد بالديون واضطرت السلطان للاستدانة من اليهود وبريطانيا وفرنسا، عدا تدخلها في تسليم المناصب لشخصيات ضعيفة سرّعت في تراجع الدولة وإغراقها في المشاكل^(٢). إضافة إلى الدعم الكبير الذي قدمته لأبناء جلدتها من اليهود سياسياً واقتصادياً على حساب الدولة العثمانية^(٣).

إذاً فهذه نماذج من تأثير محظيات وجواري سلاطين بني عثمان، وقد أصبحت هذه النماذج متكررة طيلة عصر الإنحدار حيث أضحى دورهن بارزاً في وصول شخصيات إلى مناصب الدولة العليا ووزارتها، وهم يجهلون تماماً أمور الدولة وأحوالها وسياستها وطرق تسيرها لا سيما أن قسماً كبيراً منهم من ذوي أصول أجنبية، وهذا ما كان يزيد من تأمرهم على الدولة ومصلحتها، فضلاً عن اكتظاظ قصور السلاطين والوزراء بألاف الجواري والسبايا اللواتي كن عيوناً رقيقة لدولهن ينقلن أخبار الإمبراطورية ومواطن ضعفها^(٤).

وكما قالت الفلورنسية بورشيل أن العثمانيين سيخطفون أطفالكم من أحضانكم وسيوفهم مسلطة على رقابكم من دون أن تستطيعوا تحريك ساكناً، وهذا يتطلب منا التفكير بطريقة ما لنجعل العثمانيين ينحرفون عن مسيرتهم. بما أن سلاطينهم يحبون المال والنساء فلنوفر لهم المناخ ليغرقوا في أحضان نساءنا المتعلمات والبارعات الجمال وتدريبهن تدريباً عالياً بحيث يسلبن عقول سلاطين بني عثمان فيكنّ قد أدّين واجبهنّ بحفاظهنّ على أوطانهنّ وأبناء جلدتهنّ^(٥).

من هنا ندرك أن الفساد والتسيب الإداري في الدولة العثمانية وصلت إلى مرحلة أصبح من غير الممكن للجهد الشخصي أن يعالجها أو يتخلص منها، فمن أحد الشروط الأساسية لاستمرار السلطة المركزية هو قدرتها على التواصل المستمر مع القوى والسلطات التي انتدبتتها على السكان، والسلطنة العثمانية قد افتقدت هذه الشروط وعانت من صعوبات مادية كبيرة أعاقَت أي حركة اتخذتها، كما كانت تفتقر إلى وسائل الاتصال

(٢) صولاق باشا، تاريخ صولاق، استانبول ١٢٠٣، ص ٢٥٣.

(١) فقد عينت رضا باشا البلغاري الأصل بائع البهارات في أسواق مصر سر عسكر بعد ترفيعه إلى رتبة مشير، والأمي رضا باشا أمين صندوق محاسبة قبطان دريا (قائد الأسطول)، ثم أصبح قائد القوات البحرية.

(٢) صولاق، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٤.

(٣) الوديناني، مرجع سابق، ص ١٥٨-١٥٩.

(٤) Alikemal، مرجع سابق، 5.174.

وطرق المواصلات.^(١) إضافة إلى هذه القضية فقد واجهت السلطات مشاكل محلية من حيث المعارضة الشعبية لها والحكومية أيضاً، فالعجز للإدارة العثمانية تجاه اتساع رقعتها كان واضحاً من خلال العجز عن ضبط الأمن وتأمين شبكة المواصلات وسرعة وصول القرار الإداري وتنفيذه، حتى نوعية القرار كان له دور في تلقيه والاستجابة له، مثلاً أي قرار صادر عن الديوان المركزي ذي طابع أو منفعة مالية يتلقى استجابة وسرعة أكبر من القرار الإداري الآخر ولاسيما أن هؤلاء المشرفين على تنفيذ القرار لا يخضعون لأي رقابة مباشرة^(٢).

وهذا كله يدل على أن الدولة قد اقتبست نظمها من الآخرين، وبالتالي كانت عاجزة عن ملائمة الواقع العثماني ومتطلباته عبر مراحل تطوره. وسبب هذه الهيكلية الإدارية العثمانية يرجع إلى شخصية العثماني الذي كان مقاتلاً ميدانياً وعملياً بعيداً عن العلم والفلسفة^(٣).

وهذا ما انعكس على المراحل اللاحقة حيث أصبح من الضروري التحديث بعد مرحلة الفساد والضعف التي مرت بها الدولة وهذه الضرورة لم تنطلق من واقع عثماني فجاءت كلها مقتبسة عن أفكار غربية، ورجالها ممن تغربوا وجاؤوا بأفكار معلبة لم تتلاءم والواقع المرير.

ب- الأسباب الخارجية

١- الهزائم العسكرية

يعد القرنان الثامن عشر والقرن التاسع عشر من أكثر القرون التاريخية التي أثرت في حياة البشرية حيث ظهرت البشرية وكأنها تسير إلى حال أفضل وقد كان للغرب دور بارز في هذا المجال إذ إنه سيطر على العالم من خلال سياسته الاحتكارية وقوته المادية وسبب ذلك التقنية الصناعية، كما أن مفاهيم الغرب السياسية والاقتصادية كالفكرة القومية ومفهوم الحرية والديمقراطية وقيام المؤسسات الدستورية الضامنة لهما والفصل بين السلطات كلها مفاهيم غزت الشعوب الطامحة التي كانت ترزح تحت نير أنظمة الحكم الإمبراطوري^(٤).

أما فيما يتعلق بالدولة العثمانية فقد كان هذا القرن يعني ساعة الخطر حيث الهزائم المتتالية التي منيت بها الدولة العثمانية أنذرت في نهاية العصر الذهبي للدولة وأن قوتها أصبحت مصطنعة، وإن لم تفكر في تحسين أحوالها فلن تكون قادرة على حماية أملاكها فالبحر الأسود مثلاً الذي شَبَّهه الروس بحريم السلطان من حيث اختفائه عن الأجانب أضحى في هذه الفترة بمنزلة الفناء الداخلي لروسيا^(٥). وكان المطلوب من السلطان العثماني أن يمارس سلطته في الرقابة وتنظيم الدولة

(٥) englhardt: la turquie et le tanzimat: ou histoire des reformes dans l'empire ottoman dequies 1826 jusqu'aujos p.48 ؛ وجيه كوثراني السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص ١١٨.

(١) كوثراني، السلطة والمجتمع، ص ١١٨.

(٢) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٦١-٦٢.

(٣) مجلة الاجتهاد، مرجع سابق، المقال لـ شفيق محسن: الحاضرة العثمانية العددان ٤١-٤٢ السنة العاشرة، ١٩٩٩م ١٤١٩هـ، ص ١٧٥.

(١) البحراوي، مرجع سابق، ص ٦٤.

بالشكل الذي يضمن استمرارها، ففي عهد القوة العثمانية كانت هناك أصوات تنبه السلطان إلى أن بنيان الدولة سريع العطب إن لم يحصن الرقابة والتنظيم، وفي الحقيقة هذا ما حدث وبسرعة كبيرة غير متوقعة^(١).

ففي القرن السادس عشر وعلى الرغم من الشفافية العامة للغرب التي توافقت مع النهضة الأوروبية كان الأوروبيون الغربيون لا يزالون دون الإمبراطورية العثمانية في مجال السياسة^(٢). وبينما كانت عيون السلطان العثماني غافلة وأذناه صماء عن النداءات كان الأوروبيون يسعون لاستغلال أي فرصة تتاح لهم للنيل من العثمانيين، ففي عهد السلطان العثماني سليمان الثاني ١٠٩٩-١١٠٣هـ/١٦٨٧-١٦٩١م جاءت الفرصة المناسبة بانشغال العثمانيين في صراعاتهم الداخلي وتمرد الإنكشارية وتخاذلهم فهاجمت النمسا عام ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م البوسنة والهرسك وأخذتها من العثمانيين، واستولت على قلعة بلغراد ومدينتي مدرة وكرمة^(٣) وفي العام نفسه استعادت البندقية مدينة لبيانتو من دون مقاومة وسيطرت على ساحل، دلماسية، ومن ثم كررت النمسا هجماتها في العامين ١١٠٠-١١٠١هـ/١٦٨٨-١٦٨٩م على قلعة أرلو ومدن سمندرية وكولمبار وضمت نيش وودين من بلاد الصرب إلى أملاكها^(٤).

ومع نهاية القرن السابع عشر أوضحت المعاهدات العثمانية^(٥) المتكررة على أثر الهزائم المتلاحقة عسكرياً وسياسياً وأهمها هزيمة كارلوتيز ١١١١-١١١٤هـ/١٦٩٩-١٧٠٢م التي أظهرت مدى تخلف القوات الإنكشارية وعجزها عن صد الاعتداءات الخارجية على الدولة ومدى الضعف الذي وصلت إليه السلطة العثمانية^(٦). فالمعاهدة الأولى التي خرجت منها الدولة العثمانية خاسرة أذنت بولادة عصر جديد من تاريخ الشرق، ليس لخسارة الأقاليم الواسعة وحسب، وإنما لتحطيم أسطورة التفوق العسكري وظهور الخلل في نظام الدولة وتكتيكها أمام التفوق الأوروبي^(٧) وأصبح واضحاً تماماً أن الغرب الأوروبي قد تقدم كثيراً عن الدولة العثمانية في المجال العسكري والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، ولاسيما أن فترة العصور الوسطى قد أضحت من الماضي والعثمانيون الذين يعيشون هذه العصور بمفاهيمها سينهارون ويتقهقرون إن لم تصح الدولة وتتدارك الوضع^(٨).

(٢) حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٥١.

(٣) مجلة الاجتهاد، مرجع سابق، المقال لـ مارشال هودجسون: التحول الغربي الكبير، العدد ٢٦-٢٧، السنة السابعة، ١٩٩٥م، بيروت، ص ٦٦٧-٦٨.

(٤) أصاف، مصدر سابق، ص ٩٥.

(٥) Alikemal مرجع سابق 5.179.

(٦) من أبرز هذه المعاهدات معاهدة باساروفتز (١٧١٨م-١١٣١هـ) ومعاهدة كيتشك كينارجي (١١٨٨هـ-١٧٧٤م)، ومعاهدة أدنة ومعاهدة سان ستيفانو ومعاهدة برلين (١٢٩٥هـ-١٨٧٨م)، اللذيناني، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(١) سيد مصطفى، الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية ١٨٠٣م، تحقيق خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٩م، ص ١١.

(٢) يقول كريزي: (منذ تلك اللحظة لم يكن هناك أي خوف حقيقي من القدرة العسكرية التركية)، اللذيناني، المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٣) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢م، دار النهضة، بيروت ١٩٨٨، ص ٢٤٥.

وعلى الرغم من أن الجانب العسكري هو الذي ظهر من أكثر الجوانب ضعفاً بعد هزائمه بالسلاح، وبين وبشكل واضح التخلّف العثماني عن الركب الحضاري الغربي، فإن مسألة العجز العثماني بدأت اقتصادية قبل أن تكون عسكرية أو فكرية، ففي القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت الإمبراطورية العثمانية أقوى دول العالم عسكرياً وبالمقابل كانت قوتها الاقتصادية العالمية تتراجع بالتدريج متناسبة عكساً مع حركة الكشف الجغرافية الأوروبية، فأخذت الإمبراطورية تفقد سيطرتها على البحار الشرقية لحساب أوروبا، فهذه الكشف مكنت القوة العسكرية البرتغالية من السيطرة على الساحل الغربي للهند وعلى منطقة الخليج العربي بما فيها مضيق (هرمز، البحرين، مسقط، ساحل عمان) وقد منع البرتغاليون السفن الإسلامية من الوصول إلى الهند بقرار سياسي، بل أصبحت هذه السفن ملاحقة من قبل فاسكو دي غاما في مياه المحيط الهندي .

إنّ مأساة الشرق لم تكمن هنا فحسب بل كانت في عدم تقدير حكومات الشرق من عثمانيين في آسيا الصغرى، والمماليك في بلاد الشام ومصر، والصفويين في فارس، لهذا الخطر الكبير المحقق بهم، وبدل أن يوجهوا قواهم للتصدي لهذا الغازي الخارجي صوبوا أسلحتهم بعضهم تجاه بعض وبرزت قوة العثمانيين الجبارة عندما نهض السلطان سليم الأول وسل سيفه في وجه الخطر الصفوي رافعاً راية أهل السنة^(١) لنصرة الدين الإسلامي بمذهبيته وبتأييد إلهي مستوحى من الفتاوي والاجتهادات لرجال الدين في عام ٩٢٠هـ - ١٥١٤م في معركة تشالديران^(٢) (chaldiran)، ومن ثم هزيمة المماليك العدو الثاني في الخطوة في مرج دابق ٩٢٢هـ - ١٥١٦م والريدانية في ٩٢٢هـ - ١٥١٧م، ولم ينتبه إلى الخطر البرتغالي إلا متأخراً عندما كان هؤلاء قد ثبتوا أقدامهم في المنطقة وتمنكوا من هزيمة العثمانيين عندما توجهوا إليهم ليخرجوهم من الديار، ولم يقتصر الأمر على البرتغاليين بل تبعهم الهولنديون والانكليز والفرنسيون، وتحولت طرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح، وأغلقت طرق التجارة البحرية الشرقية إلى البلاد العربية^(٣) .

وترافق هذا التراجع المالي بتقلص الموارد المالية للسلطنة وللتعويض اتجهت الدولة نحو الضرائب على الزراعة والحرف والسكان فانعكس الأمر عليهما بالتراجع أيضاً، وكذلك تجارة الذهب التي أصبحت بيد الأوروبيين توجهت بفاعليتها نحو القارة الأمريكية المكتشفة حديثاً^(٤) وعلى نفس المسار المتدهور كان الوضع

(١) الوديني، المرجع السابق، ص ١٣١.

(٢) معركة تشالديران وقعت في ١٥١٤/٨/٢٣م بين العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول وبين الصفويين بقيادة مؤسس الأسرة الصفوية الحاكمة في بلاد فارس في غرب الأناضول في الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة فان (Van)، وقد أراد السلطان سليم من هذه المعركة أن يضع حداً للتأثير الصفوي على القبائل التركمانية (القبعات الحمر)، وقد أعلن السلطان سليم أن حملته هذه ضد الشاه الصفوي هي جهاد مقدس ضد الزنادقة الذين يفسدون في الإسلام، وقد انتصر العثمانيون في المعركة ودخلوا عاصمة الصفويين تبريز لكن السلطان لم يقض على الحكم الصفوي بسبب الاضطرابات التي وقعت في صفوف الإنكشارية

Encyclopædia Britannica Article

(٣) الشناوي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٠٢.

(٤) Dimitri Kitsikis: L'Empire Ottoman, Paris, PUF, 1985p112-114

الداخلي للدولة العثمانية ينحدر بسرعة حيث السلطان (١) تاركاً هبة الإمبراطورية لعواصف الغرب تعصف بها، وعندما قلت موارد الدولة المالية وبالوقت نفسه تضاعفت مصروفاتها سواء منها ما صُرف على الملذات والحريم السلطاني وغيره أم على مواجهة التحديات العسكرية الجديدة ليضاعف (السلطان سليم الثاني ١٥٦٦-١٥٧٤م) قواته الإنكشارية والبحرية من حيث زيادة عدد الجيش وتدريبه وبناء الأسطول وترميمه ودعم الأسطول البحري الجزائري المقاوم للأسبان بقيادة خير الدين بربروس (٢).

يبدو أن الجانب العسكري كان من أكثر الجوانب ضعفاً بعد هزائمه بالسلح الأوروبي فهو أول الجوانب الذي أظهر التخلف العثماني عن الركب الحضاري الغربي كان لا بد أن تتجه أنظار الإصلاحيين إليه ولاسيما أن ضعفه كان في المعارك الخارجية فقط بينما في الداخل كان نفوذه في تزايد مستمر ولا سيما في القسطنطينية وهذا الوضع قد نال من هبة الدولة العثمانية خارجياً وحتط من شأنها وأضعف كيائها وهيكلتها من الداخل لدرجة أن السلطان العثماني أضحى يرى في الإنكشارية عبئاً ثقيلاً (٣).

٢- الامتيازات الأجنبية:

أما من النواحي الأخرى فكان التأثير الأوروبي في الدولة العثمانية أقدم من ذلك بكثير وبطريقة غير مباشرة فقضية الامتيازات الأجنبية (٤) في الدولة العثمانية كانت الطريق الذي مهدت له سفارات الدول الأوروبية لتجارها للعبور إلى أكبر أسواق العالم وأوفرها ربحاً آنذاك وقد بدأت منذ وقت مبكر منذ عهد السلطان سليمان القانوني حيث كانت الإمبراطورية لمجرد ذكر اسمها يرعب أوروبا برمتها، ولكن هذا لم يدم طويلاً إذ زال هذا الرعب والهيبة مع زوال السلاطين الأقوياء، وزال أيضاً عندما بدأ الفساد يدب في أوصال الإمبراطورية وجيشها الذي لا يهزم أصبح عرضة للخسارة والتراجع، وهنا أخذت قضية الامتيازات تصبح عبئاً ثقيلاً على الدولة عندما استطاع الأوروبيون أن يهددوا الإمبراطورية عسكرياً من الخارج وداخلياً عن طريق عملائهم من المواطنين العثمانيين في حال حاولت الدولة العثمانية الحد من هذه الامتيازات، لدرجة أصبحت فيه هذه الامتيازات وكأنها حق من حقوق الدول الأوروبية لا يجب التفريط به (٥) وأصبح للأجنبي حصانة تمنع

؛ العزاوي، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٥) الشناوي، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٥-٦٠٣.

؛ العزاوي، مرجع سابق ص ٣٤. 114-112. Kitsikis: L Empire Ottoman (٦)

(١) مصطفى السلحدار، تاريخ السلحدار، استانبول ١٢٠٩، ج ٣، ص ٢٥٥.

(٢) منح التجار الأوروبيون في الشرق امتيازات منذ العهد البيزنطي ولكن في العهد العثماني سعوا للحصول عليها منذ عهد السلطان سليمان القانوني الذي منح ممثلي حكومة البندقية في أواخر الربع الأول من القرن السادس عشر حق النظر في دعاوي البندقيين المقيمين في الدولة العثمانية وحق إرسال ترجمان إلى المحاكم العثمانية (يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦م ص ٢٣) كما منح الفرنسيين مزايا شملت حرية التجارة والإقامة في الثغور والمدن بموجب المعاهدة التي عقدها مع ملك فرنسا فرانسوا الأول عام ١٥٣٥م، ثم منحت هذه الامتيازات لجميع الرعايا الأوروبيين تقريباً. محمد مخزوم أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٦م، ص ٢١.

(٣) - العزاوي، مرجع سابق، ص ٢٦.

عنه أي ملاحقة إدارية أو قضائية ميزته عن أبناء البلاد في عقر دارهم، بل أصبح الكثير من وجهاء البلاد وأعيانها وفي كل المدن يسعون إلى الانتساب إلى إحدى القنصليات الأجنبية بصفة ترجمان ليحصل على امتيازاتها وحصانتها.^(١) وما يدل على صحة ذلك تلك الشكوى التي وصلت من باشا حلب عام ١٧٩٢م حيث تذكر أن إيالة حلب أصبحت تعاني من العدد الهائل من تراجمة القناصل الذين بلغوا حوالي الألف وخمسمائة، وكلهم معفون من الضرائب ويعملون في التجارة ويتمتعون بامتيازات التجار الأوروبيين ولا سيما التخفيضات الجمركية على وارداتهم وصاداتهم.^(٢) كذلك حرية حركة السفن التي ترفع العلم الفرنسي بين الولايات العثمانية من دون رقابة أو قيود أو جمارك مهما كان نوع البضائع يضاف إلى ذلك الوصاية الدينية على المسيحيين في الدولة من بروتستانت وأرثوذكس، فهذه الوصاية أكسبته حق التمييز عن المواطن العثماني نفسه من حيث إنه ينتمي إلى نظام الملل العثماني واكتسب الوصاية الأوروبية، وجاءت المدارس والإرساليات التبشيرية لتوفر له سبل العلم والتطور ما لم يحلم به المواطن المسلم في دولته، وهذه المزايا مجتمعة جعلت مسألة ولاء الرعايا الأوروبيين تتحول من السلطان إلى أوروبا وقناصلها حيث أصبحوا مصدر الرفاه والسلطة والنفوذ.^(٣)

وإن كانت قضية منح الامتيازات في دور القوة قد أخذت العديد من التأويلات والأسباب فمن الأوروبيين من قال إن سليمان القانوني قد أعطاها لفرنسا وإنكلترا وهولندا لتأجيج الحرب بينهم وبين بابا الكنيسة في روما وهابسبورغ النمسة وتأييدهم ضدهما.^(٤) وآخر يقول إن السلطان سليمان القانوني منحها لسببين الأول هو رغبته في تأديته دوراً كبيراً في المسرح الأوروبي، والثاني هو كسب فرنسا إلى جانبه وعدم وقوفها إلى جانب بريطانيا في حربها البحرية في المتوسط ضد الدولة العثمانية.^(٥) بينما وجهة النظر العثمانية فهي مخالفة لهذه الآراء كلها حيث يذكر يلماز أوزتونا أن سلطانه العظيم أراد أن يشمل فرنسا عسكرياً واقتصادياً برعايته ودعمه لتتمكن من الوقوف في وجه ألمانيا وإسبانيا وعلى هذا الأساس منحها الامتيازات.^(٦) ولكن لماذا لم يذكر أحد الطرفين الدور اليهودي في موضوع الامتيازات ولاسيما أن زوجة السلطان سليمان القانوني هُلغة (حفصة) يهودية الأصل وكانت تسمى روكسلانة ذات الجمال والذكاء الخارقين، فهي التي أشارت على السلطان سليمان القانوني بإسناد قيادة الجيش إلى الصدر الأعظم، وهي التي حرّضت السلطان على قتل ابنه البكر مصطفى لتصبح ولاية العهد لابنها سليم الثاني، وهي التي أحرقت القصر واتهمت زوجته الأخرى بحرقه، وهي من دبّرت مكيدة لقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا فاتح العراق، كما أنها كانت وراء تعيين

(١) الحكيم، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٢) جيب وبوين، مرجع سابق، ط ١، ١٩٩٧م، ج ١، ص ١٦٣؛ كوثراني، السلطة والمجتمع، ص ٧١.

(٣) العزاوي، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٤) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٤؛ سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث من أجل بحث رؤيوي معاصر، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م، ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٥) العزاوي، المرجع السابق، ص ٢٢.

(٦) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٣.

اليهود في إدارة القصر وزيادة عددهم أضعافاً عما كانوا في السابق.^(١) وبالتالي ألم يكن هذا النفوذ الكبير من القدرة على منح الامتيازات لبعض الدول الأوروبية. ولو كانت على حساب الدولة ومصلحتها، بل إنه يخدم مصلحة اليهود الذين يتسلمون أمور الدولة شؤونها المالية بخاصة لأنهم بارعون في هذا المجال، وبالتالي كان من مصلحتهم إنعاش العلاقات التجارية مع أوروبا، ولاسيما أن الأخيرة بعد قيام ثورتها الصناعية وإيقاظها المشاعر الدينية للمسيحيين واليهود في الدولة وقد تقاسم الإنكليز والفرنسيين هذه المشاعر بعد أن تجاوب الشرقيون لهذه النغمة الدينية الجديدة، ومن هنا أيضاً وجد عامل ارتباط آخر ما بين الطور الثاني من إصلاح الدولة وهو التنظيمات وما بين مصالح رعايا الدولة العثمانية من مسيحيين ويهود^(٢).

وكان هناك تناسب عكسي مع مرور الزمن حيث الإمبراطورية تزداد ضعفاً وتدهوراً وقضية الامتيازات تزداد تطوراً وقوة في الدولة لدرجة أصبح فيها سفراء الدول الأجنبية شركاء للدولة في قراراتها السياسية والاقتصادية والعسكرية أيضاً، فها هي فرنسا تقوم بعدة أعمال أرادت منها إرسال رسالة إلى الدولة العثمانية أن الأمر ما دام يتعلق بالمسيحيين في الدولة يحق لها التدخل، فاحتلت الجزائر عام ١٨٣٠م وأنزلت قواتها في لبنان بحجة حماية المسيحيين من الدروز وهذه مشاركة للعثمانيين بالقوة في الشؤون الداخلية^(٣).

من المرجح أن هذا التناسب العكسي كان متوافقاً مع تناقص هيبة السلطان وجبروته في نظر الغرب فلم تعد العلاقة قائمة على مبدأ القوي والضعيف أو أنه الأمر النهائي وأنه يتعطف على رعايا الدول بالامتيازات، إنما تجملت هذه العلاقة بشكل جديد أخذ يتطور من المساواة بين الرعايا إلى الشكل المذكور سابقاً^(٤).

إضافة إلى التأثير غير المباشر لقضية الامتيازات ودورها في إضعاف وتحطيم الاقتصاد العثماني، وضربها للنظام الضريبي العثماني الذي كان قائماً على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الأجنبية، كما منعت هذه الامتيازات السلطنة من القيام بمشروعات إصلاحية وإيجاد موارد مالية جديدة تغطي نفقات الإدارة والحكم.^(٥) ويبدو أن قضية الامتيازات قد أدت دوراً في توجيه الأنظار إلى فرنسا كدولة أوروبية أولى بوصفها أول دولة منحت الامتيازات لتجارها وعملائها فأخذ العثمانيون منذ وقت مبكر ينظرون إلى فرنسا على أنها جنة المشركين كما وصفها

(١) السلحدار، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥٠.

(٣) فريد بك، مصدر سابق، ص ٦٣٩.

(٤) هذا أمر طبيعي لأن من لا يستطيع أن يفرض شروطه بالقوة إن دعت الضرورة لا يستطيع أن يفعل شيئاً على طاولة المفاوضات. ونحن العرب اليوم مشكلتنا أننا نملك القوة التي تستطيع أن تفرض الشروط التي تحقق أماننا في ساحة المعركة حتى على طاولة المفاوضات ولكن للأسف القائمين على رأس هذه القوة مصابون بالذعر السياسي والعسكري وستارهم لهذا وذاك الشعارات الإنسانية وحقوق الشعوب ومجلس الأمن الذي يحمي العالم، وقد أن الأوان أن يدركوا أن ذلك ليس سوى لحماية من يملك القوة ويلوح بها ويستخدمها عند الحاجة، ولا أدل على هذا الرأي من كيان إسرائيل الذي لا ينظر إلى مجلس الأمن وقراراته ولو بنظرة احترام إلا إلى القرار الذي يدين العرب، وما هو بعيد عن الإضرار بمصالحه وأغراضه.

(٥) الشناوي، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٥٠-٧٥١.

محمد جلبي أفندي في كتابه الذي حمل نفس الاسم، وقد استرسل في وصف الحياة الفرنسية بمدنها وعمرانها وقصورها وتقدمها العلمي والعسكري فكان لذلك الأثر الكبير في السلطان أحمد الثالث الذي سعى لتقليد الفرنسيين في كل شيء.^(١) كان هذا التأثير منذ بداية القرن الثامن عشر عندما انتهت في الدولة العثمانية محاولات التجديد الذاتي والإصلاح المحلي لتبدأ مرحلة جديدة من المحاولات الإصلاحية المقتبسة عن النموذج الغربي.^(٢) حتى ذلك الوقت كانت الأمور تبدو في الدولة العثمانية جيدة، والأمور المتعلقة بالحكم والحرب والإدارة والجباية تسير على ما يرام ولكن ظهرت بوادر الفساد وبدأ التدهور وأخذ الملاحظون الغربيون بمقولة أن لا إصلاح للمجتمع العثماني إلا بتخليه عن أسسه وأن الأيد الأوربية هي القادرة على ذلك.^(٣) لأنها تحتاج إلى نوع معين من الحكومة العثمانية لتضمن لها مصالحها وإلى وضع معين داخل الإمبراطورية، وهي تستطيع تحقيق ذلك لقوتها العسكرية من جهة ولعلاقاتها مع أطراف عديدة داخل الإمبراطورية.^(٤) وعلى الرغم من أن قناعة المسؤولين العثمانيين بأن سبب فساد الأنظمة ليس بسبب النظام نفسه بل بسبب القائمين على تطبيقه، فإن هذه القناعة سرعان ما تغيرت بسبب التأثير بالأفكار الغربية، ولا سيما الفكرة القومية التي سادت في ذلك العصر وبشكل كبير.^(٥)

ومن هنا أصبح الاقتباس عن الغرب فكرة مشروعة من دون قانون يحرمها أو يشرعها ومن يتحدث بها يلقي معارضة البعض وتأييد الأكثرية حتى أصبح الغرب جنة المشركين والمؤمنين معاً.

٣- الثورة الصناعية وتأثيراتها:

الحديث عن الثورة الصناعية وتأثيرها في الدولة العثمانية، لم يكن بتلك الصيغة التي يتناولها المواطن البسيط بحيث يتحدث عن المعامل والشركات ورؤوس الأموال وحركتها وتأثيرها على حركة السوق العالمية أو على سياسية الدول، وإنما كانت ذات تأثير خفي حتى على أصحاب زمام السلطة في الإمبراطورية، وحتى الرفض المطلق الذي أبدته المعارضة في البداية للكفار ومستورداتهم والتعامل الاقتصادي معهم حاملة راية القيم والمبادئ الإسلامية بالمفهوم الخاطئ الذي يوطد الملكية المطلقة التي يسعون إلى تثبيتها^(٦) بعيداً عن أي تيار، فهذا الرفض لم يكن من باب الوعي على هذا الخطر الاقتصادي الذي يهدد أمن الدولة واقتصادها وإنما من باب الرفض لكل ما هو جديد ولكل ما يمكن أن يهدد السلطات والمصالح الشخصية.

فالثورة الصناعية لم تكن ذلك المارد المرعب الذي يدك الحصون والقلاع ويدخل المدن والحضارات من أوسع أبوابها ولم تكن ذلك العدو الذي يفرض على الآخر مواجهته بالقوة بل إنها ثورة علمية امتطت جواد الحضارة والتقانة وتسلمت

(٣) خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا ببيروت، معهد الإنماء العربي ١٩٨٣م، ص ٥٥.

(٤) العزاوي، مرجع سابق، ص ٤١.

(٥) محمد شفيق غربال، منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة على ما هي عليه اليوم، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية، ١٩٦١م، ص ٨٠-٨١.

(١) حوراني، الشرق الأوسط الحديث، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) غربال، منهاج مفصل، ص ٨٠-٨١.

(٣) مجلة الاجتهاد، مرجع سابق، العدد ٤٣ المقال ل: إ. والرسيتين، النظام العالمي الجديد، ص ٢٣٦.

بسلح العلم والاختراعات والرقي وبهذا المظهر البهي دخلت الثورة الصناعية مع التجار الأوروبيين من خلال بضائعهم التي أصبحت أكبر من حيث الكمية وأكثر رخصاً وبالتالي أصبحت قادرة على تحطيم الصناعة المحلية، وتدفق هذا الكم الهائل من الصناعات الذي احتاج إلى الموانئ غير التقليدية فتطورت بعض هذه الموانئ لتواكب ثورة العصر كميناء بيروت على سبيل المثال .

قبل الثورة الصناعية كان التجار الأوروبيون يشترون كل ما ينتجه الفلاحون من محاصيل بحيث لا يبقى في السوق المحلية أي فائض، ولكن بعد الثورة الصناعية أصبح التاجر الأوروبي لا يأخذ سوى المادة الخام التي يحتاجها معمل الغرب، وبالتالي بدأ هؤلاء التجار يتحكمون بالسوق المحلية وبنوع المحاصيل الزراعية التي يجب زراعتها وبالتالي استطاعوا أن يؤثرُوا في السوق المحلية من ناحيتين، الأولى: أن جودة بضائعهم ورخصها أدت إلى القضاء على الصناعة المحلية، والثانية: أن الفلاح والحرفي لم يعد يجد سوقاً لمنتجاته إلا لدى معامل الغرب فضلاً عن ذلك فمقابل هذه البضائع كان الدفع بالنقد الثمين ذهب وفضة وبالتالي استنزف السوق المحلية، وظهرت طبقة برجوازية وسيطة ما بين التاجر الأوروبي والمستهلك المحلي وغالبيتها كانت من المسيحيين الذين تتقنوا وتعلموا في المدارس الحديثة^(١).

والأسوأ من ذلك أنّ المعاهدات التجارية التي عقدها السلاطين العثمانيون مع دول أوروبا كانت بمنزلة حبل المشنقة الذي علقه العثمانيون لإعدام اقتصادهم الوطني فكل الدول بالمنطق الاقتصادي تسعى إلى تسهيل تصريف منتجاتها وتكيل السلع المستوردة بالرسوم الكبيرة ليبقى سوقها المحلي حصناً لصناعاتها، أمّا سلوك سلاطين بني عثمان فكان على غير العادة، فعلى سبيل المثال ذلك السلطان المصلح محمود الثاني وكنوع من ردة الفعل على واليه محمد علي باشا وليكسب رضا الغرب قام في عام ١٨٣٨م بعقد معاهدة (معاهدة بلطة ليمان Balta Liman) التجارية مع بريطانيا أولاً، ثم مع بقية الدول الأوروبية الأخرى وتقضي برفع كل الاحتكارات والجمارك الداخلية في الإمبراطورية، وقد كانت الرسوم سابقاً على الصادرات والواردات بنسبة ٣٪ فزادت على الواردات بنسبة ٥٪ وعلى الصادرات بنسبة ٩٪.^(٢) وبذلك فتحت البلاد وأسواقها للتجار الأجانب وأباحت الدولة لهم حرية الاستيراد والتجارة وحرمت الدولة من حق حماية الإنتاج المحلي، وتدهورت الصناعات المحلية الوطنية واختل الميزان التجاري فوقعَت البلاد في عجز مالي كبير أوصلها إلى الكارثة والإفلاس، ولم يعد أمامها من سبيل سوى الاستدانة من

(١) عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، منشورات جامعة دمشق، ط٤، ١٩٩٩، ص ٣١٤-٣١٥.

(٢) قسطنطين بازيل، سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٨م، ص ٣٣٧-٣٣٨، ؛ غرايبة (عبد الكريم)، سورية في القرن التاسع عشر (محاضرات) ١٨٤٠-١٨٧٦م، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية والعالمية ١٩٦١-١٩٦٢م، ص ٣٢.

الخارج لأن الواردات المالية للدول كانت عاجزة تماماً عن سد نفقات الدولة^(١).
إذاً بهذه الصيغة دخلت الثورة الصناعية البلاد حاملة معها بواذر الاستعمار الجديد
من دون أن يستطيع الشارع البسيط إدراك خطورتها ليعلن موقفه الرافض تجاهها، وأما
الطبقة الحاكمة فكانت أكثر جهلاً، لأن غشاوة المال غطت عيونهم وبصيرتهم فعضوا
الطرف عما ألحقته بالاقتصاد المحلي من ضرر^(٢).

٤- الثورة الفرنسية وتداعياتها:

جاءت الثورة الفرنسية لتضفي طابعاً آخر على الغرب ولينظر الشرق إليها من
خلال مفكره وأدبائه وأصبح الناس يتحدثون عن أفكار تتعلق بالوطن والأمة
والوطنية والقومية والمساواة والحرية والحقوق، فسيد مصطفى هو أول من أدخل
مفهوم الوطن (Patrie) إلى الآداب الإسلامية حيث كان المجتمع يتداول أفكاراً تشير
إلى الملة أو الأمة والمقصود بها مجموعة من المسلمين من دون التمييز في العنصر
أو اللغة. ومفهوم الدولة كان يحمل معنى سياسي ديني. أما مفهوم الوطن فكان يشير
إلى مكان الولادة ولم يعرف معناه الحقيقي إلا مع أواخر القرن التاسع عشر^(٣).
وأديب إسحاق يتحدث عن الوطن متأثراً بالمفكرين الفرنسيين وبأفكار الثورة
الفرنسية أخذاً عنهم فكرة (لا وطن في حالة الاستبداد) فيقول (إن الوطن خير وحدة
يرجع إليها المواطنون ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلباً) ويكتمل المعنى
الحقيقي للوطن عندما يكون الجميع متساوين في الحقوق والواجبات لأن تفضيل أو امتياز
بعضهم عن بعضهم الآخر يؤدي إلى حد كبير .

والوطنية أضحت أفكارها رائجة عند مفكرينا حب الوطن والمواطنين وما
يترتب على ذلك من خدمات وتضحيات والعمل على ترسيخ هذه الأفكار ونقد
وفضح الوطنيين الزائفين^(٤). أما فكرة القومية فلم تظهر في ظل الجماعة الإسلامية
العثمانية إلا بعد أن نهضت فكرة العروبة عند أدبائنا ومفكرينا وساد مفهومها العام
أن الأمة والقوم (أي أن الأمة من الرجل هي قومه) وبالتالي يكون الرابط نفسه الذي
يربط الوطن بالوطنية، كما أصبحت كلمة الحرية والمساواة عبارات تتردد في
أرجاء الإمبراطورية على غرار ما حدث في فرنسا قبيل الثورة ولكن الفارق كبير
في المضمون حيث إن هذه الأحاديث مجرد نظريات يتنافس بها المتحاورون لإثبات
فكرة وتأييد موقف دون أن يكون لها أبعاداً أكثر من ذلك^(٥).

(١) غرابيه، سوريا في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٢) وفي هذا الزمن العربي الرديء نعيد الكرة ذاتها مع اختلاف الزمان والعصر لكن الغشاوة متلازمة مع
الكرسي ودائمة بديمومته فتقبل بضائع الغرب وتفضيلها على المنتج المحلي أصبح عادة متداولة، وليس ذلك
وحسب بل إن القطعة الأجنبية تفسح مجالاً للفتاخر بماركتها الأجنبية وبثمنها الباهظ بقطع النظر عن جودتها،
وبالمقابل فإن المنتج المحلي يقابل بنظرة الازدراء والسخرية على الرغم من أنه قد يحمل في طياته الجودة
والأصالة.

(٣) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٩٧.

(١) رثيف خوري، الفكر العربي الحديث الحديث (أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والمعاصر)،
تحقيق وتقديم محمد كامل الخطيب، بيروت ١٩٤٣م، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) خوري المرجع السابق، ص ١٢٩.

ومن خلال الثورة الفرنسية تطور مفهوم الحرية عند المسلمين حيث أصبح هناك تصور عن قيام نظام سياسي يقوم على مبادئ منها الحرية وقد دخل هذا المفهوم إلى الدولة العثمانية عن طريق سفيرها في فرنسا مورلي السيد أفندي الذي أشار إلى (Liberte) وتعني الحرية بمفهوم الثورة الفرنسية انعدام الحدود والقيود، وتدل أيضاً على الحرية الجماعية السياسية^(١).

أما مفهوم الثورة فقد كان له دلالة سلبية في المنظور السياسي الإسلامي فهي تعادل الفتنة، ونهايتها الفوضى والقتال. فالمؤرخ نقولا الترك يرى في الثورة (بلبلّة عظيمة) ورأها سيد وحيد أفندي السفير العثماني إلى باريس (اختلالاً)، ولم يتغير مفهوم الثورة (Revolution) إلا في أواخر القرن الثامن عشر حيث أخذت مفهوم الإنقلاب والثورة وفكرة التغيير الإصلاحي، حتى كلمة الإصلاح كانت عند المسلمين تحمل مفهوماً دينياً بحثاً، وضحه فقهاء المسلمين بالعودة إلى السلف الصالح أو إلى الكتاب والسنة، بقي هذا المفهوم سائداً حتى جاء حاجي خليفة حاملاً معه معنىً جديداً له خارجاً عن الإطار الديني ليدخله في مجال التعبير عن القضايا الاجتماعية والسياسية في رسالته (دستور العمل لإصلاح الخل عام ١٦٥٣م)^(٢).

إنّ الثورة الفرنسية التي جاءت ردّاً عنيفاً على واقع مرفوض وغير مرغوب فيه أصبحت هي بذاتها مشكلة يجب معالجتها، هذا في نظر الغرب وبعض المسؤولين العثمانيين الذين تراوحت أراؤهم ما بين مرتاح، لأن الثورة في أوروبا أشغلتهم في حروب داخلية عن حرب الدولة العثمانية، وبعضهم الآخر عدّها حدثاً داخلياً لا يهم العثمانيين بل عدّوا أن الدولة محصنة ضد هكذا أحداث، وبعضهم الآخر لم يتقبل فكرة مبادئها وأفكارها (حرية، عدالة، مساواة)، فالمؤرخ عاصم أفندي أيضاً له الرؤية نفسها في الجمهورية، فيقول (الجمهورية، مثل معدة مريضة تهدر وتفرقع، مبادئها تقوم على ترك الدين، ومساواة الفقير بالغني)^(٣).

كذلك عاطف أفندي أحد كبار المسؤولين في إدارة السلطان سليم الثالث قال في الثورة إن رجالها يحرضون حثالة الناس على أتباعهم ويعدونهم بالحرية والمساواة عاداً أن خطراً كبيراً يكمن وراءها^(٤).

فخالد أفندي سفير سليم الثالث إلى باريس تهجم بشدة على فكرة الجمهورية وعدّها الخطر الأكبر الذي يهدد السلطنة ونظامها، وهو ينتمي إلى فئة السياسيين المحافظين في الدولة ويتفق معهم في النظرة السلبية إلى الثورة الفرنسية وقد قدمها بمذكرة إلى السلطان سليم الثالث يعبر فيها عن استنكاره وازدراءه لفرنسا ونظامها السياسي مبيناً أن ادعائهم بالإسلام ليكسبوا تعاطف المسلمين معهم وادعوا بأنهم خربوا الكنائس والأديرة التي لم تحقق لهم أهدافهم فلجأوا إلى حيلة أخرى وهي ترجمه مؤلفات مثقفهم مثل فولتير، وباعتبار أن الشارع البسيط لا يقرأ الفرنسية فقد ترجموا هذه الكتب إلى اللغات المحلية لتحسين صورة الجمهورية في نظرهم ونشر

(٣) زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، ص ٩٣.

(٤) زيادة اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٩٨.

(١) المرجع السابق، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) Lewis.Bernard:The Impact of the French on Turkey. J. w. H.1(1953) P.122

الحريات فيما بينهم، لم يكتفوا بذلك بل أرسلوا عملاءهم لتحريك الشيطان (الثورة) وخالد أفندي يوضح للسلطان خطورة هذه الدعاية؛ لأنها تنتشر في الولايات التابعة للسلطنة، وحتى الفرنسيون الموجودون في العاصمة استانبول كانوا يحتفلون بعيد الثورة وتكون فرصة مناسبة ليشرحوا لزوارهم العثمانيون عن الثورة ومبادئها هذا عدا الدوريات التي نشرت في استانبول لهذه الغاية^(١).

وهذا أنموذج من آراء القوى المحافظة تجاه الأحداث المهمة التي عصفت بالعالم في ذلك الوقت. في حين أن الرحالة الأوروبيين وهم على اطلاع على ما يجري في الشرق من تدهور وفي الغرب من تطور متسارع ذهبوا إلى تصوير سوء أحوال الولايات العثمانية، وما آلت إليه من تدهور، ولكي تعالج هذه القضية عليها إتباع الغرب بأفكاره ومفاهيمه وطبعاً الغرب كان مسروراً لهذا الوضع، ويرى الدكتور عمر عبد العزيز عمر أن الثورة الفرنسية جاءت حداً فاصلاً لطبيعة العلاقة ما بين الشرق والغرب، فيقول إنه قبل الثورة كان العالم الإسلامي بعيداً ومنعزلاً عن النهضة الأوروبية والتعليم والعلوم والتقنية الجديدة التي اجتاحت أوروبا المسيحية لأن النظرة إليها كانت عدائية ونظرة الندد للند من حيث أنهما عالمان متناقضان في الحضارة والثقافة والدين، لهذا كان من المستبعد جداً أن تتم عملية التأثير بالحضارة الغربية قبل الثورة الفرنسية إلا فيما ندر، فهذا الحاجز الديني والسياسي والحضاري كان يخرق من قبل أصحاب المصالح في الأوقات الفاصلة ما بين الحروب حيث تنتعش العلاقات التجارية والدبلوماسيون الأوروبيون يقيمون في استانبول، ومنهم من لجأ إليها؛ لأنها الملاذ الآمن الذي وجده من الاضطهاد الديني والسياسي وبعضهم كان مغامراً أو عالماً أو مرتداً.

وبعد الثورة الفرنسية تغير مفهوم الأخذ من الغرب وتغيرت نظرة الشرق للغرب أيضاً، فلم يعد ذلك الطابع الحاد يصبغها (حول موضوع التعلم من الكفار فهو بعد الآن لا يجب أن يبرز أي نوع من النقص عند المسلمين)، وسبب ذلك أن التقدم العسكري الأوروبي ما كان ليكون لولا الخوف من الإمبراطورية العثمانية وانتصارات المسلمين في القرون الماضية^(٢).

ولم يكن الأمر متعلقاً بالشرق والغرب وحسب من حيث النظرة إلى الغرب بل ساعدت أفكار الثورة الفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على تسهيل ذلك من خلال اختراق الحواجز الدينية والسياسية لأوروبا وأشعلت الثورة ضد النظم القديمة فخرجت هذه الأفكار عن الإطار الحدودي لأوروبا لتصل إلى بقاع العالم، ومنها الدولة العثمانية التي فتحت بوابات الفكر والثقافة لتنتهل من الغرب عن طريق مفكريها ومرشديها ومدرسيها الفرنسيين، وأخذ الإقبال على تعلم اللغات الغربية يتزايد، فكان الإنجاز الأول والعظيم الذي استطاعت أفكار هذه الثورة تحطيمه هو الحاجز العثماني المنيع الذي وضعوه وصبغوه بالصبغة الدينية لرفض كل ما هو جديد، والمقصود بالجديد ما هو مسيحي.

(٣) 12-14 Lewis: The impact of the French on Turkey مرجع سابق، ؛ زيادة تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، ص ٨٣.

(١) عمر، مرجع سابق، ص ٢٤٦-٢٥١.

أخذ التأثير يزول شيئاً فشيئاً فوصل إلى بنية المجتمع العثماني وإلى جميع فئاته بدرجات متفاوتة وأضحت الكلمات الثلاث حرية إخاء مساواة الأكثر تداولاً بين الناس (فإن التعبير عن الأفكار والآراء هو من أئمن الحقوق التي يتمتع بها الإنسان. فلكل مواطن حرية الكلام والكتابة وحرية النشر بشرط أن يتحمل مسؤولية تجاوزه هذه الحرية في الحالات التي ينص عليها القانون)^(١).

إن نشر الأفكار الفرنسية في بقاع العالم ولا سيما في الإمبراطورية العثمانية لم يترك لذاك الشكل العفوي من عملية التأثير والتأثير بين الحضارات أو الثقافات وإنما وضعت خطط مبرمجة للترويج لأفكار الثورة وشعاراتها ونظام الحكم في فرنسا، ففي العاصمة استانبول أدت مطبعة السفارة الفرنسية التي كانت تنشر مطبوعاتها باللغتين العثمانية والفرنسية دوراً بارزاً في نشر أفكار الثورة ومبادئها من خلال نشرة دورية كانت تصدر مرة كل شهر بعنوان (المجلة الفرنسية في استانبول) ونشرة أخرى بعنوان (نشرة مفوضية الجمهورية الفرنسية لدى الباب العالي) كما نشرت المطبعة وثائق أخرى مثل (دستور الجمهورية) (وإعلان حقوق الإنسان)، والهدف من هذا يوضحه أحد رجال الإدارة في باريس حيث قال إن هدف المطبعة في استانبول هو:

أولاً تنوير المواطنين المقيمين في الشرق حول قضايا الجمهورية.
وثانياً إتاحة الفرصة للأتراك للتعرف على الكتب العامة في مجالات العلوم التي تهمهم^(٢).

إضافة إلى ذلك ما قام به بعض الفرنسيين المقيمين في استانبول من نشر أفكار الثورة من خلال النوادي والجمعيات التي أسسوها، ومنها (الجمعية الجمهورية لأصدقاء الحرية) لصاحبها دوكورش Des Corches عام ١٧٩٣م وجمعية أخرى بنفس العام ل Henin واسمها (الجمعية الشعبية الجمهورية) كذلك دعاية اليعاقبة الفرنسيين في الاحتفالات العامة والخاصة لأفكار الثورة وحقوق الإنسان والحرية والمساواة والإخاء، والأهم من ذلك أن حكومة الثورة الفرنسية كانت تترجم وثائقها الثورية إلى اللغات العالمية العثمانية العربية الأرمينية اليونانية لتوزع في ولايات الدولة العثمانية، وقد كان هناك دائرة خاصة تتولى هذا الأمر^(٣).

٥- السفارات العثمانية:

لم يكتف مسؤولو الدولة العثمانية آنذاك بأن ينتظروا تدفق الحضارة الغربية إليهم وإنما سعوا إليها بأرجلهم وعقولهم وأبدعوا في وصفها على الرغم من أنها جنة المشركين فالسفارات التي أرسلها السلاطين العثمانيون لهذه الغاية قد اعتمدت في الوصف أنموذجاً معيناً لم تخل عباراته من الوصف والإعجاب الكبير بما رآه في الغرب، وهذا النموذج المتبع في السفارات كان على ثلاثة أقسام؛ الأول منها يتناول رحلة السفارة إلى المكان المقصود ووصف طريق الرحلة، والثاني: والأهم، وصف قيام السفير بمهمته من مقابلة الملك والاطلاع على العادات والأخلاق غالباً

(١) عمر، مرجع سابق، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٥٧.

(٣) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٥٨-٥٩.

ما تكون صياغتها بطريقة المقارنة مع المجتمع العثماني وعاداته وأخلاقه مع التلويح دائماً إلى تقدم المجتمع الغربي في مجال العلم والفن والصناعة والعمران^(١). إن رحلة السفير عبر الطريق البحري حيث نزل في مرسيليا مكّنه من المرور في مناطق فرنسية عديدة فأتاحت له فرصة التعرف على العديد من المدن الفرنسية، فوصف الحياة الاجتماعية الفرنسية بناء على طلب الوزير الداماد إبراهيم باشا وبين مدى اختلافها عن الحياة الاجتماعية العثمانية ومنها الاحترام الكبير الذي يكنه المجتمع الفرنسي للمرأة، حيث يتيح لها حرية التصرف، وهي قادرة على الحصول على كل الأشياء التي ترغب بها، وليست مطالبة بالقيام بالأعمال المجهدة نهائياً، ومن الناحية العمرانية فقد أبدع السفير في وصف القصور الملكية الفرنسية الفخمة كقصر فرساي زمارلي وسان كلود وغيرها، كما تحدث عن المصانع الكبيرة كمصنع للقمّاش يضم خمسمائة وخمسين عاملاً وآخر لصنع الزجاج يضم ما يزيد عن الألف عامل، كما تحدث عن زيارته وإعجابه بالمرصد الفلكي بطوابقه الثلاثة وغرفه المليئة بالآلات والأدوات الهندسية وبوجود اكتشاف جديد لمعرفة الكسوف والخسوف للشمس والقمر، كما أن السفير حصل من ابن العالم الفلكي الإيطالي كاسيني (Cassini) على النظريات التي توصل إليها والده فيما يتعلق بنقض نظرية بطليموس، وأنه جاء بها إلى العاصمة استانبول ولكنها لم تجد أذنًا صاغية أو من قد يهتم بمثل هذه المعلومة ليتابع في هذه القضية العلمية ولم تترجم حتى العام ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م^(٢).

وهناك رحلة السفير أبي بكر راتب أفندي الذي أرسله السلطان سليم الثالث إلى أوروبا في العامين ١٢٠٧-١٢٠٨ هـ / ١٧٩٢-١٧٩٣م حيث زار فيينا عاصمة النمسا وعاد بانطباع أثر إلى حد كبير في وجهة النظر العثمانية إلى أوروبا، فراتب أفندي تأثر بالمفكر الفرنسي فولتير في نظريته إلى الدولة الحديثة من حيث أنها هي التي تمتلك جيشاً قوياً مدرباً ومنظماً، ومالياتها مدروسة ورجال دولتها من المفكرين، وهي التي تسهر على أمن شعبها ورفاهيته. وقد وجدت لترعى مصالح العامة حيث لا سلطة للملك أو الضابط أو الموظف في الدولة الأوروبية على مواطنيهم ما داموا ملتزمين بدفع ما يترتب عليهم من ضرائب والتزامات وله الحرية في التصرف قولاً وفعلاً، وهو أيضاً رقيب على سير عمل المؤسسات والتشريعات والضرائب التي يضعها الملك. أما في المجال الديني فقد وجد راتب أفندي أن أوروبا قد تخلصت من قوانين الكنيسة ولم يبق منها سوى ما يتعلق بالزواج وقد خالفها الملوك حتى في هذا المجال في بعض الحالات^(٣).

٦- ضرورة الإصلاح:

لم يكن من السهل على السلطان العثماني أن ينظر إلى إمبراطوريته التي استطاع أسلافه أن يجعلوها تتصدر العالم من دون منازع، أن تصبح في حالة من النقص والتراجع، فنظر إلى العالم وإذا بالإصلاح يعصف به من كل حذب وصوب.

(١) المرجع السابق، ص ٦٧.

(١) زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، مرجع سابق، ص ٥٣-٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٥.

ففي فرنسا تولى نابليون الحكومة المركزية وأنشأ المدارس وإعداد المدرسين وأولى عناية خاصة بالمدارس الحربية كما ألف موسوعته القانونية، وأدخل تنظيمات جديدة على الجيش لم تعرفها أوروبا من قبل فأوجد نظاماً يشبه الكتائب الرومانية وأخذ بفكرة جيش من كل الطبقات واعتمد على ضباط أكفاء، كما أدخل إلى فرنسا نظام الضريبة غير المباشرة ومن ثم طبق في إيطاليا وكان ذلك حدثاً مهماً جداً للفرنسيين والايطاليين^(١).

أما في بريطانيا فقد تميزت الحركة الإصلاحية بالنقاش والحوار البرلماني الذي استفادت منه الأمم الأخرى بوصفه ثقافة إصلاحية. أما في بروسيا فقد توجه فريدريك بإصلاحه إلى بناء النظام الإداري البروسي الأوتوقراطي كما عمل على تطور الصناعة والتجارة وإعادة تنظيم الجيش. وأما في فارس فلقي يواجهوا الروس أخذوا عن الغرب في إصلاحهم مستعينين بالخبراء الانكليز والفرنسيين وحاولوا تطوير النظام الإداري على غرار النظم الأوروبية^(٢).

أما في الهند فقد نشر عدد من الفرنسيين الإصلاح عن طريق إنشاء نادي العقبة الذي أخذ بنشر الأفكار الثورية كما أدخل البريطانيون الإصلاح على نظام الملكية والضريبة الهندي، كما لمس الهنود تفوق البندقية الأوروبية على السيف الآسيوي^(٣).

أما روسيا الدولة التي كانت تعاني التدهور العسكري والأقرب إلى الدولة العثمانية والأخطر عليها، فإن الإصلاح فيها يعود إلى واضع أسس فكرة الإصلاح وهو بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥م) حيث أدخل النظم الأوروبية الحديثة والتقنيات العسكرية لمحاربة الغرب بنفس أسلحته. وبترس الأكبر تلقى علومه في إنكلترا وهولندا واستعان بخبراء من أوروبا في كل الميادين وشجع الأرمن على تنشيط الاقتصاد في إمبراطوريته لخبرته بذلك كما عمل على الحد من نفوذ رجال الدين وتقوية الحكم المطلق. وحول الجند الإقطاعي الروسي إلى جيش دائم، وجاءت بعده زوجته كاترين الثانية الألمانية الأصل وحكمت خلال الفترة (١٧٦٢-١٧٩٦م) وقد تأثرت بأفكار مونتسكيو من حيث أن هدفها هو سعادة الأفراد^(٤).

ولكن كان لدى كاترين حلمها الموعود وهو اليوم الذي تسير فيه باتجاه القسطنطينية وقد أطلقت على هذا الحلم الهدف الشرقي، وزرعت في فكر حفيدها قسطنطين ولي العرش القادم هذا الهدف، وقد اتبعت المبدأ الميكافلي (الغاية تبرر الوسيلة) في تحقيقه، فدخلت في صراع مستمر مع الدولة العثمانية خلال فترة القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حيث أثارت الاضطرابات والحروب الأهلية في ولايات الإمبراطورية والغاية من هذا وذاك هو إبقاء الدولة العثمانية ضعيفة ونشر الخلل والفساد فيها ما أمكن، ليبقى الأمل بتحقيق الهدف الشرقي كبيراً^(٥). ولولا هذا الإصلاح لما استطاع الروس هزيمة العثمانيين عام ١١٠٠ هـ / ١٦٨١م

٥ : البحرأوي، مرجع سابق ص ٧٨. 182-181 p 6. v.6 :History of Europ.Paris-1841. Alison,A (٣)

(١) 2 p v4 : مرجع سابق Alison

(٢) 600 p v7 : المرجع السابق Alison

(٣) البحرأوي، مرجع سابق، ص ٧٥-٧٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٦٢-٦٣.

ولأول مرة في التاريخ العثماني يتنازل العثمانيون لروسيا عن أوكرانيا، وفي ضوء هذا الذهول من الهزيمة أمام الروس تعالت الأصوات التي تنادي بالإصلاح على النمط الغربي كما فعلت روسيا من دون النظر إلى الفرق الكبير بين نظام الدولة العثمانية بهيكلها الإداري ومؤسساتها ومجتمعها مقارنة مع الدول الأوروبية، فالتحديث في روسيا لم يتطلب إلغاء المؤسسات والبنى الأساسية في الدولة بل قامت بعملية تجديد بما يتطلبه واقعها الداخلي، وهذا لا ينطبق على المجتمع العثماني لأن الإصلاح جاء خارجياً بأسس ومفاهيم غريبة وبعيدة عن المجتمع. فالإصلاح العسكري مثلاً تطلب إلغاء المؤسسة العسكرية العثمانية (الإنكشارية) والأخذ بالقوانين الأوروبية يعني الحد من قوانين الشريعة الإسلامية وقد وصل الأمر إلى التضارب بينهما فكانت الغلبة للقوانين الغربية، وفي مجال التعليم فإن النظم العلمية الغربية التي أخذت بها ألغت نظام التعليم الإسلامي^(١).

إنّ الولايات التابعة للسلطنة العثمانية لم تنج من خطر هذا الإعصار الإصلاحى فناقوس الخطر دق في مصر، عندما هزمت قوة أوروبية جيشاً شرقياً (الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م) مع العلم أن الفرنسيين عدواً أنفسهم رسل حضارة وقد جاء نابليون ومعه حملة علمية كما هي حربية فقاموا بإنشاء المشافي والمحاجر الصحية وفتحوا المدارس العلمية والطبية وأصلحوا نظام الملكية والضريبة ونشطوا التجارة.

وهذه هي الصورة التي خلفتها فرنسا وراءها والتي ارتسمت في ذهن محمد علي الذي تسلم زمام الأمور في مصر رغم الفوضى السياسية العارمة فيها، وأراد أن يجعل من مصر دولة حديثة فذلل العقبات أمامه من الممالك والمعارضين لحكمه، وأنشأ جيشاً وبحرية حديثين، وأقام نظاماً مركزياً للإدارة والضرائب أثبت فعاليته، وعلى الرغم من أنه لم يتعلم القراءة إلا في الأربعين من عمره فقد اهتم بالاطلاع على الكتب التي تفيده في إتقان فن الحكم، وقد طلب أن تُقرأ عليه كتب نابليون ومقدمة ابن خلدون وميكافلي^(٢) وكان ينظر نظرة خاصة إلى أوروبا الحديثة إذ يراها مجتمعاً نشيطاً يستثمر موارده ويدير شؤونه استناداً إلى العقل. ومدركاً أساس القوة الحقيقية للغرب باعتماده التنظيم العلمي للإنتاج فاقتدى بهم لبناء اقتصاد مصر الحديث، فأمر بزراعة القطن زراعة كثيفة في الأراضي المروية وأنشأ جهازاً جديداً للنقل والتسويق وأنشأ صناعات حديثة وبنى المدارس المهنية وأوفد البعثات العسكرية والعلمية إلى أوروبا وأسس مطبعة لترجمة الكتب، وقد انعكس تأثيرها على كل الدولة وأدت دوراً فاعلاً في فكرة السلطان سليم الإصلاحية^(٣).

أما تونس فقد شهدت تطوراً متنامياً في النفوذ التجاري الأوروبي مقابل تدهور الأمن والنظام في ظل البايات فكان العلاج بإنشاء جيش حديث، وتغيير أساليب

(١) العزاوي، مرجع سابق، ص ٤٣-٤٤، ٤٤٠.

(٢) قال محمد علي لمترجم كتاب ميكافلي الذي قرأ عليه قسماً منه (إنني أرى بوضوح أنه ليس لدى ميكافلي ما يمكنني أن أتعلمه منه، فأنا أعرف من الحيل فوق ما يعرف.. فلا داع للاستمرار في ترجمته)، حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٧٢-٧٥.

(٣) البحراوي، مرجع سابق، ص ٦٧-٧٠.

الإدارة وتشجيع التجار الأوروبيين لتأمين المال اللازم، وأصدر في عام ١٨٥٧م (عهد الأمان) ومضمونه:

١. تأمين الحرية والعدل للإنسان ليبلغ النجاح.
٢. الأمان التام.
٣. المساواة بين رعايا الدولة مسلمين وغير مسلمين أمام القانون لأنه حق يملكه جميع الناس.

ومن ثم في عام ١٨٦٠م أصدر الباي القانون السياسي الذي نص على:

١. مبدأ التمثيل ولكن في نطاق حدود معينة
 ٢. السلطة التنفيذية في يد الحاكم
 ٣. أن يقسم الحاكم على عدم مخالفته عهد الأمان.
 ٤. أن يكون الحاكم مسؤولاً أمام المجلس الأعلى .
- لكن الأزمة المالية التي عصفت بتونس أنهت هذا الحكم الدستوري^(١) .
- كما استفاد التونسيون الذين تمتعوا بالاستقلال الذاتي في ظل حكامهم من خبرة الأندلسيين الصناعية والتجارية والزراعية وأقاموا إصلاحاً متتالياً في مجال الجيش والقضاء على الإنكشارية والقضاء على الرق إضافة إلى التطورات العمرانية وإنشاء المدن.

أما المغرب التي هي على اتصال مستمر مع أوروبا بحكم قربها منها فقد تأثر بها السلاطين العثمانيون وأخذوا يتبادلون معهم الهدايا وغيرها. وهكذا كانت الحركات الإصلاحية تملأ الشرق والغرب وبالتالي فالإصلاح العثماني ليس بدعة وإنما ضرورة قصوى في عصر الإصلاح^(٢).

(١) حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٨٦-٨٧.

(٢) البجراوي، مرجع سابق، ص ٧٩.

الفصل الثاني

محاولات الإصلاح

خلال القرن الثامن عشر

أ- محاولات الإصلاح الأولى :

بدأ التأثير الغربي في الدولة العثمانية منذ وقت مبكر، فالمدافع التي استخدمها محمد الفاتح لاختراق أسوار القسطنطينية، والخرائط البحرية وسفن الأسطول العثماني وأحواض السفن، كذلك في مجال الفن والعمارة (مسجد نور العثمانية) كلها آثار تدل على التأثير الغربي في الحضارة العثمانية^(١).

ومن هؤلاء المصلحين أيضاً المصلح عوني علي الذي أعد عام ١٦٠٧م تقريراً واسعاً حول فساد الإدارة ونظام أراضي الملك وطرق إصلاحها^(٢).

ثم جاء عهد السلطان عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢م) الذي تميّز عهده بسعة اطلاعه على الغرب وحضارته، وأراد تصحيح ما أفسده أسلافه من العلاقات مع الغرب، فأطلق سراح السفير الفرنسي ومعاونيه، وأرسل مندوبه إلى فرنسا للاعتذار عن الإساءة العثمانية لفرنسا ممثلة بسفيرها فقبل الملك لويس الثالث عشر الاعتذار، وعاد صفو العلاقات الفرنسية العثمانية إلى سابق عهدها .

وفي الداخل عمد إلى إصلاح شؤون الدولة بإبعاد النساء من القصر وطردهن كل من يأتمر بأمرهن وعين صديقاً أعظم جديداً وأعطاه صلاحيات واسعة وحذّر الموظفين من الانحراف والإساءة إلى العامة^(٣) . لكن خلافه مع الإنكشارية أودى بحياته فقد تأمروا عليه وقتلوه وعينوا بدلاً منه السلطان مراد الرابع^(٤) الذي عرف بسلطان الأزمات وعُدَّ عصره طفرة قوة في عصر الضعف وفساد الإدارة، حيث أعاد الاستقرار والأمن إلى الإمبراطورية داخلياً وخارجياً، وكان لقوجي بيك (قوجا مصطفى) تأثير كبير في مراد الرابع من خلال رسالته التي رفعها إليه، وقد هدفت إلى تثقيف مراد الرابع حول مسائل الحكم وتعريفه بشؤون الإدارة بعد التراجع الذي أصاب الدولة في مطلع القرن السابع عشر، ولهذا كان قوجي بيك مقرباً جداً من مراد الرابع بل مستشاره ومربياً له، تناول موضوع رسالته المقسمة إلى خمسة أقسام: السلاطين العثمانيين وحاشيتهم ووزرائهم، وكبار الضباط وعدد الزعامات والتميمات وقوتهم وخدماتهم للدولة، وعدد الموظفين قديماً ورواتبهم ونوعيتهم، والقوانين المناطة بالعلماء، وفي الفصل الأخير شخّص أسباب التدهور وبيّن أن سبب الفوضى هو ضعف سلطة الوزراء العظام وتجاوزات الحاشية والتغيرات التي تمت في الزعامات والتميمات^(٥).

ترك السلطان مراد الرابع دولة مُهابةً الجانب من قبل أعدائها الذين وجدوا أن الإمبراطورية تزدد قوة كلما قوي أعداؤها من الخارج، وفي الداخل أُرهب إعدام فخر الدين من يفكر أن يحذو حذوه ويتمرد على الإمبراطورية والانكشارية التي كانت تأمل بانتعاش أوضاعها بتسليمها مراد الرابع السلطنة ولكن خاب ظنّها، فَأَرْغَمَتْ على

(١) عمر، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

(٢) Lewis: the emergence of modern T. P.28-36 مرجع سابق

(٣) حسون، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٩٢.

(٤) فريد بك ، مصدر سابق، ١٢٨.

(٥) زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي، مرجع سابق، ص ١٩-٢٠.

الركون إلى الهدوء والسكينة في عهده^(١).

برحيل مراد الرابع رحلت معه الهيبة والقوة اللتان بناهما وسرعان ما ركبت الدولة العثمانية عجلة التراجع والفساد والضعف حتى جاءت أسرة كوبريللي (١٦٥٦-١٦٨٣م)، ومؤسسها محمد كوبريللي الذي بحث عنه السلطان محمد الرابع طويلاً بعد أن عين الكثير من الصدور العظام وعزلهم، حتى وجد ذاك الرجل المؤهل والجدير بتحمل المسؤولية والذي وصفه أحد المؤرخين الأتراك (أبو فاروق) بقوله: (قد توجد الدرة النفيسة بين القمامات والمزابل)^(٢).

اشتراط محمد كوبريللي على السلطان محمد الرابع لتولي منصب الصدارة العظمى أن يمنح صلاحياتٍ واسعة وتطلق يده في شؤون الإدارة وتنفيذ كل أوامره وعدم التدخل في قراراته، فأعطي له ذلك وأخذ بتعيين أتباعه ثم سار على خط السلطان مراد الرابع في تنظيم الداخل بالقوة فأمر بإعدام ستة وثلاثون ألف شخص خلال خمس سنوات من صدارته ولم تكن الغاية القسوة وإنما قمع روح التمرد والفوضى في الدولة، ففضى على الثورات في أراضي الإمبراطورية، وأعاد هيبة الدولة البحرية، كما أعاد تنظيم مالية الدولة وأبطل كل النفقات الزائدة غير الضرورية، وحول كل الأملاك المصادرة والالتزامات إلى خزينة الدولة العامة^(٣). وبعد أن وطد أمور الدولة في الداخل اتجه إلى الخارج بجيش وأسطول قوي مجهز ليعيد للدولة هيبتها وسطوتها فهاجم البندقية التي احتلت جزر الدردنيل ١٦٥٦م وفرضت الحصار البحري على استانبول فهاجمها ولاحقها حتى عقر دارها، مما أرهب الدول الأوروبية وردعها عن مضايقة الدولة العثمانية وعدم الاقتراب من أراضيها وأملاكها. وخلف محمد باشا كوبريللي في الصدارة العظمى ابنه أحمد باشا وكان خير خلف لخير سلف، وربما قد زاد على أبيه في الحزم والإيقاع بالخصوم. وهكذا عدت الفترة الكوبريلية في عهد محمد الرابع طفرة من طفرات القوة العثمانية في القرن السابع عشر كما كانت فترة مراد الرابع^(٤).

يبدو أن الوضع في الدولة العثمانية كان من الممكن أن يتحسن وتعود الدولة إلى سابق عهدها بعيداً عن التيارات الغربية وعن التقليد الأعمى، فالمشكلة على ما بدت عليه هي مشكلة قيادات وإدارات وسلاطين، وطفرات القوة التي ذكرناها آنفاً من سلاطين وصدور عظام خير دليل على ذلك. فالانكشارية كانت لا تزال قابلة للانقياد والخضوع لأوامر القائد القوي وكانت قادرة تحت إمرته أن تحفظ الدولة وهيبتها والنصر يعود له بتدبيره وحزمه. وبالمقابل الفشل هو فشل ذلك الرجل الضعيف الذي لا يدري ما يدور من حوله من مؤامرات وقوى تتخبط ببعضها فهو غارق في الترف والبذخ والإسراف والتبذير وفي كلتا الحالتين النصر والفشل كانت الأداة واحدة وهي الجيش، إذاً فالعلة في القيادة ولهذا كان من الممكن الإصلاح بالعودة إلى مبادئ الشريعة والإسلام والابتعاد عما يخالفهما ولا يعني ذلك الانعزال

(٢) السلحدار، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٢٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٢١.

(٤) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٥٣-١٥٤.

(١) Alikemal (مرجع سابق) 5.82.

والتفوق وإنما الأخذ من حضارة الغرب وعلمه بما يناسب مجتمعنا وشريعتنا التي لا تنافي التطور والتقدم^(١).

١- إصلاحات السلطان أحمد الثالث ١٧٠٣-١٧٣٠م:

يلي تلك الفترة فترة القرن الثامن عشر بمضمونها الإسلامي الجديد البعيد عن محاكاة الواقع العثماني الإسلامي، والقريب من تقليد الغرب حيث بدأت في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م) والتي يقول فيها المؤرخ جودت (ظهر في ذلك العصر ميل الدولة إلى السير في طريق المدنية ورغبتها في ترتيب عسكر منظم غير أنها تركت الرؤوس وتمسكت بالأذنان، بل شرعت في زخرفة البنيان من دون أن تنظر إلى أساسه)^(٢).

إذاً هذه هي مرحلة الإصلاح الجديدة التي تلوح في الأفق مع قدوم أحمد الثالث الشاعر والأديب والخطاط راعي العلم والأدب^(٣).

كان أحمد الثالث يطمح إلى السلم ويعبر عن كرهه للحرب ولم يحقق ذلك إلا بعد سنوات من حكمه حيث وقع معاهدة بياروفيتز (Passarowitz) في ٢١ تموز ١٧١٨م ولم يكن السلطان وحده ميالاً إلى السلم والاتفاق مع الغرب، وإنما وزيره إبراهيم باشا أيضاً، فقد كان محباً للسلم مولعاً بالفنون والآداب فعاشت البلاد في عهده عصر الازدهار الأدبي والفني^(٤).

وازدهرت حركة الترجمة الأدبية والتاريخية إلى العثمانية فقام بير زاده بترجمة مقدمة ابن خلدون وكذلك الشعر ابتعد عن التأثر بالشعر الفارسي ليحاكي الحياة اليومية العثمانية، كذلك الكتاب اتجهوا إلى اللغات الأوروبية مبتعدين عن العربية والفارسية^(٥).

وبقيام الوزير إبراهيم باشا بعد أن أصبح صدرأ أعظم ١٧١٨-١٧٣٠م باختراق التقاليد العثمانية للمرة الأولى والانفتاح الكلي على أوروبا وإرسال سفراء دائمين إليها وقد بين الصدر الأعظم الغاية من هذه السفارات هو إجراء دراسة معمقة لأوجه الحضارة والتطور الصناعي^(٦). ومن ثم النظر في إمكانية إقامة إصلاحات ومؤسسات مشابهة في البلاد العثمانية، وأولى السفارات العثمانية المهمة والمؤثرة

(١) إن واقعنا العربي يعاني من الأزمة نفسها اليوم ولكن بأضعاف مضاعفة فلسنا بإمرة سلطان واحد بل سلاطين، ولا رئيس وزراء واحد بل هم أكثر، ولا برأي ومنهج وهدف واحد بل بأراء ومناهج وأهداف أكثر، وهنا الطامة الكبرى فمن أين نبدأ؟ من وحدة أو توحيد السلاطين أم من توحيد القضايا الأخرى فإن بدأنا بالقضايا أولاً سننتهي عند السلاطين بالفراق؟! وإن بدأنا من عند السلاطين سننتهي إلى عدد من القضايا يفوق عدد حكامنا وملوكنا وليس بالغريب أن ننتهي إلى مرحلة نكون فيها أشد عداوة على بعضنا من غريمنا!.

(٢) جودت، مصدر سابق، ج ٢، ص ٧٥.

(٣) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح سعداوي، استانبول مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامية، ١٩٩٩م، ص ٣٦٧.

(٤) مصطفى، الإصلاح العثماني، ص ١٣.

(٥) خالد زيادة، كاتب السلطان حرفة الفقهاء والمتقنين، رياض الريس للكتب والنشر، لندن قبرص، ط ١، ١٩٩٩م، ص ١٦٥.

(٦) Bernard Lewis: Islam et L'Asie La Naissance de la Turquie Moderne, Paris, 1988, P49.

إلى أوروبا كانت عام ١٦٦٤م، سفارة كارا محمد باشا إلى فيينا وأرسلت سفارة عثمانية ثانية إلى فيينا عاصمة النمسا عام ١٧١٩م، وأرسل السفير محمد برميسكين جلبي إلى باريس وقد طلب منه وللمرة الأولى في العالم الإسلامي إبراهيم باشا إعداد تقرير لوصف مظاهر من مدنية أوروبا الحديثة^(١).

فألف محمد أفندي كتاباً سماه (جنة المشركين) سجل فيه ملاحظاته ويوميات سفارته، ووصف الحياة الفرنسية ومدنها وعمرانها وقصورها الفخمة، كما وصف مصانعها ومرصدها وأدوات الهندسة وأوجه التقدم في العلوم والتنظيم العسكري، كما تضمن التقرير رأي محمد جلبي أفندي بقوله (إن الإفرنج يختلفون عن الأتراك كما يختلف الليل عن النهار)، كما يقول (فهمت الآن معنى المشهد الجميل في القرآن الكريم أن العالم هو سجن المؤمنين وجنة الكافرين)^(٢).

وكان لهذا الكتاب الأثر الكبير في الإمبراطورية بدءاً من السلطان أحمد الثالث فقلد الفرنسيين في ترفهم، وهذا ما جعل تيار معارضة التحديث يتصاعد مدعوماً بالانكشارية فيثورون ثورة عامة قتلوا فيها الصدر الأعظم وعزلوا السلطان أحمد الثالث^(٣).

٢- إصلاحات محمود الأول ١٧٣٠-١٧٥٤م:

بعد فترة السلطان أحمد الثالث يأتي السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤م)، على الرغم من المواجهة العنيفة التي لاقاها أصحاب الحركة الإصلاحية في عهد سلفه فإنه اتجه نحو التغريب، وهو لم يكتف بإرسال السفراء لاستيراد التغريب بل جعل التغريب يأتي إلى ربوعه مستعيناً بمستشار عسكري فرنسي الكونت دي بونفال (Comet de Bonneval) (١٦٧٥-١٧٤٧م)، وتطور الأمر بإدخال أول مطبعة عثمانية إلى استانبول عام ١٧٢٧م عن طريق سعيد أفندي^(٤) ابن السفير محمد جلبي أفندي وقد شاركه في تأسيس المطبعة إبراهيم متفرقة (١٦٧٩-١٧٤٢م)^(٥).

هذه الشخصية التي أدت دوراً بارزاً في الإصلاح على الطريقة الغربية حيث دعا لاستخدام الفن العسكري الأوروبي باستقدام ضباط أوروبيين، كذلك المطبوعات التي أصدرتها مطبعته وقد تنوعت موضوعاتها ما بين التاريخ والعلوم البحرية والجغرافية والسير والقواميس العربية والعثمانية والفارسية، وكتاب متفرقة نفسه الذي ألفه (أصول الحكم في نظام الأمم) يعدّ أول محاولة إسلامية تسوّغ الاستعانة بالأوروبيين وعلومهم^(٦).

ويقول متفرقة لولا تعلمه اللغة اللاتينية لما تعرف على تاريخ ونظم الدول الأوروبية، ولما كان قادراً على تكوين هذه الفكرة الواسعة التي مكنته من إتمام رسالته، وإن هذه ليست وجهة نظره وحده، بل هي رأي واحد لمجموعة من الوزراء والكتاب في ذلك العصر ولكن يبدو أنه لا يزال هناك بذرة الإصلاح

(١) مصطفى، الإصلاح العثماني، ص ١٣.

(٢) مصطفى، المرجع السابق، ص ١٤.

(٣) العزاوي، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٤) عمر، الواجب العلمي يقتضي منا اعتماد مصطلح السلطان، معذرة عن ذلك لتكرار أسماء السلاطين،

مرجع سابق، ص ٢٤٨

(٥) العزاوي، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٦) مصطفى، الإصلاح العثماني، ص ١٨.

الحقيقية في فكر إبراهيم متفرقة عندما يتوجه بالنقد إلى المؤسسات والأجهزة في الدولة حيث يبين أن الفساد ناجم عن عدم تطبيق القوانين^(١).

أما دي بونفال الضابط الفرنسي الأصل (١٦٧٥-١٧٤٧)م الذي أصبح اسمه أحمد باشا بعد إسلامه فقد أسس مدرسة للهندسة عام ١٧٣٤م وكان من مهامه أيضاً إلقاء المحاضرات في مجال الفن العسكري والتنظيم والتكتيك في المعارك ومحاضرات في السياسة والدبلوماسية^(٢).

لقد كان هدف دي بونفال من محاضراته الحد من شأن العلماء حاملين شعلة العلوم الإسلامية ومصادرها والاتجاه نحو الكتاب الذين توجهوا نحو الغرب ولغته بحجة تنريك البلاد وإبعادها عن الثقافة العربية الإسلامية^(٣). كما أدخل بعض التحسينات على صناعة البارود وأشرف على تدريب عدد من طلاب المدفعية لكنه لقي معارضة من قبل الانكشارية أعاقته تنفيذ خطته^(٤).

استقدم أحمد باشا (دي بونفال) ثلاثة من الضباط الفرنسيين الشبان الذين اعتنقوا الدين الإسلامي وانضم إليهم بعض المرتزقة الايرلنديين والاسكتلنديين الذين أخذوا يدربون وفق ما تعلمه دي بونفال من خدمته في فرنسا والنمسا^(٥).

٣- إصلاحات عثمان الثالث ١٧٥٤-١٧٥٧م:

في عهد السلطان عثمان الثالث قام درويش أفندي بسفارة إلى بطرسبرغ عام ١٧٥٤م وكانت سفارته ذات هدف مزدوج، الأول إيصال نبأ استلام السلطان عثمان الثالث العرش إلى مسامع الإمبراطورة والثاني تحسين العلاقات مع روسيا وقد ركز في سفارته على الحياة الاجتماعية والعمران والتقدم العسكري، وقد زارها مرة أخرى عام ١٧٦٤م فقدم فكرة عن التحديث الروسي الذي تم في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية^(٦).

أما السفير أحمد رسمي فبعد سفارتين إلى فيينا وبرلين قام بإعداد تقرير بعنوان (ويانة سفارتنامة سي) كان جلّ ما فيها تدوين مشاهداته اليومية خلال فترة سفارته، ثم كلفه السلطان عبد الحميد الأول بسفارة إلى برلين، فأعد تقريراً تناول التنظيم المدني والإداري ومؤسسات البوليس والعمران، وخلاصة رأي أحمد رسمي في الإصلاح جاءت في الرسالة التي كتبها (خلاصة الاعتبار) بعد مشاركته الفعالة في صلح (كوجك كاينارجي)^(٧) ١٧٧٤م، هذه الخلاصة بينت حقيقة تفوق الروس

(٢) زيادة، كاتب السلطان، ص ١٦٨.

(٣) مصطفى، الإصلاح العثماني، ص ١٩.

(٤) المرجع السابق، ص ١٩.

(٥) زيادة، كاتب السلطان، ص ١٧٠.

(٦) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٦٢.

(٧) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٦٧.

(٢) معاهدة كوجك كاينارجي: تم توقيعها بين الدولة العثمانية وروسيا في مدينة كاينارجي البلغارية وتتألف من ثمان وعشرون بنداً منها منح الاستقلال لكثير من البلاد الواقعة تحت السيادة العثمانية مع احتفاظ العثمانيين بالأموال الدينية، يأخذ امبراطور روسيا لقب باديشاه في المعاهدات والمحركات الرسمية، تتمتع السفن الروسية بحرية الملاحة في البحرين الأسود والمتوسط، يسمح للروس ببناء كنيسة بالاستانة ويحق للروس حماية المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية، إلغاء جميع المعاهدات السابقة بين روسيا والدولة العثمانية، وهناك بندان سريان أضيفا إلى المعاهدة وهما الأول تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية مقدارها خمسة عشر ألف كيس

على العثمانيين وأشار إلى الزيف الديني الذي نادى به المحافظون منذ القديم وبيّن أنّ العثمانيين رصدوا لهزيمة المسيحيين بغض النظر عن ميزان القوى. ولهذا كان الحل لدى أحمد رسمي هو الابتعاد الكلي عن الإطار الديني^(١).

أما الشخصية الإصلاحية الأبرز في عهد عثمان الثالث فهي راغب باشا الذي كان محط اهتمام الأوروبيين من وزراء وخبراء، فقد أسس مكتبة ضخمة كما ترجم كتباً أجنبية عديدة وكان نفسه مترجماً، وأصبح من الشخصيات البارزة التي وسعت باب الانفتاح على أوروبا^(٢).

٤- إصلاحات مصطفى الثالث ١٧٥٧-١٧٧٤م:

أما مصطفى الثالث فقد أكثر من دعوة السفراء الأوروبيين إلى حفلات بلاطه، وكان يتحدث معهم عن الإصلاح وطغى على حديثه طابع القوة والتصميم باعتبار أن فرنسا حليف له وستمدّه بعدد من السفن لتكوين أسطول جديد^(٣)، ويعود أحمد رسمي ليتصدر قائمة السفراء، فأرسله السلطان مصطفى الثالث إلى فريدريك الثاني ملك بروسيا يسأله عن سر نجاحه فيقول باختصار بدراسة التاريخ والاستفادة من التجارب، وبتملك جيش قوي ومدرّب في أيام السلم كما في أيام الحرب، وبقاء الخزينة مليئة^(٤).

وفي عهد مصطفى الثالث ظهرت بادرة جديدة، وهي الاستعانة بالضابط الفرنسي البارون دوتوت (Le Baron de Tott) الذي لم ينقلب على دينه بحكم كونه مرسلاً من الحكومة الفرنسية لدراسة الوضع العسكري العثماني بعد الحرب مع روسيا، فأعاد بناء هيكلية المدفعية والطوبخانة والترسانة^(٥) وأسّس فرقة مدفعية جديدة مزودة بمدافع سريعة وبعيدة المدى، وأسّس مصنعاً لسبك المدافع، كما أسّس مدرسة جديدة للهندسة^(٦) وأسهم في تأسيس المدرسة البحرية، كما أنه أول من اكتشف مناجم الفحم في الدولة العثمانية^(٧).

وتنبه مصطفى الثالث إلى أراضى الوقف، حيث وجد أن مداخل المساجد ينهبها المتولّون والنظار، فأخضعها لنظام المالكانة، كما اهتم بإقامة مراكز للعزل الصحي خوفاً من انتشار الأمراض والأوبئة، وأنشأ مكتبة عامة في القسطنطينية، كما راودته فكرة وصل البحر الأسود ببحر مرمرة بقناة مائية^(٨).

٥- إصلاحات عبد الحميد الأول ١٧٧٤-١٧٨٩م:

تميزت فترة عبد الحميد الأول بالإنفتاح الأكبر على أوروبا (١٧٧٤-١٧٨٩م)

على ثلاثة أقسام، الثاني تقدم الدولة العثمانية للقوات الروسية المساعدات للإنسحاب من جزائر الروم المتفق عليها، فريد بك مصدر سابق، ص ٣٤٢

(٣) زيادة، كاتب السلطان، ص ١٧٣.

(٤) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٤٧.

(٥) البحراوي، مرجع سابق، ص ٩٥.

(١) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٤٧.

(٢) الطوبخانة:معمل صب المدافع، والترسانة:دار صناعة السفن، محمود علي عامر، قاموس اللغة العثمانية، دمشق، دار الصفدي، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٢٨٧ و ١٢٣

(٣) زيادة، كاتب السلطان، ص ١٧٤.

(٤) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٤٨.

(٥) البحراوي، مرجع سابق، ص ٩٦.

لمتابعة العمل الإصلاحي ولاسيما في عهد وزارة خليل حميد باشا الذي اعتمد على آراء السفير شوازل غوفيه (عضو الأكاديمية الفرنسية) وقد جاء إلى استانبول يرافقه عدد من الخبراء والضباط والطوبغرافيين والعمال^(١).

وكانت آراؤهم الركيزة التي اعتمدها خليل باشا في الإصلاح، وأول خطوة إصلاحية كانت إرسال عدد من الطلاب العثمانيين إلى باريس لتلقي العلوم الحديثة فتقرر إرسال ثلاثين طالباً كدفعة أولى، وأنشأ لأفاييت كلية هندسة عسكرية يدخلها الفتى ما بين سن الثامنة والثانية عشر وبعد ثمان سنوات دراسة وتدريب يحصل الطالب على لقب مهندس. ونشطت حركة الترجمة في الفنون الحربية، وألحق بالكلية مكتبة ضمت حوالي أربعمئة كتاب بالفرنسية والإنكليزية في الفنون الحربية، ومنها دائرة المعارف الفرنسية، ودرّس في الكلية مدرسون فرنسيون وانكليز وغيرهم، وأصدر قراراً بتوحيد لباس المدفعية وتدريبهم على الضرب السريع وسرعة الحركة، وقسم الجيش إلى أقسام عدة خشية أن يرتد قسم فيقاومه الآخر^(٢). لكن المشروع الإصلاحي بكامله لم يتم، لأن الرجعيين كانوا له بالمرصاد وانتهى الخلاف بقتل خليل حميد باشا^(٣).

لكن ما قام به السلطان عبد الحميد الأول ووزيره خليل حميد باشا كان خطوة أولى للعمل الإصلاحي الذي استكمل التمهيد له السلطان سليم الثالث بما قام به، حيث وسع الجهاز الذي ينادي بالإصلاح والتحديث، وترجمة العديد من الكتب في مختلف العلوم إلى العثمانية وانتعشت مدرسة الهندسة والمدفعية، كما أن مطبعة استانبول ومطبعة السفارة الفرنسية نشطتا بشكل كبير أيضاً كل ذلك مهد لفترة سليم الثالث المقبلة^(٤).

ب- الاضطرابات الناجمة عن الإصلاح:

١- إدارياً:

إن الدولة العثمانية لم تكن قادرة منذ البداية على توفير الاستقرار والهدوء الداخلي لإنجاز عملية الإصلاح في الدولة ويكمن سبب ذلك في أمور عدة، منها: أن فكرة الإصلاح لم تكن قد تبلورت بشكل كامل وأن المجتمع العثماني الإسلامي لم يعتد على هذه القفزات النوعية من التغيير والتغريب، كذلك الأمر تعارض الإصلاح مع مصالح الفئات والقوى التي عارضته، حتى تلك التي أيدته كانت أيضاً لمصالح وأهواء خاصة إما شخصية أو غربية^(٥).

إن مشروع الإصلاح منذ البداية هو مشروع سلاطين، الغاية منه إدخال بعض الإصلاحات ليزيد من نفوذهم ويحد من نفوذ وتسلط القوى المعارضة لهم والمقصود

(٦) زيادة، كاتب السلطان، ص ١٧٤.

(١) البحر اوي، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٢) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٤٩.

(٣) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية،

١٩٥٧م، ص ١٧٤ ١٧٥.

(٤) السيد، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

بها الإنكشارية، ويعني ذلك أن أولئك السلاطين كانوا سيعادون ويحاربون أي اتجاه أو ميل للإصلاح يتعارض مع صلاحياتهم ومناصبهم، وقضية الإصلاح لم تكن قضية الشعب كله إنما مقصورة على طبقة فئوية من حاشية السلطان الذين تنقفوا ثقافة الحكم الاستبدادي، وبالتالي لم يخطر في ذهنهم فكرة الثورة أو التغيير الجذري.

يقول المؤرخ الأمريكي رودريك دافيزون (إن أكبر نقائص هذه الإمبراطورية تكمن في رفضها الاحتكاك بالحياة الأوروبية، واحتقارها لكل ما هو غير مسلم، وهذا الموقف لم ينتج عن التقاليد المحدودة والمحافظة التي تميز الشرق عن الغرب، ولكن بسبب أن الدين الإسلامي ليس طريقاً للعبادة فحسب بل أسلوب حياة أيضاً، وعليه فإن أسس الدولة العثمانية وكلية تركيبها لم تعد ملائمة للصمود أمام أعدائها^(١)). إن ثنائية الإجازة والتحریم التي تكلم عنها وجيه كوثراني قد أفرزت في الواقع السياسي للدولة ازدواجية واضحة في السلطة ما بين نظامين متميزين قديم يمتلك الشرعية ولا يمتلك القوة، وجديد يمتلك القوة داخلياً من خلال ما أحدثه من مؤسسات جديدة داعمة له وخارجياً له دعم أوروبي كبير؛ لأنه يلبي مصالحه ويلتقي معه ولكنه، أي هذا النظام الحديث يفتقد للشرعية، وكانت محاولة التوفيق بين النظامين هو ما صدر من تنظيمات ظهرت على أنها لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية^(٢).

إذاً فالتحديث لم يتم بضغط خارجي وحسب بل ضغط داخلي أيضاً، فعندما يواجه الداخل مشكلة ما ولا يستطيع رصيده الفكري والثقافي التجاوب معها وحلها يستسلم للغزو الخارجي، وقد أطلق بعض المفكرين على هذه الفكرة باسم القابلية للاستعمار^(٣).

وبما أن المجتمع العثماني مجتمع إسلامي بحث فالعلة كانت إذاً في البناء التشريعي الذي تقوم عليه الدولة والمجتمع، وهو في وضعه الطبيعي مرن يتجاوب مع كل التطورات والوقائع، لكن مرحلة القرن التاسع عشر العثمانية جعلته يمر في مرحلة من الاضطراب والجمود في وقت كان المجتمع العثماني بأمر الحاجة إلى التجديد بعد أن غزت أوروبا بأفكارها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً البلاد^(٤).

فالعلة لم تكن في البناء التشريعي وإنما في القائمين عليه الذين أفقدوه مرونته وقدرته على التأقلم مع الظروف والأحوال، فبدأ بسلوكهم قاسياً متصلباً عاجزاً وهذا ما أفرز النظريات والاقتراحات لحل هذه المعضلة .

والخطوات التي اتخذت لتثبيت النظام الجديد لم تكن راسخة بالقدر الذي يمكنها من الصمود أمام قِدَمِ النظم القديمة ورسوخها والعقائد الداعمة لها، فكثير من أصحاب النفوذ والرعايا وقفوا ضد هذه التطورات. فمنذ أن بدأت التنظيمات تطبق

(١) أمل ميخائيل بشور، سوريا ولبنان في عصر الإصلاح العثماني حقبة التنظيمات من سنة ١٨٤٠-١٨٨٠م، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس ٢٠٠٦، ص ٢٥٧-٢٥٠.

(٢) العزاوي، مرجع سابق، ص ١٠٥

(٣) طارق البشري، حركة التجديد في التشريع الإسلامي في مصر، مجلة الحوار، العدد ١، العام ١٩٨٦م، ص ٩٥-٩٦

(١) العزاوي، المرجع السابق، ص ١٠٦.

على أجهزة الدولة ظهر عجزها واضحاً لأنها لم تكن قوية الأسس والأركان، فظهر صاحبها سليم الثالث عاجزاً أمام المعادين لها ووصل الأمر إلى حد تحريض الإنكشارية ضد هذا النظام والساعين إليه حتى السلطان نفسه . وعليه فإن الهدوء والاستقرار الذي يتطلبه هذا التغيير أو هذه القفزة النوعية من القديم إلى الحديث كان مفقوداً كلياً. عوضاً عن ارتفاع الأسعار في الأسواق وارتفاع الرسوم والضرائب وإغراق البلاد بالعملات المغشوشة وعين الرقيب من السلطان والحاشية وأركان الدولة نائمة تاركين لأهوائهم الانغماس في حياة اللهو والترف. وبالتالي فقد غابت في القرن الثامن عشر القيادة الشجاعة والحكمة في الدولة وما ترتب على ذلك من أوامر عزل وتعيين للصدور العظام فنجم عن ذلك اضطراب أمني وسياسي وعسكري^(١).

٢- عسكرياً:

أمّا عماد الدولة وحصنها المنيع فكان قد تقهقر وأصبحت فرقته في أدنى مستوى اجتماعي تتكون منه الدولة بعد انغماسهم في المهن التجارية والحرف اليدوية وتهربهم من الدخول في الجيش النظامي الحديث ورفضه استعمال الأسلحة الحديثة، فحينما سئل أحد أفراد الإنكشارية ماذا تقول في النظام الجديد فأجاب ما كفرنا ولا نريد أن نكفر^(٢).

فمن الطبيعي أن تقف الإنكشارية ضد حركة الإصلاح والإصلاحيين فبرز الصراع واضحاً بين النظام الأصيل للدولة والنظام المستورد لها^(٣).

كما أن أعيان الأقاليم تدمروا من مرسوم سليم الثالث الذي يقضي بتعيين خيرة شباب الإمبراطورية للخدمة في النظام الجديد خشية أن يحرموا من أكفأ رجالهم فتضعف قوتهم ويقوى الجيش العثماني فيصبح هذا الجيش قادراً على القضاء على استقلالهم، فتعاونوا مع المعارضة بقيادة حافظ إسماعيل باشا وزحفوا على الآستانة للقضاء على النظام الجديد، وقاطعوا فرقة النظام الجديد التي ذهبت إلى أدرنة عام ١٨٠٦م ورفضوا تزويدها بالمؤن، فكان أن تراجع سليم الثالث عن نظامه الجديد وسلم قيادته إلى ألد أعدائه^(٤).

وأرباب الحرف والصناعات ولاسيما الذين كانوا يعملون في صناعة الأسلحة وبيعها قد تضرروا كثيراً من هذا النظام الجديد بعد أن أصبح توفير أسلحة الجيش من الترسانة المركزية أو من الخارج وبهذا وقفوا موقفاً معارضاً للإصلاح .

٣- اجتماعياً:

أما على صعيد المجتمع المسلم في كل أنحاء الإمبراطورية فقد كانت ردة فعله عفوية عندما شعر بالغزو الأجنبي الثقافي والديني والحضاري له، ولاسيما أن هذا الغزو ركّز على الناحية الثقافية والدينية أكثر من النواحي الاقتصادية والإدارية

(٢) السيد، مرجع سابق، ص ٢٠٦-٢٠٩.

(٣) البحر اوي، مرجع سابق، ص ٨٤.

(١) السيد، مرجع سابق، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٨٥.

وبالتالي الأشخاص المتضررين من ذلك وقفوا موقفاً معادياً من هذا الإصلاح.^(١) لقد كان موقف العلماء مهم جداً لأي قرار يُتخذ بشأن التحديث وإدخال النماذج الغربية لأنهم الكادر الإسلامي المتعلم الذي يسيطر على المؤسسات الدينية وعلى التشريع والثقافة في الإمبراطورية فبعضهم وقف موقفاً إيجابياً من بعض القضايا الإصلاحية على النمط الأوروبي، ومنهم من أدلى بدلوه في هذا المجال فقد أقنع تاتارجيك عبد الله (Tatarcik) السلطان سليم الثالث بمجموعة من الإصلاحات وأن يتبنى العلم العسكري الغربي وتدريبه، والترجمة المنهجية لتقنيات أوروبا إلى العثمانية واستقدام معلمين وخبراء أجانب.^(٢)

كما أن الشيخ الملا قصصي زادة محمد عزت قد ترك لمن بعده بعض المقترحات التي يرى فيها سبيلاً لخروج الدولة من أزمتها وقد كتبها بعد الواقعة الخيرية عام ١٨٢٦م التي أنهت الإنكشارية من الإمبراطورية، واقتراحاته تضمنت أن يتلقى الموظفون بمن فيهم العلماء أجور ثابتة وأن يعاد تنظيم الإدارة العامة في كثير من جوانبها وأن يتشكل مجلس استشاري مؤلف من الموظفين والعلماء. وقد أشار إلى ضرورة الاهتمام بالصناعة والتجارة داعياً الطبقة العليا من المجتمع المسلم التي ينتمي هو إليها أن تتخلى عن احتقارها للصنائع والمهن، وأن تخفض من البذخ الذي يتنعم به رجالها به ولا سيما المنازل الفاخرة، وتوجه إلى الحكومة بدعوته لتمويل المشاريع الجديدة وأن تعفيها من الضرائب في الثلاث سنوات الأولى من عملها، وأن تخفض المستوردات للتوجه نحو الصناعة المحلية بتأسيس المصانع.

وقاضي العاصمة أعطى تعليمات لأئمة المساجد أن يدحضوا الانتقادات التي توجه إلى مظاهر التحديث التي تقوم في الدولة، ولا سيما في المجال العسكري في عهد محمود الثاني بعد قضائه على الإنكشارية، وقد عبر بعض العلماء عن تأييدهم لقضايا الإصلاح من خلال المؤلفات التي كتبوها ككتاب (فقهاء النفوس) للمؤلف صانع زادة عطاء الله، وكتاب (أس الظفر) لمحمد أسعد الذي عبر عن تأييده للواقعة الخيرية بهذا الكتاب، كما أسهم الشيخ محمد أسعد مع الحكيمباشي عبد الحق (رئيس أطباء السلطان) مشروع السلطان محمود الثاني للوقوف ضد مرض الطاعون. ومشروع آخر للقضاء على الكوليرا حيث أمر السلطان محمود الثاني بطبع عدة آلاف من كتاب رئيس أطبائه قاضي عسكر مصطفى بهجت وزعت مجاناً على المدنيين والعسكريين بهدف توعيتهم على خطورة هذا المرض وطرق معالجته.^(٣)

وأيد قسم كبير من كبار العلماء الإصلاح في كتاباتهم وخطبهم ودعموا موقفهم ببراهين أخذت من الشريعة الإسلامية والتاريخ الإسلامي المبكر، وقد برهنوا على أن الجهاد ضد الكفار هو من واجبات المؤمن، وأن تقوية وتدعيم الجيش الإسلامي هو أيضاً من الواجبات الدينية المهمة. وقد بين العلماء أن سبب تقدم الغرب في الناحية العسكرية هو ردة فعل على الخوف من التفوق العثماني والتفوق الإسلامي عبر القرون

(٣) السيد، المرجع السابق، مرجع سابق، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٤) عمر، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(١) حوراني، الشرق الأوسط الحديث، ج ١، ص ٤٧-٥١.

الماضية، وأن الشريعة قد أنزلت لمساعدة الدين الإسلامي على الانتشار والتوسع وليس لوضع العقبات، وأنه بإمكانها التكيف مع ظروف الدولة، ولهذا فإن التعلم من الكفار يجب ألا يبرز أي شعور بالنقص عند المسلمين^(١).

أما من حيث موقف العلماء المعارض للإصلاحات فكان شعارهم الدائم (نظامي جديد) بُدعاً غير شرعية لم يسبق لها مثيل وتقليداً للكفار، ولذلك كان من الصعب إدخال أي تجديد من دون أن يخضع للمراقبة، فتحت ضغط القوى المحافظة وعلى رأسها العلماء اضطر السلطان أحمد الثالث إلى إصدار فرمان يمنع ممارسة الطب الحديث، ويمنع أيضاً تناول العقاقير الطبية^(٢).

وعارض رجال الدين العلماء المطبوعة التي أدخلها متفرقة ١٧٢٧م فاشتراطوا عدم طبع الكتب الدينية أي بمعنى أنهم أبعدوا خطر هذه المطبوعة عن اختصاصهم ومصالحهم ومناصبهم، أما من بقي معارضاً لها فهم الكتاب الذين وجدوها ذلك الخادم الجبار الذي سيجعل الطبقة الحاكمة تستغني عنهم وعن خدماتهم وبالتالي ظلوا معارضين لها^(٣)^(٤).

كما أن الاتجاهات العلمانية الحديثة أثارت ردة فعل العلماء، لأنها تطرقت إلى تشكيلاتهم ووحدة جهازهم، لهذا وقف العلماء والمئات من طلبتهم موقفاً سلبياً من الإصلاحات بصفة عامة، وتحفظوا تجاه التحديثات التي دخلت إلى الدولة، ولم يكتفوا بالتحفظ عندما يستطيعون فعل أكثر من ذلك، لأنهم يعدون أن لا مصلحة لهم بهذه الإصلاحات ووصل الأمر إلى حد الانشقاق بين هؤلاء إلى مجموعتين، الأولى من غالبية العلماء المؤيدة للسلطان لتبقى محافظة على مناصبها وصلاحياتها، والثانية من غالبية صغار العلماء والطلبة الذين عدّوا التحديث خروجاً على الشريعة والدين^(٥).

وقد استطاع هؤلاء إيقاف الإصلاحات عندما اتحدوا مع الإنكشارية وتلقوا الدعم والتوجيه من شيخ الإسلام محمد عطا الله أفندي وأستاذه محمد منيب وقاضي استانبول زادة محمد مراد في عهد سليم الثالث، وقد لاقى السلطان محمود الثاني تأييد شيخ الإسلام محمد ضاهر في محاربة الإنكشارية، لكنه عارضه في قضية الطربوش الأحمر فعزله السلطان^(٦). وكان قضية الطربوش الأحمر كانت ركناً من

(١) Alikemal، مرجع سابق، 5.191.

(٢) Alikemal، المرجع نفسه، ص ١٣٩.

(٣) Alikemal، المرجع نفسه، ص ٨٨.

(٤) أليس هناك نوع من الغرابة في هذا الموضوع الإصلاح، وهو أن يتجه المصلحون إلى نقاط القوة السليمة في المجتمع الإسلامي ويعملون على إصلاحها ويهملون الناحية الضعيفة، فيتجهون نحو الثقافة والدين ويهملون الإدارة والاقتصاد، هل فعلوا ذلك لأنهم أرادوا استباق الخطأ قبل وقوعه وتحسين الثقافة والدين قبل أن يصل الفساد والضعف إليهما، أم الغاية في نفس يعقوب كما هو الحال اليوم في أفغانستان فخشية من الإرهاب أزهبوا شعبها حتى شاب أطفالها؟ أو ما فعلوه بالعراق خشية من نظام صدام حسين النووي حولوه إلى بحر هائج تعصف به أمواج الطائفية وحرب العصابات؟ على الأغلب امتلك هؤلاء الحاسة السادسة وأحسوا بالخطر قبل وقوعه فقمعوه، وهذه الفطنة والذكاء لم ترتق إليها بعد وإن وصلناها لم ننفذ ما هو مطلوب .

(٥) Ali Kemal، مرجع سابق، ص ١٤.

أركان الإصلاح الأساسية التي يقوم عليها بنيان العملية الإصلاحية في الدولة، لهذا قام السلطان بعزل شيخ الإسلام والقضية كانت لمعرفة الرؤوس المصلحة من الرؤوس التقليدية^(١).

كما أنه في العام ١٨٢٩م نفي مجموعة من المعلمين بسبب انتقادهم للمدارس الجديدة في خطبهم في الجوامع في شهر رمضان، وأن من يوافق عليها هو من قليلي الإيمان، وقد برزت معارضة العلماء للسلطان في موضوع عرض صورة السلطان في موكب مهيب ١٨٣٦م وامتنعوا عن المشاركة في مثل هذه الاحتفالات خشية أن يؤدي الموضوع إلى تقديس الصورة وعبادتها^(٢).

أما الدراويش الذين كان قسم كبير منهم في نظر العامة أولياء صالحين وبعض من أعضاء الطرق الصوفية قد عارضوا الإصلاح بشدة، ففي عام ١٨٢٩م قام درويش مجذوب بشتيم شيخ الإسلام خلال صلاة يوم الجمعة وبحضور المسؤولين مع شيخ الإسلام، فقد حمل الدراويش شيخ الإسلام مسؤولية اتباع السلطان مذاهب ضالة (كافرة). وهناك درويش آخر كان أشد جراً وهو (شيخ سجلي) عام ١٨٣٧م عندما اعترض طريق السلطان محمود على جسر غلطة ووصفه بالسلطان الكافر وبأنه يدمر الدين الإسلامي، فاعتقله الجنود ثم أعدم، ولأنه كان ولياً صالحاً في نظر الشعب فقد انتشرت أسطورة الدراويش الشهيد^(٣).

كما أن الإصلاحات قد أثرت أيضاً في القوميات فعصر التنظيمات ما بين ١٨٣٩-١٨٧٦م وما تضمنه من مساواة بين أهل الذمة والمسلمين وعلمنة المجتمع والدولة أدى إلى مزيد من الانشقاق الاجتماعي والطائفي في الدولة العثمانية، فالتنظيمات التي كانت السبب في دفع أهالي بلاد الشام للتمسك بالرابطة العثمانية هي نفسها التي دفعت مسلمي ألبانيا يتجهون نحو القومية، وهي التي جعلت أشرف مكة والقيادات الكردية السعي للاستقلال بعد أن كانت الدولة العثمانية قد قضت على الاستقلال الذاتي لهؤلاء في أربعينيات القرن التاسع عشر^(٤).

وفي تلك الفترة التي تعالت فيها أصوات الداعين للإصلاح دوت بالوتيرة نفسها الأصوات المعارضة والمطالبة بالاستقلال عن كيان الدولة العثمانية كالحركة الوهابية في الجزيرة العربية التي عملت على فرض نفوذها وسيطرتها في الحجاز، وقد صرحت علناً وقوفها ضد إجراءات النظام الجديد والعودة بالإسلام إلى بساطته الأولى؛ لأن الثقافة الأوروبية الصليبية التي دخلت البلاد باسم المدنية لا يمكنها أن تمتزج مع مبادئ المجتمع المسلم بل على العكس، فإن هذه التجديدات الغربية ستؤدي إلى انهيار مجتمعنا الإسلامي من الداخل وليس لإصلاحه^(٥).

(١) سابقاً لتمييز الحليف من العدو كانوا إما يرتدون زياً موحداً أو يخلقون الرؤوس كي يعرف الحلفاء بعضهم البعض وبالتالي يضمنون عدم محاربة بعضهم، وإذا كان الحبيب ثوراً فالبس له الأحمر فألقوا الوشاح الأحمر على هيكل الإصلاح ليثور مصلحو الدولة العثمانية وراءه بشكل عشوائي وهمجي.

(٢) حوراني، الشرق الأوسط الحديث، ج ١، ص ٥٣.

(٣) حوراني، الشرق الأوسط الحديث، ج ١، ص ٥٥.

(٤) عبد الرؤوس سنو، النزعات الكيانية والإسلامية في الدولة العثمانية ١٨٧٧-١٨٨١م، بلاد الشام - الحجاز - كردستان - ألبانيا، بيسان، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٨م، ص ١٥-١٦.

(٥) السيد، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

إضافة إلى ما جرى في المورة وبلاد الصرب وفي ويدين وروسجق ومناطق عديدة من البلقان من حركات انفصالية، وهذه الأخيرة لم يكن قيامها بالثورة اعتراضاً على الإصلاح وإنما من أجل المطالبة بالاستقلال فأدى ذلك إلى اضطراب الأمن مما عطل العملية الإصلاحية^(١).

فهل غير الشيطان يستطيع أن يرتدي ثوب الرحمة حيناً متستراً به على حقيقته لتحقيق غاياته، وحيناً آخر يرتدي ثوب الشر فيظهر كما هو وفي هذه الحالة تسهل مواجهته؛ لأنه من السهل التعرف عليه لكنه في الحالة الأولى يراوغ كما هو الوضع اليوم. فمن هو العدو الحقيقي ومن هو الوهمي؟ عند هذه النقطة أبرح الحكام العرب طاولة مناقشاتهم ضرباً، فكل منهم يدعم رأيه بأن الخطر الحقيقي هو ما يراه فيضرب بقوة على تلك الطاولة لأنه لا يستطيع ضرب غيرها فتهدأ الثورة بتلك الضربة الموجعة للعدو!؟

كذلك فقد تراجعت الجيوش العثمانية وتخلت عن الكثير من أملاكها لضعفها من ناحية ولأن الطرف المعادي الأوروبي كان في قمة التنسيق فيما بينه من ناحية ثانية، وبسبب ذلك حتى الانتصارات العثمانية القليلة كان وسطاء أوروبا يحولونها إلى هزائم من خلال إقناع السلطنة بعقد الاتفاقات لتحويل النصر إلى هزيمة، ناهيك عن دور أولئك الوسطاء الكبير في ترسيخ نفوذ دولهم في أراضي الدولة وسياساتها وتوجيهها الوجهة التي تخدم مصالحهم الاستعمارية، إلى درجة أضحت فيه السياسة العثمانية رهينة المفاجآت الأوروبية من أحداث ومواقف خارجية وداخلية، فكانت سياسة أنية غير مخططة تسير إلى مزيد من التقييد والخضوع للمؤثرات الخارجية، ففقدت أهميتها ومصادقيتها وعدم قدرتها على المتابعة من دون الحاجة إلى التوجيه والدعم، يعني وصولها إلى مرحلة الاستسلام^(٢).

ومن هنا جاءت خطورة الإصلاحات، عندما أصبح الغرب يطالب بها وبدأت تقارير سفراء الدولة في أوروبا تتوافد على الدولة مطالبة بالإصلاح، وسفراء أوروبا في الدولة يجلون صورة الإصلاح وفوائده، وتقديم المساعدة لتسهيل العملية ونخلص مما سبق إلى أن العملية من بابها إلى محرابها أوروبية الصنع فمن الطبيعي أن يحصدوا هم ثمارها والعثمانيون يتضررون .

٤ - النظم الإدارية الحديثة:

يقول السفير البريطاني في استانبول ستراتفورد كانيغ (من الواضح أن الإمبراطورية العثمانية تسير بعجلة نحو انحلالها، أملها الوحيد في البقاء متحدة لفترة زمنية معينة هو في اقتباسها للحضارة المسيحية)^(٣).

ويقول قيصر روسيا نيقولا الأول (ليس في استطاعتي أن أبعث الحياة في الموتى، إن الإمبراطورية العثمانية دولة ميتة، وليس لدي ثقة في أن يستمر هذا العجز محافظاً على الحياة، إنه في حالة انحلال من جميع النواحي)^(٤).

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٦.

(١) السيد، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٢) الاجتهاد، مرجع سابق، موقف العلماء من الإصلاح، العدد ٤٥-٤٦ ص ١٥.

(٣) الشناوي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٣٠-٨٣١.

فما النظم التي يمكن أن تفيد هذه الإمبراطورية المترهلة، ومن يستطيع أن يمنع هذا الترهل، والمخربون في الداخل أكثر وأخطر ممن هم في الخارج على رأي فؤاد باشا سفير العثمانيين في باريس^(١). وفي اجتماع لمحمد علي باشا مع قائد الأسطول العثماني الذي سلم نفسه لقوات محمد علي في ١٨٣٩م بعد معركة نصيبين قال لهم (أنتم في القسطنطينية ارتديتم اللباس الإفرنجي وتصرفتُم بعقول تركية، أما أنا فحافظت على لباسي التركي وتصرفت بعقل أوروبي)^(٢).

إن السلطان أحمد الثالث ووزيره إبراهيم داماد (١٧٠٣-١٧٣٠)م أول من استطاع فتح ثغرة في سور الممانعة العثمانية ضد الحضارة الغربية، وعلى الرغم من أنه جاء في البداية على شكل مزج القديم بالحديث، لأن الواقع العثماني المتردي لم يعد يستطيع تجاهل التطور الحاصل في أوروبا^(٣).

فكانو من السباقين إلى تقليد الأوروبيين وإدخال مظاهر حضارتهم إلى الإمبراطورية من بناء القصور وإنشاء أول مطبعة من نوعها وإنشاء مدرسة للمدفعية، فأدخل هذه البدع على رأي معارضيه، وأخرجوه من سدة الحكم وقتلوا وزيره^(٤).

وكما يقول المثل (الناس على دين ملوكهم) فقد لحق بالأغنياء وعلية القوم بالسلطان ووزيره فاقتبسوا العادات الأوروبية المتعلقة بالبناء والأثاث وإنشاء الحدائق واستفاق الإلهام عند الأدباء العثمانيين متأثرين بالغرب وبالتشجيع المالي انطلقت حناجر الشعراء والكتاب والأهم من ذلك نشطت حركة الترجمة من اللغات الفارسية والعربية القديمة إلى العثمانية، وأصبحت فكرة العلمانية وموضوعاتها قضية متداولة بين الناس، وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهتها كانت بداية طيبة لتيار الفكر الغربي الحديث، مما ساعد الصدر الداماد إبراهيم باشا على تشكيل لجان ترجمة للكتب الغربية في مجال التاريخ والفلسفة والفلك فتداولها والنقاش فيها لم يعد من المحرمات^(٥).

ولهذا عدّ بعض المؤرخين عصر السلطان أحمد الثالث هو عصر التوليب، لأنه شهد نهضة أدبية عثمانية فعلية، وقد ضم بلاطه العديد من الشعراء والعلماء والفلكيين فضلاً عن السفارات التي أرسلها للغرب للإطلاع والاقتباس من علومهم وحضارتهم وكان أهمها المطبعة التي أسسها متفرقة في عهده^(٦). وقد مهد متفرقة للمطبعة برسالة أعدها بعنوان (وسيلة الطباعة) بيّن فيها الفوائد الكبيرة التي تجنيها الدولة والمسلمون من هذه المطبعة^(٧). فأصدر السلطان عام ١٧٢٦م مرسوماً بإنشاء مكتب للطباعة في الأستانة^(٨). ولكن حرّموا طباعة القرآن الكريم والأحاديث النبوية

(٤) ورد ذكر ما قاله سابقاً.

(١) العزاوي، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٢) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) محمد رثيف أفندي، التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية، تعريب وتحقيق خالد زيادة جروس برس، طرابلس لبنان، ط ١، ١٩٨٥م، ص ٨.

(٤) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٥٩.

(٥) مصطفى، الإصلاح العثماني، ص ١٦-١٧.

(١) زيادة، كاتب السلطان، ص ١٦٦.

(٢) كان السلطان كما ذكرنا مولعاً بالآداب وقد استند في مرسومه على فتوى شيخ الإسلام عبد الله أفندي الذي كان متحمساً للمشروع كالصدر الأعظم وقد أيده كبار العلماء والقضاة وقد أشاروا إلى آثار النيران

والأعمال الدينية والقانونية والتعليق عليها، في حين سمحوا بطبع الكتب التاريخية والمعاجم والرياضيات والجغرافيا والعلوم واللغويات في اللغات العبرية واليونانية والأرمينية واللاتينية^(١).

لقد بلغ مجموع ما طبعته المطبعة ١٦/ سنة عشر مؤلفاً في عشرين مجلداً من بينها كتاب لإبراهيم متفرقة^(٢). وكان من جملة ما طبع أيضاً قاموس اللغة العربية وآخر بالفارسية، كما أنها طبعت في عام ١١٤١هـ-١٧٢٨م العديد من الكتب التي يحتاجها الطلاب، كما طبع فيها العديد من الخرائط كتبت فيها أسماء المواقع باللغتين العثمانية والفرنسية^(٣).

أما المجال الأكثر بروزاً في اقتباس العثمانيين من الغرب، والأخذ منهم كان في مجال إقامة المؤسسات التعليمية الحديثة من دون التعرض للمؤسسات التقليدية القديمة، وأول هذه النماذج كان في المجال العسكري، فظهرت أول مؤسسة عسكرية في الدولة العثمانية عام ١٧٣٥م على أثر خلع السلطان أحمد الثالث وتولية محمود الأول، فأنشأ أوجاق الخمبرجية ذوي العلوفات^(٤). بإشراف المستشار العسكري الفرنسي الأصل واسمه كلود الكسندر دي بونفال (١٦٧٥-١٧٤٧)م الذي أعلن إسلامه وعرف باسم أحمد، فأقام الثكنات اللازمة للتدريب وبنى مصنعاً خاصاً لفرقة المدفعية، ثم استقدم ثلاثة ضباط فرنسيين آخرين لمساعدته فاعتنقوا الإسلام أيضاً، ثم انضم إليهم مرتزقة إيرلنديون واسكتلنديون وغيرهم، كما قام بتحديث الخدمات المتعلقة بالباب العالي، ومصنع صب المدافع وتصنيع البارود ومصنع البنادق وأدخل أسلحة جديدة إلى فرقة الألغام وعربات المدافع، وأسس مدرسة الهندسة العسكرية (مهندسخانة) اقتصت بالهندسة والعلوم المرتبطة بالمدفعية الحديثة الفعالة^(٥). وقام الكونت دي بونفال (أحمد باشا) بإلقاء محاضرات على رجال الدولة في مجال الفن العسكري وفوائد التنظيم (والتكنيك) إضافة إلى دروس في السياسة والدبلوماسية^(٦).

وبوفاة (أحمد باشا) كأن شيئاً لم يكن، حيث تم إلغاء الأوجاق الذي أسسه وتحول ضباطه وجنوده إلى خمبرجية أصحاب تيمارات، بعده جاء ضابط فرنسي آخر هو البارون دو توت في عهد السلطان مصطفى الثالث حيث أقيمت مدرسة المدفعية (طوبجي مكتبي) وغرفة الهندسة (هندسة أوده سي) مابين (١٧٧٠-١٧٧٦)م أما الإصلاح الأهم في مجال المدفعية فكان إنشاء أوجاق المدفعية السريعة

والتخريب التي قام بها الغزاة في سوريا وبغداد وإسبانيا واختفاء كثير من الكتب والمخطوطات النادرة التي تفيد العلم والدين، كما أشاروا إلى أن مكتب الطباعة هذا يخدم العلم والمجتمع ويؤدي إلى سرعة النسخ وتوفير النفقات. مصطفى في أصول التاريخ العثماني، ص ١٦٠-١٦١.

(٣) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٦٠-١٦١.

(٤) كان إبراهيم متفرقة عبداً ثم دخل فرق المتفرقة فاستقى منها اسمه وأسمه الأصلي غير معروف، أول كتبه عام ١٧٣١م، أصول الحكم في نظام الأمم أهده للسلطان محمود الأول وقد حاول فيه تسويق فكرة الاستعانة بأوروبا وعلومها، مصطفى، الإصلاح العثماني، ص ١٨.

(٥) البحراوي، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٦) أوغلي، مرجع سابق، مج ٢، ص ٥٠٤.

(١) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٦١-١٦٢.

(٢) مصطفى، الإصلاح العثماني، ص ١٩.

(سرعة طوبجيلري أوجاغي) الذي درّس فيه الجاويش الفرنسي أوبرت (Aubert). أما غرفة الهندسة (هندسة أوده سي) فقد درّس فيها كامبل مصطفى أغا والفرنسي (س كروموفان) بإشراف البارون دو توت ثم أعيد تنظيمها عام ١٧٧٦م وعينوا لها معلماً براتب (٩٠) أقة يومياً ومساعداً له وآخر حافظاً للآلات كما درّس فيها القائد البحري الجزائري قبودانة سيد حسن أفندي.^(١)

ج- إصلاحات سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧)م:

١- على الصعيد الإداري:

لقد وضع السلطان سليم الثالث نصب عينيه أن يكون حكم إمبراطوريته مشابهاً للنظام الفرنسي متأثراً بالمناقشات التي دارت بينه وبين الأجانب من سفراء ومتقنين، ولا سيّما السفير الفرنسي شوازل غوفيه حول الفن والتربية وأفكار فولتير ومونتسكيو وسانت مور وغيرهم^(٢).

ويعدّ سليم الثالث الرائد الحقيقي في مجال الإصلاح العثماني. حيث رأى أن يتخلص من النظام الإقطاعي للتخلص من مساوئه وتسلط حكام الأقاليم وتحسين الإدارة^(٣).

فأصبحت مدة حكم الباشوات في الإيالات لا تتجاوز الثلاث سنوات إلا إذا كان الباشا مرضياً عنه من قبل الأهالي^(٤).

وألغى نظام الالتزام وصادر الزعامات والتميمات من أصحابها الذين تقاعسوا عن العون في الحروب السابقة ليكونوا عبرة لغيرهم، ولتدعيم نظام المالكانة صادر الزعامات والتميمات التي تخلو بموت أصحابها، وفرض رسوماً على المنتجات الزراعية كالقطن والصوف بمقدار أسترار^(٥) واحد على الأقة^(٦) واثنين على الغزل، وأسبرين اثنتين على أقة العنب من كورنثة، وعم الرخاء البلاد العثمانية على الرغم من المصاريف الهائلة على المشاريع الإصلاحية حيث ارتفعت قيمة القرش إلى الضعف، فعند تولي السلطان سليم الثالث الحكم كان القرش يعادل ٥٠ نصف بينما أصبح عندما تم عزله ٣٠ نصفاً^(٧).

وفي المركز قام بالحد من سلطة الصدر الأعظم بمنعه اتخاذ أي قرار مهم من دون الرجوع إلى الديوان الاستشاري^(٨). اقترح المجلس الاستشاري الذي شكله

(٣) أوغلي، مرجع سابق، مج ٢، ص ٥٠٥.

(٤) البحراري، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٥) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٧٧.

(١) البحراري، مرجع سابق، ص ١١٠.

2

1

(٢) إسترار: وحدة وزن وزن 2 ٤ متقال (زنة ٤٦، ٤٦ غرام) أو 5 ٦ درهم = ٢٠ غم، محمود علي عامر المكايل والأوزان والنقود منذ فجر الإسلام وحتى العهد العثماني، مطبعة ابن حيان دمشق ١٩٩٧م ص ١٨٦؛ قتيبة الشهابي نقود الشام دراسة تاريخية للعملة التي كانت متداولة في الشام، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٠م ص ٦٣.

(٣) أقة: وحدة وزن عثمانية وزن ٤٠٠ درهم وكل درهم ٣، ٢٠٧ غم = ١، ٢٨٢٨ كغم، عامر، المكايل والأوزان ص ٦٤.

(٤) المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٥) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٧٧.

السلطان باستحداث نظام جديد (NIZAMI-GEDID) يقوم بموازاة النظام القديم المكون من ركيزتين أساسيتين، هما الإنكشارية والنظام التعليمي الديني، والهدف إضعافهما وليس إلغائهما، فكان الاقتراح أن يوجد مقابلهما في مجال التعليم المدارس الجديدة التي تدرس الهندسة والرياضيات وغيرهما من العلوم الوضعية التي كانت مستبعده من النظام الديني التقليدي^(١).

ولتلقينهم تعليم سياسي أفضل من خلال سفاراتهم في لندن وباريس وفيينا وبرلين، وكان على السفراء أن يدرسوا نظم البلاد التي يمثلون الدولة فيها، وأن يتعلموا اللغات والمعارف والعلوم اللازمة لموظفي الإمبراطورية^(٢).

٢- على الصعيد العسكري:

وأما في مجال الجيش فقد أدخل فرقاً جديدة مدربة تدريباً حديثاً، دعاها النظام الجديد ليكون الأداة الوحيدة في الدولة للحكم القوي والدفاع الناجح^(٣).

فشكل بشكل سري في لوند جفتلك (النظام الجديد) بقيادة عبد الرحمن باشا وكان مصروفه سرياً على حساب السلطان. وفي عام ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م وصل الجنرال دوباييت Aubert-dubayet مع مجموعة من الضباط والخبراء في المدفعية، و جلبوا معهم مدفعاً محمولاً على الجرارات ليكون نموذجاً لما سيصنع في الدولة العثمانية. وقد شكلت فيلق المدفعية^(٤).

وأجبر الطوبجيليري العازبين على المبيت في الثكنات للتدريب كما كان سائداً في عهد القوة^(٥).

ثم استغل فرصة خروج الإنكشارية وقادتهم خارج العاصمة، فشكل فرقتين من الفرسان وكتيبتين من المشاة وألحق بهما جماعة من المدفعية وموسيقى عسكرية، ثم كلفهم بحراسة البطاريات على البوسفور بعد رحيل الإنكشارية، وزاد عساكر النظام الجديد بحوالي ستة آلاف من الأسويين، وقد استغل رضا الناس عن النظام الجديد فشكل له مالية جديدة مستقلة على رأسها دفتر دار النظام الجديد بلغ مدخوله عام ١٨٠٠ م بحوالي خمسين مليون قرش تركي وفي عام ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م زاد المصروف عن خمسة وستين مليون قرش تركي، وميز عساكر النظام الجديد باللباس الجديد الجاكيته الحمراء والسرवाल الأزرق أو البني الواسع عند الفخذين والضيق عند الساق ومعطف أزرق^(٦).

كما قام باستبدال السفن العثمانية البطيئة الحركة ذات الأربطة بسفن على النمط الإنكليزي وغير المدافع العالية الثقيلة إلى مدافع عادية، واعتمد على بحارة من الجزائر وساحل أدرياتيك، ولكنه أبقى البحارة اليونانيين ركيزة البحرية العثمانية، وأبطل عادة تسريح البحارة في الشتاء كي لا يترك العاصمة من دون

(٦) كوثراني، الفقيه والسلطان، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٧) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٧٧.

(١) غريبال، مرجع سابق، ص ٩٠.

(٢) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٠١-١٠٢.

(٣) Lewis: The emergence of modern T. p. 56

(٤) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٠٣.

حماية بحرية ولاسيما بعد أن أصبح للروس موانئ قريبة من البحر الأسود فأنشأ ثكنات لهؤلاء البحارة في العاصمة. (١) فبنى المراكب البحرية على نمط المراكب الإنكليزية والفرنسية واستعان بالمهرة الصناع السويديون والفرنسيون (٢). ومنهم بينه Benait وبرن Burn الفرنسيان ودرويه Dorieh الضابط السويسري (٣). لصنع المدافع الحديثة وترجم عدداً من المؤلفات المتعلقة بالفن العسكري ووضع نظاماً للجنود المشاة وأنشأ فرقاً عسكرية جديدة على الطراز الأوروبي (٤).

وقام بتنظيم ثكنات أوجاق الخمبرجية حيث قسمها إلى مجموعات كل مجموعة مكونة من خمسة عشر جندياً يرأسها ضابط يسمى قلفة، وكل خمس مجموعات يرأسها باش قلفة وكان يوجد ستين مجموعة يرأسها ١٢ باش قلفة والكل تحت رئاسة خميرة جي باشي، وقد استفاد السلطان من خبرة الضابط الإنكليزي كامبل Campell في هذا المجال وقد عرف باسم مصطفى باشي أما زميله فقد أطلق عليه الأتراك اسم سليم (٥).

أما أوجاق حفاري الأنفاق (لغمجي) فقد عرفت فيما بعد باسم (مهند سخانة سلطاني)، وأولى اهتماماً للمهند سخانة البحرية الهمايونية وقسمها لشعبتين إحداها باسم فن بناء السفن والثانية فن الخرائط والجغرافية. المهند سخانة البرية وضع لها برنامجاً تعليمياً لتدريس الهندسة بالمعنى الحديث وقد حافظت على تركيبها البيروقراطي التقليدي في أمور الانتقال من الصف الأدنى إلى الأعلى وأمور التخرج والتمسك بمبدأ التسلسل. وبذلك تكون المهند سخانات بداية لمرحلة جديدة في الحياة التعليمية والعلمية في الدولة العثمانية حيث ظهر في هذه المهند سخانات نظام توفيقي بين الأسلوب العثماني والغربي في التعليم (٦).

ولقد لعب حسين رفقي طماني (٥) دوراً بارزاً في هذا المجال من خلال الترجمات الكثيرة التي قام بها للكتب الأجنبية وأصبحت مواد تدرس في المهند سخانات لسنوات عديدة ثم جاء بعده ابنه أمين باشا الذي تابع مسيرة أبيه في إدخال العلم الحديث وإقراره في المدرسة الحربية (مكتبة حربية)، وخلفهم معلم أول للمهند س خانة سيد علي بك الذي له ترجمات عديدة إلى اللغة العثمانية في مجال العلوم الإسلامية (٨).

(٥) المرجع السابق، ص ١٠٧.

(١) طقوش، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٢) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٣) طقوش، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٤) البحراوي، المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٥) أوغلي، مرجع سابق، مج ٢، ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٦) (حسين رفقي طماني أصله من بلاد القرم وهو أول مدرس أول تم تعيينه في المهند سخانة البرية الهمايونية كلف بوظائف عديدة على مدى أربعة عشرة سنة منذ ١٧٩٣ - حتى ١٨١٧ وكلف بترميم الأبنية المباركة في المدينة المنورة. وتوفي هناك عام ١٨١٧. له ترجمات عديدة منها رسالة اللوغارتميات ١٧٩٣ أصول هندسية ١٧٩٧م مجموعة المهندسين ١٨٠٢ امتحان المهندسين ١٨٠٥م تلخيص الأشكال وبه ؛ أصول إنساني طريق رسالة الارتفاع (ارتفاع رسالة سي) جدول القذائف (خميرة جدولي) والمثلثات المستوية.

(١) أوغلي، مرجع سابق، مج ٢، ص ٥٠٩.

لقد سعى السلطان سليم من خلال اهتمامه بالكلية الهندسية إلى رفع مستوى الأتراك في مجال بناء القلاع والحصون، فتقدمت الحركة العمرانية، وكان السلطان يشرف بنفسه على هذه المدرسة في بعض الأحيان وبذل أن يعطي أساتذتها ومهندسيها مرتبات كانوا يعطون تيمارات^(١).

كان لقدم الطاعون مع الحجاج العائدين من مكة المكرمة ١٢٠٨ هـ - ١٧٩٤ م أثر كبير في محاولات سليم الثالث مما جعله يفكر في الإصلاح الصحي، فأنشأ المعازل^(٢). وتأسست مدرسة الترسانة (ترسانة طبية سي) في عام ١٢٢٠ هـ - ١٨٠٦ م وكان المخطط أن يدرس فيها بإحدى اللغات الأوروبية واستيراد الكتب والأدوات اللازمة لها من أوروبا وشراء الكتب و الدوريات الطبية التي تصدر شهرياً من باريس فيينا ولندن وغيرها من العواصم الأوروبية المهمة^(٣).

د- إصلاح محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) م

١- في المجال العسكري:

أما السلطان محمود الثاني فقد بدأ بالإصلاح الحربي لأنه رأى أن الإنكشارية ستكون حجر عثرة لأي خطوة يخطوها نحو الإصلاح والتجديد^(٤). وما إن حدثت الواقعة الخيرية ١٢١٤ هـ - ١٨٢٦ م حتى أخذ السلطان بترتيب وتنظيم الجيوش تحت اسم العساكر المنصورة المحمدية يرأسها القائد العام حسين باشا بلقب سر عسكر باشا، وأطلق على حرس السلطان اسم عساكر خاصة شاهانية وقائدها مشير عساكر خاصة، واستعان ببعض القادمين من مصر للتدريب والتنظيم في العام نفسه بلغ عدد الجند الجديد ٢٠٠٠٠ جندي وفي العام التالي ١٢٠٠٠ جندي .

وقد قسم الجيش الجديد إلى بيادة وسواري وطوبجية ولغمجي وخمبرة جي وبلطة جي وسمي قائد الفرقة بنباشي (قائد الألف) وقائد السرية يوزباشي (قائد المائة) وحددت الرواتب كالآتي:

- باشوات الفرق ٢٥٠٠ قرش، أو ٣٢ علوفة .
- أمراء الإيالات ١٢٠٠ قرش، أو ١٦ علوفة .
- جندي في الفرسان ٢٤ قرش .
- جندي في البيادة ٢٠ قرش .
- كما أنشئت وظائف ومهام أخرى^(٥).
- وأوجد فرقة خمبرة جي وأفراد سكبان^(٦).
- بدلاً من طائفة جيلر التي ألغاهها السلطان .

(٢) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٠٦ .

(٣) المرجع السابق، ص ١١١ .

(٤) أوغلي، المرجع السابق، مج ٢، ص ٥١٥ .

(٥) البحراوي، المرجع السابق، ص ١٦٩ .

(١) Zek can, osmanl, Tarihi, A nkara, 1983.p.152.

(٢) البحراوي مرجع سابق، ص ١٥٢ .

كما أعاد السلطان محمود الثاني إحياء ما أقامه السلطان مصطفى الثالث من مدارس للطوبجية والهندسة البحرية وأقام مدرسة حربية ذات نظام فرنسي لتخريج الضباط عام ١٨٣٠م^(١)، مدة الدراسة فيها أربع سنوات للمشاة وخمس للفرسان، وأنشأ مدارس إعدادية لها في القسطنطينية وأدرنة ودمشق وبغداد وغيرها، وقد ركّز اهتمامه على الفرسان حيث أدخل تغييراً في نظام الركوب والقتال، ولكنه لم يبدل الحصان التركي، كما أقيمت مدارس أخرى على النمط الإنكليزي^(٢).

وتابع السلطان اهتمامه بالمدفعية حتى أنشأ ثلاث فرق فيها ثلاثون بطارية في كل منها ست قطع وأضيفت فرقة خيالة وأخرى للقذائف الخفيفة وفرقة للمهندسين، وجعل لكل مدفع طاقماً مكوناً من عشرة أشخاص ثمانية أنفار ورئيس ومعاون رئيس، وأنشئت مدرسة مدفعية وأخرى هندسية قرب غلطة ترأسها قائد برتبة فريق

وأصبح الصف في تنظيم الجيش الجديد يتشكل من فرقة مشاة وفرقتين من حملة البنادق وفرقتين من الفرسان الخفيفة بحيث يصل مجموع الكلي إلى خمسة آلاف رجل .

وأطلق على صناع الأسلحة اسم جبة خانة بدل جبه جيلر ووضعت لهم تنظيمات جديدة وقوات حرس الحدود فكانت لهم عناية خاصة بالتدريب والتسليح وأصبحوا يعرفوا باسم (سر حد منصوره قلاعي)^(٣) وأخذ بنظام التجنيد الإجباري من بين المسلمين وحدهم ليحافظ على الطابع الإسلامي للدولة وجعل مدة الخدمة عشر سنوات^(٤). وشجع السلطان على فتح المدارس العسكرية منذ العام ١٨٣٤م منها مكتبي علمي حربية^(٥) والتي زودت بمكتبة ومشفى وحمام وصيدلة ومطبعة واستوردت كل تجهيزاتها من أوروبا وعينوا لها نامق باشا خريج أوروبا ومثقف لغاتها^(٦).

وفي العام التالي سمح لحكام الولايات بتشكيل فرق محلية في الأقاليم تساعد الدولة عند الحاجة^(٧).

وأكمل السلطان إصلاحه الحربي بالاهتمام بالبحرية حيث أعيد افتتاح المدرسة البحرية التي أنشأها مصطفى الثالث وبنى لها داراً جديدة وزودها بالمكتبة والأجهزة والأدوات وكان اهتمامه كبيراً بطلابها. وكان السلطان يسر سروراً عظيماً لبناء سفن جديدة ويقام لها الاحتفالات واستعان بالخبرة الأمريكية في بناء السفن^(٨).

(٣) السلحدار، مصدر سابق، ج٤، ص ١٥٣.

(٤) صولاق زاده، مصدر سابق، ص ٢٣٨، وأحياناً ذكرته المصادر صولاق باشا زاده.

(١) صولاق زاده، المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٢) (يذكر لويس أن السلطان أدخل التجنيد الإجباري للدولة لكن كانت مدته خمس سنوات وأما تنظيم الجيش فكان على نسق جيوش أوروبا فالمشاة على النسق الفرنسي والمدفعية على النسق الألماني

Lewis: The emergnce of modern T. T.P.81

(٣) Lewis: The emergnce of modern T. P.80 ؛ أوغلو، مرجع سابق، مج ٢، ص ٥١٩.

(٤) جودت، مصدر سابق، ج٢، ص ٢٥٥.

(٥) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٦.

(٦) رفيق باشا، عثمانلي تنظيماتي، استانبول ١٢٢٧، ج٣، ص ٤٥٨.

ثم أنشأ مدرسة أخرى تضم المتفوقين من طلاب المدرسة السابقة واستعان بالخبرة الإنكليزية في مجال البحرية لكن طاقم السفينة كان على النسق الفرنسي. ثم اتبع المدرستين السابقتين بمدرسة ثالثة في بحر مرمرية.

وأما في المجال الداخلي ولضمان أمن العاصمة فقد استعان بالخبرة الفرنسية في مجال البوليس السري وترجم الكتب المتعلقة بهذا الموضوع لأن العاصمة مزيج من الأقوام والأجناس فتشكلت قوة البوليس السري تحت رئاسة الصدر الأعظم بخبرة رجل فرنسي وأشرف على تنظيمها رجل يوناني ذو خبرة وبأجر كبير جداً.

٢- في المجال القضائي:

على الرغم من أن الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع، فإن السلطان لم يتمتع عن تشكيل لجنة لعمل موسوعة مدنية تدرس القضايا التي لم يرد لها نص لا في القرآن الكريم أو السنة^(١). ووصل الأمر إلى حد تطبيق بعض القوانين الفرنسية ولم يأخذ بعين الاعتبار مخالفتها للشريعة الإسلامية أم لا^(٢).

وأغلق محكمة المصادرة التي تمنع مصادرة الثروات إلا بموجب حكم قضائي، ولم يعد من حق الباشوات تقرير الحياة أو الموت إلا بموجب القانون^(٣). كما أصدر قرار حماية الدولة للورثة صغار السن وأوجد نظام الاستئناف والتظلم أمام أحد قضاة العسكر إلى أن يصل إلى السلطان نفسه في التظلم^(٤).

٣- في المجال التعليمي:

لقد تنوعت المدارس فمنها الابتدائية لتعليم اللهجة العثمانية وقراءة القرآن ومبادئ اللغة العربية، كما انتشرت المدارس التجهيزية التي تعد الطلاب للدخول في المدارس البحرية والطب والزراعة والهندسة والمدفعية، كما أوجد السلطان المدارس الداخلية وقد راجت في الولايات. وخصصت مدرسة مسجد أحمد ومسجد سليمان لتخريج الموظفين المدنيين، فكان طلبتها من المسلمين فقط، وقد أولت هذه المدرسة للغة العثمانية أهمية كبيرة^(٥)، كما اهتم بمدرسة تعليم اللغات وألحق خريجها بالسفارات لإتقان اللغات وألحق بالباب العالي قسماً للترجمة سمي ترجمة أوداسي، وفيما بعد ألحق هذا القسم بالكثير من الدوائر الحكومية^(٦).

واهتم السلطان أيضاً بتنقيف الأمراء، وانتشرت المدارس اليونانية والأرمنية والكاثوليكية، وجمع قواعد أصول اللغة العثمانية، واهتم بالفن والشعر وكانت رعايته للشعراء والفنانين كبيرة جداً، وكان له الفضل في نشر المؤلفات العربية فقد أولى عناية خاصة بالأدب العربي لأنه كان مولعاً به، كما شجع السلطان حركة الترجمة ولاسيما من الفرنسية، وقد أمر بجعل اللغة الفرنسية إجبارية في بعض

(٧) رفيق باشا، مصدر سابق، ص ٤٥٨.

(١) يذكر طارق البشري أنه في القانون الفرنسي يشترك الزوج مع زوجته في الذمة المالية وهذا ما لم تعرفه الشريعة الإسلامية من قبل. البشري (طارق)، المسألة القانونية بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي في التراث وتحديات العصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٥م، ص ٦٢٤.

(٢) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٩١.

(٣) رضا نور، مصدر سابق، ص ١٢٢.

(٤) Enghardt:La Turquie et le Tanzemat V.2 P.8

(٥) Lewis :The Emergensi of modern T.P.87

المدارس وزودها بمكتبات جزء كبير من كتبها بالفرنسية، وللمكتبات أيضاً حظ وافر من الرعاية والاهتمام في عهده فأصبح عددها في القسطنطينية حوالي أربعين مكتبة رئيسية وخمس وعشرين مكتبة فرعية غالبيتها ملحقة بالمساجد، كما أنشئت مكتبات متخصصة كالمكتبة الطبية والمكتبة البحرية^(١).

وساعد على هذا الازدهار الثقافي الاهتمام بالطباعة، فأحيا المطبعة التي أنشأها أحمد الثالث إلى العاصمة، وأجرى تطويراً لها وبنى مطابع جديدة في أسكودار وقميرة خانة، خصوصاً بعد أن سمح رجال الدين بطبع كتب الشرع^(٢). وألحق بمدرسة الطب مطبعة لإصدار الصحيفة الطبية ومطبعة أخرى لإصدار أبحاث العلوم الطبيعية إضافة للمطابع التي كانت موجودة واحدة لليونانيين وواحدة للأرمن وأخرى لليهود. وقام بإنشاء مصنع للورق^(٣).

٤- في مجال الصحافة:

أصدر السلطان محمود الثاني جريدة رسمية (تقويم وقائع) باللغة العثمانية وصدر أول عدد لها في أول تشرين الثاني عام ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م، وأصدر طبعة فرنسية باسم منتير أوتوما، مع العلم أن السفارة الفرنسية كانت قد أصدرت صحيفة باللغة الفرنسية منذ عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م باسم بوليتين دين وفيل، وأصدرت أخرى عام ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م باسم لاجازيت فرانسيزدي كونستانتينول، وفي عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م صدرت صحيفة أخرى ميركور أورينتال، وفي العام ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م، أصدرت صحيفة لوسميرين، وفي العام ١٢٤٤ هـ / ١٨٢٨ م صحيفة دوسميرين، أما الصحيفة العثمانية الثانية التي صدرت كانت عام ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م فكانت جريدة أي حوادث (سجل حوادث)^(٤).

٥- في المجال الاجتماعي:

أما العادات الجديدة التي طرأت على المجتمع العثماني ولاسيما في استانبول فقد كانت كثيرة في عهد السلطان محمود الثاني، فقد افتتح حوالي ثلاثة ألف محل للحلاقة، وفي العام ١٨٢٨ م أخذت المقاهي تزداد، وبنى في حي الإفرنج فنادق للأجانب وسمح السلطان ببناء مسرح على النمط الإيطالي، وألغى الكثير من العادات والاحتفالات القديمة التي كانت سائدة، وانتشرت العادات البسيطة الحديثة. وأمر بوضع صورته في المعسكرات حيث تؤدي لها التحية كما يؤدي لشخصه وأدخل اللباس الإفرنجي وجعله زي الجند النظامي^(٥).

وأصدر الأمر بارتداء السراويل الأوروبية (البنطلونات) والأحذية السوداء والمعاطف الطويلة (الإسطمبولية) والطربوش للموظفين والجنود والبحارة، وقد بدأ بذلك بنفسه حيث أصبح يظهر بمظهر العواهل الأوروبية وقص لحيته وارتدى البنطلون والطربوش والإسطمبولية، وأصبح يظهر أمام الجماهير على عكس

(١) نور، مصدر سابق، ج ١، ص ١٣٢.

(٢) خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة ١٩٦٦ م، ص ٢٧-٢٨.

(٣) نور، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٣.

(٤) مانتران، مرجع سابق، مج ٢، ص ٥٨.

(٥) ismail Hakki, osmanl, Tarhi, Ankara, 1983.s.p.50-52

السلاطين السابقين (السلاطين الذين لا تراهم الشمس) وأخذ يحضر الحفلات والاحتفالات العامة والأوبرات وحفلات رقص البالية واستقدم الموسيقيين الغربيين^(١). ومنذ تلك الفترة أخذت استانبول تقسم إلى قسمين بيزنطة القديمة ذات الطابع الإسلامي، وغلطة وبيرا ذات طابع فرنسي يسكن فيه الإفرنج سمّاه الأتراك بك أوغلو .

وحماية للعاصمة من الحرائق فقد استخدمت الحجارة في بناء البيوت والمخازن وبني برج الحريق من الرخام بارتفاع ١٥٠م^(٢). ونقل السلطان محمود الثاني مسكنه من قصر طوب قابو إلى قصر دولما باخشتي عام ١٨١٤م الذي بني على الطريقة الغربية^(٣).

٦- في المجال الإداري:

ألغى السلطان محمود الثاني الكثير من الوظائف الشرفية وبدأ بحاشيته حيث ألغى كل الوظائف والألقاب التي ليس لها عمل محدد^(٤)^(٥).

أما ما بقي من تغيير في المجال الإداري فمعظمه كان شكلياً فقط، فالصدر الأعظم الذي يترأس الباب العالي أصبح يعرف (باش وكيل) الوزير الأول وقد قيدت سلطته حيث أصبح يتوجب عليه استشارة الديوان في كل الأمور المهمة^(٦).

وبتحول الدولة إلى وزارات تحول الوكلاء إلى نظار (وزراء)، ومساعد الصدر الأعظم للشؤون الداخلية أصبح يعرف أمور - أي ملكية ناظري بدل كيخوداسي ثم يعرف بوكيل - أي داخلية (وزير الداخلية) وإدارة الشؤون القضائية نظارة أي عدلية تتحول إلى وكالة أي عدلية (وزارة العدل) والشؤون المالية (مالية الجيش والخزانة السلطانية) تتجمع في وكالة أي - مالية (وزارة المالية)، والشؤون الخارجية للدولة تصبح وزارة حقيقية (وكالة أي خارجية) وتتبع لها التجارة الخارجية ويتم توقيع الاتفاقات الخارجية بصيغ جديدة، كما أنشئ مجلس أي نافعة الذي يهتم بالزراعة والتجارة ثم ينفصلان عن بعضهما حيث يتم إنشاء مجلس لدراسة مشاريع القوانين يسمى مجلس أي شوري باب-أي عالي^(٧).

واتجهت الدولة إلى فصل السلطة المدنية عن العسكرية وحددت واجبات القائماقين والولاة الذين يديرون الولايات والسناجق، وقد تحولوا إلى موظفين فقط لهم سلطة مدنية ويمكن تغييرهم علماً أن صلاحياتهم قد توسعت وارتبط راتبهم بدرجاتهم وإتقانهم للعمل، وتحولت الإيالات إلى هيكلية إدارية يتألف منها كيان الدولة الموحد، وتشكلت المجالس الإدارية (من رجال الدين والملاكين الكبار

(٢) Hakki مرجع سابق، ص ٥٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٥٥.

(٥) المرجع السابق، ص ٥٥.

(٦) من الوظائف التي ألغيت بوستانجي باشي، سلحدار أغا، خادم أول مجلس، حافظ العمامة، حافظ الأبريق، كبير الركب، قهوجي باشي، توفينكجي باشي، حارس البلبل، حارس الببغاوات، حرس السهم والقوس، وأنقص حملة الرمح إلى مئتين والحجاب إلى ثلاثين وأنقص عدد كتاب الخزنة. البحراوي، مرجع سابق، ص ٢١٥.

(٧) السلحدار، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٥٢.

(١) مانتران، مرجع سابق ج ٢ ص ٥٣-٥٤.

والتجار) يتبعون للولاية. وجباية الضرائب أصبحت من اختصاص موظف مختص اسمه (الدفتردار) مستقل عن الوالي ويتبع له المحصل الذي هو رئيس مصلحة الضرائب في السنجق وهو بدوره مستقل عن القائمقام^(١).

واستحدثت في الدولة ثمان وعشرون ولاية في الأناضول والروميلى وعدد وزراء يماثلون عدد هذه الولايات، وتعيين الوزراء أصبح بحسب الكفاءة والترقية تتم خلال مدة أدناها ثلاث سنوات وأقصاها خمس سنوات، وأصدرت الدولة (قانون نامة) الذي تضمن كل هذه الإجراءات الإدارية والتشكيلات والتعديلات^(٢).

كما صُنِفَ الموظفون في ثلاث فئات عام ١٨٣٥م الكوادر المدنية (القلمية) والكوادر العسكرية (السيفية) والكوادر الدينية (العلمية) والأولى تتبع للصدر الأعظم والثانية للقائد العام للجيش (سر عسكر) والثالثة لشيخ الإسلام، وتأسس تسع درجات بين هؤلاء الموظفين ويعرف باسم مأمور ولكل راتبه حسب وظيفته^(٣).

وأما الطلاب الذين يودون الالتحاق بالوظائف الحكومية فقد أنشئت لهم مدرسة التعليم العدلية ومدرسة التعليم الأدبي باللغتين العربية والفرنسية^(٤).

وحرصاً على تخريج موظفين أكفاء للدولة قام السلطان بإنشاء مدرستين الحقناً بمسجدي سليمان وأحمد، طلابها من العناصر المسلمة فقط لرفد دوائر الدولة بموظفين مختصين ثم أنشأ مدرسة ثالثة ضمت عناصر غير مسلمة فكثر من خلالها العناصر غير المسلمة في وظائف الدولة، ومدرسة تعليم الموظفين (مكتبي عرفانية) فقد أنشأها محمود الثاني عام ١٨٣٩م أواخر أيامه كانت تدرس فيها المواد باللغة الفرنسية بالإضافة إلى العلوم الحديثة وذلك لتولي المناصب العليا في الدولة من خريجي هذه المدرسة^(٥).

كما أن السلطان محمود الثاني اعتمد المقاييس الفرنسية في دولته لتوحيدها^(٦)، وليتجاوز اختلافها.

وفي مجال البريد فقد أوجد النظام البريدي لضمان عدم ضياع الرسائل ووصولها إلى الولايات وبالعكس من خلال تسجيل الرسائل المتبادلة في سجلات خاصة وتحديد المسؤولين عنها^(٧).

٧- في المجال الطبي:

بدأ الإصلاح الطبي الفعلي في عهد السلطان محمود الثاني حيث لم يكن الوعي الصحي ولا الإجراءات التي تتخذها الدولة ضد الأوبئة كافية، نظراً لكثرة الأمراض وانتشار الأوبئة المعدية، فاقتربس السلطان الإجراءات الصحية الأوروبية كقاعدة لمواجهة هذه الأخطار، فأنشأ المعازل الصحية في كل أنحاء الدولة وأقيمت العديد

(٢) لوتسكي (فلاديمير) تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار الفارابي، بيروت، ط٨، ١٩٨٥م، ص ١٥١.

(٣) أولياء جلبي، تحفة التواريخ، استانبول ١٢٢٦، ج ١، ص ٧٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٧٩.

(١) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٩٢.

(٢) السلحدار، مصدر سابق، ج ٤، ص ٤٥١.

(٣) كاتب جلبي، وقعة نونيس، استانبول ١٢٣٠، ص ٢٨٧.

(٤) Lewis: The emergence of modern. T.P49

من المشافي ومكاتب التحصين والصيدليات، وعمد إلى نشر الوعي مدعماً بالفتاوى الشرعية وأصدر العديد من القوانين والأنظمة التي تدعم الإصلاح الصحي^(١). ومن أبرز الشخصيات التي ساهمت في إدخال الطب الحديث إلى الدولة العثمانية شاني زادة محمد عطاء الله أفندي الذي نقل علم التشريح وله كتاب شهير في الطب (خمسة شاني زادة) وكان عالماً متعدد المواهب ومبدعاً في مجالات علمية عديدة^(٢).

ومن مؤلفات الطب التي ظهرت في عهد الإصلاح الطبي (معيار الأطباء) كما قدم كهدية للسلطان الكتاب الطبي (مرآة الأبدان في تشريح جسم الإنسان)^(٣). أما الشخصية الثانية فكانت الحكيم باشي مصطفى بهجت أفندي الذي وضع الأسس العلمية الطبية الأولى في الدولة العثمانية والذي أشرف عام ١٨٢٧م على تأسيس دار الطب العامرة (طب خانة عامرة) في استانبول وأدرج مقررات اللغة الأجنبية لتدرس في دار الطب ودار الجراحة فكانت الإيطالية أولاً ثم الفرنسية ثانياً^(٤).

والأمر الأكثر غرابة هو الطبيب النمساوي (س. إمبرواز برنارد ١٨٣٩-١٨٤٤م) الذي عطف على أولئك الطلاب الذين تعلموا في المدرسة مدة أربع عشر سنة من دون أن يتخرجوا فقام بتقسيم المدرسة إلى صفين الأول لمن يعرف الفرنسية والثاني لمن لا يعرفها وقام بتخريج أولئك الذين زادت مدة تعليمهم على أربع عشرة سنة، وهم إما أطباء أو صيادلة أو جراحين حسب درجاتهم مراعيًا بالدرجة الأولى من يعرف الفرنسية، أي هم في المقدمة، والذي لا يعرفها يجبر على تعلمها. وكانت البداية لفرنسة المنهاج بأكمله في المدرسة وألغى المواد الدينية والعربية التي كان مصطفى بهجت أفندي قد وضعها وأبقى على الفرنسية فقط، فكان لذلك أثر سلبي على إقبال الطلاب المسلمين إلى المدرسة فتناقصوا بشكل كبير في حين زاد الطلاب غير المسلمين الذين يتقنون الفرنسية، وبالتالي فإن هؤلاء حصلوا على بعثات الدولة إلى الخارج على حساب المسلمين. وأول من تنبّه إلى هذا الموضوع جمال الدين أفندي الذي عين ناظرًا للمدرسة الطبية عام ١٨٦٥م حيث عمد إلى زيادة عدد الأطباء المسلمين وأسس مدرسة طب مدنية (مكتب طبية ملكية) مدتها خمس سنوات والتعليم فيها بالعثمانية^(٥).

أما الخطوة الأخرى وهي الاعتماد كلياً على العلوم الحديثة في المهندسخانات العثمانية وترك العلوم التقليدية وعدم الرجوع إليها فلم تتم إلا عندما أصبح إسحاق أفندي^(٦) المعلم الأول للمهندس خانة عام ١٨٣٠م.

(٥) جليبي، المصدر السابق، ص ٢٩١.

(١) المصدر السابق، ص ٢٩١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٢.

(٣) أوغلي، مرجع سابق، مج ٢، ص ٥١٦.

(٤) سجلات الديوان الهمايوني، سجل رقم ١٣، ص ١٤٠.

(١) إسحاق أفندي يهودي الأصل أسلم منذ صغره من خريجي المهندسخانة البرية الهمايونية وعمل مترجماً في قلم الديوان الهمايوني وقد جمع في الفترة ١٨٢٦-١٨٣٤م عشرة كتب في ١٣ مجلد أعدها من المصادر الأوروبية وهو أول من استخدم المصطلحات العلمية العثمانية رغم اعتماده على الكتب الأجنبية في كتبه، من كتبه (ركز ونصب الخيام) و(تحفة الأمراء في حفظ القلاع) (أصول الصياغة)، خاص بصب المدافع

٨- في المجال الاقتصادي:

أ- التجارة

نشّط السلطان محمود الثاني التجارة الداخلية فكثر البازارات بجعل الدولة العثمانية بلد التجارة الحرة^(١). ففي الأمر السلطاني الموجه إلى كل من والي حلب وقاضيه للإشراف على حسن تنفيذ بنود الاتفاقية للرابطة التجارية المعقودة بين كل من الدولة العثمانية ودول أوروبا والعجم والهند^(٢). فعقد الاتفاقات التجارية وسهل عملية نقل البضائع وأنشأ طرق المواصلات وأكثر منها ولاسيما في البلقان، كما ثبت الرسوم المقررة على الصادرات والواردات، فالرسوم على الواردات ٥٪ وعلى الصادرات ١٢٪ منها ٩٪ عند وصول البضائع إلى مكان الشحن و٣٪ عند شحنها. ولكي يحد من تكرار دفع الرسوم أو الضرائب فقد أمر بتسليم تذكرة (إيصال) تثبت تسديد الرسم أو الضريبة (إيصالات) فانتعشت الحياة التجارية في البلاد^(٣).

وبذلك انتعشت خزائن التجار الأوروبيين لما حققوه من أرباح طائلة لما تمتعوا به من تخفيض أو ربما إعفاء من الرسوم والضرائب الجمركية على بضائعهم في حين التجار المحليون يتحملون عبء تغطية الإعفاءات السابقة الذكر. ولم يشمل الإعفاء التجار وحسب وإنما شمل السماسرة لهؤلاء التجار من الذميين المحليين^(٤). كما أن هذا الانتعاش التجاري أنعش البضائع الأجنبية وقضى على الزراعات و البضائع المحلية ولاسيما التي لا يحتاجها المعمل الأوروبي كمادة أولية لصناعاته. وبضغط من الرأسمال الأجنبي اتسمت الزراعة بسمّة الإنتاج البضائعي فأصبح يزرع في سوريا وفلسطين القطن والحبوب والصوف ووقع الفلاح في حالة تبعية للسوق الرأسمالية العالمية وأصبح الاقتصاد ملحقاً يزود الصناعة الأوروبية بالخامات الزراعية^(٥). فلماذا السلطان يشجع زراعة القطن ويعطي مزارعيها ميزات خاصة؟ ألم يكن من الأولى أن يشجع زراعة الحبوب محصول الغذاء الرئيسي لسكان إمبراطوريته.

كما أن السلطان محمود أشرف بنفسه على سك العملة لمنع الغش ولمنع الهدر المالي الكبير من قبل الحكام والولاة وأمر بأن تصل كل الواردات المالية للدولة إلى بيت المال وتضع ميزانية لها لتقدير الإيرادات والنفقات وتنظيم مشتريات الحكومة من حيث الكمية والصنف^(٦). والأمر السلطاني الموجه إلى والي حلب جلال الدين باشا وقاضيه ورئيس جمركها وضباطها ينص على الرجوع إلى التعليمات الصادرة عن الباب العالي للتعامل بالنقود الذهبية وخلافها بعد أن عم الفساد في

وأهم كتبه (مجموعة العلوم الرياضية) في أربع مجلدات، وله (أصول الاستحكامات) و(عكس المرايا في أخذ الزوايا) وله ؛ (قواعد الرسومات). أوغلي، المرجع السابق، مج ٢، ص ٥١٠-٥١١.

(٢) البحر اوي، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٣) الأوامر السلطانية لولاية حلب، سجل رقم ٣٦، وثيقة ٦٥، قيدت في ١٥/صفر/١٢٣٠هـ، ص ٥١-٥٠.

(٤) البحر اوي، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٥) في الوثيقة رقم ٥٣، من سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم ٣٦، التي حررت في ١١/صفر/١٢٣٠هـ منح الذمي (صادر أو غلو حنا)، كافة الامتيازات والإعفاءات من التكاليف الشاقة بموجب التعليمات السامية، ص ٤٠.

(١) لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٢) البحر اوي، المرجع السابق، ص ٢٢٣-٢٣٢.

نسب تداول هذه النقود وأدت إلى الإضرار بمصالح الدولة والمواطنين^(١).

ب- الصناعة:

وفي مجال الصناعة شهدت تطوراً مرموقاً حيث انتشرت مصانع الورق ذات الجودة العالية ومصنع الأسلحة ومصنع لصناعة مستلزمات السفن ومصنع للبارود ومصانع النسيج التي تطورت بالاستفادة من الخبرات الفرنسية في هذا المجال . ولتشجيع حرفة الصيد فقد خفف ما تجبیه الدولة منهم بما يتناسب مع مداخلكم^(٢).

ج- الزراعة

لقد أنشأ مدرسة للزراعة وأخرى للطب البيطري وطهر القنوات ومد طرق المواصلات لتسهيل نقل البضائع وتزايد المزارعون بعد أن حدّ السلطان من نظام الإلتزام والاحتكار وجعل جمع العشور جمعاً مباشراً على أساس متوسط الإنتاج وأبطل الطرق القديمة في تقدير الخراج وشكل لجنة مؤلفة من القاضي والباشا وعدد من الأعيان لتقدير الخراج على المحاصيل الزراعية للمزارعين، حيث كان ممنوعاً على الفلاح الاقتراب من محصوله حتى يأتي جامعو الضرائب ولو طال الزمن وبقي المحصول عرضة للتلف والنقص^(٣).

فعلى سبيل المثال الأمر السلطاني الذي صدر فيما يخص محصول التبغ والذي يلزم تطبيق التعرفة المقررة عند بيع المحصول في مراكز استانبول وحلب إلى التجار وعدم ترك مجال لتدخل أي طرف آخر^(٤). كما وضع أراضي الوقف تحت إشراف الدولة، وأعطى مزارعي القطن كما ذكرنا سابقاً امتيازات خاصة، كما أصدر قراراً بمسح جميع الأراضي وتسجيلها بأسماء مالكيها^(٥).

ر- إصلاحات السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١)م:

١- فرمان كلخانه خطي ١٨٣٩م:

أخذ الإصلاح في عهد السلطان عبد المجيد منحى آخر يستوجب الدعاية والإعلان عنه بمشهد حافل من رجال الدولة وسفرائها لتغطية الخلل في الدولة من جهة ولكسب تأييد الخارج من جهة أخرى. وفي الحقيقة إن الوضع الذي تسلم فيه السلطان عبد المجيد سدة الحكم لا يحسد عليه حيث الدولة تقف على حافة الانهيار بلا جيش يزود عنها ووالٍ متمرد يقف على أبواب عاصمتها لا يردعه عنها سوى خشيته من عيون أوروبا التي ترتقبه. فما كان من السلطان الجديد إلا أن يلفت

(٣) الأوامر السلطانية لولاية حلب، سجل رقم ٣٦، وثيقة رقم ٥، صادرة من القسطنطينية إلى ولاية حلب، حررت أواسط ربيع الأول ١٢٢٩هـ، قيدت ٢٨ رمضان ١٢٢٩هـ، ص ٣. وقد جاءت التعليمات لتطبيق النسب التالية: ١- فئة يلدز التوني = ١٣ قرشا ٢- فئة مجر التوني = ١٢,٥ قرشا ٣- فئة فندق التوني = ١٠,٥ قرشا ٤- فئة زر محبوب التوني = ٨ قرشا ٥- فئة مصر زر محبوب التوني = ٧ قرشا ٦- فئة الريال = ٥,٥ قرشا وعشر بارات ٧- فئة والفئات الأخرى = بحدود ٥,٥ قرشا ٨- فئة التون اسبانيا المفرد = ٩,٣٠ قرشا ٩- فئة التون اسبانيا المزدوج = ٢٣ قرشا وعشر بارات .

(٤) سجلات الديوان الهامبوني، سجل رقم ١٣، ص ١٤١.

(١) البحراوي، مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٢) الأوامر السلطانية لولاية حلب، سجل رقم ٣٦، وثيقة ٢٥، من القسطنطينية إلى ولاية حلب في ٢٤ جمادى الأولى ١٢٢٩، ص ٢١.

(٣) Lewis: The Emergence of modern. T.P.88

الانتباه إليه بالمنشور كلخانة^(١) على الرغم من أنه قد أعد في عهد سلفه ولكنه بإصداره ظهر كمصلح أمام الشعب والأجانب، فقد تم إعلانه^(٢) في جو حافل بالصلوات وضرب المدافع حيث تعهد السلطان من خلال هذا الخط بالقيام بالإصلاحات وباحترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص من دون النظر إلى عقيدته وجنسيته كما وعد بعدم المعاقبة من دون محاكمة، ووعد بالنظر في الضرائب وحسن توزيعها وتطوير طريقة جبايتها، كانت تلك بداية احترام الفرد والفردية والدفاع عن الملكية الشخصية، وإيداناً بانتهاء نظام الالتزام والاعتراف بحرية التجارة للجميع في جميع أنحاء الدولة مما مهد لزيادة النشاط الرأسمالي الأجنبي الدولة^(٣).

وبموجب هذه التنظيمات سمح لغير المسلمين بامتلاك الأراضي الزراعية في الأناضول وكان ذلك للمرة الأولى. كما أدى ذلك وما تبعه من قوانين زراعية إلى ظهور طبقة متوسطة اعتمدها الأساسي على الزراعة^(٤).

وتتلخص النقاط الأساسية في هذا الخط الهمايوني بما يلي:

١- إن مخالفة الدولة العلية لمبادئ الشرع الإسلامي من القرآن الكريم والسنة الشريفة هو السبب وراء التقهقر والضعف الذي تعاني منه الدولة منذ ١٥٠ سنة.

٢- إعادة النظر في الضرائب بدءاً من صدور هذا الخط بحيث يفرض على كل شخص ضريبة ويركو تتناسب مع أملاكه وقدرته وبذلك يوضع حد لفساد الجباة وتظلمهم.

٣- تنظيم قوانين الخدمة العسكرية حيث يؤخذ من كل قرية أو بلدة حسب قدرتها وعدد سكانها وتحدد مدة الخدمة بأربع أو خمس سنوات.

٤- إصلاح النظام الإداري والقضائي في الدولة العلية للوصول إلى تقوية الدولة وإعمارها وتوفير الأمن والحفاظ على الأعراض والنفوس وتأمين الحرية للجميع.

٥- التوعد بالتأديب والعقوبة لمن يخالف هذه القوانين التي وضعت لإحياء الدين والدولة، كما أن السلطان حذر من الرشوة، عذّها من الكبائر التي تؤدي إلى خراب الدولة والملك.

وفي نهاية الخط يؤكد السلطان على ضرورة تعميم هذا الخط الشريف على كل ممالك البلاد وإلى كل دولة لها سفارة في الدولة العلية^(٥).

من الملاحظ أن السلطان قد تنازل عن بعض سلطاته القضائية لمجلس الأحكام القضائية لسن القوانين اللازمة على أن يصادق عليها هو في النهاية. كما أنه لم

(٤) كلخان: قصر الزهور، محل الورد وهو أسم الحديقة التي قُرى فيها الخط الشريف في ٢٦/شعبان/١٢٥٥هـ. ٣/ ١١/ ١٨٣٩م،

(٥) في الملحق رقم (٣) النص الكامل لخط كلخانة نظراً لأهميته في موضوع البحث

(١) جلال يحيى، العالم العربي الحديث، دار المعارف، مصر ١٩٦٦م، ص ٢٠٠.

(٢) أولياء جلبي، تحفة الكبار، مصدر استانبول ١٢٢٦، ص ٢٥٠.

(٣) الدستور، ترجمه إلى العربية نوفل نعمة الله نوفل، مراجعة وتدقيق خليل أفندي خوري، مجلدان، المطبعة الأدبية، بيروت ١٣٠١هـ، ج ١، ص ٤-٢. سأشير إلى المصدر باسم الدستور فقط.

يتطرق إلى الناحية التعليمية ولو حتى بكلمة واحدة^(١).

على الرغم من ذلك فقد شهد التعليم نهضة كبيرة فصدر عام ١٨٤٥م قانون نادى بالتعليم المجاني والإجباري على الرغم من أنه بقي نظرياً فقط، فقد كان له نتائج إيجابية حيث أشرفت الدولة على المدارس الملحقة بالمساجد وأنشئت المدارس العلمانية التي تدرس التاريخ والجغرافيا ومبادئ الحساب كما تأسست في العاصمة مدارس خاصة أعدت الأطباء والضباط والحقوقيين، ثم أنشئت وزارة المعارف عام ١٨٤٧م.^(٢) وقد كان إنشاء هذه الوزارة بمنزلة إنذار بتصفية الأنظمة التقليدية من التعليم الإسلامي، لأن منهجية هذه الوزارة في العمل غربية بحتة من حيث الإدارة والتعليم والمناهج، حتى الهدف منها كان لتخريج أجيال متشبعة بالفكر الغربي ومفاهيمه ونظرياته. وبهذا أقصى المسجد وحُرم من أداء دوره في تعليم أصول وأحكام الشريعة الإسلامية^(٣). وتبدأ المأساة عندما يتخرج الطالب فيجد أن إطار دولته قد ضاق عليه كثيراً ولا يمكنه أن يجد فيها ما تعلمه فيتطلع إلى الغرب^(٤).

كما أرسلت الدولة بعثات طلابية إلى أوروبا فعادوا مفعمين بالحضارة الأوروبية وأرادوا تطبيق ذلك في بلادهم^(٥).

ففي الفترة ١٨٤٨-١٨٥٦م تم إيفاد خمسين طالباً إلى باريس فقط من مسلمين وغير مسلمين وفي ٦ تشرين الثاني ١٨٥٧م أنشئت مدرسة (مكتب عثمانى) في باريس بحفل خاص تحت رعاية وزارة التعليم الفرنسية للإشراف على الأعداد الكبيرة من الطلاب العثمانيين في باريس^(٦).

وفي ١٦ آذار عام ١٨٤٦م ١٠ ربيع الآخر ١٢٦٤هـ تم افتتاح دار المعلمين لأول مرة في الدولة العثمانية لتخريج المدرسين على النظام الحديث وعين أحمد جودت باشا أول مدير لها.

وافتتحت مدارس رشديه للإناث في العام ١٨٥٨م وعلى الرغم من حاجة هذه المدارس إلى المدرسات وليس إلى المدرسين فقد تأخر افتتاح دار المعلمات حتى العام ١٨٧٠م في آيا صوفيا^(٧).

وفي العام ١٨٤٧م كان هناك تجربة لافتتاح مدرسة التعليم الزراعي (زراعت تعليمخانة سي) لتطوير زراعة القطن وتلبية احتياجات مصنع النسيج. وخصص لها إحدى المزارع لتكون مركزاً تعليمياً لها واستقدم الخبراء الأجانب للتعليم فيها. وقد ضمت طلاباً مسلمين ومسيحيين حتى من خارج الدولة، وفي عام ١٨٥٠م ألحقت المدرسة بنظارة الأشغال العامة ثم ما لبثت أن أغلقت بسبب نقص الطلاب وعدم

(٤) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٢١٧.

(١) لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٥١. ؛ السيد، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة تنظيمات، ص ٨٠.

(٣) العزاوي، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٤) سجل مهام الديوان الهمايوني، رقم ١١٠، ص ٨.

(٥) أوغلي، مرجع سابق، ص ٥٢٣.

(٦) المرجع السابق، ص ٥٤٠-٥٤٢.

وجود منهاج باللغة العثمانية^(١).

أما في المجالات الأخرى فكان لعودة رشيد باشا بقوة بعد إبعاده في نهاية أزمة محمد علي أثر كبير في دفع العمل الإصلاحي في الدولة ولاسيما أنه أعطي صلاحيات واسعة، فأخذ يدرب البيروقراطيين لينفذ أفكاره الإصلاحية، فأنشأ المحاكم المختلطة ووضع حدوداً دنيا لمرتبات الضباط والموظفين وأعاد تنظيم الجيش مقسماً إياه إلى قسمين القوات النظامية والأخرى الاحتياطية^(٢).

وحدد مدة الخدمة العسكرية بخمس سنوات ومن ثم يعود الجندي إلى ولايته حيث يخدم في جيش الولاية الرديف مدة سبع سنوات، وأصبح على كل ولاية أن تقدم أعداداً محددة من المجندين بحسب عدد سكانها. ولكي تكون عملية جمع الجند دقيقة أجرى إحصاء لعدد سكان الإمبراطورية عام ١٨٤٤م وكان التجنيد محصوراً بالمسلمين فقط حتى عام ١٨٥٥م حيث صدر القرار بأن تشمل الخدمة العسكرية جميع رعايا الدولة كافة، فاعترض المسيحيون على هذا القرار وأيدتهم الدول الأوروبية في موقفهم المعارض، وبالتأكيد ربحوا الموقف وخسرت الدولة وكان الستار (بدل عسكرية) ضريبة جديدة يؤدونها بدل الخدمة العسكرية^(٣).

كما أصدر رشيد باشا في عام ١٨٥٠م القانون التجاري على غرار القانون الفرنسي وأنشأ المحاكم المختلطة للنظر في القضايا التجارية التي قد يكون أطرافها أجانب وقد عمل في هذه المحاكم قضاة أتراك وأوروبيون، وأخذت تنظم حملات تفتيش دورية على الولايات وتشكل مجلس مشورة من الأهالي في كل ولاية لمساعدة الوالي في إدارة شؤون الولاية^(٤).

وصدرت فرمانات أخرى بتأسيس مصرف الدولة، وإصدار أوراق نقدية، وإنشاء جامعة عثمانية.

٢- فرمان همايون خطي ١٨٥٦م:

وأما المرسوم الآخر الذي أصدره السلطان عبد المجيد فكان خط همايون، الشرط الأوروبي لإنهاء حرب القرم ولقبول الدولة العثمانية ضمن المجموعة الأوروبية فجاء أكثر أوروبية وأكثر شمولاً ودقة وأكثر بعداً عن جذور الدولة العثمانية وشريعتها الإسلامية^(٥).

ومن أهم الأمور التي تطرق إليها خط همايون^(٦)

١- إقرار امتيازات الطوائف وكل طائفة تقدم مقترحاتها للباب العالي .

٢- المساواة بين جميع الطوائف من حيث:

أ- تأمين الحرية الدينية وحرية ممارسة الشعائر .

ب- المساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات ولا سيما الخدمة العسكرية .

(١) سجل مهام الديوان الهمايوني، رقم ١١٥، ص ٣٤.

(٢) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٠٤.

(٣) سجل مهام الديوان الهمايوني، رقم ١٠٥، ص ٧٧.

(٤) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(١) سجل أوراق مهمة دفترية، رقم ١٢١٣، ص ٩٣.

(٢) في الملحق رقم (٤) النص الكامل لمنشور همايون.

- ج- حق التعيين للجميع في الوظائف لخدمة الدولة .
د- للجميع حق الاستفادة من خدمات الدولة التعليمية .
هـ- يحق للجميع تملك الأراضي في الدولة .
و- عدم الحط من شأن أي طائفة أو التلطف بألفاظ تسيء إلى غير المسلمين .
ز- السماح لرؤساء الطوائف والجماعات بمشاركة الباب العالي بمناقشة القضايا المتعلقة بهم .
٣- إنشاء المحاكم المختلطة والشرعية والمحاكم الطائفية .
٤- منع موظفي الدولة من التزام الضرائب .
٥- تنظيم ميزانية الدولة بسجلات خاصة وبدقة .
٦- تعهد السلطان بإجراء الإصلاحات الشاملة في الزراعة والتجارة والمالية والمواصلات والمعارف^(١) .

وهناك أيضاً عدة نقاط أشار إليها الخط؛ وهي المحافظة على الامتيازات التي يتمتع بها رؤساء الملل غير الإسلامية مع أنه كان يدعو إلى المساواة، والوعد بإنشاء البنوك والاستعانة برأس المال والخبرات الأوروبية للإصلاح والتطوير، كما ألحق بالخط مذكرتين إحداهما: تفيد بعدم تطبيق حكم الإعدام على المرتد عن الإسلام وجاءت هذه المذكرة تأكيداً للفرمان الصادر عام ١٨٤٤م، أما الأخرى تفيد بأن السلطان حظّر نقل العبيد إلى أراضي الدولة^(٢) .

يتضح من خلال هذه النقاط أن الخط الهمايوني هو مشروع أوروبي الفكرة والمضمون والهدف، فقد كان حافزاً كبيراً لتقوية المشاعر القومية لرعايا الدولة غير المسلمين وبالتالي كان إسفيناً يدق في نعش العثمانية ووحدة شعبها وأراضيها، وأن قراراته قد أعدت من قبل سفراء دول أوروبا من دون حضور رشيد باشا وفؤاد باشا وعالي باشا^(٣) .

فانتقده رشيد باشا وشيخ الإسلام بقولهم إنه قد ذهب أشواطاً بعيدة إلى الأمام باتجاه الغرب وليس بالإصلاح التدريجي وأن ربطه بمعاهدة عام ١٨٥٦م يشكل خطراً على السلطان والدولة^(٤) .

وقد وجد من ناحية أخرى أنه تعبير جديد للعلمانية التي غزت الدولة العثمانية وجاء غطاءً جيداً لحركة التبشير الغربي التي يؤيدها كاننج ١٨٥٦م السفير الإنكليزي في الدولة العثمانية^(٥) .

ثم تبع هذا الخط مجموعة من القوانين التنظيمية منها، قانون الأراضي الصادر عام ١٨٥٨م وقد كان الهدف منه التخلص نهائياً من نظام الالتزام والإقطاعات العسكرية وتحسين أحوال الفلاحين وتنظيم الأراضي الأميرية والمتروكة والموات^(٦) . وتبعه في عام ١٨٥٩م لوائح خاصة بسندات الطابو^(١) .

(٣) الدستور، ج ١، ص ٥-١٠، عمر، مرجع سابق، ص ٢٧٧-٢٧٨ .

(١) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢١١-٢١٢ .

(٢) سجل الديوان الهمايوني، رقم ١٠٩، ص ٨٤ .

(٣) المصدر السابق، ص ٨٥ .

(٤) سجلات الديوان الهمايوني رقم ١٠٩، ص ٨٤ .

(٥) طقوش، مرجع سابق، ص ٤١٦ .

لكن تطبيق هذا القانون على أرض الواقع جاء بنتيجة عكسية لأنه بدلاً أن يخفف عن الفلاح ويصب في مصلحته ويساعده على تملكه قطعة أرض فقد جاء لصالح الملتزم، لأن الفلاح لم يكن لديه المبلغ اللازم تسديده لتملك الأرض، بينما استغل الملتزمون والملاكون الكبار الفرصة واستولوا على الأراضي الشاسعة بسندات تملك رسمية^(٢).

وفي عام ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م صدر قانون التجارة، وأخذت القوانين العلمانية تتوغل في الدولة العثمانية الإسلامية الطابع لتوسيع مبدأ المواطنة فصدر القانون الجزائي عام ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م مقتبساً من النموذج الفرنسي. أما المجموعة القضائية فبدأت عام ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م فوضعت قوانين جديدة على أساس أن يلحق المجتمع العثماني بالمجتمعات العصرية فألغيت العقوبات من دون محاكمة قانونية^(٣) وأشرف على إصدار هذه المجموعة (أحمد جودت باشا ١٢٣٩-١٣١٣ هـ / ١٨٢٣-١٨٩٥ م)، حيث ترأس لجنة مؤلفة من أفضل مشرعي ذلك العصر استمرت في عملها سبع سنوات ووضعت ستة عشر مجلداً من القوانين ثم صدرت مجلة الأحكام العدلية ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م^(٤).

ز- إصلاحات السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٥)م:

كان على السلطان الجديد أن يسير في الطريق الذي سار عليها أسلافه لتخليص الدولة من وضعها المتردي ولاسيما الوضع المالي كي لا يسمح للدول الأوروبية بالتدخل في شؤون دولته قام بضغط النفقات. فبدأ بإلغاء تعدد الزوجات لكثرة نفقاتهن واستغنى عن الكثير من موظفي بلاطه للتوفير من جهة وكى لا يعترض أحد على هذه الإجراءات إذ إن السلطان قد بدأ بنفسه. ولكن هذه الإجراءات لم تكف، لأنه قد ورث عجزاً مالياً كبيراً وأخذ الاستدانة من الدول الأوروبية وبفوائد كبيرة جداً حتى أصبح تسديد فوائد هذه الديون يضطر الدولة إلى التنازل عن بعض إيراداتها لتسديدها^(٥).

١- على صعيد التعليم:

وعلى الرغم من هذه الضائقة المالية التي كانت الدولة تمر بها فقد تابع السلطان عبد العزيز الاهتمام بالمجالات الإصلاحية ومنها التعليم، ففي الفترة ما بين عام ١٨٤٦-١٨٦٩ م تشكلت لجان من موظفين عثمانيين قاموا بوضع خطط شاملة مقتبسة من الغرب هدفها إقامة نظام تعليمي شامل من المرحلة الابتدائية حتى الجامعية. فصدر عام ١٨٦٩ م قانون التعليم^(٦)، الذي قسم المدارس إلى عمومية وخصوصية وجعل السنوات الأربع الأولى من التعليم إجبارياً ومجانياً (للإناث والذكور) من دون أن تكون مختلطة، أما مرحلة الأربع سنوات الثانية (الرشدية) فقد تقرر فتحها في المدن الكبرى. أما التعليم الثانوي فيقسم إلى مرحلتين أيضاً

(٦) بشور، سوريا ولبنان في عصر الإصلاح العثماني، مرجع سابق، ص ٢٩٣.

(٧) الوديني، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

(١) سجلات الديوان الهمايوني، رقم ١١٩، ص ٩٣.

(٢) البشري، المسألة القانونية بين الشريعة والقانون، مرجع سابق، ص ٦٢٥.

(٣) طقوش، مرجع سابق، ص ٤١٨-٤١٩.

(٤) للإطلاع على نص نظام المعارف، انظر الدستور، مج ٢، ص ١٥٦-١٧٨.

دنيا(إعدادية) وعليا (سلطانية وهناك المدارس العليا بما فيها كليات التدريب)، أما التعليم الخاص فقد أخضعت الدولة منهجه ومدرسيه لقيود وضعتها وزارة المعارف لكي تبقى هذه المدارس ضمن ضوابط النظام الأخلاقي والسياسي في الدولة .

كما كان لقانون عام ١٨٦٦م الذي رفع إشراف العلماء عن مدارس الحكومة ووضعها تحت إشراف وزارة المعارف دور كبير في التمييز بين التعليم الديني والعلماني إلى درجة إيجاد الإزدواجية الثقافية في المجتمع ما بين نظرة دينية وأخرى علمانية للأمور والقضايا. وافتتحت الجامعة عام ١٨٧٥م والمعاهد العليا. وتطورت مدارس الطوائف الدينية لكن سرعان ما حدّ الباب العالي من صلاحياتها لأنه عدّها مركزاً لإثارة القومية والثورة^(١).

وفي عام ١٨٦٨م أنشأ مدحت باشا مدرسة الصنائع (صنائع مكتبي) وقد جمعت بين الدراسة النظرية والعلمية وضمت أقسام الحدادة والخياطة والأحذية والسباكة والنجارة وتجليد الكتب والعمارة، ومدة الدراسة فيها خمس سنوات^(٢). وقد أوفد من خريجي هذه المدرسة حوالي عشرين طالباً لاستكمال دراستهم في الفنون المختلفة^(٣).

وفي العام ١٨٧٤-١٨٧٥م بدأ بتعليم الهندسة المدنية (ملكية مهندس مكتبي) كقسم من دار الفنون السلطانية داخل مدرسة غلطة سراي السلطانية، ومدة دراستها أربع سنوات وأول دفعة تخرجت منها كانت كلها من العناصر غير المسلمة^(٤). وفي مجال الطب فقد فتحت معاهد الطب أبوابها لاستقبال جميع الرعايا ودرس فيهم مدرسون أجانب^(٥).

غير أن التدريس في هذه المدارس باللغات الأجنبية وبخاصة الفرنسية أدى إلى تضائل عدد الطلاب في المدارس الطبية ومع مرور الوقت وأصبحت المنح الخارجية يستفيد منها الطلاب غير المسلمين أكثر من المسلمين أنفسهم بسبب قلتهم، ونتيجة لذلك قام جمال الدين أفندي عام ١٨٦٥م بتأسيس (مكتب طبية ملكية) وزاد عدد الأطباء المسلمين في البلاد ووضع برنامجاً يتضمن دروساً في اللغة العثمانية والعربية والفارسية والغاية من ذلك تشجيع التعليم وتخريج أكبر عدد من الأطباء المسلمين الذين تحتاجهم الدولة^(٦).

وأما أعظم إنجاز تحقق في مجال التعليم كان افتتاح معهد غلطة سراي عام ١٨٦٨م لتدريس كبار الموظفين الإداريين وقد كانت لغته الأساسية العربية والعثمانية في المواضيع العثمانية البحتة، حتى أن مواد المعهد كانت تتعلق بالإصلاح كالدراسات في القانون الدولي وأسس الإدارة الأوروبية ونظام المحاسبة^(٧).

(١) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢١٧-٢١٨.

(٢) أوغلي، مرجع سابق، ص ٥١٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٢٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٥١٣-٥١٤.

(٥) تقرير الصدر الأعظم، فؤاد باشا، ورقة ٦-٧.

(١) المصدر السابق، ورقة ٧.

(٢) بشور، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

أما التعليم الحربي فقد جرى تصنيفه عام ١٨٧٥م على الشكل التالي
١- الرشدية ٢- الإعدادية ٣- المدرسة الحربية ٤- الأركان الحربية (الأكاديمية العسكرية) كما تشكلت أقسام متخصصة كالخيالة والبيطرة والمدفعية وغيرها^(١).

٢- على صعيد القضاء:

أما في المجال القضائي فقد صيغت القوانين الجديدة حيث أصبحت من خلالها حياة وممتلكات العثمانيين تخضع لقوانين المجتمعات العصرية وألغيت فكرة التعدي على الحريات والأشخاص والممتلكات إلا بموجب محاكمة قانونية. لقد كانت أنظار المصلحين تتطلع إلى قوانين أوروبية لوضع القوانين العثمانية لاسيما النموذج الفرنسي الذي كان الأكثر اقتباساً لدى العثمانيين^(٢).

أما فيما يتعلق بالأحوال الشخصية فقد ظل القانون الديني هو السائد فيما يتعلق بالزواج والطلاق والميراث، ولم يجرؤ أحد على التطرق لهذا المجال وإلى أصوله، فأصبح هناك نوع من الإزدواج في المحاكم ما بين القانون العلماني الحديث والقانون الديني القديم^(٣).

٣- قانون الولايات:

صدر عام ١٨٦٤م فقد كان متأثراً إلى حد كبير بالقانون الفرنسي المسمى (بارتمان)، حيث قسّم الولايات إلى سناجق وإلى أقضية السناجق وإلى نواح ويخضع متصرفو السناجق والأقضية والقائمقامية ومخاتير النواحي إلى سلطة الوالي. وهذه التقسيمات على درجات لكل درجة منها أعضاء منتخبون يعين واحد للمجلس وواحد للمحكمة وكانت الانتخابات بنموذج واحد في الولايات^(٤).

وهؤلاء يشكلون مجلس السناجق الذي يقوم بانتخاب عناصر تعادل ثلاثة أضعاف المجلس نصفهم من المسلمين ونصفهم من غيرهم، مهمتهم النظر في المحاكم الجزائية والحقوقية، وجدول الأسماء يكون منظماً مع مجلس الإدارة ويرسل إلى مركز السناجق لتدقيقه من قبل مجلس مختص من ثم القرار الأخير للوالي^(٥).

وبموجب هذا القانون أصبح الوالي يتمتع بصلاحيات واسعة على الرغم من أن الشعب قد اشترك مع الوالي في بحث المسائل الخاصة بولايته من خلال المجالس الاستشارية والمجالس العامة، وهذا ما أتاح المجال للعناصر غير المسلمة في الاشتراك في شؤون الإدارة المحلية.

وعلى الرغم من أن هذا القانون لم يفقد الدولة أي من الولايات خلال فترة

(٣) أوغلي، مرجع سابق، ص ٥٢١.

(٤) مذكرات فوزي قورت أوغلي، مكتبة نور عثمانية، ورقة ١١.

(٥) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٢٠.

(١) يتألف مجلس الانتخابات من متصرف، قاضي، محاسب، مفتي مسلم، جماعة من الرؤساء الروحانيين لبقية الطوائف، ومدير ديوان التحريات، وهؤلاء يشكلون مجلس السناجق الذي يقوم بانتخاب عناصر تعادل ثلاثة أضعاف المجلس نصفهم من المسلمين ونصفهم من غيرهم مهمتهم النظر في المسائل. أنه لهادر تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية نقله إلى العثمانية علي رشاد، ترجمه إلى العربية د. محمود علي عامر، دار الزمان، دمشق، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ١٣٩-١٤٠.

(٢) أنه لهادر، مصدر سابق، ص ١٤٠.

التنظيمات بل على العكس فقد استعادت الدولة بعض أراضيها في حرب القرم بمساعدة الحلفاء، لكن الوضع من جانب آخر كان سلبياً حيث لم تستطع التنظيمات صهر العناصر القومية مع بعضها. وأصبحت الولايات البعيدة عن الدولة أكثر انفلاتاً كما في مصر ولبنان والصرب .

إضافة إلى النزعات الانفصالية في داخل الدولة وخصوصاً العناصر القومية التي اتجهت إلى قوميتها وإلى النمط الأوروبي، وعلى الرغم من سياسة العثمنة التي كانت تسعى إلى تطبيقها فكان لا بد للدولة أن تغير سياسة التسامح إلى سياسة القمع والإرهاب^(١).

أما الناحية التي جعلت السلطان عبد العزيز لا يفكر بمسألة العجز ولا بديون الدولة فهي الناحية العسكرية حيث كان هم السلطان أن يملك أسطولاً قوياً مهما كلفه ذلك، وأن يكون لديه جيشٌ بريٌّ مدربٌ مجهزٌ بأحدث الأسلحة، ونتيجة لهذا الطموح السلطاني الجارف وقعت الدولة تحت عجز مالي كبير .

وانتهى بها الأمر إلى حد العجز عن إدارة ديونها عام ١٨٧٥م وأصبحت موضع نقاش حاد ما بين السراي والباب العالي^(٢).

وعلى الرغم من أنه كان هناك زيادة في دخل الدولة في فترة فؤاد باشا وعالي باشا في الفترة ما بين ١٨٧١-١٨٧٤م لكن هذه الزيادة لم تنعكس على اقتصاد الدولة بالإيجاب، لأن قسماً كبيراً منها كان يخصص لسداد الدين وفوائد القروض. وعلى الرغم من تطور التجارة الداخلية والخارجية ودخول رؤوس أموال أجنبية كبيرة وفتح مجالات عمل عديدة للمجتمع العثماني في مجال النقل والتأمين والأعمال المالية لكنها جميعها كانت تعود بالربح الفاحش لرعايا الدولة غير المسلمين الذين لم تستطع الدولة أن تفرض عليهم دفع الضرائب المترتبة عليهم فازدادت أحوال الدولة اضطراباً كما حصل اختلال في البنية الاجتماعية العثمانية فالعناصر غير المسلمة تزداد ثراءً وغنىً والرعايا المسلمون العاملون في الحرف الصغيرة والزراعة يزدادون فقراً^(٣). وهكذا اتسمت هذه الفترة ما بين ١٨٣٩-١٨٧٦م بزحف التشريعات الغربية إلى هيكلية وإدارة ونظم الدولة العثمانية لتدحر أمامها أصول التشريع الإسلامي^(٤).

هـ- أسباب فشل الإصلاحات:

إذاً هذه هي الإصلاحات في مرحلتها الأولى فقد جاءت بأحداثها و بنتائجها قاصرة عن معالجة الداء العثماني الذي هو بالأساس وصفت لأجله والسبب في ذلك عوامل عديدة:

أ- رفض الشعب الإصلاح بالطريقة التي جاء بها مصلحو الدولة العثمانية لإصلاح شؤون بلادهم ولاسيما الطبقة المحافظة التي عدّت ذلك تعدياً على الإسلام ودولته^(٥).

(٣) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٢١-٢٢٢.

(١) السيد، مرجع سابق، ص ٢٧١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٣) البشري، المسألة القانونية بين الشريعة والقانون، ص ٦٢٥.

(٤) مهمة أوراق دفترى، غره: ١٣٧، ص ١١.

- ب- قصور من قبل الأشخاص الذين حملوا لواء هذه الحركة في القرن التاسع عشر على الرغم من إصرارهم على تنفيذ الإصلاح في الدولة لكنهم لم يتمسكوا بما يجب تغييره وما يجب الإبقاء عليه.^(١)
- ج- إن ثقافة هؤلاء الأشخاص الغربية قد أبعدهم عن فهم وتقدير احتياجات شعوبهم فوضعوا بينهم وبين شعوبهم حاجزاً من الثقافة والوعي واللائقفة واللاوعي فتبادل كلاهم نظرة الاحتقار للآخر.^(٢)
- د- عدم استكمال رجال الإصلاح طريقهم الإصلاحي بسبب المعوقات التي اعترضتهم.
- هـ- افتقار هؤلاء المصلحين إلى الخبرة والتجربة في إصلاح شؤون المجتمع .
- و- التشدد في معارضة الإصلاحات من قبل بعض المتعصبين العثمانيين انطلاقاً من فكرة أن هذه الإصلاحات هي أوامر ورغبات الأجانب ولكنها تصب في مصلحتهم .
- ز- عدم إخلاص السلاطين في مشاريعهم الإصلاحية لأنها في النهاية تحد من صلاحياتهم ولهذا فشلت الدولة في تنفيذ المرسومين الإصلاحيين ١٨٣٩م- و ١٨٥٦م .
- ح- اقتران فكرة الإصلاح بالأزمة المالية، وبأنه البوابة التي عبر من خلالها النفوذ الغربي إلى الدولة وتسلسل إلى هيكليتها الإدارية رجال الاقتصاد والمستشارون الماليون بحجة الإصلاح .
- ط- انقسام دعاة الإصلاح أنفسهم إلى متشددين في التغريب وآخرين معتدلين فيه.^(٣)
- ي- وأما العامل الخارجي والأهم فهو عدم صدق النوايا الأوروبية بمساعدة الدولة العثمانية على إصلاح مواطن الخلل فيها، لأن ذلك لا يخدم مصالحهم ورعاياهم في أصقاع الدولة.^(٤)
- ك- كان من صلاحيات السلطان في الدستور القديم أن يصادر لحساب الخزينة ثروة وأموال أي مسئول خلال فترة خدمته حتى سادت فكرة أن السلطان الوريث الشرعي لكل موظف، لذلك كان إفراط المسئولين والموظفين في التنعم بثرواتهم المحصلة عن طريق السلب يلفت انتباه السلطان لمصادرتها، وفي الدستور الجديد زال هذا الكابوس، وزالت فكرة أن السلطان الوريث لكل موظف .
- ل- كما أن القانون الجديد أخضع سلطة المسئولين والوزراء لقيود جديدة، لكن بقي الأشخاص أنفسهم المسئولين عن وضع هذه القوانين والمشرفين على تنفيذها، خصوصاً وزراء السلطان عبد المجيد الذين استغلوا ضعفه للحد من صلاحياته لحماية مصالحهم وثرواتهم .

(٥) طقوش، مرجع سابق، ص ٤٢١ .

(١) بشور، مرجع سابق، ص ٢٩٩ .

(٢) طقوش، المرجع السابق، ص ٤٢١-٤٢٢ .

(٣) بشور، المرجع السابق، ص ٣٠٠ .

م- كل التشريعات والقوانين التي صدرت بقيت نظرية ولم يتغير سوى الشكل فحكم الإعدام بالشنق لم يعد من حق السلطة الأمنية، لكن جوهر العدالة لم يتطور وبذل طابع الخشونة باستخدام الخنجر والمشقة سادت العلاقات الدموية في عمليات التعذيب.^(١)

ن- حتى في مجال جباية الضرائب فإن تطبيق القانون الجديد وفق كلخانة وهمايون لم يعد على الخزينة إلا بالعجز والإفلاس لأن أولئك الملتزمين جيروا كل الأموال المجبة إلى خزائهم الخاصة لأن القانون الجديد شكل غطاءً لهم منع أي أحد حتى السلطان من ملاحقتهم من دون أدلة وإثباتات تدين عملهم. وأجبرت الحكومة على العودة إلى نظام الالتزام القديم وبشكل أشد قسوة.^(٢)

يتبين مما سبق أن الإصلاحات في الدولة العثمانية كانت أوربية الإيحاء والمضمون والهدف، وقد وضعت لتخدم مصالح قلة قليلة من رعايا الدولة، فظهرت عاجزة عن وضع الحلول المناسبة لمجتمع كانت جل معاناته من مصالح هذه القلة القليلة سواء من رعايا الدولة، أو من رجال الدولة القائمين على مشروع الإصلاح وغايتهم تحقيق الطموح الشخصي والثروة، كذلك كانت الطريقة التي دخلت بها الأفكار الإصلاحية إلى البلاد خاطئة لأنها جاءت لتتسبب ما هو موجود في المجتمع والدولة من أنظمة وقيم وعادات، فكان من الطبيعي أن تلقى هذه المعارضة الشديدة.

(١) بازيل، مصدر سابق، ص ٢٥٠.

(٢) نور، مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٥٠.

الفصل الثالث

سلاطين الإصلاح

سلاطين الإصلاح أم إصلاح السلاطين بين هاتين العبارتين ضاعت قضية الإصلاح في الدولة العثمانية وأضاعها معها. فالسلطان العثماني تعرض لغسل دماغه أو لتغيير في طريقة تفكيره كرجل شرقي اعتاد كل حياته اللباس الواسع الفضفاض والعمامة على رأسه من دون أن يشعر بقيد أو حرج من ذلك، وفجأة ارتدى اللباس الغربي الضيق (الطقم والطربوش) فضاق معه أفقه وكأنه انسلخ عن مجتمعه وعاداته وتقاليده، وأصبح ينظر يميناً وشمالاً ليرى ردة فعل الآخرين على سلوكه، ومن خلال ذلك يقيم عمله وهذا يعني أنه كان يخطو تلك الخطوات من دون أن يكون واثقاً منها فالتردد كان ضمناً ولم يصرح به، ولكن الآخرين استطاعوا أن يستشفوا ذلك من تلك الخطوات المرتابة التي بدت خجولة في معظم الأحيان. متى سيكون هذا الواقع المؤلم المليء بالمآسي والمعاناة مصدر إلهامنا الإصلاحي، متى سينطلق متفقوناً في إصلاحهم وحركة إنقاذهم لمجتمعهم ومعاناة مجتمعهم بعيداً عن ثقافة ونظريات الغرب، فالمسألة بحاجة إلى وعي الواقع وفهمه بالشكل الصحيح لوضع الحلول المناسبة، ومن ثم التصميم على تطبيق هذه الحلول^(١).

أ- السلطان سليم الثالث: ١٢٠٤-١٢٢٢ هـ / ١٧٨٩-١٨٠٧ م:

ولد سليم الثالث سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م والده السلطان مصطفى الثالث^(٢) وكان سليم ولده الوحيد فتمتع في السراي بحرية لا حدود لها^(٣)، لأنه يعد من السلاطين القلائل الذين تلقوا تربية وتعليماً وحرية قبل توليه الحكم حيث كان أبوه مصطفى الثالث ١١٧١-١١٨١ هـ / ١٧٥٧-١٧٧٣ م سلطاناً نشيطاً يحب الاطلاع والعلم والثقافة وكان مولعاً بالعلوم الفلكية والتواصل مع الحضارات. ويعود الفضل في شغف مصطفى الثالث للعلم والثقافة إلى والدته الفرنسية الأصل جانيت وسميت بعد إنجابها لمصطفى الثالث بمهرشاة وقد قامت بتعليم ابنها الفرنسية والثقافة الغربية على الرغم من أنه قضى طفولته وشبابه في السجن فخرج في الأربعين من عمره من السجن ليتسلم العرش وقد اتقن الفرنسية وبعض العلوم الأخرى^(٤) فأرسل السفارات إلى دول أوروبا منها سفارة أحمد رسمي إلى فريدريك الثاني ملك بروسيا سائلاً إياه عن سر نجاحه السياسي فكان جواب فريدريك الثاني مختصراً بقوله (بدراسة التاريخ والاستفادة من التجارب وبتملك جيش قوي مدرب في زمن السلم كما في زمن الحرب والاحتفاظ بالخزينة مليئة)^(٥) فحرص مصطفى الثالث على تطبيق نصيحة فريدريك الثاني حيث شجع على ترجمة آراء فولتير ونيوتن وغيرهما واستقدم الضباط والخبراء الأجانب لا سيما الفرنسيين الذين عدّهم الحليف الأول للدولة العثمانية وأبرزهم البارون دي توت، كما كان السلطان يكثر من دعوة السفراء الأوروبيين إلى قصره ليناقتشهم في أفكاره الإصلاحية. ويذكر أن السلطان مصطفى الثالث قد ترك لابنه سليم الثالث مذكرات مكتوبة أشار فيها إلى وسائل الإصلاح ومواطن الخلل والفساد

(١) نقلاً عن رضا نور التي هاجم بعض سلاطين الإصلاح بقوة، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣١٨.

(٢) فريد بك، مصدر سابق، ص ٣٦٣، ؛ أصاف، مصدر سابق، ص ١١٢.

(٣) البحراوي، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٤) نور، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣١٧.

(٥) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، مرجع سابق، ص ٤٧.

في الدولة. (١) وأما والدته سليم الثالث فهي أكنس (Agnes) الجنوبية الأصل والتي سميت بعد ولادتها سليم (مهرشاة) (٢).

في هذا الجو المفعم بعقب الغرب ترعرع سليم الثالث وتشبع بأفكاره، ولاسيما بعد أن أشرف على تربيته أحد أبرز علماء ذلك العصر واسمه جلبي، فشبّ سليم الثالث نشيطاً ذكياً قادراً على تحليل الأمور وتفسير ما يجري من حوله وكان ذا حظ أوفر باعتلاء عمه عبد الحميد الأول العرش ١٧٧٤-١٧٨٩م (٣). حيث زاد الانفتاح على أوروبا وبدأ الوزير خليل حميد باشا بمحاولات إصلاح للمؤسسات العسكرية والعلمية أكثر جدية من سابقه وزاد عدد الخبراء والمدرّبين الأجانب، ولاسيما الفرنسيين الذين استقدموا لتحديث الدولة ولاسيما السفير الفرنسي الجديد غوفيه لدى الباب العالي ١٧٨٤م، فجاء ومعه بعثة شملت العديد من الخبراء في المجال العسكري والرسم والطبوغرافيا والشعراء وكانت تشبه إلى حد كبير البعثة التي جاء بها نابليون إلى مصر.

ويبدو أنه كان هناك توافق كبير وانسجام ما بين خليل حميد وأفكار سليم فيما يخص الإصلاح إلى درجة أن الوزير خليل حميد أصبح يجد أن استمرار السلطان الهرم عبد الحميد الأول في الحكم يعدّ حجر عثرة في وجه الإصلاحات التي ينوي القيام بها في الدولة، فعمل على إقصائه ليتولى سليم الثالث وكان ذلك سبباً في نقمة التيار المحافظ في الدولة حيث يعدّ هذا الوزير قد خرج عن حدود المألوف وتجاوز حدّه فقتلوه (٤). ومن هنا جاء الحظ الوافر لسليم الثالث باعتلاء عمه عبد الحميد الأول العرش حيث أتاح له الحرية نفسها التي تمتع بها خلال فترة حكم أبيه مصطفى الثالث (٥)، بل زاد عليها بصقل أفكاره وعرف من خلال محاولة الوزير خليل حميد من سيقف إلى جانبه ومن سيعارض فكرته ومخططه.

هذه الفرصة كانت قليلة جداً بالنسبة لسلطين بني عثمان فالذي ينجو منهم من سيف الأخ أو العم تكون الغرف الحديدية بانتظاره ومن ثم كرسي العرش، هكذا كانت العاصمة العثمانية قبيل استقبالها سليم الثالث سلطاناً جديداً عليها حيث كانت تعصف بها المؤثرات الفكرية الأوروبية ولاسيما منها الفرنسية عن طريق السفراء والخبراء الذين أشبعوا رجال الدولة العثمانية وطلابها بمحاضراتهم عن فكر الغرب وكذلك سفراء العثمانيين إلى أوروبا قاموا بنفس الدور (٦).

أما على الصعيد السياسي فكثير من المؤرخين عدّوا القرن السابع عشر نقطة تحول كبيرة، أو كما يحلو للبعض تسميته قرن الضعف الخارجي على الدولة حيث وقعت معاهدة كارلو فيتز عام ١٦٩٩م التي تخلى العثمانيون بموجبها عن مناطق واسعة من الدانوب الشمالي للنمسا، ثم في عام ١١٨٨هـ-١٧٧٤م وقعت الدولة

(٢) البحرأوي، المرجع السابق، ص ٩٥، ؛ مصطفى في أصول التاريخ العثماني، ص ١٧٤.

(٣) نور، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣١٨.

(٤) البحرأوي، مرجع سابق، ص ٩٩.

(١) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٤٩ أنظر ؛ مصطفى المرجع السابق، ص ١٧٣ ؛، الوديني، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٢) البحرأوي، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٣) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٥٠.

معاهدة كوجك كاينارجي بعد الحرب الروسية العثمانية التي انهزم بها العثمانيون وتوجوا خسارتهم بهذه المعاهدة التي أطاحت بهيبة العثمانيين أمام تفوق الأسلحة الغربية^(١)، ورافق ذلك تلك الحركات الاستقلالية في المناطق التابعة للدولة العثمانية منها حركة علي بك الكبير في مصر وما تلاها من أحداث واضطرابات في مصر والشام إلى ثورات اليونان لنيل الاستقلال وتفرد المماليك في حكم العراق إضافة إلى الاضطرابات التي عمت ولايات الدولة في آسيا وأفريقيا وأوروبا^(٢).
في هذا المناخ السياسي تولى سليم الثالث السلطنة في ٧ نيسان ١٧٨٩م ١٢٠٣ هـ وكان له من العمر ٢٨ عاماً^(٣)، فهل أتاحت له الظروف أن يبدأ بما خطط له في عهد أبيه وعمه؟

في الحقيقة لا؛ لأن البلاد كانت تعاني الانقسام والتشتت، والإنكشارية تثير الفوضى وتعبت في داخل البلاد من دون أن يكون أحد قادراً على ردعها أو الوقوف في وجهها^(٤). كما أن بداية عهده تراكمت في الخارج مع قيام الثورة الفرنسية وكان لذلك تأثير كبير على سليم الثالث ولاسيما أن فرنسا كانت ملهته الروحية لفكره الإصلاحي، كذلك كان عليه أن يتابع الحرب ضد روسيا والنمسا ويخوض معارك خاسرة في مولدافيا وتوكسانيا^(٥).

أمضى سليم الثالث سنوات حكمه الأولى في الحروب والمعارك حتى وقع اتفاقات مع كل من النمسا معاهدة زيسنوفي^(٦) ومع روسيا معاهدة ياش ١٥ جمادى الأولى ١٢٠٦ هـ / ١٠/٦/١٧٩٢م^(٧)^(٨). وعلى الرغم من أن هذه الحروب والثورات التي استقبلت الدولة العثمانية بها سلطانها الجديد فأخذت كل اهتمامه وعلى الرغم من أن الخسائر كانت كبيرة في الولايات والأساطيل والجيش فإنها لم تمنع هذا السلطان من أن يخلق روحاً جديدة تسري في عروق الدولة^(٩)، هذه الروح انبثقت عن فكر الغرب وعن التطلع إليه، فعلى الرغم من انشغال السلطان في الحروب إلا أن فكره وعقله مشدودان إلى أوروبا وما يعصف بها من أفكار، وليس ذلك بجديد، فهو مثابر منذ عهد أبيه وعمه وقد كان السلطان سليم الثالث ذا روح عالية ويتمتع بقدرات كبيرة فقد قرأ مؤلفات أرسطو والكثير من الكتب الطبيعية والرياضية وكان في نظر رعاياه من الشعراء والكتاب المميزين في عصره^(١٠).
فاستبشر شعبه به خيراً لإنقاذ الدولة من مفاسدها ومما حفزه على ذلك تواصله

(٤) عمر، مرجع سابق، ص ٢٥٠؛ غربال، مرجع سابق، ص ٨٧؛ الوديناني، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٥) غربال، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٦) البحراوي، المرجع السابق، ص ٩٧.

(١) عامر، تاريخ ووثائق، ص ١٨٤.

(٢) مصطفى، الإصلاح العثماني، ص ١٢٨.

(٣) المعاهدة نفسها أسماها محمد فريد بك المحامي في كتابه تاريخ الدولة العلية العثمانية (زشتوي) الاسم التركي لمدينة ستوا، ص ٣٦٤.

(٤) للإطلاع على مضمون معاهدي زيسنوفي وياش، راجع كتاب فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، حيث نقل ترجمتها الكاملة عن إحدى المجموعات السياسية المحفوظة في الكتبخانة الخديوية، ص ٣٦٤.

(٥) السيد، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

(٦) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٧٤؛ <http://encyclopedia.arabiah.net/turkey-egypte>

(٧) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٠٦.

مع أوروبا منذ عهد أبيه وعمه عن طريق أصدقائه والمقربين إليه ومن بينهم الطبيب الإيطالي لورنزو (Lorenzo) وآخرون أوروبيون قدموا له معلومات كبيرة عن حضارة أوروبا وحكوماتها وإداراتها العسكرية والمدنية معللين من خلالها سبب تفوق الغرب على العثمانيين وراسل شوازيل (Choiseiul) مبعوث فرنسا في استانبول وعن طريق إسحق بك الوسيط المخلص لسليم الثالث استطاع أن يرسل لويس السادس عشر ملك أعظم أمم الغرب ووزيره فرجين ومونموران وكانت مراسلاته ذات فائدة عظيمة لتنمي معلوماته وتزيد من عزمه على الإصلاح ولم يكتفِ سليم بذلك بل أرسل إسحق بك إلى فرنسا ليأت بتقنيات الغرب ونظم إدارتهم وحكوماتهم^(١).

يبدو أن سليم الثالث كان فتىً مراهقاً في مجال السياسة تجاه أوروبا وحكامها التي كانت تداعبه بثوراتها ونظرياتها ومفكراتها فعصفت به رياح الإصلاح ووصل به الأمر إلى حد الأمل بلويس السادس عشر أن يساعده في حربه ضد روسيا لهذا ظل يرسله حتى قامت الثورة الفرنسية ١٧٨٩م من دون أن يلقي السلطان نظرة على مجتمع أعظم أمم الأرض وما كان يتخبط به من أفكار ونظريات من دون أن يدرك أيضاً أن غاية تقرب فرنسا منه الإيقاع به^(٢) وتسخيرها لما يخدم مصالحها^(٣). لكنه اقتنع بذلك عندما توجه نابليون إلى مصر ١٧٩٨م متجاهلاً صداقة السلطان لفرنسا ومتناسياً أن مصر إحدى الولايات المهمة التابعة للسلطنة، وكان ذلك حدثاً صعق سليماً الثالث الذي أخذ يبحث عن حلفاء جدد بين الدول الأوروبية التي تنافس فرنسا ووجد ضالته في انكلترا التي قام جنرالها نلسون بتحطيم الأسطول الفرنسي في أبي قير على الشواطئ المصرية فقطع صلة الوصل ما بين الحملة الفرنسية في مصر وفرنسا، كذلك كانت الفرصة مواتية لروسيا للتقرب من السلطان ولتظهر أمامه بمظهر الصديق المدافع^(٤).

وهكذا أضحت العلاقات العثمانية الأوروبية في مطلع القرن التاسع عشر علاقات متراوحة ما بين الحرب والسلام والإصلاح تتجاذبها المصالح وتحكم بها. ولكن السؤال المطروح هنا هل كان نصيب سليم الثالث في السياسة الداخلية كما هو نصيبه في السياسة الخارجية من حيث النتائج؟

فأول ما قام به السلطان سليم بعد أن وقع مجموعة المعاهدات الخارجية هو التوجه نحو معرفة الأخطاء ومواطن الخلل في الدولة ولأجل ذلك شكل مجلساً

(١) عمر، مرجع سابق، ص ٢٤٩-٢٥٠، مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٧٣-١٧٤، ؛
الوديناني، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٢) الوديناني، مرجع سابق، ص ٢٩٨، انظر ؛ مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٧٤.

(٣) وكان السلطان لم يقرأ قول الشاعر المتنبي:

وجاهلٌ مَدَّه في جهله ضحكي حتى أنته يدُ فَراسةً وفمُ

إذا رأيتَ نيوْبَ الليثِ بارزة فلا تظنن أن الليثَ مبتسم

الموسوعة الشعرية (ديوان المتنبي) مرجع سابق

(٤) السيد، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

استشارياً (مجلس مشورت) أصبح في ما بعد هيئة حكومية ضم معاوني السلطان وأبرز رجال الإدارة في الدولة كما ضم اثنين غير مسلمين الفرنسي بيرتراند (BERTRAND) والأرمني مرداجا أوحسان (MOURADGEA D:OHSSON) كبير المترجمين في السفارة النمساوية في استانبول،^(١) فبلغ مجموع هذا المجلس ٢٢^(٢)، بمن فيهم الفرنسي والأرمني وطلب السلطان من كل عضو أن يقدم تقريراً عن أسباب فقدان الدولة قدراتها السابقة واقتراح الإصلاحات التي يلزم إجراؤها لكي تستعيد الدولة قوتها وهيبتها^(٣).

من أبرز التقارير التي قدمتها تلك الهيئة كان تقرير القاضي تاتا رجيقي عبد الله زادة،^(٤) وهو أيضاً أكبر أعضاء مجلس الاستشارة سناً وقد قدم اقتراحه للإصلاح سنة ١٧٩٢ تضمن عشرة أقسام^(٥)، والملفت للانتباه أن كل التقارير التي قدمت للسلطان أوصت بأن الإصلاح يجب أن يبدأ بالناحية العسكرية فتحفظت المشاورات بإعلان النظام الجديد^(٦)، وهو عبارة عن مجموعة من التنظيمات الهادفة إلى إجراء إصلاحات في المجال العسكري واسم إيراد جديد (IRADI-I-CEDID) على النظام المالي الجديد لدعم مصاريف المؤسسات التي أحدثت وتغذية مالية الدولة من عائدات الأراضي، ولاسيما الإقطاعات العسكرية، كما أوجدت ضرائب جديدة على الإنتاج الزراعي^(٧)، كما اهتم السلطان بإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية التي درست المواد العلمية كالحساب والهندسة والجبر وحساب المثلثات والتاريخ و اللغات العربية والفرنسية^(٨)، أما الجيش الجديد فقد شكل لجنة لتقوم بهذه المهمة ترأسها إسماعيل باشا زادة إبراهيم عصمت بك والذي اشترط قبل تسلمه اللجنة ضمان حمايته حتى من السلطان نفسه ويدل ذلك على إدراكه مدى خطورة عمل هذه اللجنة وما سيحدث من قراراتها وإجراءاتها من عواقب^(٩)، لقد كان لأبي بكر راتب الصديق الخاص للسلطان^(١٠)، الأثر الكبير في بداية العمل الإصلاحي في

(١) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٥١، انظر؛ زيادة، كاتب السلطان، ص ١٧٥.

(٢) يذكر الوديناني: أن عدد اللجنة ٢١، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

(٣) مصطفى، الإصلاح العثماني، مرجع سابق، ص ٢٢، انظر؛ السيد، مرجع سابق، ص ٢٠٣،؛ حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، مرجع سابق، ص ٦١.

(٤) يذكره الدكتور عمر عبد العزيز عمر باسم قاضي العسكر تطويق عبد الله أفندي وعلى الأغلب هو نفسه لأنه قاضي عند الاثنين وبنفس الفترة والتوصيات متقاربة وإن اختلفت طريقة العرض، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(٥) الأقسام هي أحوال الجيش وتنظيمه-نظام العلماء والمدرسين والقضاة-نظام المعاملات الضريبية وإصلاح النقد- فوائد حركة السلطان الإصلاحية- ضرورة تعزيز الثغور الإسلامية -إصلاح البحرية - مداخيل الدولة وحصر النفقات -إظهار أحوال الوزراء -ضرورة تنظيم الجزية -ورفع المظالم عن جميع البلاد والعباد) زيادة، كاتب السلطان، ص ١٧٦.

(٦) قد يكون الاسم مأخوذ من الثورة الفرنسية حيث أطلق على النظام الملكي القديم وعلى الثورة بالنظام الجديد وسماه آخرون الثورة السعيدة، وهي فترة سليم الثالث وإصلاحاته، زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٥٢.

(٧) زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، ص ٥٢-٥٣.

(١) المرجع السابق، ص ٥٣.

(٢) السيد، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

(٣) كان أبو راتب الأفندي من المقربين للسلطان سليم الثالث وعمل كاتباً له فكتب له رسائله التي وجهها إلى لويس السادس عشر وبعد تسلم السلطان العرش أرسل سفيراً للنمسا ثم سلمه منصب رئيس الكتاب

الجيش حيث عاد راتب أفندي من سفارته التي أرسل بها إلى النمسا بتقرير ضخم قارب الخمسمائة صفحة ويقسم إلى قسمين، الأول منهما بحث في الناحية العسكرية الأوروبية لا سيما النمسا حيث لفت راتب أفندي الانتباه إلى أن الناحية العسكرية كانت تنصدر قائمة الأولويات السياسية في أوروبا، أما القسم الثاني فبحث في الناحية الإدارية ومؤسساتها في الإمبراطورية النمساوية والهنغارية، وقد استشهد على ذلك بالوثائق وبأداء بعض المفكرين الأوروبيين^(١).

في الواقع أن المناخ المحيط بالسلطان سليم الثالث كان يحفزّه على القيام بالإصلاح العسكري أولاً فحتى نواة الجيش الجديد تشكلت من دون قرار سلطاني أو تخطيط مسبق لها عندما جمعت المصادفة الصدر الأعظم يوسف باشا مع مجموعة من الضباط الروس في أواخر العام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م خلال الحرب الروسية العثمانية، وكان من بين هؤلاء الضباط ضباط عثمانيو الأصل، فدربوا حرس السلطان على الأسلحة الروسية المستولى عليها، واستخدموا طريقة المناورات العسكرية الأوروبية في استعراض أمام الصدر الأعظم الذي اقتنع بتشكيل فيلق صغير يتدرب على هذه الطريقة، وعند عودته إلى العاصمة أبقى هذا الفيلق قريباً منها حتى يتبين رأي السلطان فيه فأعجب بتنظيمه وتدريبه مما حفز يوسف باشا جمع مائة رجل من العاصمة وضمهم للفرقة وعين عمر أغا قائداً لها يعاونه أربعة ضباط فرنسيين ولكي يبقى الموضوع سرّاً بين السلطان والصدر الأعظم وبعيداً عن نظر الإنكشارية اختيرت منطقة اللوند جفتلك مركزاً لتدريب هذه الفرقة^(٢) وبعد الاستشارة صدر الأمر السلطاني بتشكيل فرق الجيش الجديد مستقلة عن الإنكشارية مع السماح لمن يرغب منهم بالانضمام إليها، ومن ثم طلب السلطان المساعدة من الدول الأوروبية، ولا سيما فرنسا، فقد أرسل وزير حربيته ثلاثة من الضباط الفرنسيين وستة من ضباط الصف إلى العثمانيين بناءً على طلبهم لتدريب الجيش العثماني الجديد، كما تدفقت الأسلحة الأوروبية الجديدة على الدولة من فرنسا وانكلترا والسويد^(٣) ومن ناحية الأسطول كلف السلطان سليم الثالث كوجك حسين باشا لاتخاذ التدابير اللازمة لإصلاحه^(٤).

لقد استطاع السلطان أن يشكل ألياً^(٥) على النظام الجديد في لوند جفتلك قارب الثمانية آلاف نفر ثم شكل ألياً آخر في أسكدار وبقي ذلك سرّاً على اليكجريين (الإنكشارية)، وكان فرح السلطان عظيماً بخبر انتصار النظام الجديد في معاركه العديدة ضد الفرق الروسية فأغدق عليهم الأعطيات وقرر زيادة أعدادهم فأصدر السلطان في آذار عام ١٨٠٥ م أمراً سامياً (خط شريف) إلى جميع الولايات بالدولة

ومناصب أخرى حتى ذهب ضحية مؤامرة حاكها له خصومه لدى السلطان فأعدم عام ١٧٩٩ م، زيادة، كاتب السلطان، ص ١٧٧.

(٤) زيادة، كاتب السلطان، ص ١٧٧-١٧٨.

(٥) عمر، مرجع سابق، ص ٢٥١-٢٥٢.

(١) المرجع السابق، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) السيد، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

(٣) الألي: يتألف من فوجين فما فوق والفوج هو الأورطة ويتألف من ألف إلى ألف وخمسمائة جندي. فريد

بك، مصدر سابق، ص ٣٨٢.

العثمانية وأوروبا لجمع الشبان من الإنكشارية والأهالي البالغين ٢٥ سنة وإدخالهم العسكرية وتربيتهم على النظام الجديد^(١)، ولكن هذا السر كشف من قبل الإنكشارية عندما فكر سليم الثالث بتشكيل نظام جديد في الروم إيلي يسانده قاضي باشا وإبراهيم نسيم أفندي ويقاومه خفية إسماعيل باشا وشاه زادة مصطفى وبدأ العصيان لأوامر السلطان بأن أشيع خبر في أدرنة وفي تكفور طاغي أن من يقرأ فرمان تشكيل النظام الجديد سيقطع إرباً^(٢)، فاضطر عبد الرحمن باشا والي القرماني الذي أرسله السلطان إلى أدرنة لتنفيذ القرار الجديد إلى العودة بعد أن أعلن العصيان ووقعت مواجهات بين قوات عبد الرحمن باشا الجديدة وبين العصاة فعاد إلى الآستانة ولما وجد السلطان أن المعارضين قد تزايد عددهم ضد النظام الجديد أذن السلطان لمطالب الإنكشارية وأمر بعودة العساكر النظامية إلى آسيا^(٣)، في هذه الأثناء توفي مفتي الإسلام والمؤيد الأول لسليم الثالث في الإصلاح زادة الحكيم وتولى بدلاً منه قاضي عسكر الروملي وكان مناهضاً معارضاً للإصلاح والسلطان يظن به خيراً^(٤).

وهكذا أضحت البلاد حيث نفوذ السلطان لا يتعدى العاصمة وعم الفساد والجهل وكثر المعارضون وعلت أصواتهم وانقسمت البلاد إلى قسمين قسم يضم السلطان ومؤيديه في ناحية، وقسم يضم المعارضين في الناحية الأخرى، وفي الخارج هناك ثلاث قوى تتربص بالدولة تريد الاستفادة من الوضع المتردي^(٥). والأسوأ من ذلك هو أن السلطان بقي وحيداً في العاصمة وقوات النظام الجديد بعيدة عنه حيث مصطفى البيرقدار حاكم روستجوق مناصر للسلطان وقائد خمسة عشر ألف مقاتل من النظام الجديد يتجه للأفلاق للإغارة عليها وأبقى عدداً من قواته النظامية في قلاع الدردنيل والبوسفور لمواجهة الأخطار البحرية وعبد الرحمن باشا الصدر الأعظم يقود ثمانية آلاف مقاتل من النظام الجديد وفرقتان من الإنكشارية إلى لوند جفتلك حيث الحرب عند الطونة^(٦)، بينما العاصمة تعج بالإنكشارية وزعامات العصيان (طوبال عطا المفتي، وقائمقام استانبول كوسة موسى، وشاه زادة مصطفى) فاجتمعوا في بيو كدرة^(٧) وانتخبوا رئيساً لهم قباقي أوغلي ودخلوا الآستانة في السابع والعشرين من أيار عام ١٨٠٧ م فانضم إليهم حوالي مائتين من البحرية وثمانمائة من الإنكشارية وتجمعوا في أت ميدان (ميدان الخيل) وجاءوا بقدر الإنكشارية دلالة على العصيان^(٨) ثم أرسلوا للسلطان يطلبون منه رؤوس أحد

(٤) فريد بك، المصدر السابق، ص ٣٨٦.

(٥) البحرأوي، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٦) فريد بك، المصدر السابق، ص ٣٨٦-٣٨٧.

(١) البحرأوي، المرجع السابق، ص ١١٥، انظر ؛، فريد بك، المصدر السابق، ص ٣٩٢.

(٢) البحرأوي، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٤) بيوكدره: كلمة مركبة بيوك تعني كبير ودره، وتعني الوادي أي الوادي الكبير، وهو أحد ضواحي

استانبول، فريد بك، مصدر سابق، ص ٣٩٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٩٣.

عشر رجلاً من أتباعه المصلحين^(١).

في ظل هذه الظروف السيئة التي تعصف بالإمبراطورية والتي كانت تحتاج إلى سلطان قوي وجريء كسليم الأول أو القانوني كان على عكسهم تماماً حفيد هؤلاء سليم الثالث خائفاً متردداً يقبع في قصره وقواته الجديدة بعيدة عنه، وهذا أمر طبيعي لانغماسه في حياة الترف مع الجواري ففقد العزم والقوة والصلابة^(٢) وعلى العكس تماماً فقد أصدر أمراً بإلغاء النظام الجديد وصرف العساكر النظامية وعبثاً حاول إنقاذ حياة ثلاثة من أعوانه بينه وبينهم عهداً وهم (إبراهيم أفندي الكتخداي والحاج إبراهيم أفندي وأحمد أفندي كاتب السر)^(٣)، والباقي وكل أمرهم لله ولكن من دون فائدة فقد لاحق العصاة الجميع وقتلوه^(٤)، كان حرياً بالسلطان أن يفكر في إنقاذ نفسه أو يستدعي القوات الجديدة بدلاً من أن يفكر في الوفاء بالعهود لأصدقائه الثلاثة؛ لأن العصاة ما إن تخلصوا من النظام الجديد وأعوانه وألغوا خزينته قاموا بتغيير حراس الأميرين مصطفى ومحمود اللذين بقيا من سلالة آل عثمان^(٥)، وذلك يعني كأنهم حكموا على السلطان سليم الثالث بالموت .

ومرة أخرى يجتمع الإنكشارية مع أرباب الدولة في يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول ١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م وهذه المرة طلبوا الفتوى بخلع السلطان من شيخ الإسلام عطا الله الأعرج فأفتاهم بحجة أن السلطان غير مستقل الرأي وأنه سلم أمور الدولة لأناس ظلام وكتب إلى السلطان قائلاً " لقد أضرت بك ثقافتك الجديدة والنصائح الفاسدة التي قدمها لك من سبقوني، ونسيت أنك سلطان في أمة لها عقائد ثابتة، وبدل أن تعتمد على الله الذي يستطيع في أي وقت أن يسحق أكثر الجيوش قوة، فإنك أردت أن تشبه العثمانيين بالكفار. ... الذي تخليت عنه قد تخلى عنك. .. والجنود الذين كانوا يجب أن يدافعوا عنك لن يثقوا فيك" ^(٦) من ثم طلب الإذن بالدخول إلى السلطان في القاعة الكبرى ليخبره بأن الإنكشارية وكل أهل استانبول جاؤوا ليعلنوا في هذه اللحظة إنهم لا يعترفون إلا بمصطفى ابن عمك سلطاناً عليهم وقد أظهر المفتي أسفه قائلاً:

"ماذا نفعل نحن الضعاف الفانون أمام إرادة الله" ثم تلا نصف الآية الكريمة **"تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء"** ^(٧) استقبل السلطان خبر عزله بكل هدوء حيث نهض ونظر نظرة وداع للحاضرين ثم اتجه إلى مكان عزله فالتقى مصطفى وأراد أن ينصحه وأن هذه مشيئة الله ولكن مصطفى قابله بفتور. وأخذ

(٦) الشخصيات التي طلبها العصاة لإعدامها هي ١- إبراهيم أفندي نسيم الكتخداي ٢- الحاج إبراهيم أفندي ناظر البحرية ٣- مميش أفندي كتخداي ركاب الهمايون ٤- أحمد أفندي صفى وكيل رئيس الكتاب (ناظر الخارجية) ٥- أحمد بك دفتر دار الإيراد الجديد ٦- أبو بكر أفندي أمين الضرب خاتمة ٧- يوسف أغا كتخداي والدة السلطان ٨- أحمد أفندي كاتب السر من رجال أندرون الهمايون ٩- أحمد ماينجي ١٠- شاكرك بك اليوستانجي باشي ١١- لطف الله أفندي من المدرسين. حليم، مرجع سابق ص ٢٧٤

(١) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٣) حليم، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٤) البحراوي، المرجع السابق، ص ١٢٣ ؛ حليم، مرجع سابق، ص ٢٧٥ .

(٥) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٢٥ .

(٦) القرآن الكريم، سورة آل عمران: الآية ٢٦ .

سليم بعزلته يلقي ابن أخيه محمود أفكاره وتجربته الإصلاحية^(١)، وبقي في عزله حتى اتفق مصطفى وأعوانه على قتل سليم الثالث ومحمود الثاني بحيث لا يبقى من آل عثمان سوى مصطفى الرابع فيرضخ للأمر، وبالفعل دخلوا على سليم الثالث وهو يؤدي صلاة العصر فقتل بالسيوف والخناجر والبلط وأجهز عليه قيزلر آغاسي^(٢)، وكان مقتله في ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٢٣ هـ (٢٨ حزيران ١٨٠٨ م) وله من العمر^(٣) ثمان وأربعون سنة، وكانت مدة حكمه تسع عشر سنة^(٤)، وقد تم دفن السلطان ثاني يوم مقتله في يوم الجمعة في جامع لالا لي^(٥).

اتصف سليم الثالث بضعف الشخصية ومرد ذلك إلى التربية التي تلقاها في عهدي أبيه وعمه وبهذه خالف أجداده السلاطين اللذين لارحمة في قلوبهم حتى تجاه الرضع من أقربائهم ولكن ضعف الشخصية أيضاً سلبى جداً لاسيما أن إمبراطورية مترامية الأطراف تحتاج ليد من حديد لتبسط بأعدائها، وسليم الثالث كما وصفه أحمد رفيق "حقيقةً كان رأسه حافلاً بالذوق والصناعة ولكنه كان ذا قلب رقيق فيه حساسية ولذلك جاءت محاولاته الحسية رقيقة وعذبة"^(٦)، وعلى الرغم من سعة أفقه وإيمانه بالعمل لحفظ كيان الدولة فإن إصلاحاته بطريقته الخاصة أدت إلى إثارة الإنكشارية والعلماء^(٧).

كان همه أن يظهر دولته أمام سفراء الدول بعكس ما هي عليه من تخلف ولم يتقيد بتقاليد السلطنة وكان يتألم كثيراً ويشعر بالخيبة لهذا الوضع السيئ، ولذلك كان عندما يتطرق إلى قضية كان يمسه بعنف حتى ولو كانت تمس المجتمع أو تحرك مشاعره فكثرت النفاق حول السلطان^(٨) من رجال الدولة المحيطين به، لأنه من السهل خداعه كما فعل شيخ الإسلام عطا الله وموسى باشا لم يعلم بعداوتهما له وخيانتهم حتى جاء إليه في اللحظة الأخيرة ليخبراه قرار عزله من الحكم^(٩)، وهناك الفئة الأخرى التي كان على السلطان أن يعرفها ويحذر منها وهي العدد الكبير من الذين تظاهروا بأنهم مصلحون وليس لهم هم إلا المصلحة والانتفاع، نظرياً ينادون بالنظام الجديد وعملياً يسعون إلى الكسب وجمع المال والمشكلة أن معارضي الإصلاح الحقيقي أدركوا نوايا هؤلاء، وأخذوا يتساءلون هل هؤلاء أفضل منا؟ هل هذا هو النظام الجديد؟ كل تلك التساؤلات أثارت جدلاً وسببت ضعفاً في الحركة الإصلاحية وقوة في معارضيها^(١٠). فهل يسوّغ ذوق السلطان الرفيع وضعف شخصيته هذا الخطأ القاتل بعدم معرفته نوايا أقرب المقربين إليه؟ وهل الدولة تدار بحسن النوايا

(١) البحراوي، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٢) ALISON: V9 P.464-465 مرجع سابق، انظر؛ حليم، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(٣) يذكر البحراوي، أن عمر مصطفى الثالث واحد وخمسون، ص ١٢٩.

(٤) فريد بك، مصدر سابق، ص ٣٩٣.

(٥) حليم، مرجع سابق، ص ٢٨٢.

(٦) البحراوي، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٧) ALISON: V9 P461. المرجع السابق

(٨) البحراوي، مرجع سابق، ص ١١٦-١١٨.

(٩) حليم، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

(١٠) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٤٦.

وبساطة التفكير أو كما يقول نابليون إن الأخلاق في السياسة ضعف،^(١) بينما السلطان كان من جهة أخرى محباً للآداب والعلوم والفنون فقد كان ملحناً نابغاً وشاعراً وخطاطاً وعازفاً على الناي ملماً باللغات الشرقية مولوياً ذكياً مجتهداً وطنياً مصلحاً^(٢). وعييه الوحيد ينحصر في تفوق لا يقاس في المعارف والعبقرية بالنظر إلى الشعب الذي يحكمه^(٣). وقد تزوج من ستة عشر امرأة في تواريخ عديدة.

ب- السلطان مصطفى الرابع: (١٨٠٧-١٨٠٨م)^(٤)

بعد عزل السلطان سليم الثالث وتولييه مصطفى الرابع كتب سباستياني إلى نابليون يطلعه على الوضع الجديد في الدولة العثمانية واصفاً مصطفى الرابع "أنه ليس له علم سليم الثالث ولكنه يشبهه في ضعف الطبع حتى خيل إليه أن هذا سوف يكون آخر سلاطين العثمانيين"^(٥). ولد السلطان مصطفى الرابع ابناً لعبد الحميد الأول في سنة ١١٩٣ هـ - ١٧٧٩ م والسلطانة الوالدة عائشة سنية برور وأصبح ولياً للعهد منذ سن تسع سنوات طوال فترة حكم ابن عمه السلطان سليم الثالث التي دامت أكثر من ١٨ سنة^(٦)، وقد تقلد السلطنة بعد المؤامرة التي قام بها بعض المعارضين للإصلاح من علماء ورجال دولة مع الإنكشارية فعزلوا السلطان سليم الثالث الذي تقبل عزله بهدوء قائلاً ذلك تقدير العزيز العليم، وقام وأحضر تاج السلطنة وسلمه للسلطان مصطفى^(٧) مع بعض النصائح التي قبلت بعدم الاكتراث؛ لأنه لم يدرك حجم الكرسي الذي أجلس عليه فعقله قاصر عن إدراك ذلك، وقد رافقه كوسه موسى وطوبال عطا الله إلى السراي والمسجد حيث أخذ البيعة وتقبل التهاني، وبهذه البيعة يعني أن استانبول قد تخلت عن كل ما حاول المصلحون تقديمه من نظم حكمها وإدارتها والعودة إلى القديم بكل ما فيه من مساوئ^(٨)، فالسلطان أصبح أداة طيعة لمن أوصله إلى كرسي العرش حيث الإنكشارية أعادت قدورها إلى ثكناتها يعني نهاية عصيانهم بعد تخلصهم من النظام الجديد ووزع عليهم السلطان مصطفى الرابع ١٨٠ ألف قرش ومن طرف أخته أسماء ٢٠ ألف قرش إرضاء لهم^(٩)، وأصبح قباقيجي أوغلي حاكماً لجميع قلاع البوسفور والذي لم يقتل من الوزراء استمتع بمنصبه في ظل هذا النظام الفاسد^(١٠) وبدأت عمليات تصفية الزعماء بعضهم بعضاً في صراع اشتغل فيه النفوذ بشكل كبير لأجل المصالح الشخصية^(١١)، فاتحد قباقيجي أوغلي مع المفتي وعزلوا القائم مقام مصطفى باشا، فعزل ونفى، وعين بدلاً عنه طاهر باشا فعزل أيضاً وانضم إلى أنصار

(٣) البحر اوي، المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٤) أوزتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٤٣.

(٥) مصطفى، الإصلاح العثماني، ص ٤٧-٤٨.

(٦) Ali kemal، مرجع سابق، ص 311.

(٧) البحر اوي، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٨) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٦٢.

(٩) حليم، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

(١٠) البحر اوي، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(١١) البحر اوي، مرجع سابق، ص ١٢٧ انظر؛ حليم، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

(٤) فريد بك، مصدر سابق، ص ٣٩٤.

(٥) البحر اوي، المرجع السابق، ص ١٢٧.

الإصلاح مصطفى بيرقدار فذهب روستق(١).

ولم يكن الوضع على الجبهة الخارجية بأفضل حال من الداخلية فإمبراطور فرنسا نابليون بونابرت لم يكن راضياً عما يحصل في الآستانة من خلع السلطان سليم، فغير سياسته مع الدولة وعقد اتفاقاً مع الإمبراطور الروسي إسكندر الأول لتقسيم الدولة العثمانية فيما بينهم، والأرجح إنه بعزل سليم وجد فرصة ليتخلص من الوفاء بوعوده للسلطان سليم والاتجاه نحو تيلست (الاتفاق الروسي الفرنسي عام ١٢٢٢هـ ١٨٠٧م)(٢).

ولا يخفى على أحد أن الانتصار الفرنسي لنابليون على روسيا ثم توقيع صلح تيلست كان من حسن حظ العثمانيين لأن الإنكشارية المرابطة على الجبهة الروسية بقيادة الصدر الأعظم حلمي إبراهيم باشا عندما سمعت بعزل سليم الثالث وتعيين مصطفى الرابع ابتهجوا كثيراً لإسقاط النظام الجديد ولما لم يشاركهم قائدهم حلمي إبراهيم باشا قتلوه وعينوا بدلاً منه جلبي مصطفى باشا(٣)، وكان جلبي مصطفى باشا ضمناً مؤيداً للإصلاح وغير راضٍ عما جرى لذلك توافقت آراؤه مع مصطفى بيرقدار، ولهذا عزل من الصدارة كما ذكرنا.

وأما الثلث المؤيد للإصلاح والمتوافقة آراؤه مع الاثنين فهو بيجي أفندي أحد رجال الهندسة(٤)، وأضحت روستق ملجأً للهاربين من العاصمة ومقر مؤيدي الحركة الإصلاحية وعلى رأسهم حاكمها مصطفى بيرقدار الذي أخذ يخطط مع جلبي مصطفى وبيجي أفندي ومع مؤيدي حركة الإصلاح في العاصمة بشكل سري للقضاء على حركة قباقي أوغلي وكلفوا لهذه المهمة حاجي علي فتوجه مع فئتين من أنصاره إلى العاصمة وكان قباقي يقيم في ضواحي العاصمة في قصره فهاجموه وقتلوه وعلى الرغم من أن حاجي علي عرض على أتباع قباقي قرار الصدر الأعظم بأن يترأسهم فلم يقبلوا وحاولوا إثارة الفوضى في العاصمة، وفي هذه الإثناء كان البيرقدار(٥) وجلبي مصطفى يسبرون على رأس ستة عشر ألف مقاتل عبر أدرنة إلى العاصمة الآستانة وعسكروا خارجها. ولما علم السلطان مصطفى الرابع بقدم البيرقدار خشي من أن تطاله شرارة الثورة فقام بعزل المفتي وصرف جنود قباقي وألغى ياماق، وقتل كثيراً من أنصار قباقي ثم أعلم البيرقدار بأنه اكتفى بما حدث وأخفى نيته في إعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش إلا عن بعض معاونيه وتظاهر أنه سيعود إلى روستق(٦)، ولكنه في الحقيقة قام سراً بالتشاور مع أعوانه حول كيفية عزل مصطفى الرابع وإعادة سليم الثالث إلى العرش من دون إراقة دماء وفي صباح ٤ جمادى أول ١٢٢٣هـ تموز ١٨٠٨ م زحف البيرقدار إلى السراي ويتقدمه السنق الشريف (علم

(٦) فريد بك، المصدر السابق، ص ٣٩٦.

(٧) حلمي، مرجع سابق، ص ٢٧٧، والبحراوي، المرجع السابق ص ١٢٧.

(١) فريد بك، المصدر السابق، ص ٣٩٤.

(٢) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٣) يذكر أوز تونا أن البيرقدار جاء إلى الآستانة بناء على طلب من السلطان مصطفى الرابع الذي لم يعد قادراً على تحمل دكتاتورية شيخ الإسلام طوبال عبد الله أفندي وأتباعه، أوز تونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٦٢.

(٤) فريد بك، مصدر سابق، ص ٣٩٦-٣٩٧، انظر؛ البحراوي، المرجع السابق، ص ١٢٨، ؛ حلمي، مرجع سابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

النبي ص) فلما رآها حراس القصر من الإنكشارية فتحوا الأبواب ولكن بوستانجي باشي أغلق الأبواب الداخلية للقصر فتعالت أصوات البيرقدار ومعاونيه بعزل مصطفى الرابع وإعادة سليم الثالث فما كان من مصطفى الرابع إلا أن استمع لرأي أعوانه بأن يقتل سليم الثالث ومحمود كي لا يبقى من نسل آل عثمان سوى مصطفى الرابع فيتفرق البيرقدار وأعوانه وكان مقتل سليم الثالث كما ذكرنا سابقاً ونجاة محمود الثاني .

المهم أنه حصل عكس ما توقع مصطفى الرابع وأعوانه من أن البيرقدار عندما يروا جثة سليم على الأرض سيتفرقون فزادهم ذلك هيجاناً وبحثوا عن السلطان محمود الثاني لتنصيبه سلطاناً حيث ذهب الإمام أحمد أفندي إلى السلطان مصطفى الرابع وقال له "قسمتكم في السلطنة قد انتهت فاسترح"^(١) وكان مقتله بفتوى من شيخ الإسلام عندما قامت الإنكشارية في نهاية العام ١٨٠٨م تنادي باسمه وقتلت الصدر الأعظم البيرقدار وبعد تردد وافق السلطان محمود الثاني على قتله فكان في ١٥ - ١٨٠٨/١١م حيث خنق بحزام حريري وعمره آنذاك ٢٩ عام وشهرين ودفن في مقبرة حميدية جوار أبيه في بقعة قابو، ولم تتأثر الأستانة بمقتله لأنه عد مسؤولاً عن قتل سليم الثالث^(٢).

ج- السلطان محمود الثاني: ١٨٠٨ - ١٨٣٩م

ولد محمود الثاني في ١٣ رمضان ١١٩٩ هـ / ٢٠ تموز سنة ١٨٧٥م والده السلطان عبد الحميد الأول^(٣) والدته جارية فرنسية تدعى (أيميه) كانت تمت إلى جوزفين زوجة نابليون الأول بصلة قرابة، وكان قد اختطفها القراصنة الأتراك في الرابعة عشر من عمرها وباعوها للسراي الهمايوني عام ١٧٨٤م، وعندما رآها السلطان عبد الحميد الأول أعجب بها فتزوجها، وعندما أنجبت له محمود أطلق عليها اسم (نقشديل سلطنة)، ومحمود الثاني كالسلطان سليم الثالث من قلائل السلاطين العثمانيين الذين نعموا في طفولتهم في أحضان نوبيهم ولم يكن نصيبهم الغرفة الفولاذية حيث لم يفارق محمود الثاني أمه فعلمته اللغة الفرنسية والعلوم والثقافة الأوروبية عموماً، وقد قرأ كتباً في الشعر والقانون والأخلاق والتاريخ عموماً ثم خططت (أيميه AIMEE) بالتعاون مع السفارة الفرنسية بذكاء لتولي ابنها العرش. لقد تولاه ولم تكن لحيته قد اكتملت بعد^(٤)، ولكن أمه قد خلقت فيه روح المثابرة والجد والعمل على الإصلاح في الدولة، وطابع الجدية هذا أكسبته صفة القسوة بشكل عام على الرغم من وصف بعضهم له في أثناء هدوءه بلين الطباع والهدوء والود بعكس لحظات انفعاله^(٥)، من ناحية أخرى كان تلميذاً لابن عمه سليم الثالث ووارثاً لجميع أفكاره حيث رباه سليم وكأنه ابن له من صلبه، علمه الموسيقى (فكان عازفاً على الناي وطنبورياً ومغنياً نقشياً مولوياً خطاطاً عظيماً في خط الثلث والنسخ والجلي) وأما تثقيفه سياسياً فكان خلال الأربعة عشر شهراً من تولي مصطفى الرابع الحكم إذ إنه بحجة تعليم سليم لمحمود الموسيقى كان يلتقي به ويسرد له تجربته في الحكم ووعظه بعدم

(١) البحر اوي، المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٢) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٦٦.

(٣) لقد ذكر عهده في بداية الحديث عن سليم الثالث وعن الانفتاح الفكري والثقافي التي شهدته الأستانة وعن تأثير التيارات الغربية ودخول مظاهر الحضارة الأوروبية إليها.

(٤) Ali Kemal مرجع سابق، ص 315. انظر: البحر اوي، مرجع سابق، ص ١٣٢-١٣٣.

(٥) البحر اوي المرجع السابق ص ١٣٢ ؛ Hakki مرجع سابق، ص 418.

الوقوع في الأخطاء التي وقع هو بها، وكيف يحكم الدولة وكيف يكون مصلحاً يقود حركة إصلاحية لإنقاذ أمته ونفسه أيضاً، فخرج محمود الثاني من هاتين المدرستين أمه وابن عمه نكياً وقوراً فعلاً جسوراً ذا عزم صبوراً داهية في السياسة والأمر الإدارية له إلمام بالثقافات الشرقية^(١)، لقب بالأدبي (عدلي)^(٢) ولقب (بغازي) ١٨١٣/٥/٢٨ م طويل القامة موزون الجسم جميل الوجه ومستديره أسود اللحية^(٣).

كانت أوضاع استانبول مضطربة جداً قبل تولي محمود الثاني العرش حيث عصفت بها ثورات عدة خلال الفترة ١٨٠٧ - ١٨٠٨ م وقتل فيها سلطانان بعد عزلهما وتبدل على الصدارة العظمى خمسة من لم يقتل منهم سجن فضلاً عن الوزراء الكثر الذين فقدوا حياتهم وتلاشى كل ما سعى إليه سليم الثالث وحاول بناءه^(٤)، لكن السلطان الجديد الذي تولى الحكم سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م كان مصمماً على أن يهبي المناخ المناسب لكي تنمو بذور الإصلاح التي زرعها أسلافه وأولهم سليم الثالث، وأول عمل قام به هو تعيين مصطفى باشا بيرقدار صدرراً أعظم حيث كلفه بتنظيم الجنود ومكافحة الشغب والفوضى^(٥)، لأن السلطان سليم قد تخلص من عدد كبير من أعداء الإصلاح لكن العدد الأكبر وهو الإنكشارية لم يستطع أن ينال منهم بل على العكس تمكنت من التخلص من سليم الثالث. وفي واقع الأمر أن الإنكشارية ليست العون الحقيقي للإصلاح والمصلحين لأن الإصلاح يستوجب منها فقط تغيير اللباس والتدريب على الأسلحة الحديثة ولكن الخطر الحقيقي لفكرة الإصلاح كانت تأتي من العلماء والولاة أصحاب النزعات الانفصالية والاستقلالية والدليل على ذلك الصدر الأعظم الجديد مصطفى باشا بيرقدار الذي كان معارضاً للإصلاح والسلطان محمود الثاني يعرفه معارضاً وعلى الرغم من ذلك فقد نصبه في الصدارة العظمى وكلفه بتنظيم الجيش، وقد جمع الإنكشارية وخطب فيهم مؤكداً على ضرورة التغيير مع الاحتفاظ بالأصول القديمة التي شرعها سليمان القانوني فهنفت الإنكشارية مؤيدة للأسلحة الجديدة، ولكن عندما تعرض للمناصب القيادية كان نصيبه الموت وعلى أيديهم^(٦)، لأن زهو الانتصار والغرور قد أصابه وأنه قد غير وجه الدنيا من دون تدخل العلماء والإنكشارية حتى أصدقائه ومعاونوه عدّهم مجرد آلات وأدوات لتنفيذ أوامره فتناقلت الناس الحديث عنه أنه طاغية لا دين ولا خلق وفي النهاية نالت منه الإنكشارية^(٧)، وبمقتل بيرقدار على يد الإنكشارية يعني انتصارها في شوط آخر وأخذوا ينادون باسم السلطان مصطفى الرابع فكان لابد من قتله حيث أصدر شيخ الإسلام بموافقة السلطان محمود الثاني فتوى بقتله وكان ذلك في اليوم نفسه الذي قتل فيه بيرقدار ١٥ تشرين الثاني ١٨٠٨ (وبموت مصطفى الرابع يبقى محمود الثاني الوحيد من سلالة العثمانيين ومنصب ولاية العهد يصبح

(١) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٦٤، انظر البحراوي، المرجع السابق، ص ١٣.

(٢) نسبة إلى مجموعة من القصائد سماها (التخلص) عدلي. حسون تاريخ الدولة العثمانية ص ١٧٨.

(٣) أوزتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٦٤-٦٦٥.

(٤) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٥) أصاف، مصدر سابق، ص ١١٦. <http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-turistique>

(١) Ali Kemal مرجع سابق، ص 419.

(٢) البحراوي، المرجع السابق، ص ١٢٩.

شاغراً لعدم وجود ذكر يشغله إلى أن مضى ثلاث سنوات حيث رزق محمود بطفلٍ ذكرٍ^(١)، لقد شبه الكثير من أهالي القسطنطينية ذاك اليوم بيوم القيامة حيث النار مشتعلة بين الإنكشارية من جهة وأعوان السلطان من جهة أخرى (سكبان جدد والبحرية) والضحية كانت الآلاف ونادت الإنكشارية بعزل محمود الثاني وتعيين أخته السلطانة أسماء مكانه، لكن لم يستطع أي من الطرفين الانتصار على الآخر والتجأ الجميع إلى العلماء لوضع حدٍ لتلك المذابح فأصدر العلماء القرار بوقف إطلاق النار من الطرفين فوراً وتدخل الإنكشارية إلى ثكانتها، ويلغي السلطان محمود سكبان جدد، والتزم الجميع بتطبيق الاتفاق وبقي ذلك قائماً حتى الواقعة الخيرية عام ١٨٢٦م رغم حدوث بعد الاضطرابات المحدودة التأثير^(٢).

بعد هذه الأحداث مع الإنكشارية أراد السلطان التخلص منهم بالتدبير والتخطيط، ولأنه يدرك أنه لا يستطيع الاعتماد عليهم في الجبهات الخارجية قرر تهدئة الأوضاع مع كل من إنكلترا وروسيا فوقع مع الأولى اتفاق في ٢٤ ربيع الثاني ١٢٤٤ هـ ١٨٠٩/٧/٨م وكان هذا الاتفاق رداً على التحالف الروسي الفرنسي في تلسيت عام ١٨٠٧م ولأن الإنكليز أظهروا حسن النوايا تجاه العثمانيين بعد انسحابهم من مصر^(٣).

أخذت المخابرات العثمانية تنشط لتحسين الأجواء العثمانية الروسية، لكن النتيجة كانت حرباً مستمرة خسر العثمانيون فيها خسارة فادحة، ولولا أن ساءت العلاقات الروسية الفرنسية بسبب عدم تطبيق تلسيت لما قبل الروس توقيع معاهدة بخارست^(٤) في ١٦ جمادى الأولى ١٢٢٧ هـ ١٨١٢/٥/٢٨م مع العثمانيين فقط ليتفرغوا الجبهة الفرنسية.

لقد عدّ نابليون ذاك الاتفاق الروسي العثماني خيانة للعلاقة العثمانية الفرنسية القديمة وتناسى خيانتته هو في تلسيت^(٥)، هذا هو الغرب الاستعماري بمفاهيمه وأفكاره حيث لا دين ولا ثقافة ولا خلق يردعه عن فعل ما تستوجبه مصالحه، وهو بهذا لا يعدّ نفسه مخالفاً للقانون الخلقي والإنساني أو حتى السياسي في التعامل مع الآخرين، في حين يتهم بالخيانة من يقوم بنفس الفعل من المجتمع الشرقي، هل هذا هو اعتراف ضمنى بأن المجتمع الشرقي له قواعد وأسس دينية وخلقية وهم حريصون علينا أكثر من أنفسنا لعدم مخالفة هذه الأسس والقواعد، في حين هم الغربيون لديهم صك الغفران الذي ما يزال ساري المفعول منذ أن منحه البابا حتى يومنا هذا؟ واليوم لماذا نعاقب مباشرة بقرار دولي على ممارسة أدنى حق من حقوقنا في حين الآخر يخترق ويقتل ويدمر ويحتل ولا يأبه بالنظام الدولي ولا يستطيع القرار الدولي أن يدينه، ومن هو محور الخير ومحور الشر ومتى نبتعد عنه ومتى نقترّب منه وبأي مقياس تحدد هذه المحاور؟ أليس بمقياس المصالح وبميزان القوي وبكفة الغالب.

(٣) أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٦٦.

(٤) أوزتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٦٧.

(٥) فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٠٠، السيد، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(١) معاهدة بخارست، عام ١٢٢٧ هـ ١٨١٢م، هي نفسها التي يكرها سيد محمد السيد باسم معاهدة (كش)، ص ٢٤٧.

(٢) فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٠١.

لقد كانت المشاكل التي واجهها السلطان محمود الثاني بعد تولي سدة الحكم كثيرة جداً سواء داخلية أو خارجية، وجهوده الإصلاحية ضاعت بين هذه وتلك، ففي عهده ظهرت نزعات وحركات انفصالية واستقلالية هددت كيان الدولة، منها الخطر الوهابي في شبه الجزيرة العربية إذ بلغت أوج قوتها مع تسلم محمود الثاني العرش العثماني، وتأتي خطورتها من كونها حملت لواء الإصلاح الديني الذي حمل رايته زعيم الحركة محمد (١) بن عبد الوهاب (٢) الذي ضرب من خلال ذلك على دفة القيادة العثمانية للعالم الإسلامي ونافس بذلك السلطان في الزعامة الدينية خصوصاً أن حركته ظهرت في المنطقة الأكثر قداسة في العالم الإسلامي، ووجه انتقاداً لاذعاً للعثمانيين لابتعادهم عن أصول الدين الإسلامي مسوغاً محاولة انتزاع السيادة الدينية منهم. وهذا ما أثار غضب السلطان محمود الثاني من الحركة الوهابية وطريقة تفكيرها، ولأنه كان مشغولاً بقضايا عديدة في الدولة منها داخلية (الإنكشارية وقيام الثورات في الولايات الأخرى) ومنها خارجية الحرب ضد روسيا، لهذا قرر السلطان أن يكلف واليه على مصر محمد علي باشا بالقضاء على الحركة الوهابية (٣).

ولم يكن ذلك سهلاً عليه لأن السلطان محمود الثاني كان يخاف من محمد علي أكثر مما يثق فيه، ولكنه اضطر إلى ذلك خشية ضياع هيبة الدولة العثمانية في العالم الإسلامي وحرصاً على سلامة طريق الحج، ولأنه يدرك أيضاً أن الإنكشارية لن تتصاع لأوامره، وجيشه الجديد لم يصبح بعد قادراً على خوض المعارك (٤).

لقد كان كل من السلطان والوالي يناور الآخر بذكاء فالأول أراد ضرب خصومه ببعضهم لأنهم ولاية تابعون له خارجون عن سلطته، وبالتالي يقضي على أحدهما ويضعف الآخر، ورغم أن الوالي كان يدرك هذه النوايا لكنه استجاب لطلب السلطان ليظهر بمظهر الوالي المخلص، وليظهر للعالم بروز قوة حديثة جديدة على المسرح السياسي والعسكري يجب أن يحسب لها حساباً فضلاً عن رغبته الكبرى في توسيع مناطق نفوذه خصوصاً في شبه الجزيرة العربية. وتمكن محمد علي من القضاء على الحركة الوهابية (الدولة السعودية الأولى) خلال الفترة ١٢٢٦-١٢٣٤ هـ-١٨١١-١٨١٨ م حيث دخل عاصمتهم الدرعية وأرسل عبد الله بن سعود إلى القاهرة ثم الأستانة حيث قتل هناك (٥).

لم تكن محاربة الوهابيين هي المهمة الوحيدة التي أكلها السلطان محمود الثاني لواليه محمد علي، بل كلفه أيضاً بالقضاء على ثورة اليونان، عندها وجد أن الدول الأوروبية تسعى للصالح بما يضر بمصالح الدولة العثمانية لذلك أراد استغلال تضارب

(٣) غريبال، مرجع سابق، ص ٩١.

(٤) محمد بن عبد الوهاب، ولد عام ١٧٠٣م، في العيينة في شبه الجزيرة العربية عالم ديني درس المذهب الحنبلي ثم سافر إلى أصفهان ثم عاد إلى بلاده وأسس الحركة الوهابية (العودة بالإسلام إلى المبادئ الحقيقية)، له كتاب الوحدة (التوحيد) والذي أصبح دستور الحركة، وأصبح أتباعه الموحدون. تحالف مع ابن سعود فانتشرت دعوته في شبه الجزيرة العربية وخارجها توفي سنة ١٧٩٢م فريد بك، مصدر سابق

ص ٤٠٤ 4238 p 2008 Encyclopædia Britannica Article

(١) حليم، مرجع سابق، ص ٢٩٠.

(٢) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٤٤-١٤٥.

(٣) فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٠٩، أنظر؛ سعيد أحمد برجاي، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٣م، ص ٢٢٠-٢٢٢.

أرائها حول قضية اليونان (١)، فأصدر السلطان فرمان بتاريخ ٥ رجب ١٢٣٩ هـ ١٨٢٣/٣/٦ م عين بموجبه محمد علي والياً على كريت وإقليم مورة (٢).

قبل محمد علي (٣) وأرسل جيشه بقيادة ابنه إبراهيم باشا لإخضاع اليونان، وحقق انتصارات كبيرة على اليونانيين فاستتجد اليونان بأوروبا وحركوا الرأي العام فيها (٤) ولولا تدخل أساطيل الدول الأوروبية لكان نصراً حاسماً للجيش المصري والعثماني ولكنه تحول بهذا التدخل إلى هزيمة منكرة وانسحاب ما بقي من الأسطولين المصري والعثماني ولتحصل اليونان على استقلالها مقابل دفع جزية سنوية للسلطان (٥).

في خضم هذا الوضع الخارجي المتأزم جداً تجدد خطر الإنكشارية على كيان السلطنة وأمنها ويبدو أنه قد آن الأوان للتخلص منها نهائياً خصوصاً بعدما لمسه السلطان من فرق كبير بين الجيوش المنظمة الحديثة وجيشه القديم فقام بجمع كبار المسؤولين في السلطنة في بيت المفتي ١٢٤١ هـ - ١٨٢٦ م فخطب فيهم الصدر الأعظم سليم محمد باشا حيث وضح مأساوية الوضع الذي وصلت إليه الدولة العثمانية أمام دول أوروبا بسبب تخلف الإنكشارية وما تسببه من فوضى داخلية بعدم انقيادها وإطاعتها الأوامر، واختتم الاجتماع بمشروع جديد لتحديث الجيش وافق عليه الجميع بمن فيهم قواد الإنكشارية، لكن موافقة هؤلاء كانت ظاهرية فقط وأضمرُوا العصيان والاستعداد لتعطيل هذا المشروع الجديد وفي ٨ ذي الحجة سنة ١٢٤١ هـ / ٢٤ حزيران ١٨٢٦ م تعرض الإنكشارية للجند الجديد وقت التمرين، فأصدر السلطان قراراً بقتل كل من تعرض لهم فاحتشدت الإنكشارية وتأمرت على العصيان فقرر السلطان المواجهة وعدم التساهل معهم خشية طغيانهم، فأخرج العلم النبوي الشريف يتبعه العلماء والطوبجية والجند إلى ساحة أت ميدان، فاحتلوا كل المرتفعات المطلة على الساحة حاول الإنكشارية السيطرة على المدافع، لكن نيرانها أجبرتهم على التراجع والدخول إلى ثكناتهم فهدمتها المدافع على رؤوسهم، وفي اليوم التالي أصدر السلطان محمود الثاني فرمان بإبطال فئة الإنكشارية وملابسها وإصلاحاتها واسمها من جميع الممالك وملاحقة كل من بقي منهم وإعدامه، وألغى الطريقة البكتاشية وعين حسين باشا قائداً للجيش (٦)، وأطلق العثمانيون على واقعة

(١) طقوش، مرجع سابق، ص ٣٤٢.

(٢) فريد بك، المصدر السابق، ص ٤١٤.

(٣) يذكر محمد فريد بك سبب قبول محمد علي فرمان السلطاني خوفاً من أن يفسر ذلك عصياناً واستقلالاً وهو غير مستعد لذلك (تاريخ الدولة العلية ص ٤١٤)، ويذكر خلف الوديني أن سبب تكليف السلطان لمحمد علي ليشغله عن نزعاته الاستقلالية في بلاده (الدولة العثمانية والغزو الفكري مرجع سابق ص ٢٤١)، أما سهيل طقوش فيذكر أن محمد علي قبل بذلك على اعتبار أن الخطر موجه ضد دولة المسلمين عامة متمثلاً بالدولة العثمانية وضد الإسلام ممثلاً بالسلطان العثماني خليفة المسلمين، طقوش، المرجع السابق، ص ٣٤٣.

(٤) وقفت كل من بريطانيا وروسيا إلى جانب اليونان وأخذ الكتاب والمفكرون في أوروبا يصورون الثورة أنها صراع من أجل الحضارة ضد ما أسموه بربرية وجمود. البحراوي، المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٥) أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ١٠، انظر؛ فريد بك، المصدر السابق، ص ٤٢٨.

(٦) فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٣٠-٤٣١، انظر؛ البحراوي، مرجع سابق، ص ١٧٤-١٨٣، انظر؛ حليم، مرجع سابق، ص ٢٩١-٢٩٢، انظر؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٣٣٣-٣٣٤،؛ أوزتونا، مرجع سابق، مج ١، ص ٦٧٦-٦٧٩. <http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-culture>

الإنكشارية ب (وقعة خيرية)، لأنهم تفاعلوا بها خيراً. كما تفانلوا بالجيش الجديد الذي حل محل الإنكشارية وقد سمي (العساكر المنصورة المحمدية)^(١) وقد نشر الأمر السلطاني القاضي بحل المنظمات الإنكشارية في جميع أنحاء البلاد لما يقومون به من سوء الأعمال والفساد وتنظيم جيش نظامي بدلاً عنهم مجهز بأحدث الأسلحة ومدرّب أحسن تدريب^(٢).

بعد الواقعة الخيرية أضحت الدولة العثمانية المترامية الأطراف بلا مدافع ولا عين تحرسها بعد تدمير أسطولها في نفاارين والقضاء على الإنكشارية في الواقعة الخيرية، وكانت هذه فرصة ذهبية لروسيا لم تفوتها، فقام السلطان محمود الثاني بتوقيع معاهدة أكرمان (Akkerman)^(٣) معها في ١٨٢٧/١٠/٧م جملها السلطان بقوله إن هذه المعاهدة ليست سوى توضيح لمعاهدة بخارست ١٨١٢م^(٤) ثم أعلنت الحرب في عام ١٨٢٨/٤/٢٦م وكانت حرباً قاسية جداً على السلطان فاستنفذت مالية الدولة وكان قد خسر سابقاً جيشه وأسطوله وبسبب التنافس الدولي اضطرت روسيا إلى عقد اتفاق جديد مع الدولة العثمانية معاهدة أدرنة ١٨٢٩/٩/١٥م^(٥)، ولم يكد السلطان ينتهي من أزمة الحرب الروسية بتوقيع صلح أدرنة حتى توجهت الأنظار نحو الشواطئ الجزائرية عام ١٨٣٠م حيث الأسطول الفرنسي يتأهب لاحتلال الجزائر وكانت صدمة كبيرة للعثمانيين^{(٦)(٧)}.

إن الغاية من سرد هذه الأحداث العسكرية هو الوصول إلى فكرة أضحت شائعة في أوروبا، وهي أن الأوروبيين أخذوا يسوِّغون لأنفسهم وللرأي العام احتلال أملاك الدولة العثمانية، لأنها دولة متخلفة، فاحتلالها يعني تخليصها من مستنقع الجهل^(٨) وتطويرها كما يقولون في غزو فرنسا لمصر بالمدنية وليس بالعسكر، وتحويل الفرنسيين أكواخ القراصنة في الجزائر إلى موانئ ومستشفيات^(٩).

(٢) أوزتونا، المرجع السابق، مج ١، ص ٦٧٦، ؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٣٣٤، ؛، برجاي، الإمبراطورية العثمانية مرجع سابق، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مجلد ٢، وثيقة رقم ١٤٩، حرر في أواسط ذي القعدة ١٢٤١هـ-١٨٢٥م، ص ١٠٣-١٠٤-١٠٥.

(٤) هذه المعاهدة وسعت الاستقلال الداخلي لإمارات صربيا ورومانيا ومنعت تواجد المسلمين في قلاع صربيا عدا الجنود الأتراك، وينتخب الباب العالي بكوات الأفلاق والبغدان من أشرف الرومان لمدة سبع سنوات ولا يحق له عزلهم من دون أسباب جدية. أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ٩.

(٥) أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ٩.

(٦) أخذت بموجبه الساحل الشرقي للبحر الأسود ودلتا الطونة في البلقان واعتبار كرجستان قطرا روسيا ودفع تركيا غرامة ١١,٥ مليون قطعة ذهبية. أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ١٢، ؛ البحراوي، مرجع سابق، ص ١٥١.

(١) هذا الاحتلال ثمرة تأمر روسي فرنسي على أملاك الدولة العثمانية حيث تساعد روسيا فرنسا في أخذ البلجيك والجزائر ومكافأة لها على حملة المورة بينما تساعد فرنسا روسيا بالسيطرة على الروملي.

(٢) البحراوي، المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٣) دي بولنيك (De Polignac) صاحب المشروع الروسي الفرنس ضد الدولة العثمانية وقد أبدع حلا آخر لمشاكل أوروبا كلها دفعة واحدة ويقوم على فكرة طرد العثمانيين من أوروبا واقتسام أملاكها بما يرضي الجميع. البحراوي، المرجع السابق، ص ١٥١.

(٤) البحراوي، المرجع السابق، ص ١٥٢؛

ليس من المعقول أن يتبادر إلى ذهن المسلم الحقيقي أن هذا الوضع الذي وصل إليه خليفة رسول الله (ﷺ) وأن هذه الدولة وريثة دولة الرسول ودينه العالمي الذي انفتح على كل حضارات العالم تصبح دولة متخلفة منعزلة تحتاج لمن ينقذها من حفرة الجهل، (١) ؟

ولم يبق أمام السلطان محمود الثاني من مشكلات سوى منافسه وعدوه وواليه محمد علي باشا، فقد أخذت منافسته تشتد عندما خطط محمد علي لاحتلال بلاد الشام، فقد نظر الكثير من الباحثين إلى أن هذا التنافس بين السلطان وواليه كان يحمل في طياته تأثيراً متبادلاً في الحركة الإصلاحية لكل منهما وبما أن محمود الثاني سلطاناً كان يعتريه الخوف والغيرة من كونه سلطاناً ومحمد علي والياً لديه وقد سبقه في الوصول إلى الحضارة والتحديث .

إن من أكثر الأمور التي ساعدت محمد علي على النهضة السريعة في مصر تلك الأرضية التي مهدتها الحملة الفرنسية في المجتمع المصري وقد هيأته لتقبل الإصلاح على النمط الأوروبي (٢)، بالتالي أزيلت الكثير من العوائق التي تقف في وجه الإصلاح المصري واستطاع محمد علي تجاوز العوائق الأخرى، أما السلطان محمود فكان عليه أن يتابع ما بدأه أسلافه ولا سيما سليم الثالث، وهو التمهيد للإصلاح على جميع الأصعدة ولا سيما المجتمع المسلم الذي يفسر الحديث الشريف بتفسير خاطئ "كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار".

أما محمد علي فقد استطاع أن يقنع العلماء والشعب المصري بصحة تفسير الحديث وأن البدعة في العبادة فقط وليس في غيرها، أما السلطان محمود فقد عجز عن ذلك ولفترة طويلة .

لقد نظر محمد علي إلى نفسه أنه قدم خدمات كبيرة للدولة العثمانية وأنه يجب أن ينال بعض مناطق النفوذ والامتيازات، وكان يطمع بالصدارة العظمى ليضم الإمبراطورية وسلطانها تحت جناحيه ولتكون منطلقه إلى الأفق العالمي ولكن حلمه لم يتحقق، بل إن السلطان كلفه بتجهيز قواته للزحف على روسيا ١٨٢٨-١٨٢٩م وعده خائناً لأنه تعذر بأعداء عديدة عن تنفيذ الأمر السلطاني واتخذ محمد علي من امتناع عبد الله باشا والي صيدا عن إعادة الفلاحين الهاربين من مصر ذريعة للزحف على بلاد الشام بأربعة آلاف مقاتل تحت إمرة ابنه إبراهيم باشا وأسطول بحري مؤلف من ثلاث وعشرين قطعة بحرية في ١٢٤٧ هـ / ١٠ / ١٠ / ١٨٣١م (٣)

(٥) أليس من الأوجب أن ترفع في فلسطين أو العراق أو أفغانستان، وهل أضحت أوروبا وأمريكا أحرص منا على قضايانا ومصالحنا حتى نتبع مخططاتها ومؤامراتها لنقتتل ونتصارع وهم يتفرجون وقلوبهم ترقص فرحاً لمأسينا. فهل يحق لنا أن نبكي أم نضحك أنبكي لحاضرنا المأساوي أم نضحك لماضينا المجيد ونخشى أن يضيع المستقبل بين هذا وذاك، ألن يأسف عليه الصلاة والسلام على ما آلت إليه دولته التي كانت منارة للعلم والثقافة لكل أصقاع العالم وأممهم، وأضحت الآن كتلة من التخلف والجمود، ألن يأسف على رايته الشريفة التي تحت ظلها فتحت البلدان وتنورت بنور الإسلام أضحت بيد من لا يعرف كيف يستخدمها، ألم يكن من الأوجب رفع هذه الراية في ثورة اليونان أو لصد احتلال فرنسا للجزائر أو ضد روسيا على أن ترفع في استانبول ضد الإنكشارية .

(١) البحراوي، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٢) أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ١٥.

تمكنت هذه القوات من السيطرة على فلسطين من دون مقاومة باستثناء عكا وواليها عبد الله باشا الذي رفض إعادة الفلاحين الهاربين ثم فرض عليها حصاراً، عدّ العثمانيون سلوك محمد علي عصيانياً على سلطتهم فأمرؤا والي حلب بالتصدي له وجمع الجيش وزحف باتجاه عكا لدعمها، لكن إبراهيم باشا قرر ملاقاته فالتقى الفريقان قرب حمص وكان النصر حاسماً للمصريين ثم عاد إلى عكا لمتابعة الحصار الذي استمر ستة أشهر ثم فتحت أبوابها بالقوة وأسر عبد الله باشا الجزار وأرسل إلى مصر في ٢٧ ذي الحجة ١٢٤٧ هـ ١٨٣٢/٥/٢٨ م^(١).

دخل إبراهيم باشا بعد ذلك دمشق ورحب السكان به وكانت هذه الأخبار كالصاعقة على مسامع السلطان محمود الثاني فأصدر فرماناً بإعلان خيانة محمد علي وابنه إبراهيم باشا وكلف حسين باشا بتجهيز جيش لوقف الزحف المصري والتقى مع إبراهيم باشا في معركة قرب حمص في حزيران ١٨٣٢ م وكانت النتيجة أن تابع إبراهيم باشا السيطرة على حماة وحلب، ثم عاد والتقى مع قوات حسين باشا عند ممر بيلان، وكانت الخسارة كبيرة للعثمانيين، ثم تلاها مواجهة أخرى بين إبراهيم باشا والصدر الأعظم محمد رشيد باشا في سهل قونية وأسفرت المواجهة عن أسر محمد رشيد وهزيمة منكرة للعثمانيين، وبعد هذه المعركة أصبح الطريق إلى استانبول مفتوحاً واهتزت أركان العاصمة ليهتز عرش السلطنة ويخشى السلطان على كرسيه فيسعى ليحافظ على كرسيه وقد كان يردد مثله القائل (الغرقان يستنجد بالثعبان)^(٢).

كان محمد علي يدرك أن إصلاحات السلطان في دولته قد جعلته غير محبوب بعكسه هو لذلك لم يخش من الزحف باتجاهه فحاول السلطان الاستنجاد بالبريطانيين لكنهم مشغولون بالبلجيك، وهو يدرك أن فرنسا تميل إلى محمد علي ولن تقدم له العون ضد ذاك الوالي الثائر الذي تعدّه صديقاً لها وتتنظر إلى توسعه توسعاً لها، فلم يكن أمامه إلا القيصر الروسي (الثعبان) العدو التقليدي فعقد معه معاهدة خونكار اسكله سي ١٨٣٣/٧/٨ م^(٣)، فربط الأسطول الروسي أمام قصر السلطان العثماني في استانبول وبذلك يصبح القيصر العدو والصديق في وقت واحد فهو عدو من حيث دعمه للرومان والصرب ضد السلطان والدولة العثمانية، وصديق من حيث كونه يحمي السلطان من محمد علي الوالي الثائر، وهنا يتغير الموقف الأوروبي لصالح السلطان بالرغم من أنهم كانوا ينظرون إلى تجربة محمد علي الإصلاحية

(١) فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٥٠، أنظر ؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٣٥٥ ؛ أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ١٥.

(٢) أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ١٥-١٦، ؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٣٥٦-٣٥٧ ؛ فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٥١. <http://encyclopedia.aarabiah.net/Turkey-istanbul>

(٣) خونكار اسكله سي قرية قريبة من استانبول وقعت فيها معاهدة دفاعية هجومية بين روسيا والدولة العثمانية في محرم ١٢٤٩ هـ - ٧/تموز/١٨٣٣ م التزمت كل دولة بمقتضاها أن تساعد الدولة الأخرى إذا استهدفت لخطر خارجي أو داخلي وتعهد الباب العالي بأن يسمح للأسطول الروسي بالمرور عبر المضائق وأن يغلقها في وجه جميع السفن التابعة للدول الأخرى التي هي في حالة حرب مع روسيا مدة المعاهدة (٨ سنوات) وبملحق سري تنازلت روسيا بموجبها عن حقوقها في الحصول على المعونة العثمانية ما عدا إغلاق المضائق في وجه روسيا. طقوش، مرجع سابق، ص ٣٦٠.

بعين الإعجاب حتى كثير منهم شبهه بنابليون ولكن كلما تقدم إبراهيم باشا باتجاه القسطنطينية كان كرسي والده يهتز في مصر في نظر أوروبا والسبب في ذلك دخول القيصر وأسطوله فخشيت أوروبا (انكلترا وفرنسا) على مصالحها، وليس خشيتها على السلطان وعلى عرشه ومصالحه فتدخلنا وعقدنا معاهدة كوتاهية^(١)، ١٨٣٣م بين الطرفين لتقطعا الطريق على روسيا نحو المياه الدافئة^(٢)، استمرت الهدنة ست سنوات حتى عقد السلطان معاهدة تجارية ١٨٣٨م مع انكلترا أضرت بالاقتصاد العثماني والمصري بشكل كبير، ولذلك قرر محمد علي إعلان العصيان على الدولة وامتنع عن إرسال الضريبة السنوية إلى استانبول^(٣)، ولم يكتف بذلك بل يحمله بعضهم مسؤولية الحرائق التي عصفت بالقسطنطينية في بداية ١٨٣٩م، ومن ناحية أخرى فإن السلطان أراد استغلال ثورة أهالي الشام على قوات إبراهيم باشا بسبب ممارساته التعسفية معهم، وأيضاً ما تناقله مندوبو سفراء الدول الأوروبية عن لسان محمد علي عن رغبته في أن تكون مصر والشام وبلاد العرب له ولأولاده من بعده، ولغاية في نفس يعقوب أوصلها أولئك إلى مسامع السلطان، فكان أن استنفر الطرفان قواتهما، وكان آخر عمل قام به السلطان، هو إصدار الأمر لحافظ باشا بمهاجمة القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا الذي أراد هو ووالده أن يبدأ السلطان الحرب ويتحمل المسؤولية عن ذلك، وتم لهما ذلك وكانت خسارة العثمانيين كبيرة جداً في معركة نزيب (نصيبين) في ١ ربيع الثاني ١٢٥٥هـ - ١٨٣٩/٦/٢٤م تاركاً الأزيمة لابنه وخلفه عبد المجيد^(٤).

هذا فيما يتعلق بخطه السياسي، أما خطه الإصلاحي فقد بدأ به بشكل جدي بعد الواقعة الخيرية ١٨٢٦م التي من خلالها قضى على الإنكشارية، وبالتالي تخلص من أكبر عقبة كانت تمنعه من القيام بالإصلاح، ولهذا وبعد هذه الواقعة جاءت إصلاحات محمود الثاني جدية صارمة ولم يساوم أو يفاوض بل فرض النظام الجديد، بأي وسيلة كانت، وبما أن أوروبا كانت قد سبقته كثيراً في هذا المجال فكان عليه أن يقطف ثمار حديقة الحضارة الأوروبية الغربية التي ترعرعت ونمت في بيئتها خلال فترة زمنية طويلة، وهناك مشكلة أخرى وهي أن ثمار الغرب لا تناسب أذواق وموائد المجتمع الشرقي ولهذا كان عليه التحفظ في بعض الاتجاهات الإصلاحية إلى حد معين بحيث لا يثير الرأي العام، وتبقى العملية الإصلاحية تشق طريقها بصعوبة بالغة لتقلب كيان المجتمع العثماني فتجانب الصواب في بعض الأحيان وتميل إلى الخطأ في معظمه، وكانت البداية بالناحية العسكرية^(٥). ففتح

(١) كوتاهية هي المدينة التي كان يعسكر فيها إبراهيم باشا في أثناء الاتفاق مع الدولة العثمانية بضغط من فرنسا وانكلترا وقد ضغطت فرنسا على محمد علي بالقبول بالتهديد بقطع العلاقة معه، ونصت المعاهدة ١- أن يتخلى المصريون عن إقليم الأناضول وتنسحب جيوشهم إلى ما وراء جبال طوروس ٢- تعطي لمحمد علي باشا ولاية مصر مدة حياته ويتم تعيينه والياً على ولايات الشام الأربع عكا وطرابلس وحلب ودمشق بالإضافة إلى جزيرة كريت ٣- تعيين إبراهيم باشا والياً على إقليم أضنة. طقوش، مرجع سابق، ص ٣٥٩، ؛ فريد بك، المصدر السابق، ص ٤٥١.

(٢) برجاوي، مرجع سابق، ص ٢٢٢-٢٢٥، ؛ البحرأوي، مرجع سابق، ص ١٥٣-١٥٤.

(٣) أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ١٨.

(٤) فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٥٣-٤٥٤، ؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٣٦٢.

(٥) أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ١٩.

مكتب فنون حربية شاهانية (المدرسة الحربية الإمبراطورية) التي خرجت الضباط المشاة والخيالة والمهندس خانة بري همايون التي خرجت ضباط البحرية وأسس أسطولاً بحرياً بدلاً من الأسطول الذي غرق في نافارين، كما فتح مدرسة الطب العدلي العسكري الإمبراطوري وغرفة للترجمة تابعة للصدارة العظمى. ونظم السراي الهمايوني على النمط الأوروبي تاركاً العادات العثمانية، وأسس الوزارات الحديثة^(١) وأسس مجلس الولايات^(٢) ليؤكد سلطة العاصمة على الولايات واستحدث نظاماً للتعيينات والترقيات والمعاشات وأبطلت عادة منح المناصب الحكومية كالتزام أو إقطاع. وعند انهيار نظام التيمار تحولت الأراضي للدولة وعاد ريعها إلى الجيش الجديد^(٣).

أما الخطوة الأكبر في إصلاح محمود الثاني فهي فصل السلطة المدنية عن العسكرية في الولايات، فالضباط في الولاية يقوم بالأمور العسكرية فقط ليتولى المدني البروتوكول والمهام الأخرى كما تقلصت صلاحيات رجال الدين لتقتصر على المدارس التي تدرس العلوم الدينية ومحاكم الحقوق المدنية وأمور الدين. وكان اهتمامه بالتعليم كبيراً حيث أرسل البعثات إلى الخارج واهتم بالمدارس بطريقة الهرم المعكوس، أي الاهتمام بالمراحل العليا أكثر من الدنيا كي لا يصطدم برجال الدين وصلاحياتهم، واهتم بتعليم اللغات الأوروبية، وأجرى أول إحصاء ومسح للأراضي في الدولة في العصر الحديث لتنظيم الجند والضرائب^(٤).

وفي ١٨٢٩/٣/٣م أدخل اللباس العسكري والمدني على الدولة وتشدد في تطبيقه^(٥). المهم أن السلطان محمود الثاني قد رسم للدولة العثمانية طريقاً لا يمكن العودة منه وجهاز خلفه مشروع التنظيمات. وتمكن من أن يعيد للدولة الهيبة والسلطة المركزية على الرغم من الطابع السطحي التي تميزت به عملية الاقتباس عن الغرب، إضافة إلى أنها لم تركز على الأسس الصحيحة في مجال التعليم والإنتاج الاقتصادي، ولهذا أعاد هيبة الدولة في الداخل إلى حد ما ولكن لم يغير ذلك من وضعها في الخارج وعلى قدرتها على مواجهة أعدائها^(٦).

وكما كان محمود الثاني رائداً في مجال الإصلاح فإنه كان أيضاً رائداً في مجال الاستمتاع بحياته الخاصة فقد كان محباً للنساء مولعاً بالخمر والأفيون واختار محظياته وجواريه بنفسه اللواتي امتلأ قصره منهن، وقد تزوج من سبع عشرة امرأة وأنجب منهن أربعة عشر ولداً وأربع عشرة فتاة، فغرق في هذا المستنقع حيث تولت أمه الأمور وأحاطته برجال مخلصين، ولم تذكر المصادر

(٢) تغيرت التسميات فقط فبدل الصدر الأعظم سمي رئيس الوزراء وبدل رئيس الكتاب سمي أسم وزير الخارجية وبدل الباش دفتردار سمي وزير المالية.

(٣) أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ٢٠.

(٤) طقوش، مرجع سابق، ص ٣٣٤.

(١) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٩٢-١٩٤.

(٢) أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ٢٠-٢١.

(٣) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٩٦، ؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٣٣٦.

أسماء كل أولاده من ذكور وإناث^(١).

د- السلطان عبد المجيد الأول ١٢٥٥-١٢٧٨ هـ / ١٨٣٩-

١٨٦١م^(٢)

ولد السلطان عبد المجيد الأول في ١٤/٨/١٢٣٧ هـ - ٦/٥/١٨٢١ م، والده السلطان محمود الثاني ووالدته السلطانة بزمي عالم (Bezmi Alem) الزوجة الأولى للسلطان محمود الثاني^(٣)، وهي روسية يهودية الأصل، واسمها سوزي ثم ادعت أن اسمها ليونة (Leon)^(٤) إن هذه الأم اليهودية كان لها باع طويل في زج الدولة العثمانية بمشاكل خارجية لم تأت على الدولة إلا بالخيبة والتراجع والانهيار، وإن كثيراً من المصادر العثمانية تتحدث عن الخدمات الجليلة التي قدمتها هذه اليهودية لأبناء جلدتها على حساب الدولة العثمانية^(٥).

لقد انتقلت ولاية العهد إلى عبد المجيد الأول حالما توفي أخوه الأكبر عبد الحميد وعمره سنتان ٢٠/٤/١٨٢٥ م. تلقى علومه ومعارفه منذ الصغر بالثقافتين الشرقية والغربية، فكان الأول من بني عثمان الذي تعلم الفرنسية بطلاقة، وحصل على شهادات في الخط العربي (الثلاث، الجلي، الرقعة). مولوي. اتجه نحو الموسيقى الغربية وتعلم العزف على البيانو وابتعد عن العثمانية. كان جميل الوجه مرتب الهندام متوسط القامة عسلي العينين، مؤدباً، حساساً، رقيقاً، رحيماً، ذكياً، وقوراً، لم يتمتع بقوة أبيه ولا سطوته ولا دهائه الواسع، ربما يعود ذلك إلى ميوله إلى الحضارة الغربية بمظاهرها اللطيفة، ولأنه لم يعان خلال طفولته وحدثاته سنة الصعاب والمشقات والغرف الفولاذية والحجر، وإنما قضاه في الرفاه والنعيم في ظل حكم أبيه. تميز على غيره من الحكام بتقديمه عليهم بالتشبه بمظهر الحكام الأوروبيين^(٦).

تولى عرش أجداده من بني عثمان في اليوم الذي توفي فيه والده محمود الثاني في ١٩ ربيع الثاني ١٢٥٥ هـ / ٢ تموز ١٨٣٩ م ولم يكن عمره قد تجاوز السابعة عشر سنة^(٧).

كانت الدولة في حالة انهيار تام، والعرش الذي استلمه عبد المجيد الأول كان واهياً جداً وأيلاً للسقوط وحده لولا يد الإنقاذ الأجنبية التي امتدت له وحافظت عليه، لأن الجيش مني بخسارة كبيرة أمام القوات المصرية فتشتت وخارت قواه، وقام قائد الأسطول العثماني أحمد باشا بتسليم الأسطول العثماني إلى محمد علي كردة فعل قوية على عدم تسلمه الصدارة العظمى في الدولة من جهة، ولأن من أخذها وهو خسرو باشا من ألد أعدائه من جهة أخرى^(٨).

(٤) يقال إن سوزان يهودية الأصل وشقيقة موسى مونتنفوري الذي حصل من خلالها على تسهيل مهمته بإقامة مدارس زراعية بموجب الكتاب من السلطان إلى والي القدس، نقل عنه Ali Kemal s 512.

(٥) Ali Kemal المرجع السابق، ص ٤٣٣.

(٦) المرجع السابق، ص ٤٣٣.

(٧) Ali Kemal مرجع سابق، ص 291.

(٨) المرجع السابق، ص ٢٩٢.

(٢) أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ٢٤-٢٥.

(٣) فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٥٥.

(٤) أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ٢٧.

إذاً إمبراطورية بلا جيش ولا أسطول وترجع على عرشها سلطان صغير السن عديم الخبرة، يميل في صفاته إلى الطفولة أكثر منها إلى الرجولة، فمن الذي سينقذ الإمبراطورية؟ إنهم حراس المصالح الخاصة، محبي ضعف السلطان وإمبراطوريته، إنهم الدول الأوروبية^(١). فلم يكن من السلطان الغر إلا الجلوس على المقاعد الأمامية بصفته وعظمته وهيئته ليشاهد سير أحداث المسرحية السياسية التي تتحكم به وتحدد مصير إمبراطوريته، وعلى الرغم من أنه حاول حل خلافه مع واليه محمد علي بالطرق السلمية داعياً إياه إلى نسيان الماضي، لكن أوروبا لا يناسبها ذلك وقدمت للسلطان مذكرة باسم الدول الخمس (النمسا روسيا انكلترا فرنسا بروسيا) في ١٨٣٩/٧/٢٧م طالبين منه ألا يعقد أي اتفاق أو تفاهم مع محمد علي إلا بمشورتهم، فوافق السلطان على ذلك^(٢)، وأخذت المشاورات والمناقشات تتزايد بين الدول الأوروبية لحل الأزمة، وميزان القوى يميل إلى صالح العثمانيين، لأن مصالح كل من انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا تقضي بترحيل محمد علي وقواته، وأما فرنسا التي وجدت نفسها على الجانب الآخر من الدول الأوروبية تؤيد محمد علي وتشدّ على يده في تصلبه في موقفه المعاند لمصالح هؤلاء، ولكن في النتيجة من سيتحمل عواقب الموقف؟ بالطبع ليس فرنسا، حتى تراجعها عن هذا الموقف المتصلب والمخرج لن يكلفها سوى استقالة رئيس الوزراء (المسيو تيرس) بينما كانت الخيبة كبيرة لمحمد علي ولأحلامه، حيث أوصلته فرنسا إلى منتصف البئر وقطعت حبل الأمان الذي كانت تمده له. وكم هي حبال الأمن والآمال العربية التي تقطع كثيرة، وكم هي كثيرة القوى والشعوب التي لا تستطيع تقرير مصيرها، بل تقف موقف المتفرج على مصيرها وإلى ما سيؤول إليه حالها.

ومعاهدة لندن^(٣) عام ١٨٤٠م وما تلاها كانت حلم السلطان وكابوس الوالي على الرغم من أن كليهما لم يشتركا في وضع بنودها، بل كانا رهينة المصالح والمنافسة الاستعمارية^(٤).

(١) Ali Kemal (مرجع سابق)، s. 341.

(٢) الوديني، مرجع سابق، ص ٣٣٢؛ فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٥٥؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٣٦٩. <http://encyclopedia.aarabiah.net/istanbul>

(٣) معاهدة لندن ١٨٤٠/٧/١٥م عقدت بين انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وصادقت عليها الدولة العثمانية، والغاية منها الضغط على محمد علي، وأبرز بنودها:

أ- ولاية مصر وراثية لمحمد علي ويكون له مدة حياته ولاية عكا شرط أن يقبل المعاهدة خلال عشرة أيام وأن يتخلّى عن ولاية كريت وبلاد العرب وإقليم أدنة والأسطول.

ب - إذا لم يقبل في عشرة أيام تركت له ولاية مصر وحدها ويعطى عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثي في مصر، فإذا لم يقبل فالسلطان له حق التصرف في خلعه من ولاية مصر.

ج- يدفع محمد علي جزية سنوية للباب العالي استناداً إلى فرمان السلطان رقم ٦١٣، الصادر سنة ١٨١٨.

د- تسري قوانين الدولة العثمانية على مصر باعتبارها ولاية عثمانية.

هـ- القوات المصرية البرية والبحرية هي جزء من القوات العثمانية.

و- يتعهد الحلفاء بتنفيذ هذه الشروط في حال رفض محمد علي ذلك ويتعهدوا بحماية السلطان والمضائق.

ز- يحق لانكلترا والنمسا مساعدة أهالي الشام للتخلص من سيطرة محمد علي.

ح- يحق للسفن الإنكليزية والنمساوية والروسية بدخول المضائق لحماية الأستانة من الأسطول المصري.

طقوش، مرجع سابق، ص ٣٧١.

(١) فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٦٥؛ أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ٣٦.

وهكذا تمكنت السياسة الأوروبية أن تعيد المنطقة برمتها بما فيها السلطنة والسلطان إلى حظيرتها، وانتهت قضية محمد علي التي عُدت من أكبر المشاكل التي واجهتها الدولة العثمانية في تاريخها، حيث رُضخ لمعاهدة لندن ١٢٥٧ هـ/ ١٨٤١م المعدلة، التي حصرت حكمه الوراثي في مصر مع تبعيته كولاية للدولة العثمانية وهدد بالعزل في حال مخالفته^(١). وبما أن القضية المصرية قد حلت ولم يعد هناك ذريعة للتدخل الأجنبي في شؤون الدولة فقد لاقت مسرحاً آخر مهياً بتكوينه للفتنة بعد خروج إبراهيم باشا منه فلم يحتاج الأمر في بلاد الشام (لبنان) سوى لبعض الدسائس لتتحرك الضغائن والأحقاد الكامنة ولتستعر نار الطائفية فأضحت بذلك كل أنحاء لبنان في فوضى عارمة، وكان الرأي من الباب العالي سحب جميع الامتيازات من سكان الجبل، لكن الدول الأوروبية لم توافق على ذلك^(٢)، وطرح الحل بنظام القائمقامية الذي يقضي بتقسيم لبنان إلى قسمين إداريين، شمالي يديره قائمقام ماروني وجنوبي يديره قائمقام درزي، وكلاهما يتبع لوالي صيدا في الأمور المهمة وهذا الحل أرغمت على قبوله الدولة العثمانية إرضاءً للدول الأوروبية ولكنه لم يف بالغرض لوجود مناطق مختلطة وتداخل سكاني ومذهبي في كل قائمقامية، عدا عن الدسائس الأوروبية التي وجدت أن الحل ليس بالشكل المناسب لمصالحها ورعاياها فأرسل الباب العالي وزيره شكيب أفندي ليفرض الحل بالقوة وأقرّ في أيار عام ١٨٤٦م الدستور الجديد لجبل لبنان على مبدأ القائمقامية والتبعية لوالي صيدا، وضيّق صلاحياتهما وعين في كل قائمقام مجلساً مختلطاً، وحل مشكلة القرى المختلطة وتوعد الباب العالي بإدخال الجيش لتطبيق النظام الجديد والمحافظة على استقرار البلاد ودام الاستقرار سنوات عدة^(٣).

لكن الفتنة الطائفية تجددت لانشغال العثمانيين في بقاع أخرى من الإمبراطورية ولأن الأوروبيين حركوا الحقد والكراهية الكامنة في نفوس الطوائف اللبنانية بعضها ضد بعض، فاتقدت نار الطائفية والفتنة بسبب النظام الإقطاعي الفاسد وما مارسه على الفلاحين من ظلم وقسوة، فاشتعلت الفتنة واتخذت طابعاً طائفيّاً بعكس ما هي عليه في الواقع في أنحاء الشام وحصلت المذابح في كل المناطق وهددت الدول الباب العالي إن لم يضع حداً لهذه المذابح والفتن سوف تتدخل، ولحسن حظ العثمانيين أن هذه الدول لم تكن متفقة فيما بينها على هذا الموضوع، فانبرى فؤاد باشا لفرض الحل قبل أن تتفق الدول، ووصل بيروت ١٨٦٠/٧/١٧م على رأس قوة عسكرية وشكل مجلساً حربياً فحاكم وأعدم المسؤولين عن الفتنة ولاسيما من موظفي الدولة العثمانية، فأعاد الأمن إلى البلاد، وفي الوقت نفسه كانت الدول قد اتفقت على إرسال ستة آلاف مقاتل فرنسي لدعم العثمانيين لكنه وصل متأخراً، ورغم ذلك أراد إبراز وجوده بصعوده الجبل بحجة حماية المارونيين من الدروز، وأوهمت المسيحيين في بلاد الشام أنهم أمنوا لهم الحماية وبقوا في بلاد

(٢) أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ٣٩-٤٠، للإطلاع أنظر ؛ فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٦٨ وما بعدها ؛ برجاوي، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

(٣) فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٧٧.

(٤) طقوش، مرجع سابق، ص ٣٧٨-٣٧٩.

الشام حتى ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١/٦/٦ م. كما أرسلت الدول الأوروبية لجنة من قبلها لتشارك فؤاد باشا في التحقيق في الحادثة وأسبابها^(١)، وتم الاتفاق على النظام الأساسي ١٢٧٨ هـ / في ١٨٦١/٦/٩ م حيث عدّ جبل لبنان سنجقاً عثمانياً له استقلال داخلي تضمنه الدول الأوروبية الخمس والدولة العثمانية، ويديره متصرف مسيحي كاثوليكي غير لبناني يعينه الباب العالي وتوافق عليه الدول الأوروبية، ويساعده مجلس مكون من اثني عشر عضواً من مختلف الطوائف^(٢).

وأما الحادثة الأخرى التي تظهر مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد المجيد وعدم قدرتها على حل أمورها بنفسها من دون تدخل الدول الأوروبية فهي حرب القرم، وهي من أهم أزمات المسألة الشرقية الناتجة عن ضعف الدولة العثمانية وعدم قدرتها على حماية أملاكها.

من جهة أخرى فإن الوصية التي تركها بطرس الأكبر^(٣) لخلفائه القيصرية الروس التي يحثهم فيها على السعي للوصول إلى المياه الدافئة، صارت إحدى الهواجس للقيصر نيقولا الأول الذي أشعل حرب القرم، فستر على هدفه السياسي بغطاء ديني^(٤)، وقد كثرت آراء المؤرخين حول أسبابها فأضحى هناك شبه إجماع على أنها مزيج من النوازع الدينية أرتبطت بالمصالح السياسية والاقتصادية والشخصية، ومنها كره السفير الإنكليزي ستراتفورد دي ردكليف للقيصر الروسي وقد سمي ستراتفورد بالسلطان العثماني غير المتوج بسبب حب السلطان عبد المجيد له ووثوقه به، فأدى دوراً بارزاً في إشعال حرب القرم ١٢٧٠-١٢٧٣ هـ / ١٨٥٣-١٨٥٦ م لنقلهم أظافر روسيا قبل اشتدادها، لأنها تتضارب مع مصالح بلاده^(٥).

وبقيام هذه الحرب تغيرت التحالفات السياسية بين الدول، فانفقت المصالح الإنكليزية مع مبدأ الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية للدفاع عن سلامة أراضيها ضد روسيا^(٦). وأخذ الروس بإثارة الفوضى في أملاك الدولة العثمانية كما فعلت في الجبل الأسود والغاية المضائق فالعاصمة فالمتوسط، ولأن القيصر لم يكن راضياً عن السياسة الفرنسية قام بطرح مشروع تقسيم^(٧) تركية الرجل المريض على انكلترا، ولا اعتبارات عديدة رفضت انكلترا المشروع^(٨). وفي الوقت الذي ظن فيه

(١) برجوي، مرجع سابق، ص ٢٤٣-٢٤٧، ؛ أنظر فريد بك، مصدر سابق، ص ٥٢٨.

(٢) طقوش، مرجع سابق، ص ٣٨٣.

(٣) وصية بطرس الأكبر في الملحق رقم (٥).

(١) أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٦.

(٢) الوديني، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

(٣) طقوش، مرجع سابق، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٤) مشروع التقسيم كان على الشكل التالي:

أ- استقلال دول البلقان الأفلاق والبلغدان والصرب وبلغاريا تحت حماية روسيا .

ب- تحتل روسيا استانبول بصورة مؤقتة من دون أن تضمها إليها .

ج- ترابط القوات الروسية في البوسفور والنمساوية في الدردنيل .

د- تحتل إنكلترا مصر وقبرص وروُدوس، وإن رغبت بكريت فلها ذلك كامل مصطفى، المسألة الشرقية، مطبعة الآداب، مصر، ط ١٨٩٨، م، ص ١١٤، ؛ صفوت، ص ٢٦-٢٧، ؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٣٨٩.

(٥) من هذه الاعتبارات عدم رغبتها في تبديل سياستها التقليدية المحافظة على الدولة العثمانية وأراضيها وحرمان الروس من الوصول إلى المياه الدافئة، ولم تكن ترغب بالإخلال بالتوازن الدولي في تلك الفترة،

القيصر أنه اصطاد انكلترا واستخدمها للضغط على العثمانيين قام ستراتفورد بإعلام العثمانيين بهذه النوايا الروسية، أما فرنسا فقد جرها خوفها من الإهمال والعزل عن السياسة العالمية إلى الانخراط في القضية إلى جانب عدوتها التقليدية انكلترا، وكان لرشيد باشا^(١) وسياسته دورٌ بارزٌ في ذلك^(٢)، أما بروسيا فلم يكن لها مصالح مباشرة في أراضي الدولة العثمانية فالتزمت الحياد، وأما روسيا فبعد أن قوبل مشروعاها بالرفض من قبل انكلترا نسقت سياستها باتجاهين الأول عسكري لاحتلال الأفلاق والبغدان والثاني سياسي إرسال بعثة إلى الدولة العثمانية للتفاوض وعرض المطالب الروسية^(٣) لإنهاء الأزمة وعقد معاهدة بين الطرفين. رفض العثمانيون المشروع^(٤) بعد عرضه على سفراء الدول الأوروبية الذين أيدوا الموقف العثماني لأنه يتعارض مع استقلال الدولة^(٥)، وفي الحقيقة هو يتعارض مع مصالحهم ولا يهمهم استقلال الدولة، وقررت روسيا الحرب واحتلت الأفلاق والبغدان في تموز ١٨٥٣م وغايتها إرهاب العثمانيين وراهنّت بذلك على ضعف الجيش العثماني وعجزه عن المواجهة، وراهنّت على أوروبا بأنها لن تقف إلى جانب العثمانيين المسلمين ضدها، ولكن تطور الأحداث أسقط هذه المراهنات كلها وأعلنت الحرب^(٦) من قبل الطرفين الروسي والعثماني وتدخلت فرنسا وانكلترا في ٢٧/٣/١٨٥٤م أي أن العثمانيين حاربوا وحدهم عاماً كاملاً، ويدل ذلك على أن تحديث الجيش قد جاء بنتيجة إيجابية، وأن إصلاحات محمود الثاني أثمرت بشكل جيد واستمرت الحرب مدة عامين ونصف من ٣/٧/١٨٥٣م حتى ١٤/٩/١٨٥٦م وانتهت بعقد معاهدة باريس^(٧)

-
- هذا عدا عن أن الإنكليز لا يثقون بإخلاص القيصر وسياسته. فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٩٣-٤٩٤؛ طقوش، المرجع السابق، ص ٣٨٩.
- (٦) رشيد باشا تسلم الصدارة العظمى ست مرات، وهو تلميذ محمود الثاني وهو الذي أعلن التنظيمات عام ١٨٣٩م وأدى دورا بارزا في حصار محمد علي في مصر الذي عدّه العدو الأول له على وجه الأرض، من ثم كان له الفضل في التحالف الأوروبي العثماني ضد روسيا في حرب القرم، شغل منصب وزير خارجية ثلاث مرات ومنصب سفير مرتين في لندن وباريس ويعد أعظم صدر أعظم في التاريخ العثماني، دبلوماسي بارع، كان يرى أن بقاء الإمبراطورية يقوم على أربع مبادئ ١- الدين الإسلامي ٢- خاقان من بني عثمان ٣- استانبول عاصمة ٤- والتركية لغة رسمية. سياسته الخارجية تقوم على التوازن وتجنب إزعاج الأسد الإنكليزي أعظم دول العصر، ومحاولة التعايش مع فرنسا إن أمكن، أو اتباع سياسة التموج. أعد فريق عمل متميز ونادر منهم علي باشا فؤاد باشا وجودت باشا ضياء باشا صفوت باشا أحمد رفيق باشا وشناسي. أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ٥٩.
- (١) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٠٧،؛ الوديناني، مرجع سابق، ص ٣٥٠،؛ أوزتونا، المرجع السابق، ص ٤٧-٤٨.
- (٢) المطالب الروسية كانت:
- أ- سحب جميع الامتيازات الممنوحة للرهبان الكاثوليك وإعطائها للرهبان الأرثوذكس.
- ب- الاعتراف بحق حماية روسيا للأرثوذكس في أرجاء الدولة العثمانية وتنصيب البطريرك الأرثوذكسي رئيساً روحياً مستقلاً وتعيين البطارقة الأرثوذكس الأربعة في الدولة مدى الحياة.
- ج- عقد تحالف دفاعي روسي عثماني، فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٩٦.
- (٣) يرى بعض المؤرخين أن انكلترا هي وراء الرفض العثماني للمشروع الروسي وبعضهم يقول إن والده السلطان عبد المجيد سوزي اليهودية هي من أدت الدور الفاعل في رفضه. عامر، الدولة العثمانية تنهم سلاطينها، مرجع سابق، ص ١٥٠.
- (٤) طقوش، مرجع سابق، ص ٣٩٦.
- (٥) المرجع السابق، ص ٣٩٧؛ <http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-traveller>
- (٦) معاهدة باريس ٢٩/٣/١٨٥٦م تضمنت:
- أ- احترام أملاك الدولة العثمانية واستقلالها.

وكانت انتصاراً للسياسة الأوروبية وهزيمة كبرى لروسيا، إذ نجحوا في تحطيم الأسطول الروسي وإبقاء الدولة العثمانية حاضراً بينها وبين البحر الأسود^(١).

أما فيما يتعلق بإصلاح العصر المجيدي الذي يعدّ امتداداً لما سبقه لكنه يختلف عنه في الشكل والمضمون، ففي الشكل اتخذت الإصلاحات أو بمعنى أدق عملية الاقتباس من الغرب الشكل الرسمي وسميت بتنظيمات، أما من حيث المضمون فإن ما سبق من إصلاحات توجه أولاً نحو الشؤون العسكرية أما هذه الفترة فكان توجهها وتركيزها نحو النظم الإدارية وأساليب الحكم. وكان للوزير رشيد باشا اليد الطولى في هذه التنظيمات حيث أعد كوادراً قيادية لتسلم مناصب السلطة في الدولة بإرسالهم بعثات خارجية إلى أوروبا وبهذا دفع عجلة التغريب بشكل أكبر، وتستند التنظيمات في شكلها ومضمونها في هذه المرحلة إلى مرسومين سلطانيين أساسيين أصدرهما السلطان عبد المجيد خلال فترة توليه عرش بني عثمان وألحق بهما بعض القوانين والأنظمة اللازمة لتطبيقهما^(٢) وفي فترة إصدار المرسومين كانت الدولة تعاني أزمة سياسية وعسكرية حادة جداً وصلت إلى حد أفول العرش العثماني، مما يجعل الذهن يذهب إلى التفكير بأن الهزيمة والسقوط اللذين يهددان العرش والسلطنة وراء إصدار هذين المرسومين فيغطيان بصدورهما عجز الدولة وتخلّفها عن الركب الحضاري الغربي، ومن ناحية أخرى تكسب العثمانية عطف الغرب لأنها تسعى جاهدة للحاق بهم، فالمرسوم الأول منشور كولخانة صدر في ١١/٣/١٨٣٩م في قصر طوب قابو الذي يسمى كولخانة (قصر الزهور) وكان قد أعد لذلك حيث نصبت الخيام في حدائقه واصطفت القوات العسكرية في الشوارع المجاورة واجتمع عدد كبير من موظفي الدولة ومن ممثلي الدول الأجنبية وسمح لبطيركي الكنيسة اليونانية والأرمنية بحضور الاحتفال كما حضره كبير حاخامات اليهود، وعندما حضر السلطان عبد المجيد قام رشيد باشا بتكليف من الصدر الأعظم بقراءة المرسوم بصوت عال على أساس أنه صادر عن السلطان^(٣).

أما قبول السلطان بصدور المرسوم يعود لسببين الأول الهزيمة أمام القوات المصرية والثاني بسبب وقوف الدول الأوروبية إلى جانبه لحل القضية المصرية

ب- قبول مبدأ التحكيم في حال وقوع خلاف بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول.

ج- يتعهد العثمانيون بحماية رعاياهم المسيحيين من دون تدخل خارجي.

د- إغلاق البوسفور والدردنيل في وجه السفن الحربية.

هـ- حياد البحر الأسود وشواطئه من سفن ومنشآت حربية.

و- حرية الملاحة في الدانوب.

ز- الاستقلال الذاتي ل(ولاشيا وملدافيا) تحت سيادة السلطان.

ح- يحافظ الصرب على استقلالهم الذاتي تحت سيادة السلطان.

ط- تخلي روسيا عن مصبات نهر الدانوب حتى ملدافيا لصالح العثمانيين.

ي- إعادة سياستيول إلى روسيا وقارص للعثمانيين.

مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢١٣؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٤٠٥؛ علي حسون،

العثمانيون، والروس، دمشق بيروت، المكتب الإسلامي ١٩٨٣م ص ١١٦-١١٧.

(١) نوار عبد العزيز الشعوب الإسلامية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٣م، ص ١٩٢؛ طقوش، مرجع

سابق، ص ٤٠٦، وللمزيد عن حرب القرم؛ برجاي، مرجع سابق، ص ٢٣٢-٢٣٤.

(٢) الحصري مرجع سابق، ص ٨٧؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٤٠٩.

(٣) مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٠٠.

وعلى الرغم من أنه اتخذ طابع الجدية في صدوره لكنه لم يكن دستوراً وإنما بمنزلة وعد بالإصلاح ومنح الحرية بغض النظر عن الدين والقومية^(١) كما أنه حاول تلبية طلبات المصلحين وبنفس الوقت حاول عدم إغضاب المحافظين، ولهذا حمل المرسوم في طياته التناقض ما بين التمسك بالمبادئ الإسلامية كسبيل وحيد لإنقاذ الدولة وما بين الأخذ عن الغرب لمعالجة الفساد القائم عن تلك المبادئ^(٢)، وحتى وجهة النظر الغربية كانت متباينة تجاه صدور هذا الخط فالنمسا على لسان مترنيخ^(٣) وجدت أنه سيلهب الصراع ما بين نقيضين الحضارة الأوروبية والحضارة الإسلامية، وروسيا وقفت الموقف نفسه، بينما انكلترا كانت مؤيدة لأنه سيقوي الموقف العثماني أمام الخطر الروسي^(٤).

أما الخط الثاني فقد صدر في ١٨/٢/١٨٥٦م وكان هو الشرط الذي وضعته الدول الأوروبية على قبول الدولة العثمانية في مجموعتها والغاية الفعلية تحسين أوضاع الرعايا المسيحيين في الدولة من جهة، وقطع الطريق على روسيا لعدم التدخل في الشؤون الداخلية العثمانية بحجة الرعايا، ومن جهة أخرى كما هو الحال في خط كلخانة استدرار العطف والمساندة من الدول الأوروبية أمام الخطر الروسي في حرب القرم، يضاف على ذلك قناعة رجال الإصلاح بضرورة استيراد النظم الأوروبية من دون المساس بأحكام الشريعة^(٥).

مما يبدو أن الضغط الخارجي في الخط الثاني كان أكبر من الأول ولهذا جاء أكثر دقة في أهدافه، أو بعبارة أدق أكثر اقتباساً من الغرب، ولأول مرة في التاريخ العثماني يصدر مرسوم سلطاني من دون أن يستشهد بأية قرآنية واحدة، أو حتى يشيد بقوانين الإمبراطورية القديمة وبأمجادها كما لم يبدُ فيه ملامح انقسام الشخصية التي ظهرت في خط كلخانة، وعلى الرغم من ذلك فهو يعدّ مكملاً لخط كلخانة^(٦) وكلاهما صدر بأمر سلطاني جاء نتيجة لرضوخه لرغبات الغرب وتنقيذاً لأوامرهم، حيث فتح المرسومان

(٢) يقول د. محمود عامر: إن التنظيمات الخيرية جاءت تلبية صادقة لشعار دول أوروبا جمعاء بمبدأ التعايش الأخوي والوفاق بين الأجناس وأن ذلك الشعار هو هدف الماسونية الحقيقي التي تغلغلت في الدولة العثمانية على شكل جمعيات خيرية الظاهر يهودية الباطن ثم تأسس محفل اتحاد الشرق في استانبول مرتبط مع محفل فرنسا الذي يحمل نفس الاسم ويذكر أن عدد المنتسبين لهذا المحفل مائة وأربعون عضواً من كبار شخصيات الدولة العثمانية عسكريين وقضاة ومحاكم وتجار وصيارفة وغيرهم، تاريخ ووثائق، مرجع سابق، ص ١٩٧.

(٣) الودنياني، مرجع سابق، ص ٣٣٩؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٤١٠-٤١١.

(٤) مترنيخ: سياسي نمساوي شهير، ولد سنة ١٧٧٣م، أصبح سفيراً لدولته في باريس سنة ١٨٠٦م، وترأس مؤتمر فيينا ١٨١٥م لتسوية الأوضاع في أوروبا على أثر سقوط نابليون، وكان معارضاً لانتشار الحرية في أوروبا ولهذا قرر الاعتزال بعد عام ١٨٤٨م،

مؤتمر فيينا ١٨١٥م: وهو عبارة عن سلسلة من الاتفاقيات السرية بين بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا، وكانت الغاية العودة بحدود أوروبا إلى ما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية، لكن عودة نابليون من جزيرة ألبا جعل هذه الدول تميل إلى التفاهم معه، توفي سنة ١٨٥٩م. فريد بك، مصدر سابق، ص ٤٥٧.

(٥) وبعض الأوروبيين أطلق عليه (العهد الأعظم) لأنهم اعتبروه أول محاولة رسمية للمساواة بين رعايا الدولة. مصطفى، في أصول التاريخ العثماني ص ٢٠١، نوار الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٨٦؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٤١٢.

(١) Mustafa ojlu, gorinel, is tanloul 1989 s.90

(٢) هناك مذكرة ملحقة بالخط الهامبوني تؤكد على تطبيق بعض النقاط التي جاءت في كلخانة منها مثلاً عدم تطبيق عقوبة الإعدام على المرتدين عن الإسلام. طقوش، المرجع السابق، ص ٤١٤-٤١٥.

بوابة الاقتصاد العثماني على مصراعيها أمام الرأسمال الأجنبي ثم بعده بعام اعترفت الدولة العثمانية بأحقية تملك الأجانب للأرضي وليس ذلك وحسب، بل عقب صدورهما صدرت العديد من الأنظمة والقوانين التي مست المجتمع العثماني منها القانون التجاري ١٢٦٧/٥١٨٥٠م والقانون الجنائي ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م وفي العام نفسه أصدرت قانون الأراضي لتسهيل على البرجوازية العثمانية الناشئة سيطرتها على الأراضي والأموال والقرى، لتكون الأمور محكمة بشكل جيد أنشئت في العام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م المحاكم التجارية المختلطة^(١) وصدرت أيضاً مجموعة القوانين التجارية عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م وصدر في العام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م قانون التجارة البحرية وهي كلها مقتبسة عن القانون الفرنسي^(٢).

وبالعودة إلى حياة السلطان الخاصة فقد قام برحلات سياحية لم يتمكن خلالها من الابتعاد كثيراً عن الأناضول وهي ست رحلات حيث زار روملي وجزر إيجه (كريت) كازميت بورصة جناق قلعة وجزيرتي قوش أداسي، ومارماريس وبودروم^(٣). له آثار عديدة أهمها قصر دولمة بغجة^(٤) أي الحديقة المملوءة، بناءً على اقتراح زوجته سرفيراز (Serfiraz Sultan) التي أرادت التخلص من سيطرت والدته (ليون، سوزي) كان له اعتبار كبير في أوروبا، لأنه أول سلطان يذهب إلى صالة الرقص كما أنه أول من قبل من سلاطين بني عثمان أوسمة أجنبية، حيث قبل وسام نابليون الثالث (Legion d'Honneur) مكافأة له على حرب القرم، ومن الملكة فكتوريا وسام رباط الركبة، وطبعاً هو بادلهم بالأوسمة^(٥).

كان السلطان عبد المجيد مولعاً باللهو والخمر والنساء الشقراوات ذوات العيون الزرق والقد الممشوق على عكس والده محمود الثاني^(٦)، وأما زوجاته فقد بلغ عددهن تسع عشر امرأة^(٧).

ر- السلطان عبد العزيز ١٨٦١ - ١٨٧٥م:

(٣) عبد الله فايز حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، (الاحتلال العثماني - الفرنسي)، دار البعث للطباعة والنشر، دبت، مج ٣، ص ١٣٥.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٥، مادة تنظيمات، ص ٥٠٣.

(٥) Mehmet ozan. Osman 11 Tarihi, Ankar 1990 s.120.

(٦) قصر دولمة بغجة: بناء على ضفاف البوسفور وقد شاركت فرنسا وبريطانيا في بنائه، وأهدته ملكة بريطانيا ثريا من الكريستال الخالص وتعهدت روسيا والنمسا بفرشه، وقد بني بطريقة متميزة فعد تراثاً معمارياً كبيراً. عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، ص ١٥٢.

(١) Ozan (المرجع السابق) 8122.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٧) كما يخيل إلينا من الوضع الراهن أن هذا الاحترام والاعتبار لم يكن عن عبث، بل لأن هذا السلطان كان مطوعاً لأراء الغرب أكثر من غيره وكان في الأوقات الحرجة يقف موقف المتفرج من الأحداث تاركاً لهم تفسير الأمور، لاسيما أن هناك آراء تقول إن محمود الثاني والد السلطان عبد المجيد الأول هو من خطط للتنظيمات على هذا الأساس أن تدار من قبل الطبقة البرجوازية العليا في البلاد وهذا ليس بغريب على مجتمعنا الشرقي إذ إنه يؤخذ بالعواطف وبالتعظيم والتفخيم (الجلالة الفخامة السيادة) ومقابل هذه الألفاظ المستهلكة ينال قائلها مراده من باب أن هذه الجلالة أو الفخامة أو السيادة تتعطف على رعاياه فضاعت فلسطين، ويضيع العراق، والباقون على طريق التشتت والضيايع.

ولد السلطان عبد العزيز خان في ١٤ شعبان ١٢٤٥ هـ ٨ شباط ١٨٣٠ م والده السلطان محمود الثاني ووالدته السلطانة برستو هانم (بسيمية) (برتفنيال Pertevniyal) قبطية مصرية كانت تسعى في الأعنال الخيرية بشكل كبير^(١)، كان عمره عندما توفي والده تسعة أعوام ونصف، شغل منصب ولي العهد طيلة فترة سلطنة أخيه عبد المجيد البالغة اثنين وعشرين عاماً، تولى العرش وعمره آنذاك واحد وثلاثون عاماً وأربعة أشهر وستة عشر يوماً^(٢)، وكان ذلك في ١٨ ذي الحجة ١٢٧٧ هـ ١٨٦١/٦/٧ م واتبع التقليد المتعارف عليه بتولي السلطنة حيث توجه في موكب كبير إلى ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، وهناك تقلد السيف السلطاني ثم زار قبر السلطان محمد الفاتح، ومن ثم قبر والده محمود الثاني^(٣)، أدى تولي عبد العزيز السلطنة إلى تحول جذري في العرش العثماني وذلك لتمتعه بميزات عديدة عن سبقة فكان رجل دولة وإدارة وسياسة، شديد الصفع واللطم. ذكي فعال عشق الجيش والأسطول والإعمار. ذو هيبية وسطوة وقور كريم، رهن نفسه لإعلاء شأن الإمبراطورية شديد الثقة بالنفس.

كان عبد العزيز بهلوانياً ملحناً مولوياً وخطاطاً، أستاذاً في العزف على الناي والبيانو لوطه جي (راقص) شاعراً رساماً أخصائياً في السفن مصارعاً لم يتعاط المشروب، لكنه مولع بالنساء إلى حد معين، فمنعهن من التدخل في شؤون الدولة، ولم يتخذ له جوارى سوى زوجاته فاستطاع بهذه الصفات أن ينال الإعجاب، ويخطف الأبصار في الداخل والخارج إلى درجة أنه أصبح موضع حسد من الجميع^(٤).

افتتح السلطان عبد العزيز عهده بإبقاء الكادر الوزاري نفسه ما عدا ناظر الجهادية فعين نامق باشا بدل رضا باشا، وفي أمره السلطاني^(٥) هذا يؤكد على ضرورة متابعة الخط الإصلاحى لإسلافه من حيث تحسين الأحوال ومعاملة جميع رعاياه بالمساواة بغض النظر عن الجنس أو الدين، وهو بذلك يقطع الطرق على الدول الأوروبية التي ستجعل من تلك الحجة ذريعة للتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية^(٦). وحضّ الجميع على التفاني والإخلاص في العمل للدولة العلية، ولهذا الغرض أنشأ نيشان شرف جديد سماه النيشان العثماني نسبة إلى عثمان الأول وسيتوج به من يخدم الدولة والملة والدين بإخلاص وصدق^(٧).

ضرب السلطان بيد من حديد كل من فكر بالعصيان والثورة على الدولة، فأرسل عمر باشا لإخماد ثورة الجبل الأسود^(٨) فأغار عليها بثلاث فرق من ثلاث جهات فهزمت

(٤) عصر السلطان عبد الحميد، مجموعة مؤلفين، دمشق ١٩٦٥، ص ٣٨-٥٠.

(٥) المرجع السابق، يحدثنا عن أبرز الأحداث التي شهدتها القصر آنذاك، ص ٤٠.

(٦) فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٣٠.

(١) أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ٦٦، Ali Kemal (مرجع سابق) 601. 9 s.

(٢) لقراءة ترجمة الأمر السلطاني، راجع فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٣٠-٥٣١.

(٣) Lewis: Impact of the French on Turkey.p118 ؛ محمد كرد علي، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق

١٩٨٣، ج ٣، ص ٩٦.

(٤) فريد بك، مصدر سابق، ص ٥٣٢.

(٥) الجبل الأسود، إقليم صغير في يوغسلافيا إلى الشمال من ألبانيا يسميه الأتراك قره طاغ

(Montenegro). فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٣٢.

كل من عارضها، وأجبرت أمير الجبل البرنس نيقولا على الإمضاء على الشروط التي وضعها العثمانيون بالقوة في ٤ ربيع الأول ١٢٧٩ هـ - ٣٠ / ٨ / ١٨٦٢ م^(١).

وعندما ثارت الصرب^(٢) أمر بقصف بلغراد بالمدافع ١٨٦٢ م ولكن تدخل الدول الأوروبية حال دون حل المسألة بهذه الطريقة حيث أقر مؤتمر الأستانة الذي عقد بهذا الخصوص بعض المقررات التي كانت مجحفة بحق مسلمي الصرب^(٣) وبنفس صيغة التدخل الأوروبي تم حل ثورة كريت حيث انعقد مؤتمر في باريس بنفس الأطراف السابقة وانتهى بإصدار السلطان مرسوم في ١٢ جمادى الثاني ١٢٨٦ هـ / ١٩ / ٩ / ١٨٦٩ م منح فيه الجزيرة بعض الامتيازات وإعفائهم من أموال متأخرة عن سنتين سابقتين والإعفاء من الخدمة العسكرية^(٤).

أما الناحية المالية التي برزت كأزمة كبيرة تعاني منها الدولة من خلال الأوراق النقدية المطروحة في السوق وتذبذب قيمتها فقد حاول السلطان عبد العزيز في بداية حكمه تخليص الدولة من هذه الأزمة المالية بالاستعانة برجال أكفاء، ولكن من سيسمح باستمرار الحل الصحيح، الأيدي المتنفذة في الداخل المتصارعة المتنافرة لأجل السلطة، أم القوى الخارجية التي تحرص كل الحرص على وجود هذا الكيان الإسلامي الضخم البنية الضعيف العقل والتدبير، ومن خلال نظرة عامة نرى أن التوجه الغربي الاستعماري للسيطرة والاستغلال في أصقاع الإمبراطورية العثمانية عن طريق الناحية الاقتصادية عموماً، فمن هذه النظرة العامة نرى أن مصر وتونس والسلطنة^(٥) وقعتا بالضائقة المالية نفسها وبالوقت والشكل نفسه تقريباً، والسلطان عبد العزيز ليحل هذه الأزمة عين فؤاد باشا في الصدارة الذي أقنع سلطانه مباشرة بإصدار مرسوم في ٢٠ رجب ١٢٧٨ هـ - ٢١ / ٥ / ١٨٦٢ م لإصلاح المالية وإبطال أوراق الفوائد^(٦). وتنظيم وتسوية كل الديون بتخصيص ميزانية لموارد الدولة ومصروفاتها سنوياً ولكن هذه التسوية تتطلب أموالاً،

(٦) المصدر السابق، ص ٥٣٤، ؛ برجوي، مرجع سابق، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٧) الصرب هو الإقليم الشمالي الشرقي من يوغسلافيا. فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٣٥.

(١) اتفاقية استانبول ١٨٦٢/٩/٨ م مؤتمر الأستانة ضم مندوبي روسيا وفرنسا وانكلترا وسردينيا والدولة العثمانية وتقرر فيه بالأغلبية إخلاء الجنود العثمانيين وبقائهم في أربع قلاع وألا يتدخل العثمانيون في إدارة البلاد مطلقاً وأن يقوم المسلمون الذين يقطنون خارج القلاع الأربع (بلغراد، سمندرية، فتح إسلام، وشباتس) ببيع ممتلكاتهم والهجرة عن البلاد أو السكن داخل هذه القلاع فقط، فريد بك، مصدر سابق، ص ٥٣٦-٥٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٤٥. <http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-arabic-history>

(٣) الأزمة المالية في السلطنة بدأت عندما خسرت الدولة العثمانية أسطولها في اليونان وأرادت التعويض بإصدار القوائم المالية ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م أوراقا بقيمة ٣٢٠٠٠ ليرة بفائدة ٨٪/ تسدد في ثمان سنوات وبسبب توالي الحروب مع مصر أصدر السلطان أوراقا بلا فائدة وامتنعت عن دفع فوائد القرض الأول وبعدها أصبح إصدار الأوراق المالية كل سنة، حاول السلطان عبد المجيد سحب الأوراق وحل الأزمة لكن حرب القرم منعت من ذلك بل اضطرته للاستدانة فوقع العبء كله على السلطان عبد العزيز. إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، القاهرة، المطبعة الميرية، ط ١، ١٨٩٧ م، ج ١، ص ٧٠٦، ؛ الوديناني مرجع سابق، ص ٣٧١، ؛ محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٤٠.

(٤) تدهورت إلى درجة انعدام قيمتها فالتقطع الذهبية التي كانت قيمتها ١٠٠ قرش ورقي صعدت إلى ٤٠٠ فأصبحت لا قيمة لها وأصبح التجار لا يقبلونها، وكان ذلك قبيل وصول فؤاد باشا إلى استانبول. الوديناني، المرجع السابق ص ٣٧٢.

فاستدانت الدولة ثمانية ملايين جنيه إنكليزي من انكلترا ثم ثمانية أخرى عن طريق البنك العثماني لأن الأول لم يكف وكل ذلك أثقل كاهل الدولة المالي فتقرر الاقتصاد في النفقات،^(١) وأصدر السلطان فرماناً لتخفيض النفقات من كافة فروع الميزانية حتى من المبالغ المخصصة لقصره الخاص^(٢)، كما احتج بعض الوزراء بزواج السلطان ومحظياته اللواتي بلغ عددهن تسعمائة، وطلبوا منه إنقاصهن لأن نفقاتهن كبيرة جداً، ترهق الخزانة فوعد بتلبية الطلب^(٣)، وقد استقبل إسماعيل باشا خديوي مصر وافتتح معرضاً في استانبول لتشجيع الصناعات الوطنية في ١٠ رمضان ١٢٧٩هـ - ١ آذار ١٨٦٣م.

هذا عدا عن جولاته السياحية التي أفرغت الخزينة، فقد قام السلطان بعدة رحلات سياحية كان أولها إلى مصر خلال الفترة /١٤ شوال ١٢٧٩هـ - ٣ نيسان ١٨٦٣م، بواسطة باخرة فيض جهاد^(٤). وهذه أول رحلة لسلطان عثماني لمصر بعد فاتحها سليم الأول ١٥١٧م إذ كانت وسائل النقل بطيئة (الحصان) ومجهدة، عدا عن خطورة ترك العرش والعاصمة سوى للحملات الهمايونية، وقد استقبل في مصر استقبالاً حافلاً حيث زار الإسكندرية والقاهرة ثم عاد إلى عرشه وسلطنته^(٥)، ثم قام برحلة أخرى إلى عواصم أوروبا وكانت أولها باريس في ١٩ صفر ١٢٨٤هـ - ١٨٦٧/٦/٢٢م حيث دعاه نابليون الثالث لحضور المعرض العام وقد حضره أغلب ملوك العالم ومنهم الخديوي إسماعيل^(٦)، لقد كانت زيارة عبد العزيز إلى باريس مفيدة جداً بوضع برنامج إصلاح واسع يصبغ تركيا بالصبغة العصرية وينشر الأفكار الغربية فيها عدا عن توثيق العلاقة بين نابليون الثالث والسلطان عبد العزيز وما جاءت به هذه الزيارة من مشاريع اقتصادية ومالية مهمة على الدولة^(٧)، أقام السلطان في قصر الإليزيه (Elysee) مدة عشرة أيام التقى فيها بالقيصر الروسي ألكسندر الثاني ثم غادر في العاشر من تموز يرافقه الأسطول الفرنسي حتى بحر المانش حيث رافقه الأسطول الإنكليزي، واستقبله في ميناء دوفر أمير غال إدوارد السابع، وفي لندن قابلته الملكة فكتوريا وأقام في سراي باكنجهام إحدى عشر يوماً، ثم غادر لندن في الثالث والعشرين من تموز، ووصل عبر القطار إلى بروكسل عاصمة البلجيكي فتناول الغداء مع الملك ليوبولد الثاني وتحرك باليوم نفسه بالقطار

(١) سرهنك، المصدر السابق ج ١، ص ٧٠٧، ؛ الوديناني، مرجع سابق، ص ٣٧٤، ؛ فريد بك، مصدر سابق، ص ٥٤١.

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ٩٦، ؛ فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٤١.

(٣) - حيث تذكر ماري ملز باتريك أنه كان في قصر السلطان عبد العزيز ستة آلاف موظف وفيه ثلاثمائة طباط ومساعد طباط وأربعمئة نوتي وأن السلطان قد خصص جيشاً صغيراً يهتم بتبعه وقصبه وتدخينه وفناجين القهوة وأحواض غسيل وجهه وأن لديه ستمائة جواد أصيل في إسطبلاته وتحت إمرته مئتا حودي وساسة الخيول يعدون بالمئات. ماري ملز باتريك، سلاطين بني عثمان، مؤسسة عز الدين، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص ٤٨-٤٩.

(٤) فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٤٦؛

<http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-arabic-history>

(٥) أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٧.

(٦) فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٤٦.

(١) باتريك، المصدر السابق، ص ٧٠.

إلى مدينة كوبلنز (Koblenz) البروسية حيث استقبله ملكها وملكته ولهم الأول، على الرغم من أن السفير البروسي في باريس كان قد دعى السلطان عبد العزيز لزيارة برلين ولكنه اعتذر عن ذلك فقام الملك بملاقاته إلى كوبلنز، ويدل ذلك على أن الإمبراطورية العثمانية كانت لا تزال تحتل مكانة مرموقة بين دول العالم، أو أن ذلك دهاء غربي، من ثم تابع السلطان رحلته إلى فيينا فالتقى هناك إمبراطور النمسا وملك المجر فرانس جوزيف (Franz Joseph) في ١٨٦٧/٧/٢٨م أقام في فيينا ثلاثة أيام ومنها إلى بودابست عبر اليخت وعبر نهر الطونة وصل الحدود العثمانية حيث استقبله مدحت باشا في روسجوق مركز إيالة الطونة (بلغاريا)، ثم عاد يرافقه الأسطول العثماني من فارنا إلى استانبول حيث أنيرت ثلاثة أيام احتفاءً بعودة السلطان المظفرة التي دامت ستة وأربعين يوماً، وهي أول زيارة في التاريخ العثماني يقوم بها سلطان عثماني في زيارة بلد أجنبي وكان قد رافقه في الرحلة ولي العهد مراد أفندي وولي العهد الثاني عبد الحميد أفندي والابن الأكبر للسلطان يوسف عز الدين وأستاذ السلطان عمر أفندي ووزير الخارجية فؤاد باشا ورئيس مترجمي الديوان الهمايوني عارفي بك، وقد لمع نجم ولي العهد مراد أفندي في هذه الرحلة حيث أبدى براعة وذكاء كبيرين في التواصل والتعامل فلفت انتباه الجميع^(١).

حاول السلطان أن يبعث الحياة في دولة قد هرمت وشاخت حسب القانون الطبيعي لحركات الدول والأمم وعلى الرغم من ذلك لم يوفر جهداً في بداية عهده حيث اهتم بالأسطول واشترى خمسة عشر سفينة حربية كبيرة بكلفة مليوني ليرة انكليزية للسفينة الواحدة، وحرص على أن يكون جيشه يضاهي الجيوش الأوروبية^(٢)، واشترى معملاً لصب المدافع وطور الأسلحة الفردية وأخضع العساكر لتدريب قاسٍ ومستمر^(٣)، وأنشأ الخطوط الحديدية وأنفق عليها الأموال الطائلة وفتح العديد من المدارس الحديثة^(٤).

أما مراسيم الإصلاح التي أصدرها خلال فترة حكمه فكان قانون الولايات (تشكيل ولايت) ١٨٦٤/١١/٧م حيث نظمت الولايات العثمانية بموجب هذا القانون الجديد بنظام وتسلسل وشكل حديث، ثم أصدر قانون شورى الدولة في ١٨٦٨/٤/١م فتأسس مجلس عالي التنظيمات ومجلس العدل الذي يقسم إلى قسمين شورى الدولة الذي يعني بالأمور الإدارية العليا للدولة وديوان الأحكام العدلية ويعنى بالشؤون القضائية العليا^(٥)، كما منح الأهالي الحرية والمساواة في الحقوق والمعاملات ومنع الظلم والاستبداد وأجاز انتقال الأراضي الأميرية والموقوفة لورثتها^(٦)، كذلك أراد ترجمة القانون المدني الفرنسي لتطبيقه في الدولة العثمانية . ولكن بناءً على نصيحة جودت باشا^(٧) تشكلت هيئة عثمانية أشرفت على

(٢) أوزتونا، مرجع سابق، ص ٧١-٧٤.

(٣) باتريك، مصدر سابق ص ٤٤

(١) Ali Kemal (مرجع سابق)، 613.

(٢) أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ٨٧.

(٣) المرجع السابق، مج ٢، ص ٧٤.

(٤) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٣١٥.

(٥) من أكبر حقوقي ومؤرخي الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر له كتاب مهم جداً في التاريخ (تاريخ جودت)، ويعد جودت من أبرز ممن كتب عن الأحداث في الدولة العثمانية.

صدر مجلة الأحكام العدلية في ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٩ م ووضعت من خلالها أحكام القانون المدني العثماني الذي طبق على المسلمين في جميع أرجاء الإمبراطورية^(١)، ولكن هذه الإجراءات على الصعيدين العسكري والمدني لم تلق صدراً رحباً لدى الدول الأوروبية والسبب ذكر مراراً وتكراراً حيث أضحى الأسطول العثماني بين أساطيل العالم البحرية ذا مرتبة متقدمة جداً بعد الأسطول الإنكليزي، والجيش البري يسعى لنفس المنافسة والمرتبة بعد الجيش الروسي هذا عدا عما طبق على الصعيد المدني من تنظيمات وإصلاحات على النسق الغربي فكان لا بد من إفساد هذه الإجراءات وإضعاف ذلك الجيش والأسطول إما بزجه في حرب مفاجئة مع روسيا أو إسقاط السلطان^(٢).

ولما لم يكن من السهل إقحام السلطنة في حرب مع روسيا لأن السلطان عبد العزيز أدرك نوايا الغرب تجاهه من خلال حرب القرم وما ترتب عليها، وأيضاً من خلال شعارات الحرية والثقافة والعلوم لتحريض القوميات والطوائف على السلطنة فقطع الطريق على الغرب لنشر بذور الخلاف مع الروس من خلال تعيين محمود نديم صديق الروس للصدارة العظمى، وأيضاً أكثر من لقاءاته مع السفير الروسي (أغناتيف) في الأستانة وأخذت الشائعات تدور حول اتفاقية عثمانية روسية دفاعية هجومية تشمل أصقاع الإمبراطورية بما فيها مسلمين ومسيحيين وأقليات أخرى .

لم يكن ينقص دول أوروبا سوى هذه الشائعات التي لم تثبت مصداقيتها بتوثيق مكتوب لتبدأ بالتحرك السري والعلني، وعن طريق عملائها كافة للنيل من السلطان بنشر الدسائس والإشاعات وإلقاء الشك في نفوس العامة العثمانية بعدم كفاءة السلطان عبد العزيز في إدارة شؤون السلطنة لإسرافه وتبذيره وعدم أهليته للحكم^(٣)، وساءت حال السلطنة وأصبحت الديون العمومية أربعة مليارات فرنك بعد أن كانت قبل عشر سنين ٣٧٥ مليون أنفقها السلطان في خصوصياته، وبينما كانت عساكر الدولة تحتاج إلى المال في بلغاريا والموظفون لم يتقاضوا رواتبهم منذ أشهر كان السلطان عبد العزيز يفكر في نقل قسم من ثروته الخاصة على باخرة أجنبية إلى روسيا^(٤).

ومن الواضح أن هذه الإشاعات والدسائس قد لاقت لها بذوراً في نفوس المتنفذين من وزراء وعلماء الدين^(٥) وما إن وصل إلى مسامعهم خبر السلطان الذي يفاوض إمبراطور روسيا سراً ليحميه^(٦) حتى انقلبوا على السلطان^(٧) وبدأ التنفيذ العملي بمظاهرة حاشدة من طلبة العلم في الجوامع قاربوا الستة آلاف اجتمعوا أمام

(٦) دائرة المعارف الإسلامية، مادة تنظيمات، ج ٥، ص ٥٠٣ ؛ أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ٧٥-٧٦ .
الوڌيناني، مرجع سابق، ص ٣٧٧.

(٧) الوڌيناني، مرجع سابق، ص ٣٧٩.

(١) فريد بك، مصدر سابق، ص ٥٧٥ ؛ الوڌيناني، مرجع سابق، ص ٣٧٨-٣٧٩ ؛ طقوش، مرجع سابق، ص ٤٣٢.

(٢) نور، مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٩٨.

(٣) كان هناك تحفظ من قبل علماء الدين تجاه تصرفات السلطان عبد العزيز على غير المعتاد من حيث الخروج والسفر إلى خارج المملكة وحضور حفلات التمثيل والرقص وزيارة معرض باريس وغير ذلك.

(٤) نور، المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٩٨.

(٥) فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٧٦.

الباب العالي في ١٠/٣/١٨٧٦م للمطالبة بعزل الصدر الأعظم محمود نديم وتولية محمد رشدي باشا في الصدارة،^(١) يقال أن المظاهرة كانت مأجورة^(٢) ضد الصدر الأعظم محمود نديم صديق الروس وانطلقت الخدعة على السلطان وصدره الأعظم فعزله في اليوم التالي للمظاهرة ١١/٣/١٨٧٦م وأما الدكتور محمود عامر فيذكر أن المظاهرات التي قامت لم تكن تتطالب بعزل السلطان وإنما بإصلاح الأحوال الاقتصادية وتخفيض أسعار المواد الاستهلاكية والتموينية وإيقاف الغلاء^(٣) وتم الأمر وقام رشدي باشا بتعيين حسين عوني^(٤) رئيس أركان الجيش، العدو الأول للسلطان وصديق الفرنسيين وينسق معهم سرّاً^(٥)، وحسن خير الله أفندي^(٦) شيخاً للإسلام وكان قائد الأسطول قيصرلي أحمد باشا من المطيعين لعوني باشا وبهذا سلم السلطان جيشه وأسطوله لأكبر أعدائه عوني باشا^(٧) وأصدقائه إضافة إلى ولي العهد مراد أفندي ومدحت باشا الصديقين الحميمين لانكلترا التي كانت تسعى جاهدة لأن ترى مراد أفندي يتربع على العرش ومدحت باشا إلى جانبه في الصدارة، ولأول مرة في تاريخ الإمبراطورية العثمانية يكون هذا التدخل السافر والعلني من قبل دولة أجنبية في شؤون الإمبراطورية الداخلية وتوزيع الأدوار والمناصب في الدولة حسب ما تقتضيه مصالحها ورعاياها^(٨) وهكذا اجتمع القادة الأربع الكبار في الدولة على خلع السلطان وبدعم إنكليزي وفرنسي كبيرين جداً، وبقي التنفيذ الذي تم عن طريق سليمان باشا قائد المدرسة الحربية أمير اللواء الذي خدع طلاب كليته وكتيبتين استقدمتا حديثاً من سوريا لا يعرفون العثمانية، وأمرهم بإحاطة قصر السلطان واهماً إياه بأن هناك مكيدة لا غتيلاله وأن هذه الفرق العسكرية لحمايته. كان حسين عوني مدبراً لكل شيء وفي حال الفشل سيجمل المسؤولية كاملة لسليمان باشا وسيقبض عليه ويعدمه رمياً بالرصاص ليظهر بمظهر المدافع عن السلطان^(٩).

أصدر شيخ الإسلام حسن خير الله فتوى بخلع السلطان بحجة الإسراف والتبذير وعدم الحرص على الدولة والإخلال بأمورها الدينية والدنيوية^(١٠)، وتم ذلك في ١٧/ جمادى الأولى ١٢٩٣هـ - ٣٠/٥/١٨٧٦م بأخذ السلطان عبد العزيز إلى قصر طوب قابو وخلعه من العرش^(١١)، بينما حسين عوني أحضر ولي العهد

(٦) أصاف، مصدر سابق، ص ١٢٥.

(٧) لكل فرد اشترك فيها مجيدية واحدة (خمس القطعة الذهبية) من حساب ولي العهد مراد أفندي ومن الذين شاركوا ١٠٠٠ طالب من المدارس الدينية العالية ومدرسيها وغفر من الشعب العاطل عن العمل.

(١) عامر، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٣١٧.

(٢) سبب العداوة بين عوني باشا والسلطان هو تجريد السلطان لعوني باشا من رتبته وأوسمته ونفيه سنة واحدة إلى إسبارة لاعتدائه على أعراض الناس، ومن ثم غفل السلطان وعفا عنه وعاد ليتدرج في مناصب الدولة.

(٣) أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ٨٢.

(٤) كان مغروراً جداً بتسلمه منصب شيخ الإسلام وهو شاب متعصب متملق مكروه من قبل العلماء.

(٥) بعد العفو عن عوني باشا تظاهر بالمرض وطلب الأذن بالسفر إلى باريس وهناك التقى سرا مع المارشال مكماهون رئيس جمهورية فرنسا بعيداً عن أعين السفارة العثمانية في باريس.

(٦) أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ٨٠-٨٣؛ الوديناني، مرجع سابق، ص ٣٨٠.

(٧) أوزتونا، المرجع السابق، مج ٢، ص ٨٤.

(٨) فريد بك، مصدر سابق، ص ٥٧٦؛ برجواي، مرجع سابق، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٩) أوزتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٨٤؛ فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٧٩.

مراد أفندي إلى السر عسكرية حيث يوجد شيخ الإسلام والشريف عبد المطلب وجميع متنفذي الدولة المدنيين والعسكريين وتمت البيعة للسلطان مراد الخامس بالشكل المعتاد في ٣٠/٥/١٨٧٦م^(١).

لم يكن عزل السلطان عبد العزيز بالأمر العادي لأنه جاء ولأول مرة ضحية مؤامرة خارجية بتعاون شبكة داخلية متعاملة معها ذهب ضحية رفضه لدستور مدحت باشا الذي سمي المشروطية فيما بعد والذي كان يهدف إلى سن دستور غربي للدولة الإسلامية بعيداً عن شريعتها الإسلامية^(٢)، توفي السلطان عبد العزيز بعد خمسة أيام من عزله ٢١/جمادى الأولى ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦/٦/٤م وقد تعددت الروايات في سبب موته فمن قضية انتحاره بقطع شرايين ذراعيه بمقص طلبه لتشذيب لحيته وهنا إجماع على طريقة وفاته بهذا الأسلوب، لكن هناك من أتهمه بالاختلال العقلي بعد عزله ولهذا انتحر^(٣)، وغالبية من كتب هذه الرواية يميل إلى عدم تصديقها ليذهب إلى المسوغات، بأنه سليم العقل والدليل على ذلك رسالته إلى السلطان مراد الخامس، التي تدحض كل الشكوك بقدراته العقلية، لأنها لا تصدر إلا من مفكر عاقل، ومن جهة أخرى فإن خوف الانقلابيين من عدم تصديق الأمة قصة انتحار السلطان استعانوا بأطباء السفارات كشهداء إثبات على قضية الانتحار، وهذا ما يزيد الشكوك في موقفهم^(٤) وتورطهم في مقتله وبسرعة حتى لا تتكرر حادثة مصطفى باشا البيرقدار على أثر عزل السلطان سليم الثالث، حيث كان قائد الجيش الروملي أحمد مختار باشا مناصراً للسلطان عبد العزيز و يملك أقوى جيش في السلطنة بحيث لو تحرك لا تستطيع قوة ردعه ولا سيما أنه قريب من العاصمة ولم يرسل برقية تأييده لما حصل إلا بعد ثلاثة أيام فساور الشك الانقلابيين فأسرعوا في قتل السلطان^(٥). أما فيما يتعلق بعائلة السلطان عبد العزيز^(٦) فقد تزوج بخمس محظيات.

وقد تولى عرش الخلافة بعد السلطان عبد العزيز ابن أخيه عبد المجيد خان السلطان مراد الخامس في ٧/جمادى الأولى ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦/٥/٣٠م وعندما تربع على العرش تنازل عن ستين ألف كيس من مخصصات القصر وترك للمالية ريع المناجم والمعامل في حين كان يرسف في قيود ديونه التي تراكمت عليه منذ

(٢) فريد بك، مصدر سابق، ص ٥٧٧.

(٣) حسون، العثمانيون والروس، ص ٣٨٤.

(٤) فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٨٠، ؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ٩٩.

<http://encyclopedia.aarabiah.net/Turkey-istanbul>

(٥) فريد بك، المصدر السابق، ص ٥٨١، ؛ حسون، المرجع السابق، ص ١٦٦، ؛ الحكيم، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٦) الوديناني، مرجع سابق، ص ٣٦٨.

(١) يذكر أورتونا: أن السلطان عبد العزيز لم يرتبط بأي محظية أخرى ولا بأي علاقة، تاريخ الدولة العثمانية، مج ٢، ص ٨٥. أما ماري ملز باتريك فإنها تذكر أن للسلطان عبد العزيز تسعمائة محظية تهافت عليهن ضباط الجيش بعد وفاة السلطان حيث أصبحت بلا حام ولا راع ولأنهن الأجمل ؛ باتريك، مصدر سابق، ص ٧٤-٩٢، أما الدكتور محمود عامر فيتحدث عن الزوجات الخمس عدا ما ملكت أيمانه أي أنه يلمح إلى وجود محظيات أخريات. الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، عامر، مرجع سابق، ص ١٥٦.

ولاية العهد، وقد زادت عن المليون ليرة وليس في الخزينة من المال إلا لسدها وبعض زيادة طفيفة، والجند والموظفون لم يتقاضوا رواتبهم منذ إحدى عشر شهراً، وأصاب مراد الخامس ليلة خلع السلطان عبد العزيز مس من الجنون لما بشره بالبيعة بالسلطنة، واشتد خلله عندما بلغه مقتل حسين عوني^(١). ولكن فترة حكمه لم تدم سوى ثلاثة شهور وثلاثة أيام ثم عزل عن السلطنة لاختلال شعوره. وذلك في ١٠/شعبان/١٢٩٣هـ - ٣١/٨/١٨٧٦م حيث بويع السلطان عبد الحميد الثاني^(٢).

(٢) أوزتونا مج ٢، المرجع نفسه، ص ٨٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٥.

الفصل الرابع
أوضاع ولاية حلب
الإدارية
قبل الإصلاح وبعده

أ- حلب جغرافياً:

تُعدُّ حلب من أهم المدن الرئيسية في أواسط آسيا وإحدى أمهات مدن بر الشام، وهي تأخذ قسماً من سوريا المسمى سوريا كوماجان أي سوريا ذات الهضاب^(١). تقع في الإقليم الرابع يحدها من الغرب البحر المتوسط من الشرق نهر الفرات والبادية ومن الشمال درب الروم (بلاد الروم) ومن الجنوب حمص^(٢). تمتد على خط عرض ست وثلاثون درجة وإحدى عشر دقيقة وخمس وعشرين ثانية شمال خط الاستواء وعلى خط طول سبع وثلاثون درجة وتسع دقائق شرق غرينتش ترتفع عن سطح البحر حوالي ثلاثمائة وتسعون متراً^(٣).

تستمد حلب أهميتها من جغرافية المنطقة الشاملة حيث إن موقعها على تلك الهضبة المميزة في المنطقة جعلها من أولى المناطق التي شهدت جذور الحياة المدنية في "الشرق الأوسط"، تلك التلة أو الهضبة التي تميزت بموقع دفاعي حصين، ومما زاد في قوة مناعتها مأواها الغزير الذي يأتيها من نهر قويق والآبار الباطنية الموجودة فيها، فضلاً عن موقعها المتساوي البعد عن كل من البحر المتوسط غرباً والفرات شرقاً وهو الجزء الأكثر أهمية في طريق الحرير الذي يربط آسيا بأوروبا منذ أقدم العصور وحتى قدوم العثمانيين^(٤).

وقد كانت مركزاً لتوجيه التجارة الدولية وتنظيمها وتمويلها بين القارتين لهذا لم تقتصر أهميتها على كونها مجرد عقدة مواصلات أو مرتع للاستراحة بل مركزاً تجارياً مهماً يعج بالنشاط والحركة باستمرار^(٥). فاحتلت المرتبة الثالثة من حيث الأهمية بين مدن السلطنة العثمانية بعد الأستانة والقاهرة من حيث الموقع والثروات وعدد السكان، وكانت تفوقهما من حيث هوائها وجمال مبانيها وقوتها وشوارعها النظيفة^(٦).

أما فيما يتعلق بموقعها الإقليمي فإنها تتوسط سواحل المشرق في منطقة تفصل بين المستوطنات الحضرية في الغرب وحاضرة البدو في المشرق فكانت مركزاً للتبادل التجاري ما بين الحضر والبدو. عدا عن كونها الممر الرئيس الذي يصل ما بين سواحل البحر المتوسط وكل من الفرات وبلاد الرافدين، وأيضاً الممر ما بين الأناضول وجنوبي سوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية، وهذا ما جعل أهميتها تزداد في الفترة العثمانية حيث أضحت صلة الوصل البري ما بين استانبول، القاهرة،

(١) كامل الغزى، نهر الذهب في تاريخ حلب، ثلاث أجزاء، تحقيق شوقي شعث ومحمود فاخوري، دار القلم العربي، حلب مطبعة الصباح، دمشق، ص ٢، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ١٦.

(٢) محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ، أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء سبعة أجزاء، نقحه ووقف على طباعته محمد كمال، المطبعة دار القلم العربي، حلب، ط ١٣٤١هـ، ١٩٢٣م، ج ١، ص ٧٩-٨٠.

(٣) الأخوين، الكسندر وباتريك راسل، تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر، ترجمة خالد جبيلي، شعاع للنشر والعلوم، حلب، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٣٧.

(٤) أدهم الدم ودانيال غوفمان، ماسترز (بروس)، المدنية العثمانية بين الشرق والغرب، حلب از مير استانبول، تعريب د.رلى ذبيان، مكتبة العبيكان، د.ت، (سيتم الإشارة إلى الكتاب باختصار ماسترز)، ص ٧١.

(٥) هاينتز غاويه، و أويغن فيرت، حلب دراسات تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبية الاجتماعية والحركة الاقتصادية لأحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الأدنى، جزءان، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة دمشق ٢٠٠٧م، ج ١، ص ٢٦.

(١) راسل، تاريخ حلب الطبيعي، ص ٣٧.

وتتوسطها أيضاً طريق استانبول بغداد. والأهم دينياً أهميتها بالنسبة لقوافل الحج والبضائع الاستنبولية إلى مكة المكرمة برأ^(١).

وقد تولت حلب أمر تنظيم حركة الخط البري ما بين البحر المتوسط والخليج العربي وكان لها دور فاعل أيضاً في حركة المواصلات ما بين أوروبا والهند. ومنها مرت أيضاً إحدى طرق تجارة البخور من شبه الجزيرة العربية وإليها^(٢). ومن خلالها أيضاً حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل افتتاح قناة السويس كانت التحركات الدبلوماسية والرحلات السياحية والاتصالات البريدية السريعة بين لندن والمستعمرة الهندية^(٣).

وأما أهميتها عسكرياً فكانت تضاهي الإيالات الأخرى أهمية حيث كانت قاعدة عسكرية للجيش العثماني المحارب في إيران. كما كانت من الإيالات التي تستعين بها الدولة لتأمين المحاربين للولايات المختلفة عند الحاجة لضبط الأمن والنظام، فمثلاً صدر أمر سلطاني لبكلربكي حلب بأن يجمع ست آلاف محارب من حلب وألويتها لتشارك في الحملة السلطانية في منطقة أرمينيا^(٤).

إذاً تمتعت حلب بالأهمية والازدهار نظراً لما ذكرناه من أهمية دورها الإقليمي وخصوصاً فيما يتعلق بربط ولايات الإمبراطورية العثمانية بعضها ببعض فضلاً عن الازدهار التجاري الأوروبي ففي عام ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م افتتحت قنصلية فينيسية في حلب ثم تلاها عام ٩٦٩ هـ / ١٥٦٢ م افتتاح القنصلية الفرنسية ثم في ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م القنصلية الإنكليزية وفي عام ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣ م القنصلية الهولندية حتى أصبحت حلب أهم مركز تجاري في شرق البحر المتوسط^(٥).

ب- حلب^(٦) تاريخياً^(٧)

(٢) غاوبه و فيرت، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧ - ٢٩.

(٣) جودت، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٥٧.

(٤) غاوبه و فيرت، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٧ - ٢٩.

(٥) فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً (مطلع العهد العثماني، أواسط القرن التاسع عشر)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧ م، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(١) غاوبه و فيرت، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢ - ٥٣، ؛ بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٦) سميت حلب الشهباء نسبة إلى مقولة (إبراهيم حلب الشهباء)، وغالبية المصادر التي تطرقت إلى اسم حلب تأخذ بها ما عدا الطباخ الذي يقول أنها سميت حلب نسبة إلى حلب بن مهر بن جان وهو أول والي يعينه بلوكوش ملك الموصل الذي أمر ببنائها وتسميتها باسم والي حلب وهو من الجان والشهباء نسبة إلى بياض أبنيتها الطباخ، مصدر سابق، ج ٨٠ - ٨١، أما الأكثر قبولا فهو الأول نسبة إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام حيث كان يقطن في تلك التلة ويربي مجموعة من الأبقار والأغنام ويتصدق بحليب هذا القطيع على الفقراء ومن بين هذا القطيع بقرة شهباء، فعندما يهيم سيدنا إبراهيم بحلبها يهرع الناس قائلين: (إبراهيم حلب الشهباء)، فتداول الاسم. الغزي مصدر سابق، ج ١، ص ١٢.

(٣) لا تزال مصادر التاريخ القديم لحلب تشير إلى أن أول ذكر موثق لها في المخطوطات يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، عندما تراوح خضوعها ما بين القوى المصرية من جهة والحثية القادمة من آسيا الصغرى من جهة ثانية وبلاد الرافدين من جهة ثالثة، وكل منهم أطلق عليها اسماً قريباً من اسمها الحالي، ففي الحثية حلب وفي المصرية خرب وفي المصادر الأكادية خلابا غاوبه و فيرت، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٥ - ٤٦.

خضعت بلاد الشام كلها لسلطة السلطان سليم الأول الذي أبقي حلب تحت نفوذ حاكم دمشق، كما كانت سابقاً، لكن بعد وفاته تولى ابنه سليمان القانوني العرش العثماني فاستغل والي دمشق جانبرد الغزالي وفاته وقام بالعصيان على الدولة العثمانية بهدف الاستقلال وإعادة السلطة المملوكية، لكن الموظف المسئول عن لواء حلب بقي مخلصاً للعثمانيين، ولم يستجب لعصيان واليه جانبرد الغزالي وبعد القضاء عليها أدرك العثمانيون أنهم بحاجة إلى مركز سلطة جديد في بلاد الشام خشية من حكام دمشق، فارتقت حلب إلى عاصمة إقليمية عام ١٥٣٤م^(١)، وقد استمدت أهميتها من أسباب عدة :

- كون ولاية حلب أقرب ولاية عثمانية إلى سلطة الباب العالي وهي الوحيدة ذات الحدود المتاخمة لمركز السلطان .

- كانت ولاية حلب خلال العهد العثماني محطة كبيرة ومهمة لمعسكرات الجيوش العثمانية البرية لاسيما ريفها، أما مدينتها فكانت محطة للباشاوات الزاهبين إلى مراكز ولاياتهم أو العائدين منها، إضافةً إلى أن هذه المدينة كانت محط رحال بعض الأسر العثمانية التي ترغب في السكن في أقرب بلد عربي وموئلاً للطلبة العثمانيين الذين يرغبون بتعلم اللغة العربية، أي تعد من أهم الولايات التي تفاعلوا معها ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً^(٢).

- موقع المدينة الاستراتيجي من حيث إشرافها على مواصلات الإمبراطورية

وفي الألف الأول قبل الميلاد أعاد سلوقس نيكاتور تأسيس المدينة وحملت اسم بيروت في فترة الحكم السلوقي ثم الروماني، لكن في العام ٥٤٠ م دخلها كسرى أنو شروان الملك الساساني ودمرها فأعاد بناءها الإمبراطور البيزنطي جوستينيان Sauvaget: Alep Essai sur les developement d,une grandes Villes Syrienne Paris 1941. P.52-54

والمنعطف الأكبر في تاريخ حلب هو فتح المسلمين لها عام ١٥ هـ - ٦٣٦ م حيث ألحقت بإقليم حمص ثم بإقليم قنسرين ولم تستطع حلب أن تأخذ أهمية في الفترة الأموية لقرب العاصمة الأموية دمشق منها، وفي الفترة العباسية أخذت الأهمية من الامتيازات الاقتصادية لسوريا باعتبارها جزءاً منها، ومن ثم استولى عليها أحمد بن طولون ٢٦٣ هـ - ٩٠٢ م بعد استقلالها عن الدولة العباسية وتشكيله الدولة الطولونية ثم القرامطة في عام ٢٩٠ هـ - ٩٠٢ م، ثم سيطر عليها الإخشيدون في عام ٣٢٥ هـ - ٩٣٦ م ومن ثم في عام ٣٣٢ هـ - ٩٤٤ م شهدت قيام الدولة الحمدانية، وأضحت في ظلهم حاملة راية الجهاد الإسلامي على الحدود مع البيزنطيين فضلاً عن كونها من أهم مراكز الفكر في ذلك العصر، لكنها شهدت بعد ذلك خراباً مريعاً على يد البيزنطيين ٣٥١ هـ - ٩٦٢ م وصارت بعدها مسرحاً للصراع ما بين البيزنطيين والفاطميين والحمدانيين، ثم تسنى للحمدانيين السيطرة عليها عام ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م، ولكن بسرعة انتزعتها منهم أمراء العرب المرداسيين بطلب من أهالي حلب ثم الأمراء العقيليون العرب، ثم خضعت لحكم السلاجقة لفترة طويلة، حيث تعرضت خلاله للغزو الصليبي فحوّلها أثراً بعد عين .

ويأتي الحكم الزنكي ليعيد إعمار المدينة في عهد نور الدين زنكي الذي حولها إلى حصن منيع لمواجهة الصليبيين ثم يرث الأيوبيون السلطة من الزنكيين وتنتقل حلب إلى سلطتهم، وتزداد توسعاً وتجارة، وتعود من جديد إلى الدمار والخراب على يد المغول الذين لم يقدر الأيوبيون على التصدي لهم، بل تركوا الأمر للمماليك الذين استطاعوا دحرهم من البلاد العربية في معركة عين جالوت ١٢٦٠ م، ورغم ذلك فقد بقيت عرضة لهجماتهم لأنها كانت منطقة حدودية لدولة المماليك ولم تشهد ازدهاراً الذي يجب أن تكون عليه فيقوت حلب تحت سيطرة المماليك حتى العقد الثاني من القرن السادس عشر حيث دخلها السلطان سليم الأول العثماني سنة ١٥١٦. غلوبة وفيرت، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٦-٥٣.

(١) نور، مصدر سابق، ج ٣، ص ٦٢٥.

(٢) محمد التونجي، بلاد الشام إبان العهد العثماني، دار المعرفة بيروت، ص ١٨٨-١٩٠.

مع العراق وسوريا وفلسطين وبلاد الحجاز ومصر^(١).

- كونها أول ولاية يدخلها السلطان سليم الأول بعد معركة مرج دابق ١٥١٦م، بهدف الاستقرار وبسط نفوذه على البلاد العربية، وبعد طوافه في الولايات العربية أدرك أهمية حلب وموقعها، وأكد السيطرة عليها من خلال الإشراف المباشر وتعيين أهم الوزراء والباشاوات من ذوي الأطواخ الثلاثة^(٢) عليها ويتقبل شكاوي أهلها بنفسه في معظم الأحيان وهو الذي يعين قضاتها وكبار موظفيها وغيرهم من الموظفين حتى الصغار منهم^(٣).

- فمن خلال هذه الأهمية الإستراتيجية للموقع والمواصلات لحلب لم يكن لسلطين الدولة العثمانية أن يسمحوا بقيام سلطة مستقلة في حلب أو حتى حركات تمرد خصوصاً أنها كانت سابقاً على أطراف الدولة المملوكية التابعة لها والآن هي في الغرب من مركز الإمبراطورية العثمانية^(٤).

في العهد المملوكي كانت حلب إحدى النيابات الست^(٥) التي شكلت الوحدة الإدارية لبلاد الشام وبعد أن دخلها السلطان سليم عام ١٥١٦م إثر معركة مرج دابق^(٦)، أبقى بعض القادة العثمانيين في المناطق المهمة من بلاد الشام^(٧) ريثما يعود من مصر فبعد عودته إلى الديار الشامية قام بتحويل بلاد الشام إلى إيالة كبيرة أطلق عليها اسم (ولاية العرب) بما فيها منطقة حلب وعين عليها جانبرد الغزالي مدى الحياة وسميت فيما بعد إيالة الشام^(٨). وعلى الرغم من ذلك كان ينظر إلى تلك البلاد على أنها تتألف من حاضرتين كبيرتين هما دمشق الحاضرة الجنوبية لبلاد الشام وعليها وال مملوكي، وحلب الحاضرة الشمالية وعليها وال عثماني .

وفي عهد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م أصبحت حلب أكثر أهمية تجارياً وعسكرياً خصوصاً بعد أن توسعت حدود الدولة شرقاً وأصبحت حلب مركزاً لمنطقة واسعة مهمة جداً على الصعيد التجاري والصناعي^(٩)، مما دفع الدولة العثمانية لتثديد سلطتها عليها من خلال الحكم المباشر، فكان هناك حرص دائم من الدولة العثمانية لتعيين ولاة أكفيا على حلب لضبط الأمن فيها ولاسيما في طريقة

(٣) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩١م ص ٢٨.
(٤) الطوخ هو ذيل الفرس اتخذ عند التتار والعثمانيين شعاراً للسلطة حيث حددت رتبة الأمير بعدد أطواخه فكان للسلطان تسعة أطواخ وللصدر الأعظم خمسة والوزير ثلاثة وعندما ينقل الوزير إلى ولاية كدمشق وحلب كان له حق الاحتفاظ بأطواخه غرابية، غرابية، مرجع سابق، ص ٤١.

(٥) التونسي، المرجع السابق، ص ١٨٨-١٨٩.
(٦) ريمون، المصدر السابق، ص ٢٩.

(٧) النيابات، هي نيابة الشام ونيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة الكرك حيث قسمت هذه النيابات إلى أعمال صغيرة ضمت حلب بحكم موقعها الحدودي على عدد كبير منها بخلاف نيابات الشام الأخرى ومن أهمها النيابات الصغيرة لحلب نيابة قلعة الروم (قلعة المسلمين)، نيابة الكنتخاكركر، بهنسي، سمياط، عينتاب دريساك، الراوندان، بفراس، القصير، الشغروبكاس ومنها نيابات صغيرة أرمينية خارج حدود الشام لكنها تتبع لنيابة حلب في ظل سلطة المماليك مثل ملطين، دبركي، درندة، أن بلسيتين، إياس، طرسون وأضنه ونيابات صغيرة تابعة لحلب مباشرة برجل، كفرطاب، إعزاز، تل باشر، منبج، تيزين، الباب، بزاغا، أنطاكية.

(٨) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٦١.

(٩) أوكل طرابلس إلى مصطفى بك من إسكندر باشا والقدس إلى ابن أورانوس وصفد إلى ابن منصور ومحمد بك بن عيسى قائداً لمجموعة من الفرسان إلى غزة وأقر بعض الزعامات المحلية في مواقعها بيات الدولة العثمانية في المجال العربي، ص ١٥٢.

(٥) المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٦) علي عبد العزيز الحسني، تاريخ سورية الاقتصادية، مطبعة بدائع الفنون، دمشق ١٣٤٢هـ ص ١٤٢.

التعامل مع البدو^(١)، فامتدت جغرافياً من الفرات شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً ومن إيالة طرابلس جنوباً إلى مرعش شمالاً.

ج- حلب إدارياً:

لقد قسمت إدارياً في فترة القرن السادس عشر إلى عشرة سناجق (حلب) (المركز) - أكراد - المعرة - منبج - تركمان حلب - بير جك - أدنة - العزيز - إعزاز - مديك^(٢) وأما ما يورده مؤلف المرجع السابق في مرجع آخر في مرجع آخر نقلاً عن "الدفتر رقم ١٤٥٢" للفترة (٩٤٤ - ٩٦٣ هـ) - (١٥٣٨ - ١٥٥٥ م) فإن إيالة حلب تشكلت في بداية تأسيسها من لواء حلب - لواء حماة - لواء حمص - لواء بيرة جك - لواء إعزاز كليس - لواء المعرة - لواء باليس - لواء سلمية - وهي عشرة ألوية أيضاً بعض منها كان تابعاً لولاية العرب^(٣). وفي عام ١٥٢٠ م جرت أول عملية تحرير للواء حلب حيث تم تقسيمه إلى (٢١) إحدى وعشرين ناحية وهي عمق، إعزاز، الباب، جبول، الجبل الأعلى، جبل بريشة، جبل بني عليم، جبل السماق، جبل سمعان، جوم، أفاميا، حلقة لر، حارم، كفر طاب، مطح (متنج)، راوندان، روح، سرمين شيزر، وزاوية وأضيفت إليها في العام ١٥٢٦ م ثمان نواح وهي: ألتون، أوزي، أنطاكية، بقراص، الجبل الأقرع، دربساك، قصير، مسياف، شغور، وفي عام ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م أضيفت النواحي التالية: سويدة، إسكندرون، أرسوزايلي^(٤)، أما تحول حلب من لواء تابع لإيالة الشام إلى إيالة مستقلة فيعود إلى عهد السلطان سليمان القانوني الذي زار حلب في طريق ذهابه إلى إيران عام ٩٥٦ هـ - ١٥٣٤ م فأشار عليه الصدر الأعظم رستم باشا بتحويلها إلى مركز إيالة يعين فيها بكربكي يتصدى لغارات البدو^(٥) فوافق السلطان وعين عثمان بك عليها في محرم سنة ٩٥٦ هـ، ١٥٤٩ م.

ثم ما لبثت إيالة حلب أن شهدت تغييراً إدارياً حيث أعيد ارتباط لواء حمص من إيالة حلب إلى إيالة الشام وضم إلى إيالة حلب بدل لواء حمص الذي خسرت لواءين هما طرسوس الذي كان تابعاً لإيالة قرمان والثاني العزيز الذي كان تابعاً لإيالة ذو القدرية (مرعش) فأصبح الهيكل الإداري لإيالة حلب متضمناً الألوية التالية: لواء حلب - لواء أضنة - لواء حماة - لواء طرسوس - لواء بيرة جك - لواء إعزاز وكلس - لواء المعرة - لواء العزيز - لواء سلمية - لواء باليس وهناك ملاحظة حول لواء طرسوس أنه ضم إلى إيالة قبرص .

وفي عام ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م ألحق لواء جبلة بإيالة حلب وذلك بناءً على طلب بكربكي حلب من الديوان الهمايوني بحجة أن نواحي لواء جبلة متداخلة مع إيالة

(٧) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(١) بيات، دراسات في تاريخ العرب في القرن العثماني، ص ١١٤.

(٢) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص ١٨٩.

(٣) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص ١٦٦.

(٤) لقد أدى النزاع مع البدو دوراً مهماً في تحويل حلب إلى إيالة خصوصاً في تلك الفترة لاسيما الوصف الرهيب الذي وصفه الصدر الأعظم سنان باشا في مذكرته للسلطان عن إحدى العشائر التابعة لأبو الريش وعن هجومها السنوي لحلب لأخذ المواد الغذائية وقد توافقت هجومها مع وجود السلطان سليمان فيها، للمزيد من المعلومات، تابع بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، المرجع السابق، ص ١٨٣.

حلب وأن هذا اللواء يبعد مسافة يومين فقط عن مركز إيالة حلب بينما يبعد مسافة عشرة أيام عن مركز إيالة الشام التابع لها، وأن أصحاب التيمارات يعانئون في الوصول إلى مركز إيالة الشام التابعين لها^(١) ولكن هذه الإيالة كانت تتعرض إلى التغير في تقسيماتها الإدارية ما بين الفترة والأخرى ففي الفترة ٩٨٤ - ٩٩٤ هـ/١٥٧٦ - ١٥٨٦ م

يرد ذكر التقسيمات الإدارية لهذه الإيالة على الشكل التالي - لواء حلب /مركز الإيالة/ لواء حما - لواء حمص^(٢) لواء بيرة جك - لواء الأكراد وكليس - لواء المعرة - لواء أدنة - لواء العزيز مع قبو (الباب) وبقرص - لواء باليس - لواء سخنة وطيبة وهو لواء تابع لديار بكر - لواء جبلة - لواء سلمية - لواء مطح (المتخ)^(٣) - لواء إنطاكية - لواء تركمان حلب - لواء سروج .

هذا الهيكل الإداري يدل على توسع كبير للرقعة الجغرافية لإيالة حلب حيث أضيفت إليها ألوية أخرى استحدثت وضمّت إلى الإيالة مباشرة مثل لواء تركمان حلب ولواء المتخ، ومن المرجح أن الضرورات الأمنية ووجوب تحصيل الضرائب هو الذي أدى إلى وجود هذه الألوية الجديدة. ولكن ذلك لم يدم سوى بضعة سنين حيث تقلصت إيالة حلب من جديد بعد أن فصل عنها عدة ألوية لتتضم الأخرى، فاللوية حماة وجبلة وسلمية ضمت إلى إيالة طرابلس ولوائي بيرة جك وباليس ضما إلى إيالة الرقة. وأما لواء إنطاكية فقد خفّض إدارياً من لواء إلى ناحية لكنه بقي تابعاً إلى لواء حلب^(٤) .

وأما فترة القرن السابع عشر الميلادي الحادي عشر هجري كانت إيالة حلب مضطربة ما بين امتداد وتقلص عن وضعها الطبيعي أو الأصلي ما بين الفرات شرقاً وخليج اسكندرونة غرباً وامتدادها شمالاً أربعين ميلاً عن مركز حلب وخمسين ميلاً باتجاه جنوبها الشرقي^(٥) وأن عدد ولاياتها في بداية هذا القرن أصبح سبع وهي حلب - كليس - باليس - منبج - المعرة - تركمان حلب - عزيز^(٥) وهنا غابت أدنة (أضنة) عن ألوية الإيالة، لأنها تحولت إلى إيالة مستقلة بذاتها لكي تستطيع الدولة العثمانية ضبط الأمن والاستقرار في المنطقة خشية من تمرد زعماء الأكراد والتركمان في المناطق الجبلية من أضنة والخوف من وصول هذه الثورات إلى حلب، فقررت الدولة تحويل أضنة إلى إيالة مستقلة وبذلك تتقلص حدود الإيالة والألوية التابعة لها في منتصف القرن السابع عشر فقط - لواء حلب - لواء المعرة - لواء باليس - لواء سلمية - لواء العزيز، وهنا غاب لواء كليس عن الإيالة والمعلومات تؤكد أنه لم يتبع لإيالة أخرى بل أضحي لواء يدار بطريقة غير تقليدية أو أنه قد تم تخفيض وضعه الإداري إلى أقل من لواء، وغاب عنها لواء جبلة

(١) بيات، المرجع السابق، ص ١٩١.

(٢) لواء حمص ورد ذكره مكرراً في إيالة حلب إيالة الشام والأصح هو تتبعه لإيالة الشام لأن أوامر تعييناته وردت مع قائمة إيالة الشام وليس إيالة حلب. المرجع السابق، ص ١٩٣.

(٣) لواء المتخ استحدث، عام ١٥٧٤م، بعد أن كان ناحية، وعهد به إلى محمد بك بطريقة السنجق، وقد تعهد بإخضاع العشائر وزيادة الموارد. بيات، المرجع السابق، ص ١٩٢.

(٤) بيات المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٥) الحصري، مرجع سابق، ص ١٣١.

والمتخ .

ويأتي القرن الثامن عشر لتشهد الإيالة الإمتداد وعودة بعض الألوية إليها ففي النصف الأول من القرن كانت الإيالة تتألف من الألوية التالية - لواء حلب - لواء المعرة - لواء باليس - لواء العزيز - لواء جبلة - لواء المتخ - لواء الكليس^(١) وأصبحت جغرافياً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر تمتد إلى عنتاب شمالاً. وإلى الصحراء شرقاً وشمال شرق وجنوب شرق لمسافة عشر ساعات، أما في الجنوب فمدينة سمرمين آخر مناطقها المأهولة وأما في الغرب فتنتهي حدود الولاية عند أنطاكية^(٢). ثم تقلصت حدود الإيالة عندما فصلت عنها كل من كلس وبيلان والشعر وإحاقها مباشرة بالعاصمة^(٣).

وقد لوحظ التناقص المرعب في عدد القرى التابعة للإيالة ما بين بداية الحكم العثماني في القرن السادس عشر وما بين النصف الثاني من القرن الثامن عشر فمن ٣٢٠٠ قرية كانت مذكورة في سجلات الضرائب تناقصت في العام ١٨٧٥م إلى ٤٠٠ قرية فقط^(٤) ويعود ذلك إلى انتشار الفوضى واضطراب الأمن بسبب غارات البدو على حلب والمناطق التابعة لها، وليس ذلك وحسب، فالقرية التي تسلم من سلب ونهب البدو لا يحالفها الحظ مرتين، لأن الأغاوات وملتزمي الضرائب لهم بالمرصاد ليجهزوا على ما يملك الفلاح، فاندثرت قرى كثيرة وأضحت أثراً بعد عين^(٥)، ولكن القوى التي كانت مهيمنة على قرى حلب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تقلصت وانحسر نفوذها، وعادت الإيالة للتوسع من جديد في بداية القرن التاسع عشر لتمتد من مرعش شمالاً إلى حمص جنوباً ومن الفرات شرقاً إلى اسكندرونة غرباً، وقد أدى الولاة الذين تسلموا إيالة حلب بما تميزوا به من قوة أو ضعف دوراً كبيراً في تحديد دور القوى المحلية في السلطة والأمن وكذلك غارات البدو^(٦). وأما التقسيم الأخير لإيالة حلب قبيل خروجها من السيطرة العثمانية عام ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م ودخولها في ظل حكم محمد علي باشا فكان على الشكل الآتي: لواء حلب - لواء معرة المصيرين - لواء المطخ (المتخ) - لواء باليس^(٧).

د- حلب والحكم المصري: ١٢٤٧-١٢٥٦ هـ / ١٨٣١-١٨٤٠م

تعدّ فترة الحكم المصري في بلاد الشام حداً فاصلاً ما بين الحكم العثماني لها حيث ألغى النظام الإداري المصري الجديد خلال ثلاثة قرون من الرقابة الإدارية

(٢) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ص ١٩٤-١٩٦.

(٣) قسطن، الإفرنج في حلب في القرن، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٤) السبب في ذلك الضعف الذي دب في أوصال الدولة العثمانية وانعكاساته على سلطتها في الولايات فقد الأمن وظهرت الزعامات المحلية، ففي كلس وبيلان أصبح الأكراد مصدر خطر كبير على القوافل والأمن في المنطقة، فتحوّلت كلس إلى إيالة تسلمها وال محلي رفع إلى والي باشا ذي طوخين، كما أن الشعر عصى الولاة كلهم فاضطرت الدولة العثمانية إلى تعيين وال محلي عليهم، وهو تابع مباشرة للعاصمة. قسطن، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٥) شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب، ترجمة رؤوف عباس حامد، مركز دراسات الوحدة العربية، ص ١، ١٩٩٠، ص ٢٢١.

(١) قسطن، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٢) الغزي، مصدر سابق/ ج ٣، ص ٣٢٩.

(٣) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

العثمانية في بلاد الشام، وأصبحت الإدارة المصرية بمفهومها الحديث نقطة انطلاق لإدارة عثمانية جديدة واكبت التنظيمات والتطورات حتى نهاية الحكم العثماني في بلاد الشام ونهاية الدولة العثمانية ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ (١) كما جاءت فترة الحكم المصري على بلاد الشام كالنسخة العليقة التي تنعش الجسد الخامل لثلاثة قرون، فانتعشت الآمال وفتحت أبواب الحضارة التي دخلت منها رياح التطور والتقدم لتترك أثراً كبيراً على مفكري بلاد الشام وعلمائها ومثقفها على الرغم من أن فترة الانتعاش كانت قصيرة جداً مقارنة بفترة الخمول، لكن تأثيرها كان عميقاً، حتى الإدارة المصرية نفسها التي فتحت الآفاق لم تستطع أن تمنع نمو الوعي وفتح الأذهان حول القضايا المتعلقة بوضع البلاد وموقف الشعب وما يطلبه وما لا يستطيع أن يتنازل عنه

لقد كان محمد علي يحلم بالدولة الكبرى في المشرق ويرى أن بلاد الشام هي العمق الاستراتيجي لمصر حيث يسيطر على طريق التجارة السورية المصرية وتضع حداً لبدو سيناء الذين يهددون هذه الطريق عدا عن الاستفادة من ثروات بلاد الشام (أخشاب، زيوت، حرير، معادن) (٢). إضافة إلى وضع بلاد الشام حيث سكانها ثائرون على واليهم العثماني سليم باشا ويرتقبون اللحظة التي يتخلصون بها من هذا الظلم العثماني المستبد عبر تلك القرون .

كل هذا شجع محمد علي للإقدام على مخططة إضافة إلى وجود حليفه الأكبر بشير الشهابي الثاني الذي سيسر وسيقدم العون والدعم لقوات محمد علي (٣)، فجاءت قضية الخلاف مع والي صيدا وعبد الله باشا حول الفلاحين الهاربين (٤) من مصر كالفيتل الذي أشعل النار في البارود، فسار إبراهيم باشا الابن الأكبر لمحمد علي على رأس جيش بري قوامه ٤٣٠٠٠ مقاتل يدعمه أسطول بحري مكون من ٢٣ قطعة بحرية نحو فلسطين في ١٢٤٧ هـ / ١٠ / ١٠ / ١٨٣١م ودخلها من دون مقاومة حيث فر عبد الله باشا والي صيدا ليتحصن في قلعة عكا التي فشل نابليون أمام أسوارها (٥)، لكن إبراهيم باشا تمكن من دخولها بعد حصار دام ستة أشهر (٦) ودخل دمشق في ١٥ محرم ١٢٤٨ هـ / ١٤ حزيران ١٨٣٢م وهزم الجيش العثماني في حمص في ٩ صفر ١٢٤٨ هـ - ٨ تموز ١٨٣٢م واستسلمت حامية حماة ثم دخل حلب في ١٨ صفر ١٢٤٨ هـ ١٧ تموز ١٨٣٢م.

احتل إبراهيم باشا إنطاكية وانتصر على العثمانيين في بيلان في ٣٠ تموز

(٤) أحمد صدقي علي شقيرات، تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن ١٨٦٤ - ١٩١٨م، ألاء للطباعة والتصميم، عمان الأردن، ط١، ١٩٩٢م، ص ٣٢.

(١) المرجع السابق، ص ٣٢، انظر؛، نوار عبد العزيز سليمان، وثائق أساسية من تاريخ لبنان، الحديث جامعة بيروت العربية، ص ٢٠٣.

(٢) رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص ٢٩٨.

(٣) أرق محمد علي فلاح، مصر في الأعمال الشاقة التي قام بها ففر ٦٠٠٠ آلاف، فلاح مصري إلى فلسطين، فطلب محمد علي من عبد الله باشا والي صيدا إعادتهم لكن عبد الله باشا رد قائلاً أن هؤلاء الفلاحين هم أتباع الدولة العلية وأنهم أحرار، وليسوا عبيداً، وباعتبار مصر وفلسطين من ولايات الدولة فإن هؤلاء الحق العيش في المكان الذي يريدونه.

(٤) أوزتونا، مرجع سابق، مج ٢، ص ١٥.

(٥) المرجع السابق، مج ٢ ص ١٥.

١٨٣٢م وتوغل بعدها في الأناضول^(١) ونتيجة للمنافسة الأوروبية على المنطقة وخشية الإنكليز والفرنسيين من الشبح الروسي الذي طلب منه السلطان^(٢) إرسال سفنه إلى المضائق لحمايته من هجوم إبراهيم باشا، فقد طلبت كل من فرنسا وإنجلترا من محمد علي سحب قواته، وتم التوفيق بين السلطان وواليه في كوتاهية ١٢٤٩ هـ / (٨ / ٤ / ١٨٣٣) حيث تم الاتفاق أن يخلي إبراهيم باشا الأناضول ما عدا ولاية أضنة، ويمنح محمد علي الولايات التالية - مصر - السودان - جدة (الحجاز وأرتيرية) صيدا (فلسطين طرابلس (لبنان)، شام وحلب، وأضنة وهذه أول مرة في تاريخ الدولة العثمانية يمنح والٍ واحد ولاية سبع إيالات في الدولة^(٣).

وضع محمد علي بلاد الشام بأكملها تحت قيادة حاكم واحد، فأصبح حكمها مشتركاً عثمانياً اسماً حيث يقوم محمد علي بإرسال الضريبة السنوية إلى العاصمة استانبول، والحكم الفعلي بيد محمد علي باشا الذي عين الأمير بشير الشهابي^(٤) وتولى الأمير الشهابي الإدارة العامة للمصالح بحيث يعود إلى إبراهيم باشا في ختم الأوراق، ثم سرعان ما فصل الإدارة عن قيادة الجيش وعين محمد شريف باشا - نسيب محمد علي ومساعدته في مصر لسنوات - حاكم مدني عام، وأطلق عليه لقب (حكم دار عربستان)، ومنح رتبة أمين لواء^(٥) ولكن بقي إبراهيم باشا المرجع الأعلى للشؤون الإدارية والسياسية في بلاد الشام وكان مقره إنطاكية، وقد أحدث تغييرات في النظام الإداري لبلاد الشام حيث استبدل كلمة إيالة بكلمة مديرية فقسم بلاد الشام إلى أربع مديريات حلب دمشق طرابلس وصيدا، وجعلها تابعة لمقر الحكمادية في دمشق، وعين على رأس كل مديرية مديراً يمثل السلطة المركزية، وكان إسماعيل عاصم بك أحد أنسباء محمد علي على حلب، وقسمت المديريات إلى متسلميات ومقاطعات على رأس كل متسلمية متسلم يعينه الحكمدار وعلى رأس كل مقاطعة شيخ أو أغا أو بيك يتولاها بالوراثة وإلى جانب المتسلم طرف يمثل المالية، يجبي أموالها وناظر في كل قرية لجمع الأموال^(٦). وأقام أيضاً في المدن والقرى الكبرى مجالس المشورة^(٧) وقسم المتسلمية إلى نواح وقرى ومزارع، ألغى نظام الالتزام، ونزع السلاح من السكان، وطبق التجنيد الإجباري لكن تدخل الدول

(٦) كامل العسلي، الموسوعة الفلسطينية، الهيئة العامة للموسوعة الفلسطينية، بيروت ط١، ١٩٩٠م، القسم الثاني الدراسات التاريخية العثمانية، ص٨٥٨.

(٧) هناك مقولة شهيرة للسلطان تداولها الأتراك بعد (الغرقان يستند بالثعبان).

(١) أوزتونا، مرجع سابق، مج٢، ص١٧.

(٢) أسد رستم المحفوظات الملكية المصرية، بيروت المطبعة الأمريكية ١٣٥٩-١٣٦٢ هـ-١٩٤٠-١٩٤٣م، ص٣٠٥.

(٣) (م) ريجينكوف، إيرينا سميليا نسكايا، سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر ترجمة يوسف عطا الله، قدم له د. مسعود ضاهر، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٩٣م، ص٣١٣؛ العسلي الموسوعة الفلسطينية القسم الثاني الدراسات التاريخية العثمانية، ص٨٥٨؛ لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في بلاد الشام، ١٨٣١-١٨٤٠م، مكتبة مدبولي القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م، ص٤٦.

(٤) أسد رستم، بشير بن السلطان والعزير ١٨٠٤-١٨٤١م، منشورات المكتبة البوليسية، ص١٠٤-١٠٥.

(٥) سالم، الحكم المصري في بلاد الشام، المرجع السابق، ص٤٨، الموسوعة الفلسطينية، قسم ٢، دراسات تاريخية، ص٨٥٨.

الأوروبية في شؤون بلاد الشام أدى إلى اضطراب الأوضاع وقيام الثورات ضد إبراهيم باشا^(١)، كما أن اتساع رقعة البلاد أدى إلى صعوبة تنفيذ أوامر دمشق في كل الأصقاع ولاسيما حلب في مناطقها الشاسعة، وعدد سكانها الكبير الذين لم يعتادوا على الخضوع لنظام مركزي مقره دمشق، لأن في ذلك صعوبة في تسيير أمورهم الإدارية، وبسبب ذلك اضطرت الحكومة المصرية إلى إعادة النظر في وضع بلاد الشام الإداري حيث أعادت تقسيمه من جديد إلى وحدتين إداريتين رئيسيتين هما دمشق وحلب اتخذ كل منهما اسم حكمارية في العام (١٢٥٤هـ - ١٨٣٨م)^(٢). وقد ضمت حكمارية حلب المديريات التالية حلب وكلس وعينتاب وإنطاكية - أما مديرية حلب فقد ضمت أدلب جسر الشغور وسرمين وحارم وأريحا وجبل سمعان والبلكية والباب والجبول^(٣).

لكن انتصار إبراهيم باشا في موقعة نزيب ١٨٣٩م أثار حفيظة الدول الأوروبية التي رأت أنه لا بد من إخراج إبراهيم من سوريا بالقوة فاتحدت كل من إنكلترا وروسيا والنمسا ضده خشية دخوله القسطنطينية، ولكن في الحقيقة كانت هذه الدول تخطط وبشكل مدروس للسيطرة على بلاد الشام لحماية مصالحها والدليل على ذلك الرسائل المتواصلة كما وصفها أحد الرحالة الروس بقوله: ((يتمتع الأجانب كلهم في السلطنة بحرية تفوق حرية الطائر الطليق تحت كل سماء))^(٤). يبدو التوافق في المصالح العثمانية والأوروبية هذه المرة لتحجيم دولة محمد علي وحصرها في مصر، لأن امتدادها إلى الشام والحجاز شكل تهديداً مزدوجاً لهما: للسلطنة العثمانية فيما يتعلق بشرعية الحكم وهيبة السلطان وسلطته على ولايته، وأوروبا فقد هدد مصالحها الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية فسعت لأن تبقى المنطقة تحت سلطة ضعيفة (الدولة العثمانية) لتبقى البلاد سوقاً مفتوحاً لها على أن تقع تحت سلطة دولة قوية فتخرج زمام الأمور من يديها وتتهدد مصالحها^(٥) وتم لهم الأمر. وكان خروج إبراهيم باشا وقواته من حلب في رمضان ١٢٥٦ هـ - ١٨٤٠م حيث تسللت القوات المصرية إلى الشيخ يبرق وباتت ليلة فيه ثم اتجهت نحو الجنوب، وعلى أثر ذلك دخلت القوات العثمانية يترأسها الشيخ يوسف بك شريف زاده، وقد استقبل مبعوث السلطان العثماني بالترحيب لأنهم تخلصوا من الحكم المصري، فعادت حلب من جديد للسيطرة العثمانية^(٦).

لقد خرجت قوات محمد علي من بلاد الشام ولكنها خلفت ورائها أثراً من نواح عدة منها أن الدولة العثمانية أرادت أن تتبع طريقة الإصلاح المصري الذي طبق الإدارة المركزية والقانون ففرض الأمن والنظام، وأنهى ذاك العهد العثماني السطحي من الحكم وأصبحت الدولة تتدخل في كل الشؤون من التعليم والقضاء

(١) مسعود ضاهر، الدولة والمجتمع في المشرق العربي، دار الآداب ١٩٩١م، ص ٢٠.

(٢) جلبي، تحفة الكبار، مصدر سابق، ص ٣٥٨.

(٣) أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي، منشورات الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٠م، ج ٤+٣، ص ٧٨ - ٢٢٦.

(٤) ريجينكوف ونسكايا، سوريا ولبنان وفلسطين، ص ١١٥ - ١١٨.

(٥) سنو، النزعات الكيانية والإسلامية في الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٦) الطباخ، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٢٩.

والصحة العامة والمواصلات والاحتساب، وازدادت حزمًا في تنفيذ قراراتها وسيطرت على التجارتين الداخلية والخارجية ووجهت الزراعة والصناعة لخدمة الدولة، وألغت الرشوة في مجال جباية الضرائب والتجنيد^(١)، غير أن الفراغ الذي تركته هذه القوات أعاد بلاد الشام إلى حالة الاضطراب والفوضى وغارات البدو على المدن والأكثر خطورةً كانت الأحداث في جبل لبنان والدور الأوروبي المحرض لهذه الاضطرابات والأحداث في بلاد الشام كما ذكر سابقاً من مصالح وأطماع.

كل ذلك أسهم في دفع الدولة العثمانية للتركيز على المنطقة لتتمسك بها تحدياً بالأطماع الأوروبية المحدقة بها^(٢). لقد كان للعثمانيين فرصة جيدة للاستفادة من التجربة المصرية ومما خلفته من تنظيمات مدنية تخدم الهدف العثماني في إحكام السيطرة على البلاد من خلال النظام، ولكن ما فعلوه هو العكس تماماً فدعاية التنظيمات الخيرية ومنح الحقوق للرعايا التي بقيت مجرد دعاية وكلام نظري، ولكنها في الحقيقة كانت ثوباً جديداً ارتدته الإدارة العثمانية القادمة إلى إيلات بلاد الشام فاكتمحت النظام المصري في طريقها وعاد مبدأ الإساءة في استعمال السلطة من قبل الأتراك في سوريا، ولكي يظهر عطف السلطان على رعاياه ولكي يكسب تأييدهم وتأييد القبائل السورية، لم يبقَ إلا ضريبة الأرض (ميري) ليدفعها الأهالي التي خفت أيضاً بعد انهيار العملة، ولكن هذا الكرم السلطاني بالتنازل عن حق السلطة الشرعية لم يدم طويلاً، لأنه بفضل الأيدي الطويلة للولاة والمتنفذين نضبت الأموال وعاد نظام الالتزام والأتاوات القديمة المفروضة^(٣).

إذاً أين يكمن الإصلاح العثماني الجديد؟ كَمِنَ بعدم إشراف الباشوات والمتسلمين على القطاع الاقتصادي والعسكري إذ تحولوا إلى موظفين عاديين يتقاضون رواتب بدلاً من استخدام أموال الدولة لدفع المال المشترك إلى الخزينة، وعين في كل بشليك موظفاً خاصاً (الدفتردار) تابعاً مباشراً لوزارة المالية ويشرف على الواردات والنفقات ولكن حتى هذه المحاولات الإصلاحية في مجال الالتزام انتهت بالفشل، لأن الوزراء وأمراء السناجق تآمروا مع الملتزمين لجمع الأموال الطائلة ووصل الأمر إلى حد أن الباشوات كانوا يشترون الالتزام بأسماء أخرى ولم يجدوا صعوبة في ذلك^(٤).

تعدّ إيالة حلب من الإيالات المهمة بالنسبة للعثمانيين لذلك ما إن خرجت القوات المصرية من بلاد الشام حتى أرسل الباب العالي محمد أسعد باشا والياً على حلب وسرعان ما استعادت أهميتها الإدارية وصلتها المباشرة مع العاصمة، والأمر السلطاني الذي صدر في عام ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م "إن ولاية حلب هي من الولايات المهمة في الدولة العلية"^(٥) هو مؤشر واضح على اهتمام العثمانيين بها.

(٢) غرايبة، مرجع سابق، ص ٥٧ - ٥٨، عبد العزيز محمد عوض، مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، بيروت، ص ١٥.

(٣) ريجنكوف ونسكايا، سوريا ولبنان وفلسطين، ص ١١٥.

(١) بازيلي، مصدر سابق، ص ٣٣٥ - ٣٣٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٣) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٧، ج ٥، وثيقة ٥٤٩.

أما بالنسبة لحدودها الإدارية فإن الإيالة عادت إلى حالة عدم الاستقرار في حدودها والمناطق التابعة لها ذلك أن الأمر السلطاني هو الذي يحدد اتساع رقعة الولاية أو ضيقها فقد كانت حدود الولاية من إيالة قونية ومرعش شمالاً إلى إيالتي دمشق وصيدا جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً إلى الموصل شرقاً لأن إيالة الرقة قد انضمت إليها وعندما تشكلت متصرفية الزور على أطراف الفرات إلى حدود البادية تغيرت حدود إيالة حلب التي أصبحت حتى صدور قانون الولايات ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م على الشكل الآتي: من الشمال قونية ومرعش ومن الشرق إيالتي الموصل وبغداد، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الجنوب إيالتي دمشق وصيدا، ولكن التغير الكبير بالنسبة لإيالة حلب كان في عدد الألوية التابعة لها، ففي العام التالي لخروج القوات المصرية ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م كان عدد الألوية التابعة لإيالة حلب أربعة فقط حلب مركز الإيالة وإنطاكية وكلس وعينتاب^(١) حيث يذكر الأمر السلطاني أن هذه الألوية الأربعة هي نفسها الأربع مديريات التي شكلت حكمدارية حلب خلال فترة الحكم المصري وأن توزيع ضريبة الدخل على تلك المديريات لم يكن عادلاً^(٢) بينما نجد في العام ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م يغيب لواء إنطاكية عن إيالة حلب حيث يذكر الأمر السلطاني أن إيالة حلب مكونة من مركز الإيالة وعينتاب وكلس، في العام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م حيث الأمر السلطاني يتوجه إلى إيالة حلب مع ملحقاتها " إلى مشير وزيرنا والي حلب وملحقاتها عثمان نوري باشا وإلى متصرف ولاية رقة حسن باشا وإلى قائم مقام مدينة عينتاب وإلى قائم مقام مدينة أنطاكية وإلى قائم مقام قلعة روم وإلى قائم مقام مدينة بيرجك"^(٣)، حيث عادت أنطاكية إلى إيالة حلب كما استحدثت لواءين في منطقة أورفة هما بيرجك وقلعة روم .

ومع قيام حرب القرم ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م تشهد إيالة حلب تطوراً إدارياً ملحوظاً حيث تتحول الرقة إلى متصرفية بعد أن ينقل المركز إليها من أورفة الذي يصبح لواء^(٤)، كما يتم تشكيل متصرفية الزور العام نفسه حيث تصبح إيالة حلب مؤلفة من ثلاث متصرفيات هي حلب والرقة والزور^(٥) والقنصل الفرنسي غيس (H.GUYS) في حلب للعام ١٨٥٤م يذكر في كتابه "إحصاءات باشوية حلب" باشوية حلب مقسمة إلى ستة إيالات حلب أربع ضيع، إدلبي ضيعة واحدة، ريما ٤٩ ضيعة، جسر الشغور ٤٦ ضيعة، أنطاكية ١٢ منطقة و ١٨٩ ضيعة، كلز ٩ مناطق و ٣٦٩ ضيعة، عينتاب ٦١ ضيعة، وهناك تسعة أقضية تعود إلى باشوية حلب وهي جبل سمعان ٦٣ ضيعة، سرمين ١٩ ضيعة، الباب، والجبول ١٢ ضيعة، حارم ٣٨ ضيعة، دركوش ١٢ ضيعة، البكلية ١٦ ضيعة، قلعة المضيق ٥ ضيع^(٦) ولكن الأمر

(١) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥١، وثيقة ٩٩.

(٢) الأمر السلطاني لولاية حلب، مج ٥١، وثيقة ٩٩.

(٣) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٦، ج ٥، وثيقة ٥٠١.

(٤) الأوامر ٥٧، ج ١٤ - ١٥، وثيقة ٣٢.

(٥) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٧، وثيقة ٤٧.

(٦) غيس إحصاءات باشوية حلب، مطبوع في مرسيليا فرنسة ١٩٠٣، نقلا عن محمد فؤاد عنتابي، ونجوى عثمان، حلب في مئة عام ١٨٥٠ - ١٩٥٠، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ط ١٩٩٣، ١، ص ٢٤.

السلطاني للعام ١٨٥٤م لا يأتي على ذكر إنطاكية من ضمن ألوية إيالة حلب ولكن من المؤكد أن إيالة حلب بعد حرب القرم أخذت بالتزايد من حيث عدد الألوية التابعة لها حيث تذكر سالنامه الدولة العثمانية للعام ١٢٧٧هـ - ١٨٦٠م أضيف إليها لواء الرقة وسروج مع العلم أن الأمر السلطاني لولاية حلب عام ١٢٦٨هـ - ١٨٥١م يذكر قضاء سروج على أنه قضاء تابع إلى أورفة^(١)

ر- حلب قبل صدور قانون الولايات

١- لواء حلب:

يقع ما بين البحر المتوسط غرباً والفرات وأنطاكية شرقاً ولواء حماة والملاذقية جنوباً وكلس شمالاً وقد تزايد عدد الأفضية التابعة له إلى ثمانية عشر قضاءً، ففي البداية ضم تسعة أفضية: حلب، معرة مصرين، سرمين، أريحا، إدلب، جسر الشغور، الباب، باريشا، الريحانية. ثم أضيفت إليه في العام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٨م خمسة أفضية أخرى هي حارم دركوش، اسكندرونة، العمق، عفرين^(٢) وفي العام التالي تحول جبل سمعان من ناحية في قضاء حلب إلى قضاء مستقل تابع إلى لواء حلب^(٣) وفي عام ١٢٦٩ هـ ، ١٨٥٢م استحدث لواء المطخ وأردو وأصبحت تابعين للواء حلب^(٤) ومن ثم قضاء (روج أوه) أي: وادي الصيام، في العام ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م^(٥).

٢- لواء إنطاكية:

يقع في الناحية الغربية من إيالة حلب، يحيط به لواء حلب من الجهات كلها ماعدا الغرب حيث البحر المتوسط. وكان في العهد المصري مديرية تابعة لحكمداية حلب ومقرّاً لإبراهيم باشا هذا فضلاً عن كونها تضم أهم كنائس العالم، فتمتعت بمركز ديني مهم جداً. حوّلها العثمانيون إلى لواء بعد خروج القوات المصرية منها تابعاً لإيالة حلب وقد ضم ناحيتي السويدية في الغرب والقصير في الجنوب .

٣- لواء عنتاب:

يشكل الجزء الشمالي من إيالة حلب حدوده أضنة من الغرب والفرات من الشرق ومرعش من الشمال وكلس من الجنوب واكتسب أهميته من أنه معسكر للقوات العثمانية الموجودة في حلب، عدا أن أهميته التجارية كصلة وصل ما بين الأناضول وحلب. كانت خلال فترة الحكم المصري إحدى المديريات التابعة لحكمداية حلب، وعندما عاد العثمانيون عاد لواء عنتاب لواءً تابعاً لإيالة حلب^(٦) ضم عدة نواحٍ أورل - جاربين - كمنون - قزل حصار - رشي - هزك -

(١) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٧، ج ١، ص ١٠، وثيقة ٢٥.

(٢) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٥، ج ١، ص ١١، وثيقة ٣٩.

(٣) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٦، ج ٤، وثيقة ١٨١.

(٤) المصدر السابق، مج ٥٧، ج ٣، وثيقة ١٧٢.

(٥) المصدر السابق، مج ٥٧، ج ٥، وثيقة ١٧٢ (سنقدم جدولاً إحصائياً عاماً عن حلب).

(٦) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٢، وثيقة ١٨٧.

تلبشار^(١).

٤- لواء كلس:

يقع في الجزء الشمالي من إيالة حلب ما بين أضنة غرباً والفرات شرقاً ولواء حلب جنوباً وعينتاب شمالاً وأما الأفضية التابعة له هي: كلس - إعزاز - إيليكو - راوند - نواحي الجوم - جومة رموس بكلي - رواندان.

٥- متصرفية الرقة:

تقع في شمال شرق إيالة حلب يحدها غرباً عينتاب وكلس وشرقاً إيالة الموصل ومتصرفية الزور ومن الشمال إيالة ديار بكر ومن الجنوب البادية^(٢) كانت الرقة تعاني من غارات القبائل البدوية بشكل كبير وبطبيعة الحال تعاني من ضعف الولاة وكثرة تبديلهم^(٣)، لذلك أعيد ارتباطها بإيالة حلب فور خروج القوات المصرية من بلاد الشام^(٤)، وللضرورات أيضاً ولاسيما بعد الهجرات للقبائل البدوية إلى منطقة الجزيرة والخوف من عصيان العشائر ورغبة السلطنة في إحكام سيطرتها على هذه المنطقة الخصبة زراعياً والمهمة جداً تجارياً^(٥) مع قلق وتخوف من التغلغل الأوروبي في المنطقة خصوصاً الطموح الإنكليزي لوصول البحر المتوسط بالخليج العربي بممر مائي^(٦)، وهذا جعل العثمانيين ينقلون مركز إدارة الرقة من أورفة التي بقيت فترة طويلة مركزاً لهذه الإيالة حتى العام ١٢٦٦ هـ ١٨٤٩ م حيث أصبح مركز الإيالة هو الرقة نفسها^(٧).

٦- متصرفية الزور:

تقع في الجنوب الشرقي لإيالة حلب يحدها غرباً متصرفية الرقة ومن الشرق إيالة بغداد ومن الجنوب البادية ومن الشمال إيالة ديار بكر. لقد أدرك العثمانيون أهمية موقع هذه المتصرفية فجعلوها منذ قدومهم بلاد الشام مقراً لموظفيهم، وقد تبعت لإيالة الرقة بعد تشكلها ثم تحولت إلى قائم مقامية سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م حيث أوعز أمر سلطاني إلى والي حلب رأفت سليمان باشا بإعادة تشكيل متصرفية الزور ثم تعيين الحاج يوسف باشا زادة قائم مقاماً لمنطقة الزور المحدثه والتابعة لإيالة حلب^(٨)، وتمتعت باستقلال كبير بحكم أن معظم سكانها قبائل بدوية وأنها عدت من الناحية الإدارية كمحافظة بدوية^(٩)، ولتأكيد فرض السلطنة سلطتها على متصرفية الزور قامت بالعام نفسه بإعادة تشكيل القائم مقامية حيث تم إرسال فرقة عسكرية قوامها ١٠٤٩ جندي ما بين خيالة ومدفعية وذلك لضبط الأمن فيها وفرض السيطرة المركزية على هذه المنطقة البدوية العارمة الفوضى وللحد من الاستقلالية التي يتمتع بها هؤلاء البدو والأهم من ذلك الأمور المالية حيث طالبت الدولة

(٢) المصدر السابق، مجلد ٥٧، ج ٢، وثيقة ١٦٦.

(٣) نخبة من الباحثين، الرقة درة الفرات، مراجعة د. سهيل زكار، محافظة الرقة، ط ١، ١٩٩٢ م، ص ٢٦٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٦٢.

(٥) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٧، ج ٢، وثيقة ١٦٦.

(٦) نخبة من الباحثين، مرجع سابق، ص ٢٦٥.

(٧) بازيلى، مصدر سابق، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٨) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٦، ج ١، وثيقة ٤٠.

(٩) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٧، ج ٤، وثيقة ٤٧٠.

(٢) الأوامر السلطانية لولاية حلب، مج ٥٧، ج ٤، وثيقة ٤٧٠.

العثمانية قائم مقام متصرفية الزور الحاج يوسف باشا بتحصيل الأموال الأميرية المترتبة على المتصرفية سابقاً ومن ثم الانتظام في جباية الضرائب.

ز- حلب إدارياً بعد صدور قانون الولايات

صدر قانون الولايات في ٧ جمادى الآخر سنة ١٢٨١ هـ الموافق لـ ٨ تشرين الثاني ١٨٦٤ م " إن قطعات الممالك المحروسة السلطانية المتعددة تقسم إلى دوائر متعددة بالنظر إلى مناسبات الأولوية وكل دائرة تسمى باسم ولاية:

المادة الأولى: كل دائرة تكون إدارتها العمومية محولة إلى الهيئة الإدارية المعنية في المواد الآتية، وهذه الإدارة مقررة في مركز واحد .

المادة الثانية: كل دائرة مع السنجاق الذي توجد به الإدارة المركزية سوية تقسم إلى ألوية في كل سنجاق منها تكون إدارة متصرفية واحدة، والمدينة التي هي رأس لواء تكون مقراً .

المادة الثالثة: كل سنجاق يقسم إلى قضاات متعددة، كل قضاء منها قائمقامية واحدة والقصبة الرئيسة لكل قضاء تكون مقراً للقائم مقام .

المادة الرابعة: كل قضاء يقسم إلى قرى وتكون في كل قرية إدارة بلدية على الوجه المبين في البنود الآتية والدوائر الصغرى الحاصلة من اجتماع بعض القرى لا يمكن أن تكون قضاء مستقل بحسب الموقع فتدار إلحاقاً إلى قضاء آخر وتعد نواح.

المادة الخامسة: كل خمسين بيتاً لا أقل من القصبات والمدائن يعد محلة واحدة وكل محلة تكون بحكم قرية واحدة" (١).

وأهم شخصيتين شاركتا في وضع وتطبيق هذا القانون هما فؤاد باشا ومدحت باشا وكان قد طبقه في ولاية الطونة وبموجب هذا القانون قسمت ولايات الإمبراطورية العثمانية إلى ثلاثين ولاية بعد أن كانت سبعاً وعشرين ولاية (٢).

إن الجديد في القانون ليس هيكيلية الوحدات الإدارية الجغرافية إذ إنها هيكيلية قديمة سابقة للفترة العثمانية (٣) وبقيت هي نفسها في بلاد الشام مع بعض التعديلات البسيطة، فالوحدة الإدارية الكبرى التي كانت تسمى إيالة عرفها القانون الجديد باسم ولاية وقسمها إلى وحدات أصغر هي السناجق، والسنجق إلى أقضية، والقضاء إلى نواح، والناحية إلى مجموعة من القرى (٤)، وتعد ولاية حلب من أكثر ولايات الشام استقراراً في التقسيم الإداري، حيث كانت مؤلفة من أربعة ألوية أصبحت ثلاثة بعد فصل لواء الزور عنها عام ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ م وبقيت حلب تضم ثلاثة ألوية حلب وأورفة ومرعش حتى عام ١٩١٠ م (٥).

١- لواء حلب:

مركز ولاية حلب ويضم القسم الأكبر منها ممتداً ما بين البحر المتوسط غرباً والفرات

(١) الدستور، ج ١، ص ٣٨٢.

(٢) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٣) كوثراني، السلطة والمجتمع، ص ٨٨.

(٤) الدستور، ج ١، ص ٣٨٢.

(٥) سالنامه، ولاية حلب، سنة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ٧٩.

شرقاً وولاية سوريا (حماة واللاذقية جنوباً) ولواء مرعش شمالاً وقد ضم حسب سالنامة عام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م إضافة إلى مديرتي اسكندرونة وعشائر اثني عشر قضاءً هي حلب مع ناحية جبل سمعان، إدلب، معرة النعمان، جسر الشغور، حارم، إنطاكية، بيلان، ربحانية، عزية، كلس، عنتاب، باب وجبول واسكندرونة^(١) وقد ضمت ٣٢ ناحية، ووصل عدد قراها إلى ٢٠٢٢ قرية^(٢) بينما تذكر سالنامة الدولة العثمانية للعام ١٣١٢ هـ - ١٨٩٤ م أن عدد النواحي في لواء حلب هو ٣٠ وعدد قراها ١٩٣٥ قرية^(٣).

١- قضاء جبل سمعان: يقع شمال حلب ويعد من الصنف الثالث، وبسبب طبيعته الجبلية تارة يكون قضاء وتارة أخرى يكون تابعاً لقضاء المركز فيكون إحداهما تابعاً للآخر، وقد كان عدد قراه ٩٥ قرية سنة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م ولم تذكر السالنامة النواحي التابعة له^(٤).

٢- قضاء إدلب: يقع جنوب غرب حلب وهو قضاء من الصنف الثاني ضم ثلاث نواح هي أريحا ومعرة مصرين وسرمين في العام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م وبقيت ثابتة، أما عدد قراه فبلغ ١٠٤ قرية للعام نفسه^(٥).

٣- قضاء معرة النعمان: تقع جنوب حلب وهي قضاء من الصنف الثاني وبما أن معظم سكان القضاء كان من عشائر الأعراب والموالي والرحل النزل الذين لا يستقرون في قراهم ومزارعهم سوى وقت الزرع والحصاد، ثم يرتحلون إلى الصحراء، فوجدت الحكومة صعوبة بالغة في إحصاء هذه القرى وعدد سكانها حيث تجدها خاوية في معظم الأحيان^(٦).

٤- قضاء جسر الشغور: يقع أيضاً جنوب حلب هو أيضاً من الصنف الثاني أيضاً كانت تتبع له أربع نواحي ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م هي جسر الشغور، أوردو دركوش ومضيق ولم تذكر السالنامة عدد قراه واعتقد للسبب السابق نفسه^(٧).

٥- قضاء حارم: يقع غربي حلب وهو من الصنف الثاني ضم ناحية باريشا فقط^(٨) طبيعته المناخية سيئة لذلك انتقل مركز القضاء من حارم إلى كفر تخاريم حيث كانت الدولة تجد صعوبة في جمع العساكر النظامية والرديفة (الاحتياطية)^(٩).

٦- قضاء بيلان: يقع غربي حلب وهو من الصنف الثاني، موقعه الجغرافي متميز حيث يقع في منطقة كثيفة الغابات بين جبلين وبسبب هذه الطبيعة الجغرافية لم تلحق به نواحي^(١٠)، أما عدد قراه التابعة له فكانت ٣٢ قرية في سالنامة ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م^(١١).

(٦) سالنامة، ولاية حلب، سنة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ٤٩ - ٨٧ - ٣٢٨.

(٧) الحصري، مرجع سابق، ص ١٤١.

(٨) سالنامة الدولة العثمانية، دفعة ٥٠، ص ٥٥٤.

(١) سالنامة ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) سالنامة ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٣) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٢، سالنامة ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧١ م، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٤) سالنامة ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٥) سالنامة ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٦) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٨٠.

(٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٢.

(٨) سالنامة ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ١١١.

٧- **قضاء أنطاكية:** يقع غربي حلب وهو من الصنف الأول كان يضم ثلاث نواح هي: السويدية وقره موط وقصير وعدد قراها بلغ ١٤٥ قرية^(١).

٨- **قضاء عزية:** يقع شرق حلب وهو من الصنف الثالث كانت تتبع له ثلاث نواح هي شيخلر، عميكي، أوقجي عز الدين^(٢).

٩- **قضاء كلس:** يقع شمال حلب وهو قضاء من الصنف الأول وهو أكثر الأفضية التابعة لحلب من حيث عدد النواحي والقرى التابعة له على الرغم من أنه كان في البداية قضاءً عادياً حيث عدد النواحي التابعة له عام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م ست نواح هي إعزاز فلاح - إعزاز تركمان - جوم - شقاغي - موسى بكلي - منبج فوقاني وعدد قراه ٣٦^(٣)، لكنه تزايد بشكل كبير فيما بعد فأصبحت النواحي التابعة له تسع نواح، أما عدد القرى فوصل إلى قرية ٤٩١^(٤).

١٠- **قضاء عنتاب:** يقع شمال حلب وهو من الصنف الأول ضم في العام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م ثماني نواح هي أورل - جاربين - جكد - قزل حصار كبير - رشي - هزك قويق - تلبشار (تل باشر) وعدد القرى التابعة له ١٩ قرية^(٥) وزاد هذا العدد إلى ٢٠٢ قرية في العام ١٨٩٠ م^(٦).

١١- **قضاء باب وجبول:** يقع شرق حلب وهو من الصنف الثاني كان يتبع له ثلاث نواح هي الباب - ايلبلكو - ومنبج تحتاني - وعدد قراه كانت في العام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م ١٢٠ قرية^(٧).

١٢- **قضاء اسكندرونة:** يقع غرب حلب وهو من الصنف الأول ونظراً لأهمية اسكندرون التجارية تحولت إلى مديرية عام ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م لكثرة قناصل الدول الأوروبية فيها.

٢- **لواء مرعش:**

يمتد لواء مرعش ما بين ولاية أضنة غرباً ولواء أورفة شرقاً وما بين لواء حلب جنوباً وولايتي معمورتي العزيز وسيواس شمالاً وهو من الصنف الثاني. ضم في تشكيله ثمانية أفضية وخمسة وعشرين ناحية وثلاثمائة وثلاثين قرية، وأما الأفضية فهي مرعش (مركز القضاء) - بازارجق - إصلاحية - خاصة - بولاق - البستان - اندرين - زيتون^(٨).

١- **قضاء مرعش:** مركز اللواء يتبع له خمس نواح أطراف شهر - شكرابو - جامستل - قلعة ينجيه - برتيز - وعدد قراه ١١٠ قرية^(٩).

٢- **قضاء بازارجق:** هو من الصنف الثالث مقره في قرية بغدين الكبير يتبع له

(٩) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(١) سالنامه الدولة العثمانية، سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م.

(٢) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ١١٧ - ١٢٢.

(٣) سالنامه الدولة العثمانية، سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م.

(٤) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ١٠٨.

(٥) عنتابي، و عثمان، حلب في مئة عام، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٧.

(٦) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ١٢٨ - ١٣٠.

(١) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ٥٦، إلى ٦٩.

(٢) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م، ص ٥٧.

ثمانى نواح هي شيخلر - كيرلي - كويرلو - اطمالو - بو مقلي جريدي - ادري
قره بقلي - أوشاغي - قلجلو - قوشجي جريدي - أوفجلى موقاري قلجو - جلغلان
جريدي (١).

٣- قضاء البستان: يقع شمال مرعش وهو من الصنف الثاني ضم ناحية
أفسوس وعدد قراه ٦٦ قرية (٢).

٤- قضاء أندرين: يقع غرب مرعش وهو من الصنف الثالث ضم ناحية
كوكسون وعدد قراه ٥٣ قرية (٣).

٥- قضاء الزيتون: يقع شمال غرب مرعش وهو من الصنف الأول ضم
ناحيتين قره طوت وعاليشار وعدد قراه ٣٠ قرية (٤).

٣- لواء أورفة:

يمتد ما بين لواء حلب في الغرب وولاية معمورة العزيز في الشرق والشمال
ولواء الزور في الجنوب وهو من الصنف الأول، وقد ضم أربعة أقضية: أورفة
مركز اللواء - بيرة جك - قلعة الروم - سروج (٥).

قضاء أورفة: مركز لواء أورفة ضم ستة نواحي هي حران ودوكرلو
وبوزأباد و أويم أغاج وجاي قبو وقباحيدر وقد ضم هذا اللواء بنواحيه الست،
أربعمائة وثلاثين قرية (٦).

قضاء بيرة جك: يقع غرب أورفة، وهو من الصنف الثاني ضم ثلاث نواحي
هي نرب - براق - جقور وعدد قراه (مئة وخمسة عشر) قرية (٧).

قضاء قلعة الروم: يقع شمال لواء أورفة، وهو من الصنف الثالث ضم ثلاث
نواحي هي عتيق - عربان - مرزمان (٨).

قضاء سروج: يقع غرب لواء أورفة، وهو من الصنف الثالث مركزه قرية أردوو (٩).

٤- لواء الزور:

امتد ما بين لواء حلب غرباً وولاية بغداد والموصل شرقاً وما بين لواء أورفة
وولاية ديار بكر شمالاً وولاية سوريا جنوباً. وبحكم طبيعة سكان لواء الزور
العشائرية فقد غابت عنه مظاهر الإدارة العثمانية حتى العام ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م
حيث أرسل والي حلب ثريا باشا حملة عسكرية استطاعت إخضاع الأعراب
الخارجين عن سلطة الدولة واستطاع أن يطبق القانون العثماني في الزور حيث
جعله مركز قضاء، وعين فيه قائمقاماً، وفي العام الثاني بنى فيه داراً للحكومة وثكنة

(٣) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م (إصلاحية - خاصة - بولاق).

(٤) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م. ص ٦٠

(٥) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م. ص ٦٣

(٦) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م. ص ٦٥

(٧) سالنامه ولاية حلب ١٢٧٨هـ - ١٨٧٠م، ص ٥٠، حتى ص ٥٥.

(٨) سالنامه ولاية حلب ١٢٧٨هـ - ١٨٧٠م. ص ٥٠

(٩) سالنامه ولاية حلب ١٢٧٨هـ - ١٨٧٠م. ص ١٢٠

(١) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م. ص ١٢٢١

(٢) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م. ص ١٢٣

عسكرية ومشفى من قبل خليل بك^(١) ضم اللواء بالإضافة إلى المركز في الزور
خمسة أقضية قبل فصله عن ولاية حلب وهذه الأقضية هي:

قضاء عشارة جنوب شرق اللواء على الفرات .

قضاء سبخة شمال غرب اللواء على الفرات .

قضاء البوكمال جنوب شرق اللواء على الفرات .

قضاء بصيرة شمال غرب اللواء على الفرات .

قضاء رقة شمال غرب اللواء على الفرات ^(٢) .

ثم قامت الدولة العثمانية في سنة ١٢٩٩هـ - ١٨٨١م بفصل لواء الزور عن ولاية حلب وجعلته مرتبطاً مباشرة بالأستانة^(٣). هذا التقسيم الإداري الجغرافي الذي اعتمد في نظام الولايات الجديد قد ترافق بقواعد إدارية جديدة بعد أن كان الهيكل الإداري الحاكم في النظام السابق لا يتعدى عدد الأصابع أصبح في النظام الجديد بموجب نظام الولايات الذي صدر في سنة ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م ونظام إدارة الولايات العمومية الذي صدر في سنة ١٢٨٧هـ - ١٨٧١م^(٤)، عبارة عن مجموعة من المؤسسات و الأجهزة الإدارية والقضائية والمالية وأقلام ومكاتب موظفين تهتم بتدبير شؤون الولاية زراعياً وصناعياً وتجارياً وعلمياً وطرقاً وعمرانياً وشؤون خارجية وبلدية^(٥).

س- الجهاز الإداري في ولاية حلب:

١-الوالي، ٢-معاون الوالي ٣- الدفتردار ٤-المكتوبجي ٥-القاضي (نائب المركز).

٦- مدير الأمور الأجنبية ٧-مدير المعارف ٨-مدير الزراعة والتجارة ٩-مدير الدفتر الخاقاني ١٠-مأمور الأملاك والنفوس ١١-مدير الأوقاف ١٢-بك ألاي ١ مدير النافعة.

١- الوالي وواجباته:

لم يكن هناك قاعدة معينة لتعيين الولاة ولا لمدة حكمهم ولا لرواتبهم وقد كان الولاة من جنسيات متعددة^(٦) ولهذا كان عنصر الثقة مفقوداً بين السلطان وواليه، لهذا أحاط السلطان مركز الوالي بعدد من الجواسيس والعيون، كما أكثروا من نقل الولاة من مراكزهم سنوياً، و قلما تجددت لسنة أخرى وحتى الامتيازات التي تمنح للوالي مرتبطة بأهمية الولاية وشخصية الوالي^(٧).

(٣) عبد القادر عياش، من ملامح وادي الفرات، مطابع، ألف باء الأديب، دمشق ١٩٧٢، ص ٣٩.

(٤) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م، ص ٦٦.

(٥) عينتابي، وعثمان، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٥.

(٦) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ص ٧٠.

(١) كوثراني، السلطة والمجتمع، ص ٨٨.

(٢) اختلفت جنسية الولاة فكان منهم الصربي والالباني والشرکسي والهنغاري (المجري) والايطالي أو ينتمون إلى شعوب أوروبية مختلفة وقد دخلوا إلى خدمة السلطان كأحد مماليكه عن طريق الأسر أو الشراء أو المصادرة الدفشرمة والحقوا بمدرسة القصر السلطاني ثم تخرجوا ليشغلوا مناصب حساسة في الدولة. غرابية، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣) هند فتال، ورفيق سكري، تاريخ المجتمع العربي المعاصر، جروس بروس، ط ١٩٨٨م، ص ٧١-٧٢.

يعين الوالي بموجب فرمان سلطاني على الولاية ويصبح بموجب هذا فرمان صاحب السلطة العليا في الولاية. ولكن الإدارة العثمانية لم تمنحه الصلاحيات كلها خوفاً من انفصاله واستقلاله بالولاية، فكان كل من آغا الإنكشارية والمفتي رقيباً عليه^(١) وباعتبار أن حلب مهمة عسكرياً (مركز تجمع قوات الإنكشارية ومراقبة أحوال ولاية بغداد) إضافة إلى أهميتها التجارية^(٢) كان يتولى حكمها ولاية من ذوي المراتب العليا ومن كبار الوزراء في الدولة ولكن فترة حكمهم لم تزيد عن السنة أو السنتين^(٣) ونفقاته كانت كثيرة وكبيرة جداً^(٤) لدرجة أن دخله لا يمكن أن يغطي ثلثي نفقاته السنوية بما في ذلك المبالغ التي يجب أن يدفعها للاستانة، ولأصدقائه في الباب العالي لكي يضمن استمراره في السلطة. لهذا كان يتبع أسلوب فرض الإتاوات وجمعها بالقوة والعنف^(٥)، أما في فترة التنظيمات فقد أصبح التركيز على اختيار ولاية أكفيا وحددت صلاحياتهم ومهامهم، فقد نصت المادة السادسة من نظام الولايات عام ١٢٨١هـ-١٨٦٤م على ما يلي "نظارة أمور الولاية الملكية والمالية والضابطة وإجراءات الأحكام الحقوقية تحال إلى وال منصوب من طرف الحضرة السلطانية الشريفة، وكما أن والي الولاية هو مأمور بتنفيذ جميع أوامر الدولة، كذلك هو مأمور بإجراء ما هو داخل في حدود المأذونية المعينة له من أحكام ولايته الداخلية"^(٦).

وأما قانون إدارة الولاية العمومية الذي صدر في عام ١٢٨٧هـ - ١٨٧١م فقد توسع في ذكر وظائف الوالي وقسمها إلى عدة أقسام وهي :

أ- واجبه أن يشرف على تنفيذ وتطبيق القوانين والأنظمة والتعليمات التي تصدرها الدولة في كل أنحاء ولايته^(٧). فالأوامر السلطانية التي تصدر من القسطنطينية توجه إلى الوالي كالأمر السامي الذي وجه إلى والي حلب (ظريف مصطفى باشا) القاضي باتخاذ الإجراءات لرفع أجور الأوقاف التابعة للمرحوم جانيولاد باشا في مدينة كلس إلى البديل الشرعي؛ لأن مستغلاته كانت أقل مما ينص عليه الشرع^(٨).

ب- أن يقوم بجولات تفتيشية على كبار الموظفين في ولايته من متصرفين ومأمورين، والغاية مراقبة تصرفاتهم و أعمالهم، وهم بدورهم يراقبون الموظفين الأدنى منهم والذين هم تحت إمرتهم .

ج- تطبيق القانون على المخطئين من المتصرفين أو أدنى مرتبة بعزله من منصبه أو تقديمه للمحاكمة، وذلك حسب نوع الخطأ المرتكب سواء جنحة أو

(٤) أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٥) فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٩٨٣م، ج١، ص ٣١٤.

(٦) قسطنطين، مرجع سابق، ص ١٦٢.

(٧) -الغزي، مصدر سابق، ج٣، ص ٢٤٩.

(١) راسل، مصدر سابق، ج١، ص ٢١٩.

(٢) - الدستور، مج ٢، ص ٣٨٢.

(٣) المصدر السابق، مج ١، المادة الخامسة، ص ٣٩٨، ؛ سليم فارس الشدياق، كنز غائب في منتخبات الجوائب

الاستانة، مطبعة الجوائب، ١٢٩٥هـ-١٨٧٥م، ج٦، ص ١١.

(٤) الأوامر السلطانية لولاية حلب، رقم السجل ٥٦، رقم الوثيقة ٨، في ١٥ شعبان ١٢٦٦هـ، ص ٦-٥.

جناية (١).

- د- أعطي الوالي صلاحية تحديد موعد اجتماعات مجالس النواحي والألوية .
هـ- أعطي الحق باتخاذ القرار في الأمور الروتينية التي تقع ضمن صلاحياته في الولاية من دون الرجوع للباب العالي .
و- عليه أن يرفع تقريراً إلى الباب العالي في الأمور و القضايا المهمة التي لا تقع ضمن اختصاصاته .
ز- القيام بال جولات التفتيشية الروتينية مرة أو مرتين في السنة لكل أنحاء الولاية وإن اضطر إلى جولة مفاجئة يجب إرسال تقرير إلى الباب العالي يتضمن سبب هذه الجولة ونتائجها (٢).

وعلى الرغم من أن هناك موظفاً مسؤولاً عن الأمور المالية في الولاية (الدفتردار) إلا أنه يبقى مسؤولاً مباشراً عن الأمور المالية أمام نظارة المالية. وعليه أن يقدم تقريراً عن الإيرادات المحصلة في الولاية والمصارف المالية فيها أيضاً وإدارة الأموال العمومية والمنازعات التي قد تنشأ عن ذلك ومراقبة معاملات وحركات التحصيل. وعليه أن يأخذ الموافقة من نظارة المالية لصرف أي مبلغ مالي كان صغيراً أم كبيراً إذا كان هذا المبلغ خارج حدود الميزانية المخصصة للولاية (٣).

لم يكن من واجب الوالي سابقاً القيام بإصلاحات اجتماعية أو اقتصادية، إنما كانت مهامه محصورة بالأمن والعدل أما الأمور العامة الأخرى فهي من صلاحيات الجهاز الإسلامي (٤) في الولاية (٥).

وأما واجبات الوالي في هذا المجال حسب نظام إدارة الولايات العمومية الصادر عام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧١ م تتضمن النقاط الآتية:

- أ- العمل على ترقية التعليم والتربية العمومية وتطوير الوسائل اللازمة لذلك .
ب- العمل على النهوض بالتجارة والزراعة والصنائع و تنميتها في الولاية .
ج- المحافظة على الصحة العامة وتطهير الأنهار والبحيرات وفتح الجداول واستصلاح الأراضي المعطلة (٦). ففي الأمر السلطاني الصادر في ٩ شعبان ١٢٤٣ هـ - ١٨٢٧ م أمراً بتعمير الأبنية المتضررة من جراء الهزة الأرضية بثمن الرصاص

(٥) الدستور، مج ١، المادة الخامسة، ص ٣٩٨، ؛ كنز غائب في منتخبات الجوائب، ج ٦، ص ١١، (إن هذه الأمور التنظيمية الجديدة، طبقت على الولايات بدءاً من عام ١٨٦٤ م، وإن حدث تأخر في بعض الولايات فمرده إلى الأمور الخارجة عن إرادة الولاية) .. الباحث .

(١) الدستور، مج ١، المواد ٥-٦-٧، ص ٣٩٨-٣٩٩، إن ذلك تم في عهد التنظيمات، ولم تعط التنظيمات صلاحيات أكثر من السابق، وإنما راقبته جيداً .

(٢) الدستور، مج ١، المواد ٨-٩-١٠، ص ٣٩٩ .

(٣) الجهاز الإسلامي على رأسه السلطان يليه شيخ الإسلام (المفتي الأكبر)، الرئيس الأعلى للجهاز الإسلامي، ومن ثم هيئة العلماء من قضاة ومفتين وشيوخ وأئمة ومؤذنين، وقد يضم الأشراف ونقيب الأشراف والقاضي ؛. هند فتال، مرجع سابق، ص ٧٣ .

(٤) المرجع السابق، ص ٧٢، ؛، غرابية، مرجع سابق، ص ٤٤ .

(١) نقولاً زيادة، الأعمال الكاملة، أبعاد التاريخ اللبناني الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ٢٠٠٢ م، ص ١٧٥-١٧٦ . ؛، الدستور، مج ١، ص ٤٠٠ .

المستخرج.(١).

- د- جمع وتنظيم وتدوين أمور الولاية وأحوالها .
- هـ- إحداث صناديق المنافع العمومية والاعتبار والادخار .
- و- إحداث أماكن رسمية للصحة والشركات والمعامل .
- ز- العمل على تشجيع عملية استثمار المعادن والأحراش وتطويرها والانتفاع بها.(٢) وكما ذكرنا في الأمر السلطاني السابق الانتفاع بعائدات استخراج الرصاص في إعادة إعمار الأبنية المتضررة من الهزة الأرضية في العام ١٢٤٣ هـ - ١٨٢٧ م.(٣).

ومن واجباته أيضاً:

أ- المحافظة على أمن الطرق والمعابر وسلامتها مستعيناً لذلك بقوة من الأمن

- ب- المحافظة على أمن الأهالي وراحتهم .
- ج- استئصال الخارجين على سلطة الدولة .
- د- اتخاذ جميع الإجراءات من تحقيقات وتفتيشات التي من شأنها أن تضمن الأمن العام في البلديات .
- هـ- إخبار الباب العالي بكل حركة جزئية أو كلية تخل بأمن الدولة، ويمتثل بالأوامر التي يصدرها الباب العالي بشأنها. وإذا كان الوضع لا يحتمل الانتظار فإن القانون يتيح للوالي اتخاذ التدابير الضرورية وصرف الأموال اللازمة من دون التقيد بالمادة العاشرة السابقة، التي تعالج مسألة صرف الوالي الأموال التي لا تقع ضمن الميزانية المخصصة للولاية(٤).
- د- يحق للوالي أن يستخدم قوات الجيش المرابطة في ولايته لقمع حركات التمرد والعصيان، إذا لم تتمكن قوات الأمن من فعل ذلك، ويتم استخدام هذه القوات بموجب كتاب رسمي يعده الوالي مبيناً فيه ضرورة تدخل القوات العسكرية ويسلمه لقائد القوات العسكرية في الولاية(٥).
- أ- يحق للوالي تنفيذ أحكام صدرت عن محكمة بحق أشخاص يخلون بالأمن العام من دون الانتظار لأخذ الموافقة من الباب العالي، ولكنه يرسل فيما بعد تقريراً مفصلاً عن ذلك للباب العالي(٦).

ب- "تجري الولاية ما كان بحسب القواعد التي تعينها أصول المحاكمات من الإعلانات التي تعطيها محاكم مركز الولاية في المواد الجزائية والحقوقية التي لا تستوجب المراجعة إلى دار السعادة" (٧)

٢- معاون الوالي:

-
- (٢) الأوامر السلطانية لولاية حلب، سجل ٤٤، وثيقة ١٢٦، ص ٩٧.
 - (٣) زيادة، الأعمال الكاملة، ص ١٧٥-١٧٦. ٤، الدستور، مج ١، ص ٤٠٠.
 - (٤) الأوامر السلطانية لولاية حلب، سجل ٤٤، وثيقة ١٢٦، ص ٩٧.
 - (٥) الدستور، مج ١، المادة ١٣، ص ٤٠٠.
 - (١) زيادة، المرجع السابق، ص ١٧٦-١٧٧. ٤، الدستور، مج ١، المادة ١٤، ص ٤٠٠-٤٠١.
 - (٢) الدستور، مج ١، المادة ١٥، ص ٤٠١.
 - (٣) الدستور، المادة ١٦، مج ١، ص ٤٠١. ٤، زيادة، الأعمال الكاملة، ص ١٧٩-١٨٠.

لم يكن منصب معاون الوالي معروفاً من قبل صدور نظام إدارة الولايات العمومية عام ١٢٨٧ هـ- ١٨٧١ م، فقانون تشكيل الولايات عام ١٨٦٤ م لم يتطرق إلى هذا المنصب أو إلى اختصاصاته، ولكنه أتاح للوالي أن ينيب عنه في غيابه من يختاره من المأمورين^(١). كما ذكرت المادة الرابعة والعشرون من قانون الولايات أيضاً أن متصرف لواء المركز يمكن أن ينوب عن الوالي أو يعاونه في القضايا العمومية، وفي مادة ملحقة بهذا القانون كلف بتدبير الأمور الأجنبية^(٢). أما نظام إدارة الولايات العمومية فقد فصل اختصاصات معاون الوالي والوالي بالأمور الآتية:

- أ- يعاون الوالي في الأمور التي يوكلها الوالي إليه كلها.
- ب- الإطلاع على البريد الوارد من دوائر الولاية وفرزها إلى الدوائر المختصة وتقديم موجز عن مضمون هذا البريد إلى الوالي .
- ج- يمكن أن توكل وظيفة معاون الوالي إلى أي موظف مركزي في الولاية مع احتفاظه بوظيفته الأصلية^(٣).
- د- كما أن معاون الوالي يمكن أن ينوب عن الوالي حسب المادة الرابعة من قانون إدارة الولايات العمومية في حال غيابه أو عزله^(٤) أما في حلب فكان يعزل الوالي ويأتي والي جديد مباشرة من دون نيابة معاون الوالي، وحدث أن عين القائد العسكري شاكر باشا وكيلاً حتى حضور الوالي الجديد^(٥).

٣- الدفتردار:

عينت الدولة العثمانية دفترداراً واحداً لولايات بلاد الشام والعراق وكان مقره حلب، ثم فيما بعد عين دفتردار خاصاً لكل ولاية وكان يوزع مهمته في جمع الضرائب إلى المقاطعية، وكان يشرف على حسابات الأموال الإقطاعية وعليه تأمين إرسال الضرائب السنوية إلى الباب العالي^(٦). ونظراً لأهمية هذا المنصب فإنه كان يحظى به من يدفع أكثر من المبالغ الطائلة^(٧). وأمر تعيينه يأتي من الأستانة ولا دخل للباشا فيه^(٨)، وحتى في فترة التنظيمات استمر تعيينه من الأستانة، ولكنه أصبح أيضاً عضواً دائماً في مجلس إدارة الولاية وعندما جاء أمر تعيين أمين باشا والياً على حلب سنة ١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٦ م جاء معه قرار تعيين الدفتردار والقاضي^(٩). وبموجب قانون الولايات الصادر عام ١٨٦٤ م المادة السابعة منه تقرر بأن "أمور مالية الولاية وأمورها الحسابية تحال إلى مأمور بعنوان دفتردار الولاية، يكون مرجعاً إلى كل مصالح الولاية المالية ومع أنه يوجد بمعية الوالي يكون

(٤) الدستور، مج ١، المادة ١٨، ص ٣٨٣.

(٥) الدستور، مج ١، ص ٣٩٧.

(٦) الدستور، مج ١، المادة ١٧، ص ٤٠١.

(٧) الدستور، مج ١، المادة الرابعة، ص ٣٩٨.

(١) الغزي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣١٥.

(٢) فتال، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٣) قسطون، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٤) أنيس، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٥) فردينان توتل اليسوعي، وثائق تاريخية عن حلب المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٤٠ م، ج ١، ص ٣٧. ؛ الطباخ،

مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٦٤. ؛ الغزي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٠١.

مسئولا في الأمور الحسابية رأساً لدى نظارة المالية الجلييلة^(١) وفي المادة الثامنة منه استقل الدفتردار عن الوالي في حلب في الأمور المالية وأصبح مسئولاً أمام نظارة المالية مباشرةً. ومحاسبو الولاية أصبحوا تابعين له ينفذون أوامره وتعليماته^(٢).

أما نظام إدارة الولايات العمومية الصادر عام ١٢٨٧هـ-١٨٧١م فقد أضاف بعض المهام للدفتردار في المادة الثامنة عشر منه "إذا وجدوا من عموم مأموري الولاية من لا يوافق بحركته في الأمور المالية النظامات والقواعد الحسابية يبلغون والي الولاية درجة الحالة التي يرونها مخالفة للنظام والقاعدة ومطالعائهم بأمر إصلاحها ويذكرونه بما يلاحظونه بحق انتخاب المحاسبة جيه ومديري الأموال وعزلهم"^(٣). وقد تناقصت أهمية الدفتردار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث عاد لينضوي تحت ظل الوالي وأخذ يقترح على الدولة بمنح الدفتردار الأوسمة، الذي أصبح أيضاً بحاجة شهادة الوالي الجيدة فيه لتثبيت حرصه على المصلحة العامة، ومقابلها يحصل على علاوة في راتبه، كما أنه أصبح معرضاً للعزل والمحاكمة عندما تثبت إدانته بتستره على المخالفات المالية في الولاية.^(٤)

٤- المكتوبجي:

من الوظائف الرئيسية في إدارة الولاية، وعندما تقلصت صلاحيات الوالي سلمت جزءاً من هذه الصلاحيات للمكتوبجي وأصبح وكيل الباشا^(٥) وخصص له ١٠٪ من المال الداخل إلى الوالي^(٦) وقد أولت التنظيمات العثمانية هذه الوظيفة زيادة في الأهمية حيث أصبح المكتوبجي عضواً دائماً في مجلس إدارة الولاية ويتم تعيينه من قبل الحكومة المركزية. ولأهميته ينقل من ولاية إلى ولاية أخرى كانتقال مكتوبجي ولاية حلب إلى ولاية الحجاز سنة ١٣٠٦هـ - ١٨٨٩م^(٧). وقد تحددت واجبات مكتوبجي الولاية في نظام الولايات الصادر عام ١٨٦٤م بما يأتي:

- تحال أمور تحريرات الولاية عموماً إلى مكتوبجي الولاية المنصب من قبل الدولة وإشرافه قلم تحريرات وبواسطته تجري مكاتبات الدائرة الرسمية والمحافظة على الأوراق وقيودها^(٨).

- يشرف مكتوبجي الولاية على مطبعة الولاية ولها مدير ومعاون ومترجم ومحرر ومأمور الطبوغرافيا، ويتم بواسطتها إصدار السالنامات التقارير السنوية للولاية وتدقيق ومراجعة المواد الرسمية التي تحرر في صحيفة الولاية^(٩)، وتوسعت صلاحيات المكتوبجي بموجب نظام إدارة الولايات العمومية ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م حيث جعل تحت

(٦) الدستور، مج ١، المادة السابعة، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٧) الدستور، مج ١، المادة الثامنة، ص ٣٨٣.

(٨) الدستور، مج ١، المادة الثامنة، ص ٤٠١-٤٠٢.

(٩) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ص ٩١.

(٢) أنيس، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٣) توتل اليسوعي، مصدر سابق، ج ١، ص ٩٦.

(٤) عنتابي، مرجع سابق، مج ١، ص ١٥٩.

(٥) الدستور، مج ١، المادة التاسعة، ص ٣٨٣.

(٦) الدستور، مج ١، المادة عشرين، ص ٤٠٢.

إمرة المكتوبجي عدد كبير من الموظفين، وقد نصت المادة التاسعة عشر من القانون "وظائف المكتوبجية هي إدارة جميع المكاتبات وجمع قيودها والمحافظة عليها وإبقاء الأمور التحريرية بواسطة قلم التحريرات الموجود بمعيّتهم والأمور القيدية بواسطة المأمور الخصوصي المنصّب باسم مدير أوراق الولاية" (١).

"والمكتوبجي يقبل المسودات التي يقوم بتحريرها قلم تحريرات الولاية وبإمضاء معاون التحريرات ويرأها بذاته ويصلحها ويضع عليها إمضاءه" (٢) ويتبع للمكتوبجي دائرتان مهمتان:

الأولى: قلم المكتوبجي ويرأسه المكتوبجي ويساعده معاون ورئيس مسودين وستة مسودين وإحدى عشر مبيّضاً (٣). ومهمته كتابة المراسلات بين الولاية والعاصمة أو بين الوالي وأنحاء الولاية وهنا يوقع المكتوبجي بالنيابة عن الوالي على هذه المراسلات (٤).

الثانية: قلم الأوراق ومهمته حفظ السجلات والمراسلات التي يجريها قلم الأوراق ولها مدير ومعاون وستة كتاب (٥).

٥- القاضي:

ثالث أركان الولاية مع الوالي والمحصل وهو من الأعضاء الدائمين في مجلس إدارة الولاية. وهو نائب لشيخ الإسلام في الولاية. والقاضي يعين بترشيح شيخ الإسلام وبقرار من الصدر الأعظم من الباب العالي لمدة عام واحد.

ويشترط أن يكون القاضي عالماً بالشرعية وقوانين الملك (٦) وفي البداية كان القضاة العثمانيون يستمرون في مناصبهم لمدة سنتين ولكن النظام القضائي اختل؛ لأن القانون الذي يحمي القاضي من القتل ومصادرة الأملاك جعل الوزراء والحكام يدخلون أبناءهم في السلك القضائي بالمحسوبية والوساطة. وأصبحت مدة تولية القاضي سنة واحدة تطول أو تقصر (٧) كان إشراف القاضي بعامة على سير العدالة في قطاعه القضائي حيث يراقب الوالي والدفتردار والجند والأوقاف والجمارك والحسبة وسجل العقود وتصديق الوثائق .

وقد وصلت سلطته إلى حد عزل الوالي الظالم الذي يجور على الرعايا، كما راقب الأسعار، ومنع احتكار المواد الغذائية، وأشرف على الأخلاق العامة، ومنع الرذيلة والإشاعات الكاذبة وما يقلق راحة الناس العامة، وعين أساتذة المدارس وموظفي الأوقاف ورجال الإفتاء ويساعده في عمله نوابه في المدن وقضاة المذاهب الأخرى وعدد من الكتاب والتراجم. ولم يتقاضَ راتباً ثابتاً ولا منح إقطاعات ولكنه ونوابه فرضوا على الوثائق والقضايا التي يتولونها رسوماً معينة (٨).

(١) الدستور، مج ١، المادة التاسعة عشر، ص ٤٠٢.

(٢) الدستور، مج ١، المادة ٢١، ص ٤٠٢.

(٣) سالنامه، ولاية حلب ١٨٩٣م، ص ١٢٥. ؛ الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٤.

(٤) الغزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٩.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٩. ؛ سالنامه، ولاية حلب ١٨٨٤م، ص ١٢٩.

(٦) سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب، رقم السجل ٢٥، ص ٤٠، تاريخ المحرم ١٢١١هـ، كانون الثاني ١٧٩٦م، ص ٢٤.

(٧) جودت، مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٩.

(٨) الغزي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٥٥. ؛ غرابية، مرجع سابق، ص ٥٣.

وقد تمتع القاضي في حلب بالصلاحيات نفسها الواسعة حيث عين له نواباً في الأقضية ومارس مهام ما نسميه اليوم وزارة العدل ووزارة الأوقاف في الإشراف على أملاك الوقف وتعيين المشرفين عليها وتعيين خطباء وأئمة المساجد. ففي الوثيقتين (١١، ١٣) من الأوامر السلطانية لولاية حلب كتابين من قاضي حلب إلى واليها يفيدان الأول بتعيين الشيخ محمد واعظاً في وقف جامع الأشرف في حلب عوضاً عن والده المتوفي والثاني بتعيين الشيخ محمد عنايت الله تاج الدين زادة كخطيب لجامع خسرو باشا في حلب بدل المتوفي السيد أحمد بن إسماعيل خليفة^(١).

وكان يمارس صلاحيات وزارة الإدارة المحلية بتعيينه الزعامات المحلية من شيوخ ومخاتير للقرى والنواحي. ولكن كل هذه الوظائف تجري بمساومات مالية^(٢)، وكان يسهم أيضاً في تقدير الضرائب والرسوم الخاصة بالجيش مثل السخرة والجهادية والاستثنائية والسخرية^(٣). وقد كان من صلاحياته أيضاً قبل عصر التنظيمات القضاء بين المتخاصمين وتنفيذ الحكم في آن واحد^(٤).

وبعد دخول الدولة عصر التنظيمات اقتبست النظام القضائي المدني من الغرب فصدر قانون الجزاء الهمايوني في ٢٨ ذي الحجة ١٢٧٣ هـ الموافق ١٨٥٨/٨/٩م وبموجب هذا النظام القضائي اضطرت الدولة إلى تحديد صلاحيات كل من النظامين القضائيين الشرعي والمدني. فتناقصت صلاحيات القاضي القديمة بشكل كبير وعهد بها إلى موظفين مدنيين وتحولت مهام مراقبة الأسعار والأوزان والمتلاعبين بالمواد الغذائية كالخبز واللحوم بهدف الغش أو بسبب الإهمال إلى مفتشي الضابطة بموجب تعليمات وظائف الضابطة الصادر في ٢٣ ربيع الأول ١٢٨٤ هـ الموافق آب ١٨٦٧م^(٥).

كما أن ارتباط دفتر دار الولاية بنظارة المالية مباشرة وفق قانون الولايات لعام ١٢٨١ هـ - ١٨٦٤م ومن ثم نظام إدارة الولايات العمومية ١٢٨٧ هـ - ١٨٧١م الذي أعطى الوالي حق الإشراف على أعمال الدفتردار وموظفي المالية ومنع القاضي من التدخل في الشؤون المالية للولاية^(٦). كما أن ظهور المحاكم النظامية الجديدة أفقدت القاضي جزءاً كبيراً من سلطته فاقصرت على النظر في الأمور الوقفية التركات والأحوال الشخصية^(٧). وعند صدور نظام الطابو سنة ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١م انتقلت صلاحية تسجيل بيع الأراضي والعقارات إلى دائرة الطابو^(٨). وكان القاضي يراقب نوابه عن طريق مفتش يختاره ليطوف على كل المحاكم ويطلع على سير العمل فيها بشكل

(٢) الأوامر السلطانية لولاية حلب، سجل رقم ٥٦، الوثيقة ١١، حررت بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٦٦ هـ، ص ٧، والوثيقة ١٣، حررت بتاريخ ٢٠ شعبان ١٢٦٦ هـ، ص ٨.

(٣) سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب ٧٠، وثيقة ٧٩٩، تاريخ ١١٥٩/١/٢٣ هـ - آذار ١٧٤٦م، ص ٢٦٧.

(٤) سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب، سجل ٧٠، وثيقة رقم ٣١، ص ٢٥، وسجل ٧٨ وثيقة رقم ٤٧، تاريخ ١١٥٨/١/١٥ هـ - ١٧٤٥/٣/٩م.

(٥) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ١١٢.

(١) الدستور، مج ٢، البند السادس، ص ٦٦٨.

(٢) الدستور، مج ١، المادة الثامنة من نظام الولايات، ص ٣٨٣، والمادة الثامنة والعاشرة من نظام إدارة الولايات العمومية، ص ٣٩٩.

(٣) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ١١٣.

(٤) مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، سجل محكمة العونية، سجل رقم ٦٢٨، سنة ١٢٨٧ هـ، ص ٢٣٨.

سري. وبما أن ولاية حلب كانت قريبة من المراكز فقد نفذ النظام المذكور أعلاه بدقة^(١).

٦- مدير الأمور الأجنبية:

هو موظف مقترح من إدارة الأمور الأجنبية ويوافق عليه الباب العالي ومهمته النظر في الأمور الخارجية^(٢)، وهو وسيط التخاطب ما بين الوالي والموظفين الأجانب في الدولة من القناصل وموظفي القنصليات على أن يكون الوالي على علم بكل مراسلاته مع الأجانب، مع الملاحظات التي يبديها مدير الأمور الأجنبية مكتوبة أو شفوية فيما يتعلق بالمعاهدات الدولية والامتيازات والأحكام العهدية^(٣). وكانت المؤهلات المطلوبة لشغل هذا المنصب معرفة قراءة اللغة الأجنبية وكتابتها مع حسن الخط واللياقة^(٤)، وكان يعد من كبار موظفي الولاية، وهو عضو في مجلس إدارة الولاية^(٥)، وكان يتبع لمدير الأمور الأجنبية أوضة الترجمة التي تألفت من ترجمان وكاتب ومقيد وظيفتهما تبليغ الرسائل الصادرة عن الوالي إلى قناصل الدول الأجنبية وبالعكس مع الاحتفاظ بالنسخة الأجنبية^(٦).

٧- مدير المعارف:

وظيفته بالدرجة الأولى نشر المعارف في الولاية. ويترأس مجلس المعارف المكون من ستة أعضاء وسر كاتب وأمين صندوق ومأمورين لمراقبة الكتب الأجنبية^(٧)، كما أن مهمته تضمنت القيام بعمليات التفتيش وما يتطلب من إصلاحات للمكتبات والمدارس الإعدادية والسلطانية الموجودة في الولاية. والإشراف على صرف مخصصات دائرة المعارف وفق النظام المتعلق بها باعتباره المسئول عن أموال المعارف، وعليه أن يقدم في نهاية كل سنة تقريراً سنوياً إلى الوالي الذي يرفعه بدوره إلى الباب العالي^(٨). وقد حظيت مدينة حلب باهتمام مدير المعارف لكثرة مدارسها^(٩).

٨- مدير الزراعة والتجارة:

أصدرت الدولة في ١٢٨٠هـ الموافق ١٨٦٣م تعليمات وظائف مأموريات مديري الزراعة وهي:

أ- العمل على تطوير الزراعة والحصول على الوسائل التي تمكن من ذلك وتأمينها من حيث طرق الزراعة والحراثة أو أي وسيلة متعلقة بها .

ب- العمل على ترغيب السكان بالزراعة ولا سيما الذين يمتنون الزراعة كحرفة لهم .

(٥) مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، سجل الوثائق الشرعية، سجل رقم ٥٧٢، ١٢٨٧هـ، ص ٣.

(٦) لم يتوافر هذا المنصب في جميع ولايات الدولة العثمانية، وإنما اقتصر على المدن التي تكثر فيها جاليات أجنبية، جودت، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٥٨.

(٧) الدستور، مج ١، المادة عشرة من نظام الولايات، والمادة الثانية والعشرون من نظام إدارة الولايات العمومية، الصادر ١٨٧١م، ص ٤٠٢.

(٨) عوض، المرجع السابق، ص ٩٢.

(٩) الدستور، مج ١، المادة الثالثة عشر من نظام الولايات، عام ١٨٦٤م، ص ٢٨٣.

(١) سالنامه، ولاية حلب ١٣١٠هـ-١٨٩٢م، ص ١٢٧.

(٢) سالنامه، ولاية حلب ١٣١٠هـ-١٨٩٢م، ص ١٢٨.

(٣) الدستور، مج ١، المادتان ٢٥-٢٦، ص ٤٠٣، الدستور، مج ٢، المادتان ١٤٦-١٤٧، ص ١٧٨.

(٤) مصطفى أوزجان، والمكاتب السلطانية، استانبول، ١٢٣٠، ص ١٥٨.

ج- تعيين مدير الزراعة وبذوره يعين وكلاء له في القضاوات والنواحي والقرى من السكان المحليين ولا يتقاضى هؤلاء الذين يكلفون بهذه المهام الزراعية من مدير الزراعة ووكلائه راتباً من الدولة وإنما يكون من نواحي الشرف والغيرة على بناء الدولة وإعمار الوطن .

د- اقتراح مدير الزراعة من قبل المجالس المحلية من الأهالي المحليين سواء كان من المسلمين أو المسيحيين ويقيد اسمه في جريدة مجلس البلدة .

هـ- تشجيع السكان على زراعة الأنواع المتعددة من المحاصيل غير الحنطة والشعير كالأرز والنيلة والحريز والقطن وكل نوع يلائم الأرض للزراعة .

و- يحث مدير الزراعة على زراعة القطن بخاصة وترغب السكان بزراعته بأي وسيلة، وتقديم نشرات توزع على مزارعي القطن توضح طريقة زرع بذاره وحصاده .

ز- تقيد مديري الزراعة بتعليمات الدولة القاضية بحماية المزروعات من دخول الحيوانات إليها واتخاذ التدابير ونشر الإرشادات والتوجيهات لذلك .

ح- لا يجوز ولا بأي شكل من الأشكال أن يعاد المزارعون والعمال عن أشغالهم وأعمالهم في وقت الفلاحة والزراعة والحصاد بما في ذلك بسبب الضرائب أو الدعاوي العادية، وإن حدث حادث طارئ فعلى مدير الزراعة إخبار الحكومة المحلية بذلك .

ط- لا يجوز أيضاً استيفاء دين من مزارع بمصادرة حيوانات لا يملك غيرها وتساعد في أعماله الزراعية بل "يمهل في دينه ويحصل الاهتمام بتقويته بمعرفة مديري الزراعة ووكلائهم".

ي- تفض النزاعات في حال حصلت بين المزارعين بحضور مدير الزراعة .
ك- معاقبة الدولة أي مسئول في الزراعة يتناول على أملاك المزارعين وأرزاقهم ويعرض نفسه للمسائلة في حال قيامه بذلك^(١).

وبعد صدور نظام الولايات عام ١٢٨١هـ- ١٨٦٤م أصبح تعيين مدير الزراعة والتجارة يتم بناءً على انتخاب نظارتي التجارة والزراعة معاً لمأمور تقوم الدولة بتعيينه لتسهيل إدارة التجارة والنظر في أمر الزراعة بتقدير محاصيل الولاية وضبط واردتها وصادراتها وعليه إجراء تدقيقات والكشف عن الأمور التي تساعد على تطوير تجارة الولاية وتقديم تقرير للوالي بذلك. كذلك على مدير الزراعة والتجارة تقديم تقرير سنوي عن زراعة وتجارة الولاية إلى الوالي الذي بدوره يرفعه إلى الباب العالي^(٢).

وإلى جانب أوضة الزراعة والتجارة وجد في ولاية حلب مصرف زراعي يقرض مبالغ محدودة من المال للفلاحين والعمال الزراعيين والنظر فيما ينفع الفلاحة والزراعة وقد تألفت إدارة المصرف من مأمور يتسلم مهام الإدارة وثمانية أعضاء مسلمين ومسيحيين وكاتب ومفتش للزراعة وبعض المساعدين^(٣).
من الواضح أن اهتمام الدولة العثمانية بإصدار القوانين والأنظمة لتطوير

(١) الدستور، مج ٢، ص ٣٨١-٣٨٢.

(٢) الدستور، مج ١، المادة ١٢، ص ٣٨٣.

(٣) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٧٣.

الزراعة والتجارة في معظم الولايات العربية، فإن ولاية حلب حظيت باهتمام ولايتها وإشرافهم على الشؤون الزراعية معها، ولكن هل كان الاهتمام بتطبيق ذلك على أرض الواقع كما هو الاهتمام به بطباعته على الأوراق؟ أم أن هذا الإصلاح بقي مجرد حبر على ورق، وتفيد قيود واردات حلب الزراعية أن الاهتمام كان جيداً قياساً بفترة ما قبل التنظيمات، فضلاً عن ذلك، فإن عينيّات دفترى ذكرت أن مدير الزراعة قاسم باشا استدعي إلى استانبول لعدم قيامه بالإشراف الجيد على الشؤون الزراعية^(١).

لقد أقر نظام إدارة الولايات العمومية في مادته التاسعة والعشرين على وجود مأمور للتفتيش وتطبيق القوانين والأنظمة والتعليمات التي تتعلق بحق إدارة الأملاك والأراضي والنفوس وما اختص منها بمعاملات تصرف الأملاك وتملكها والإشراف على معاملات المأمورين الموجودين في الأفضية، وإن كان منها من يخالف نظام الإدارة وحساباتها ويبلغ الوالي عنه بشكل خطي كما يبدي رأيه في انتخاب موظفي الدفتر الخاقاني وعزلهم^(٢). كما أن المادة الثلاثين نصت على أن يقوم مدير الدفتر الخاقاني بإعداد تقرير سنوي عن أعماله ومهامه التي قام بها خلال السنة ويقدمها للوالي في الولاية^(٣).

وعرفت إدارة مدير الدفتر الخاقاني في ولاية حلب بإدارة الطابو مهمتها تسجيل الأملاك على أسماء مالكيها وتقوم بأخذ الرسوم وتسليمها للصندوق المال ومنه تأخذ رواتب موظفيها. ويتبع لإدارة الطابو لجنة تتألف من ثلاثة أعضاء تحت إمرة القاضي^(٤) وظيفتها حضور عقود البيع والاستماع لموافقة الطرفين^(٥) ومن وظائفها أيضاً أن تدقق معاملات انتقال الأملاك والأرزاق بين الأب والابن والأحفاد^(٦).

كما حدّد نظام إدارة الولايات العمومية وظيفة مأموري النفوس والأملاك بإدارة القيود الأساسية المحلية التي تحتوي جميع الأنواع والأجناس والإعدادات للأملاك والأراضي والأشياء التي تتبع لها وإيراداتها السنوية وما ترتبت عليها من تكاليف بموجب النظام الخاضعة له، وتنظيم خلاصات التكاليف الراجعة على الأملاك في أوقاتها المعينة وإدارة القيود المحلية الأساسية الحاوية أنواع ومقادير التكاليف الشخصية وجمع قيود عامة النفوس وتدوينها، والإشراف على ما يتم من تغييرات الأملاك وانتقالاتها وفراغاتها ومواليد النفوس عموماً ووفياتها ونقلاتها وما يخص معاملات تذاكر المرور والبسبورتات (جواز السفر)^(٧).

وفي ولاية حلب كان يتبع لمأمور الأملاك والنفوس دائرتان:

- (١) أرشيف رئاسة الوزراء، عينيّات دفترى، رقم ١١٣، ص ٥٨.
- (٢) الدستور، مج ١، ص ٤٠٤.
- (٣) الدستور، مج ١، ص ٤٠٤.
- (٤) حضرت اللجنة عند شراء أحد الأشخاص داراً في حي الصفصافة في حلب فقدر بأربعة وعشرين سهماً وسعرها ستة آلاف قرش. وثائق المحاكم الشرعية في حلب، رقم السجل ٣١٠، وثيقة ٢١٧، تاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٩٧هـ.
- (٥) الغزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٢.
- (٦) حضرت اللجنة إلى حي البياضة في حلب لتشهد نقل الورثة للمتوفي بالتساوي لأبنائه. وثائق المحاكم الشرعية في حلب، سجل ٣٠٨، وثيقة ١٥، تاريخ ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م، ص ١٢.
- (٧) الدستور، مج ١، ص ٤٠٤.

- الأولى إدارة الأملاك:

تتألف هذه الإدارة من مدير وكاتب ميزان وكاتب لكل دائرة من دوائر إدارة الأملاك ولها ثلاثة رفقاء وملازمان وصاحب دفتر، ولها مخمنان من البلدة يعملان نصف السنة مجاناً^(١). وكانت وظيفة هذه الإدارة تسجيل الملك على صاحبه بعد أن يسجل في إدارة الطابو^(٢). وتفرض ضريبة (الويركو) على أساس تقدير هذه الدائرة لقيمة هذا الملك^(٣).

- الثانية نظارة النفوس:

تتكون من ناظر وباش كاتب ومعاون وملازمين^(٤). ووظيفته تسجيل أسماء المواليد والوفيات. وكان مأمور سجلات النفوس يقوم بجولة كل ثلاثة أشهر، ومأمور سجل نفوس اللواء كل ستة أشهر، وناظر سجل نفوس الولاية يجول كل سنة على مراكز الألوية والأقضية للتدقيق في المعاملات. وكان أيضاً يعطي تذاكر نفوس، ويقدم قوائم بالشبان الموجودين في الولاية لأخذهم إلى الجندية^(٥).

٩- مدير الأوقاف:

نصت المادة الثانية والثلاثون من نظام إدارة الولايات العمومية وظائف مدير الأوقاف بما يلي:

- أ- تحصيل أموال الأوقاف في حلب وإرسالها إلى خزينة الأوقاف في أوقاتها المحددة (هذا ملزم لكل الولايات العائدة للدولة العثمانية).
- ب- إدارة حسابات المأخوذات والمدفوعات وقيودها.
- ج- الإشراف على حسابات متولي الأوقاف الملحقة في كل سنة وتحصيل الرسومات العائدة للخرينة والمحاسب والمحربين.
- د- تعميرات الأوقاف المضبوطة ومبايعتها.
- هـ- المعاملات المتعلقة بتوجيه الجهات والوظائف، وتحقيق الأوقاف غير مشروطة له والتدقيق عليها.

و- الإشراف على إدارة الصناديق والانتقالات والفراغات والمحلولات وأحكام المحافظة على نظمات الأوقاف بحق عموم الأوقاف^(٦). كما نصت المادة ٣٣ من نظام إدارة الولايات على مدير الأوقاف في تنفيذ المهام التي كلف بها بموجب المادة (٣٢) السابقة إلى أحكام النظام الموضوع بتاريخ ١٩ جمادى الآخر سنة ١٢٨٠ هـ - ١٨٦٣ م وقد صدر النظام على شكل خط همايوني تضمن مجموعة القوانين الناظمة لإدارة جميع الأوقاف الشريفة الكائنة في الخارج وحركات وإجراءات مديري الأوقاف بحيث تجري أحكام هذا الخط، ويلغي ما كان يأخذ به من قبله. وقد تضمن الخط ٩ فصول اشتملت على ستة وخمسين بنداً تناولت الفصول التسعة ما يأتي:

• الفصل الأول: إجبار مديري الأوقاف لمراجعة مجلس المدينة والأصول

(٢) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٧١.

(٣) الطباخ، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٥٨.

(٤) الغزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧١.

(٥) سالنامه، ولاية حلب ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م، ص ١٣٥.

(٦) الغزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧١.

(١) الدستور، المادة ٣٢، مج ١، ص ٤٠٥.

والقيود التي يمسكونها ويتضمن سبعة بنود .

● **الفصل الثاني:** يشمل ما يخص محاسبة السلف والخلف و يتضمن ثلاثة بنود .

● **الفصل الثالث:** ما يخص رؤية محاسبات متولي الأوقاف الملحقة ويتضمن تسعة بنود .

● **الفصل الرابع:** ما يخص التعميرات والمبايعات ويتضمن ستة بنود .

● **الفصل الخامس:** ما يخص حاصلات الأوقاف التي لم يكن لها وقفية ولا خيرات وليس لها مشروطية ولا مربوطة وجهات توجيهاتها ووظائفها ويتضمن اثني عشر بنداً .

● **الفصل السادس:** فيما يخص الإجارة الواحدة والطويلة والاستبدال ويتضمن ثلاثة بنود .

● **الفصل السابع:** ما يخص فراغات وانتقالات المسقفات والمستغلات وسنداتها ويتضمن ثلاثة بنود .

● **الفصل الثامن:** ما يخص محلولات المسقفات والمستغلات ويتضمن بندين: الأول يتوجه مدير الأوقاف مع اثنين من أعضاء المجلس إلى مسقفات ومستغلات الأوقاف الشريفة لإجراء المعاينة ثم المزايدة عليه علناً وبعد أن يصبح بعهدة أي من الأشخاص توضح مساحته وحدوده وأشكال أبنيته وترقم مقدار معجلاته وأجرته ويوضع أسماء طالبيه وينظم ضبط بذلك يرسل إلى خزينة الأوقاف الهمايونية، الثاني تحديد مقادير الخروجة والرسومات التي يجب أن تؤخذ عن معجلات محلولات الأوقاف دون زيادة أو نقصان.

● **الفصل التاسع:** ما يخص الخمس العائد إلى البوستان والمديرين وصورة تعيين وكلاء المدير وما يتفرع من ذلك ويتضمن ثمانية بنود .

وهناك أيضاً مادة مخصوصة تتضمن البند خمسة وخمسين والخاتمة تتضمن المادة السادسة والخمسين^(١).

وكان يلحق بإدارة الأوقاف لجنة الأوقاف يرأسها المفتي وستة أعضاء منتخبين^(٢) ووظيفتها النظر في دفاتر الحساب التي يقدمها المتولون على الأوقاف في مداخل الوقف وإخراجاته والإشراف على الجوامع والمعابد وتدقيق النفقات والمصروفات على إعمار وإنارة وفرش هذه الجوامع^(٣). فتذكر سجلات المحاكم الشرعية في حلب عن إشراف هذه اللجنة على دخل وخرج الأوقاف التي يقوم بحبسها بعض الناس من المسلمين وغير المسلمين^(٤).

وبموجب المادة الرابعة والثلاثون من نظام إدارة الولايات فإن هيئة ضابطة

(١) الدستور، مج ٢، ص ١٢٤ إلى ١٤٤.

(٢) سالنامه، ولاية حلب ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢ م، ص ١٢٩، قبل عام ١٨٧٢ اضطررنا للاعتماد على الفرمانات ودفاتر العيديات، وبعد ١٨٧٢ م، اعتمدنا على التقويمات السنوية، والسبب في ذلك أن نظام التقويمات السنوية، لم يطبق إلا بعد سنة ١٨٧٢ . الباحث.

(٣) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٧٤.

(٤) وثائق المحاكم الشرعية بحلب، السجل ٣٠٨، وثيقة ١١، تاريخ ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هـ- ١٨٧٨ م، ص ٧، والوثيقة ١٣٦، تاريخ ٧ رمضان ١٢٩٦ هـ- ١٨٧٩ م، ص ١٠٨.

الولاية ترجع إلى الای بك، وهو ضابط يخضع لإمرة الوالي ويتبع في وظيفته إلى تعليمات النظام المختص بالضابطة (١)(٢).

وبحسب المادة الحادية من نظام الولايات الصادر عام ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م يعين في مركز الولاية مأمور لأمر النافعة مقترح من قبل نظارة النافعة وتوافق الدولة العلية عليه ومهمته مساعدة مجموعة من المهندسين في الكشف والإشراف على الطرق والمعايير المتعلقة بالأبنية وإعداد التقارير المتعلقة بذلك (٣). وبموجب نظام إدارة الولايات أصبحت وظيفة مدير النافعة أيضاً تتضمن تأمين عمال يكلفون بالعمل في الطرق وإحضارهم في الأوقات المحددة لهم وإدارة مخصصات الطرق وصرفياتها وما يتعلق بها من أمور الحساب والقيود، وأن يقدم للوالي تقريراً بهذه الأعمال وتقرير المهندسين أيضاً عن حسن سير الأعمال والانجاز بعد أن يؤمن لهم الأدوات اللازمة لقيامهم بأعمالهم وتبليغ الوالي بها وفي المادة الثامنة والعشرين على تأمين الطرق أن يقدم في نهاية كل سنة تقرير عن الأعمال والانجازات التي قام بها بموجب المادة السابعة والعشرين السابقة الذكر إلى الوالي الذي يقوم بدوره بتقديمها إلى مركز الحكومة (٤). هذا هو الجهاز الإداري في الولاية وبالهيكلية الإدارية نفسها يتألف الجهاز الإداري في اللواء .

ش- الجهاز الإداري في لواء حلب:

- المتصرف وكادره الإداري:

هو ممثل الوالي بإرادة سلطانية وسمي متصرفاً وقد أعطي حق التصرف بالأمور الملكية والمالية والأمنية في اللواء إضافة إلى تنفيذ القرارات والأوامر التي تأتيه من السلطات الأعلى ولا سيما الوالي (٥). وأن يكون مشرفاً على سلوك موظفي اللواء وتصرفاتهم وأن يخبر الوالي عن المخالفين، كما أن القوة الأمنية في اللواء تحت إمرته، ويتقاضى المتصرف راتباً يختلف من لواء إلى آخر، وقد تطول مدة حكم المتصرف في اللواء أو تقصر (٦). والمتصرف هو أمر الفرقة الضابطة في اللواء وبناءً على أوامر الوالي يقوم بتوزيع القوى الأمنية كما يمكنه أن يستدعي عساكر الضابطة من قضاء إلى قضاء حسب الضرورات وذلك وفق النظام (٧).

- محاسب اللواء: في كل لواء عين محاسب (محاسبة جي) اختصاصاته فيما يتعلق بالأمور الحسابية في اللواء وفق الأنظمة المنصوص عليها من قبل دفتردارية الولاية، وأيضاً عليه تنفيذ تعليمات دفتردار الولاية (٨).

- مدير تحريرات اللواء: مهمته الإشراف والحفاظ على مكاتبات اللواء

(٥) للإطلاع على مضمون تعليمات الضابطة، راجع الدستور، مج ٢، ص ٦٤٧-٦٨٧.

(٦) الدستور، مج ١، ص ٤٠٥.

(١) الدستور، مج ١، ص ٣٨٣.

(٢) الدستور، مج ١، المادة ٢٧-٢٨، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(٣) الدستور، مج ١، المادة ٢٩، ص ٣٨٦.

(٤) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٩٦.

(٥) الدستور، مج ١، المادة ٣٦، ص ٣٨٧-٣٨٨، ٤؛ راجع واجبات المتصرف في نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، ص ١٨٠.

(١) الدستور، مج ١، المادة ٣٠-٣١، ص ٣٨٧.

الرسمية^(١).

- **مأمور دفتر خاقاني اللواء:** مهمته تنفيذ تعليمات مدير دفتر خاقاني اللواء التي تصله عن طريق المتصرف^(٢).

- **مأمور نفوس اللواء:** نصت المادة الثامنة من قانون سجل النفوس "يلزم أن يكون في كل قضاء مأمور نفوس، وفي معيته كاتب واحد، وفي كل لواء مثل ذلك، وفي كل مركز ولاية ناظر نفوس"؛ ومهمته إدارة النفوس والأموال العمومية مع إدارة معاملات تذاكر المرور وجوازات سفر القضاء مربوط بمركز اللواء حسب القوانين .

- **مأمور المحاكم الشرعية في اللواء:** يعين بانتخاب مقام الإفتاء العالي وتصادق عليه الإرادة الشاهانية ومهمته الفصل في المحاكم الشرعية والحكم عليها^(٣).

ص- الجهاز الإداري في القضاء

بموجب المادة الثالثة والأربعين من نظام الولايات الصادر عام ١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م يعين على كل قضاء قائم مقام من قبل الدولة مهمته النظر في الأمور الملكية والمالية والضابطة والمسئول المباشر عنه هو متصرف اللواء، وكما هو مكلف بتسيير أمور القضاء داخلياً وفق أحكام نظام القضاء والصلاحيات الممنوحة له فإن عليه تنفيذ جميع الأوامر الموجهة إليه سواء من الدولة أو الولاية أو اللواء^(٤). والمادة الرابعة والأربعون من نظام الولايات تخول القائم مقام تحصيل واردات الدولة وإرسالها إلى مركز اللواء^(٥). أما المادة الرابعة والأربعون من نظام إدارة الولايات العمومية لعام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧١ م فقد خولت القائم مقام بانتخاب مدراء النواحي ضمن دائرة القضاء وبعد أخذ موافقة متصرف اللواء يحق للقائم مقام بإحضار مجالس النواحي إلى مركز القضاء^(٦).

يَعَيَّنُ حسب الحاجة كاتب أو كاتبان لتسيير أمور القضاء الحسابية أو التحريرية بموجب كاتب القضاء: المادة الخامسة والأربعون من نظام الولايات لعام ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م^(٧).

- مدير مال القضاء:

خول نظام الولايات لعام ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م القائم مقام بالأمور المالية والقضاء فقد جاء نظام إدارة الولايات العمومية لعام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧١ م ليفصل هذه المهمة عن اختصاصات القائم مقام وكلف بها محاسباً يكون مسئولاً عن أمور القضاء المالية أمام محاسب اللواء ومهمته التدقيق في أمور القضاء المالية وفق النظام المالي وتنفيذ تعليمات محاسب اللواء الذي يبلغ تعليماته عن طريق التسلسل الإداري

(٢) الدستور، مج ١، المادة ٣٢، ص ٣٨٧.

(٣) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٩٦-٩٧.

(٤) الدستور، مج ١، المادة ٣٧، ص ٣٨٨.

(٥) الدستور، مج ١، ص ٣٨٩.

(٦) زيادة، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص ١٨٠، ١٨١، الدستور، مج ١، ص ٣٨٩.

(٧) الدستور، مج ١، ص ٤٠٧.

(١) الدستور، مج ١، ص ٣٨٩.

في الولاية من متصرف إلى قائمقام القضاء إلى محاسب القضاء^(١).

- مأمور أملاك ونفوس القضاء:

يوكل إليه المحافظة على دفاتر التحرير العمومي وتنظيم جداول بيان وقوعات الأملاك والنفوس بموجب التحقيقات الرسمية والنظام الموضوع لذلك وتوفيق معاملات تذاكر مرور القضاء وبسبوابورطاته وفق الأصول الرسمية^(٢). وغالباً ما يكون عدد مأموري أملاك النفوس والأملاك في القضاء متعلقاً بأهمية القضاء وعدد سكانه^(٣).

ك- الجهاز الإداري في الناحية:

مدير الناحية: نصت المادة الرابعة والخمسون على تعيين مدير لكل ناحية، وحددت المادة الخامسة والخمسون الشروط الواجب توافرها فيمن يتسلم هذا المنصب إذ لا يجب أن يكون من المحكوم عليهم بجنايات ولا محرومين من الحقوق المدنية قانوناً وألاً يكونوا مشهورين بسوء، وأن يكونوا ملّمين بالقراءة والكتابة، وأن يكون قد تجاوز سن العشرين. فمن يستوفي هذه الشروط يمكن أن يتسلم هذا المنصب بعد أن توافق عليه نظارة الخارجية^(٤).

أما وظيفته فهي نشر القوانين والأنظمة وبلغ أوامر الدولة وتنبيهاتها في القرى التابعة لناحيته. وتبلغ القائمقام في القضاء التابع له بكل التحقيقات التي يقوم بها مخاتير القرى في ناحيته حول الولادات والوفيات والأراضي المكتومة وصغار الورثة والغائبين منهم. وعن انتخابات المختارين والمجالس الاختيارية ومراقبة حركاتهم والتحقيق في الشكايات من قبل الأهالي على المختارين والمجالس الاختيارية ومأموري التحصيل^(٥). أما المادة الثامنة والخمسون فتمنع مدير الناحية من إجراء قانون الجزاء وعن حبس أحد من الناس وتوقيفه وعن التدخل في الوظائف الموكلة إلى مجالس الاختيارية^(٦).

- إدارة القرى:

المختارين: بموجب المادة التاسعة والخمسين يكون لكل قرية هي مركز الناحية مختار ويخضعون في انتخاباتهم ومدة مأموريتهم لأحكام نظام تشكيلات الولاية ووظيفته إبلاغ كل القوانين والأنظمة وأوامر الحكومة التي يبلغه بها مدير الناحية إلى كل القرى. كما يقوم بجمع الأموال الواجب تحصيلها للدولة بموجب المجالس الاختيارية وتذاكر التوزيع التي يرسلها مدير الناحية وأيضاً تبلغ تذاكر الإحضار التي ترسلها الحكومة لجلب بعض الأشخاص وإحضارهم، وتبلغ مدير الناحية أول بأول عن كل ما يجري في القرية من مواليد ووفيات وورثة صغار وعن الخلافات الصغيرة والكبيرة في القرى وتقديم معلومات عن الأراضي المحلولة

(٢) الدستور، مج ١، المادة ٤٥ من نظام إدارة الولايات، لعام ١٨٧١م، ص ٤٠٧.

(٣) الدستور، مج ١، المادة ٤٧، ص ٤٠٧.

(٤) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ١٠٠.

(٥) الدستور مج ١ ص ٤٠٨.

(١) الدستور مج ١ المادة ٥٦ ص ٤٠٨.

(٢) الدستور مج ١ ص ٤٠٩.

والمكتومة والمستملكات التي لم تتم معاملاتها وعن المخالفات وغيرها ومراقبة الأشخاص الذين انتخبهم مجالس الاختيارية ليكونوا في ضابطة الولاية.^(١)

ل- المجالس الإدارية في الولاية:

نصت المادة الحادية والستون من نظام الولايات العمومية على المجالس المأمورة بأن تتذكر في الأشغال المتعلقة في إدارة كل ولاية عمومية كانت خصوصية بحسب أنواعها ومفرداتها المبينة في الفصول الآتية المجالس العمومية المأمورة بالاجتماع في مركز الولاية مرة في السنة ومجالس الولايات والألوية والقضاوات التي تتعقد بصورة دائمة، ويوجد أيضاً مجالس أخرى غيرها لكي ترى أمور القرى في القرى وأمور النواحي في النواحي وكذلك لكل طائفة مجالس في المدن والقصبات لرؤية منافعها ومصالحها الخصوصية والأمور الاعتيادية البلدية.^(٢)

بموجب المادة الثالثة عشر من قانون الولايات يتكون مجلس إدارة الولاية من الوالي رئيساً أو من ينيبه ومفتش الأحكام الشرعية والدفتردار والمكتوبجي ومدير الخارجية وأربعة أشخاص منتخبين من الأهالي اثنين من المسلمين واثنين من غير المسلمين.^(٣)

انتخاب أعضاء المجلس: يتشكل مجلس تفريق من الوالي رئيساً ومفتش الأحكام والمكتوبجي والدفتردار ومأموري دعاوي مجلس الحقوق ومجلس الجنايات والرؤساء الروحانيين. ينتخبون من رعايا الدولة عدداً من الأشخاص ممن يعرفون القراءة والكتابة ويدفعون ويركو سنوية لا تقل عن الخمسمائة قرش^(٤). وأن يكونوا من أرباب التمييز والاعتبار ويلزم المجلس ترشيح ثلاثة أمثال العدد المطلوب لعضوية مجلس الإدارة وترسل الأوراق المطبوعة إلى مجالس إدارات الألوية وبعد عملية التصويت عليها يتم إسقاط ثلث المرشحين، ويعرض على الوالي أسماء الفائزين، حيث يتم إسقاط ثلث المرشحين بالطريقة نفسها ومن ثم يعرض الوالي أسماء الفائزين على الباب العالي فيصادق على تعيينهم بمراسيم رسمية.^(٥)

تم إنشاء هذا المجلس لمراقبة الوالي وتقليص صلاحياته وعدم انفراده بحكم الولاية خوفاً من استقلاله فيها، وكان المجلس يجتمع أسبوعياً يوم الجمعة لمناقشة القضايا المتعلقة بالولاية وتقديم المشورة للوالي في الشؤون المالية والإدارية والقضائية وفرض الضرائب^(٦).

يتكون المجلس من أعضاء دائمين وأعضاء منتخبين، فالأعضاء الدائمون هم الوالي والقاضي والدفتردار والمكتوبجي ومدير الأمور الأجنبية والرؤساء

(٣) الدستور مج ١ المادة ٥٩ والمادة ٦٠ من نظام إدارة الولايات العمومية الصادر عام ١٨٧١م ص ٤٠٩-٤١٠.

(٤) الدستور، مج ١، المادة ٦١، ص ٤١٠.

(١) يذكر راسل أن المجلس كان يتكون من الباشا والمحصل والقاضي والمفتي والنيقيب والسردار (أغا الإنكشارية)، والشهيندر (كبير التجار)، وكبار الأفندية والأغوات. راسل، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٢.

(٢) الدستور، مج ١، ص ٣٨٣.

(٣) الدستور، مج ١، المادة ٧٧، ص ٤١٥.

(٤) محروس حلمي إسماعيل، تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، جامعة الإسكندرية، مؤسسة الشباب ١٩٧٧م، ص ٣٣.

الروحانيين للمل غير المسلمة والمفتي. وعندما تكون الجلسة متعلقة بدائرة الأوقاف أو الأملاك فإن مديرهما يحضران المجلس. أما الأعضاء المنتخبين فهم أربعة أشخاص اثنان من المسلمين واثنان من غير المسلمين حسب الدستور .

أما في ولاية حلب فكانوا ستة أعضاء ثلاثة من المسلمين واثنان من المسيحيين وواحد يهودي^(١). ومدة عضوية الأعضاء المنتخبين سنتان شرط أن يتم الانتخاب كل سنة ويتم من خلاله تبديل نصف الأعضاء بأعضاء جدد^(٢).

لكن حتى هذا النص الدستوري للدولة العثمانية لم يحمل في طياته حرية الانتخاب والوقوف عند رغبات الشعب، بل بقي الأمر مرهوناً برأي الباب العالي. ويشترط في من يدخل المجلس عضواً أن يكون من الأعيان وأصحاب المصالح فيصبح منصبه وسيلة لتسيير المصالح والقضايا الشخصية. وأما وظيفة المجلس كما حددها نظام إدارة الولايات العمومية الصادر سنة ١٢٨٨هـ - ١٨٧١م فتقسم إلى قسمين، الأول الأمور الإدارية والثاني الدعاوي الإدارية، ومن وظائفه:

١- تنظيم وعقد المبيعات والمقاولات الحكومية وتضمين الواردات العشرية والأحراش الأميرية وإحالتها بطرق المزايدة للملتزمين.

٢- تدقيق قرارات مجالس البلدية ومجالس إدارة سناجق الولاية .

٣- الإشراف على إنشاءات أبنية الحكومة وإنشاء الطرق اللازمة بين الألوية وسائر أمور التجارة والزراعة والمنافع العامة في الولاية .

٤- تخصيص أماكن للمرضى وتأسيس مأوى للغرباء وأماكن للأسواق والمقابر .

٥- الإشراف والمحافظة على أموال الحكومة المنقولة وغير المنقولة .

٦- الإشراف على الصحة العامة .

٧- تحديد الضرائب التي تفرضها الدولة على ألوية الولاية كل لواء على حدة وتوزيعها .

٨- مبيعة المحلات التي لا تقع تحت ملكية أحد أو استبدالها أو تركها بصورة مؤقتة أو تحويلها إلى منافع عمومية .

٩- مزايدة الأحراش الأميرية وأشغال عموم الأحراش والمعادن وإنشاءات الأبنية الأميرية .

١٠- تفتيش المخصصات والمصاريف للعناصر الضابطة التي تستخدم عند الحاجة^(٣).

ومنها أيضاً:

١- التحقيق مع مأموري الولاية ومساءلتهم فيما لو وجهت إليهم تهم أو ادعاءات ومحاكمتهم وفق القانون الخاص بذلك .

٢- التدخل في المشكلات والخلافات التي قد تحدث بين دوائر الولاية ومجالسها أو بين الحاكم والموظفين الذين تحت إمرته .

(٥) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٦٢.

(١) الدستور، مج ١، مادة مخصصة ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٢) الدستور، مج ١، المادة ٧٧ من نظام إدارة الولايات العمومية، ص ٤١٢.

٣- النظر في شكاوى الأهالي التي تكون بين الأهالي من جهة التزامات أموال أميرية أو غيرها من المقاولات .

٤- ويمكن لمجلس الإدارة أن يعدل في التدابير التي تعرض عليه^(١) ومنها أيضاً:

١- يمنع المجلس نهائياً من التدخل في قضايا الحقوق الشخصية التي هي من اختصاص المحاكمات الشرعية والقانونية^(٢).

٢- لا يحق للمجلس اتخاذ إجراء تنفيذي في المواد التي أخذ الموافقة بمناقشتها بعد الحصول على موافقة الباب العالي عن طريق والي الولاية أو في حال الضرورة، فإنه يتحمل المسؤولية في قراره .

٣- لا يحق للمجلس مناقشة الأمور الجزائية ما لم يكن حاضراً خمسة أعضاء من المجلس وأكثر من نصف المجلس في باقي الدوائر وأمور الإدارة .

يتخذ المجلس قراره بموافقة ثلثي الأعضاء وإذا تساوى الرأي بين عدد الأعضاء فإن الرأي للجهة التي فيها والي أو من ينوب عنه. يتبع للمجلس دائرة قلم المجلس، ويتبع له باش كاتب ومعاون له ومقيد وأربعة كتاب وملازم^(٣).

ويوجد فيه ثلاثة دفاتر مخصوصة لقيد القوانين والأنظمة العامة والخاصة وتدوين كل الأوراق المحولة إلى المجلس وكل ما يقوم به المجلس من اللوائح والتقارير، وهذه الدفاتر تختم شهرياً بختم المجلس^(٤). ومنها أيضاً:

١- تدقيق الأوراق التي يحولها رئيس المجلس من قبل قلم المجلس بغية مناقشتها عند انعقاد المجلس .

٢- تسجيل وقائع الجلسة مع أسماء الأعضاء الحاضرين والقرارات التي اتفق عليها ووجهات النظر المخالفة لبعض الأعضاء غير الموافقين على هذه القرارات وتنظيمها بشكل تقرير يوقع عليه رئيس المجلس وباش كاتب والأعضاء^(٥).

- مجلس دعاوى الولاية العمومي:

مجلس الولاية العمومي وجد بموجب نظام الولايات لعام ١٨٦٤م ويتألف من أعضاء منتخبين عن كل لواء وهم أربعة أعضاء اثنان مسلمون واثنان غير مسلمين، ويترأس المجلس والي أو من ينوب عنه ويعقد في كل سنة مرة واحدة، على ألا يتجاوز مدة اجتماعه الأربعين يوماً وهو بمثابة مجلس استشاري للولاية.

- انتخاب أعضاء المجلس:

ينتخب أعضاء هذا المجلس قبل شهر من انعقاده ويتم على الشكل الآتي:

١- يجتمع في مركز اللواء أربعة أعضاء من مجلس إدارة كل قضاء تابع لهذا اللواء (أي إذا كان عدد الأفضية في اللواء يبلغ خمسة فإن عدد الأعضاء يبلغ عشرين) .

(١) الدستور، مج ١، المادة ٧٨، ص ٤١٢-٤١٣.

(٢) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٦٢. ٤، الدستور، مج ١، المادة ٧٩، ص ٤١٣.

(٣) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٦٩. ٤، الدستور، مج ١، المواد ٨٠-٨١-٨٢-٨٣، ص ٤١٣.

(٤) الدستور، مج ١، المادة ٨٩، ص ٤١٤.

(١) الغزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٩. ٤، الدستور، مج ١، ص ٤١٤.

٢- ينتخب هؤلاء المجتمعون أربعة أعضاء لتمثيلهم في مجلس الولاية العمومي .

٣- يقوم أعضاء كل قضاء بتسليم مطالب قضائهم للأعضاء الذين انتخبوا ليمثلوا اللواء في المجلس العمومي فيقومون بدورهم بعرضها على الولايات أولاً ثم تقدم للمجلس لعرضها ومناقشتها.(١)

- اختصاصات المجلس:

١- الاهتمام بالطرق السلطانية داخل الولاية والطرق الخصوصية في الأفضية والقرى والمحافظة عليها .

٢- إنشاء الأبنية العمومية المتعلقة بالبلدية وإصلاح الأبنية الحكومية والمحافظة عليها .

٣- مناقشة مستدعيات الأهالي وطلباتهم في الألوية والأفضية فيما يتعلق بالأبنية والطرق.

٤- مناقشة سبل تطوير الزراعة و التجارة وتسهيلها .

٥- مناقشة تعديل الضريبة (الويركو) المفروضة على الألوية والأفضية والقرى.(٢)

وبعد مداولة القضايا والأمور ترفع المقترحات إلى الوالي الذي يرفعها بدوره إلى الحكومة المركزية في استانبول ثم موافقة الوكلاء لكي توضع بعدها موضع التنفيذ.(٣)

وبموجب نظام إدارة الولايات العمومية الصادر عام ١٢٨٨هـ - ١٨٧١م توسعت صلاحيات هذا المجلس فأصبح من مهامه أيضاً:

٦- المصادقة على بعض القرارات التي يصدرها مجلس إدارة الولاية .

٧- النظر في دفاتر توزيع التكاليف على الألوية .

٨- منح حق زيادة تكاليف الألوية من الضرائب، وتقسيم ضريبة الويركو وتعديلها.

٩- تسهيل التجارة والبضائع .

١٠- نشر المعارف والآداب .

١١- إصلاح كل أنواع بذار الحبوب وأجناس الحيوانات .

١٢- بيع كل ما يتعلق بالمنافع العامة من أملاك عمومية مثل الساحات والمراعي والمواشي وشرائها ومبادلتها .

١٣- تغيير وإصلاح الأبنية العمومية كبيوت المرضى وبيوت الإصلاح وكيفية إدارتها وما يتعلق بالمنافع العمومية من مقاولات وتعهيدات .

يمنع المجلس من القيام بأعماله ما لم يحضر ثلثا الأعضاء.(٤)

ف- المجالس البلدية:

تشكل هذا المجلس بموجب المادة المائة والإحدى عشر من نظام إدارة الولايات

(٢) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ، ص ١٠٨-١٠٩ .

(١) الدستور، مج ١، المادة ٢٧ من نظام الولايات، ص ٣٨٦ .

(٢) الدستور، مج ١، ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(٣) الدستور، مج ١، المواد ٦٢-٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٧٠، ص ٤١٠-٤١١ .

العمومية ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م للنظر في الأمور البلدية في المدينة أو القصبه التي تكون مركز ولاية أو لواء أو قضاء. ويتألف المجلس من رئيس واحد ومعاون له ومعه ستة أعضاء من ضمنهم مهندس واحد وطبيب^(١) ويكون اثنان من أعضاء المجلس في حلب غير مسلمين أحدهم مسيحي والثاني يهودي وكلهم ينتخبون انتخاباً ولا يتقاضون رواتب من الدولة ما عدا رئيس المجلس يمنح راتباً خاصاً^(٢).

ويتبع لإدارة المجلس باش كاتب ومعاون له وأمين صندوق ومقيد وكاتب تنظيفات وكاتب كشف ومعمار وهيئة صحية مؤلفة من طبيب ومعاون ومفتش صحية وصاحب مضخة إطفاء^(٣).

وأوجبت المادة المائة والثالثة عشر من نظام إدارة الولايات أن يكون أعضاء المجلس من صنوف مختلفة من أصحاب الأملاك والأراضي. وطريقة انتخاب أعضاء المجلس البلدي هي نفسها طريقة انتخاب أعضاء مجلس إدارة الولاية. ومدة الانتخاب سنتان يتم تغيير نصفهم كل سنة، وعند انتهاء مدتهم يحصل الانتخاب باتفاق الآراء وأكثريتها في جمعية الانتخاب المركبة من مجالس اختيارية مركز القصبه والحارات توفيقاً إلى أصول انتخابات الولاية العمومية ثم يصير تعيينهم بعد أن يحصل التفريق والمصادقة على ذلك من طرف الحكومة^(٤).

- الأسباب التي تمنع من الترشيح لعضوية المجلس:

يمنع من الترشيح لعضوية المجلس البلدي من تنطبق عليه أحد هذه الشروط:

- ١- من كان محكوماً عليه بجناية أو جنحة .
 - ٢- من كان موجوداً بالفعل في الخدمة العسكرية أو أمور الضابطة .
 - ٣- من كان موجوداً في القضاء أو النيابة في دائرة الإدارة البلدية .
 - ٤- من كان متعهداً بأي نوع من الإنشاءات التابعة لمجلس البلدية .
 - ٥- من كانت سنه أقل من عشرين سنة .
 - ٦- من كان عضواً في مجلس بلدي آخر في الوقت نفسه^(٥).
- ويُعقد المجلس البلدي مرتين في الأسبوع بحضور رئيس المجلس أو معاونه، أو قد يعقد برئاسة أكبر الأعضاء سناً إذا غاب الرئيس المعاون ومن وظائفه: .
- ١- العمل على نظافة المدينة بأزقتها وشوارعها وإنارتها في الليل وتزيينها .
 - ٢- الإشراف على إنشاءات الأبنية كافة وعلى الأمور المتعلقة بالمياه .
 - ٣- العمل على إزالة الخطر بهدم الأبنية المخربة والتي لم يتم إنشاؤها بشكل جيد .

- ٤- تسهيل المرور والعبور والنقل وتوفير وسائل النقل وتنظيمها .
- ٥- الإشراف على المقاييس والأوزان والأسعار ومنع التلاعب بها .
- ٦- أخذ الجزاء النقدي من المخالفين لتعليمات المجلس البلدي^(٦).

(٤) الدستور، مج ١، المادة ١١١-١١٢، ص ٤١٩.

(٥) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٧٤.

(١) سالنامه، ولاية حلب ١٣١٠ هـ-١٨٩٠ م، ص ١٣٥.

(٢) الدستور، مج ١، المادة ١١٣، ص ٤١٩.

(٣) الدستور، مج ١، المواد ١١٤-١١٥-١١٦، ص ٤١٩.

(١) الدستور، مج ١، المواد ١٢٤-١٢٥، ص ٤٢٠.

- ٧- تعيين حراس في الليل لحماية المدينة .
- ٨- إعطاء رخص لتعمير الأبنية مراعين الطرق العامة .
- ٩- التعهد بإصلاح قناة حلب وبقية مجاري المياه المستعملة في المدينة.(١)
- إيرادات البلدية

- ١- الرسوم والمبالغ التي تخصصها لها الحكومة .
- ٢- الأموال المأخوذة من المستفيدين من تنظيمات البلدية .
- ٣- حاصلات الجزاء النقدي المأذون بأخذه .
- ٤- رسوم قيد عقود الأجور .
- ٥- الإعانات والهبات للإدارة البلدية .
- ٦- حاصلات المحلات التي تبقى خالية بمناسبة توسع الطرق والمعابر وسائر المحلات التي تتعمر وغير ذلك.(٢)
- ٧- المبالغ المتحصلة من بيع الأراضي داخل المدن .
- ٨- الغرامات التي تفرض على المخالفين لتعليمات البلدية وقوانينها .
- ٩- الرسوم والضرائب المفروضة على بيع الدواب وعلى ذبحها وعلى الأسواق التي تباع فيها الثياب المستعملة.(٣)
- ١٠- الرسوم المفروضة على المقاولات المعقودة والإيجار والاستئجار. والمفروضة على أصحاب الأملاك والأبنية الحديثة أو التي يتم تعميرها، ورسم العجلات والدواب المعدة للركوب والنقل.(٤)
- وعلى المجلس البلدي أن ينظم دفتر ميزانية كل شهر يرفعه إلى مجلس إدارة اللواء ثم يرفع إلى مجلس إدارة الولاية ليصادق عليه، ويحتفظ المجلس البلدي بالصورة المصدقة، وفي نهاية كل سنة ينظم جدولاً شاملاً يبين الواردات والمصاريف ويرسله إلى نظارة الداخلية ويرفق بميزانية تقديرية للعام الجديد.(٥)

- مجلس إدارة اللواء:

يتم انتخاب أعضاء مجلس إدارة اللواء بموجب المادة الثالثة والسبعين من نظام الولايات الصادر عام ١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م، والتي تنص على اجتماع جمعية تفريق في مركز اللواء مؤلفة من المتصرف والنائب والقاضي الشرعي والمحاسبة جي والمفتي والرؤساء الروحانيين للطوائف غير المسلمة الموجودين في مركز اللواء مع كاتب تحريرات اللواء يفرزون اثني عشر شخصاً، إما من مركز اللواء أو من الأقضية التابعة له وتطبع هذه الأسماء، وترسل إلى الأقضية التابعة للواء، وينتخب مجلس إدارة كل قضاء ثمانية أشخاص من أصل هذه الأسماء الأثني عشر، ثم يختتمها مجلس إدارة القضاء، وتعاد إلى مركز اللواء حيث تجتمع لجنة التفريق مرة

(٢) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٧٤.

(٣) الدستور، مج ١، المادتان ١٢٥-١٢٦، من نظام إدارة الولايات، ص ٤٢٠-٤٢١.

(٤) الغزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٩.

(٥) كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ١٣٣.

(١) الدستور، مج ١، المادة ١٢٨ من نظام إدارة الولايات، ص ٤٢١.

أخرى، لتفرز أسماء الثمانية الفائزين بالأكثرية، وترفع هذه الأسماء الفائزة إلى الوالي حيث يعين قسماً منهم لعضوية مجلس إدارة اللواء، وقسماً لعضوية مجلس تمييز اللواء، ويكتب لهم الوالي "بيورلدي" (مرسوم أو أمر سلطاني) إشعاراً بانتخابهم.^(١)

ومن اختصاصات مجلس إدارة اللواء:

- ١- التدقيق في إيرادات ونفقات اللواء وفق النظام الخاص بها .
- ٢- التدقيق في محاسبات الصناديق للمنافع العمومية .
- ٣- الإشراف والمحافظة على جميع أموال الحكومة المنقولة وغير المنقولة .
- ٤- إنشاء الطرق الخصوصية بين القضاة .
- ٥- متابعة مهام المتصرف وأعماله في المزايدات والمبايعات والمقاولات والصرفيات العائدة للحكومة .
- ٦- مراجعة التحقيقات الأولية لمجلس إدارة الولاية خارج حدود اختصاصه .
- ٧- دراسة المواد العائدة لتسهيل الزراعة والتجارة والمعارف والمنافع العمومية والتأسيسات النافعة والصحة العمومية .
- ٨- تقسيم التكاليف المفروضة بقرار من مجلس إدارة اللواء على المحلات والقرى وتحصيلها .
- ٩- التدقيق في التقارير القادمة من الأقضية عن الأشغال العامة.^(٢)

- مجلس إدارة القضاء

- انتخاب أعضاء المجلس:

تجتمع جمعية التفريق في مركز القضاء المؤلفة من قائمقام القضاء وحاكمه الشرعي والمفتي ورؤساء الطوائف غير الإسلامية وكتاب القضاء، وتفرز هذه الجمعية عدداً من الأشخاص التابعين للقضاء أو القرى التابعة له، ويكون عدد هؤلاء ثلاثة أمثال العدد المطلوب لإدارة المجلس، وتقوم الجمعية بتوزيع لوائح الأسماء هذه على القرى التابعة للقضاء لتقوم المجالس الاختيارية بانتخاب العدد المطلوب لعضوية إدارة المجلس، ثم تعاد الأوراق لمركز القضاء، حيث تنتظر جمعية التفريق في هذه الأوراق معتبرة كل قرية تمثل رأياً واحداً والأعضاء الذين ينالون أكبر عدد من القرى هم الذين يتم تعيينهم.^(٣)

ومن اختصاصات مجلس إدارة القضاء :

- ١- فحص إيرادات ونفقات القضاء .
- ٢- التدقيق في محاسبات صناديق المنافع العمومية وإدارة أموال الحكومة المنقولة وغير المنقولة .
- ٣- تقسيم التكاليف المفروضة بقرار من مجلس إدارة اللواء على المحلات والقرى .
- ٤- اتخاذ الإجراءات المتعلقة بالصحة العامة .

(٢) الدستور، مج ١، المواد ٧٣-٧٤-٧٥-٧٦، من نظام الولايات، ص ٣٩٤.

(١) الدستور، مج ١، المادة ٩١ من نظام إدارة الولايات العمومية لعام ١٨٧١م، ص ٤١٤-٤١٥.

(٢) الدستور، مج ١، المواد ٦٧-٦٨-٦٩-٧٠-٧١، ص ٣٩٢-٣٩٣.

٥- إنشاء الطرق الخاصة بين القرى .
٦- النظر في المبيعات والمقاولات والصرفيات العائدة للحكومة، التي تقع ضمن صلاحية القائم مقام. (١)

لم يتطرق قانون تشكيل الولايات ١٢٨١هـ - ١٢٦٤م إلى مجلس إدارة النواحي بينما ورد ذكره في نظام إدارة الولايات العمومية ١٢٨٧هـ - ١٨٧٤م في الفصل الخامس ويتضمن ثلاثة عشر مادة (٢)

وقد نصت هذه المواد على أن يحضر إلى مركز الناحية أربعة أعضاء من مجلس اختيارية كل قرية تابعة للناحية أربع مرات في السنة، والوالي هو الذي يقوم بتحديد مواعيد هذه الاجتماعات، على ألا يتجاوز زمن الاجتماع الواحد مدة أسبوع واحد، ومن اختصاصاته:

١- مناقشة المجلس في المشاريع النافعة والطرق عن طريق الإعانات المادية والعينية من الأهالي .

٢- النظر في القضايا المتعلقة بالمراعي والمشافي، والقرارات المتعلقة بزيادة عدد آلات الزراعة وحيواناتها والأمور العائدة لإدارة الأشجار البرية والكسارات والمراعي والمشاتي .

٣- التدقيق في تقارير مجالس اختيارية القرى حول توزيع الأموال وتحقيق التكاليف المطلوب تعديلها .

ولكن الذي يميز مجلس إدارة الناحية أن قراراته ليست موجبة التنفيذ، بل تعرض على قائم مقام القضاء .

كما أنه لا يحق للمجلس النظر في الدعاوي، ولا أخذ الجزاء النقدي ولا التدخل في الأمور الخارجة عن اختصاصاته بموجب القانون .

لا يحق لأعضاء المجلس عقد اجتماع من دون أخذ الإذن من مدير الناحية. (٣)

ق- مجلس اختيارية القرى:

انتخاب المختار وأعضاء مجلس الاختيارية:

من بلغ من ذكور أهل القرية سن الثامنة عشر فما فوق ويدفع ضريبة الويركو السنوية للدولة خمسين قرشاً على الأقل، يجتمعون لينتخبوا من بينهم مختارين اثنين وأعضاء يتراوحون ما بين الثلاثة والاثنين عشر عضواً حسب عدد سكان القرية، ويشترط في هؤلاء المختارون والأعضاء ممن بلغ سن الثلاثين ويدفعون ويركو سنوية للخرينة مائة قرش، وفي حال وجود أكثر من طائفة من القرية فتجتمع كل طائفة على حدة، وتنتخب كل طائفة ممثليها بالطريقة السابقة، وترسل الأسماء المنتخبة إلى قائم مقام القضاء ليتم تعيينهم، ويحق للحكومة وللمجلس الاختيارية عزل المختارين من الخدمة. (٤) ومن اختصاصاته:

(٣) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ١٥٠.؛ الدستور، مج ١، المواد ٩٢-٩٣، ص ٤١٥.

(٤) الدستور، مج ١، من المادة ٩٤ حتى المادة ١٠٦، ص ٤١٥-٤١٧.

(١) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ١٠٣-١٠٤.؛ الدستور، مج ١، ص ٤١٥-٤١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٢.؛ الدستور، مج ١، المواد ٦٣-٦٤-٦٥-٦٦، ص ٣٩٢.

- ١- العمل على الصلح في الدعاوي القائمة بين أهالي وأفراد القرية .
 - ٢- مناقشة احتياجات القرية .
 - ٣- مطالعة الأمور والقضايا المتعلقة بنظافة القرية .
 - ٤- انتخاب الأشخاص الذين يمثلون ضابطة القرية كالناطقين .
 - ٥- النظر في المصالح التي تؤدي إلى تسهيل زراعة القرية وتجاريتها .
 - ٦- الإشراف على التوزيع العادل للأموال الأميرية على القرية وتحصيلها .
 - ٧- قبول التبرعات الموصى بها لوجوه البر في القرية والتأكد من تحقيق الوصية .
 - ٨- المحافظة على أموال الأيتام، وأموال أملاك المتوفين الذين لهم ورثة غائبون .
 - ٩- إخبار مدير الناحية عن طريق المختارين بالأراضي الخالية الصالحة للزراعة .
 - ١٠- الإشراف على تعمير الآثار الخيرية في القرية .
 - ١١- إجراء التحقيقات الأولى بأفعال المدنيين المخالفين للقانون وتسليمهم للحكومة.
 - ١٢- إبلاغ مدير الناحية بسوء سلوك المختارين وتصرفاتهم، ويقوم مدير الناحية بدوره بإخبار قائم مقام القضاء .
- وقد منع مجلس اختيارية القرية من الحكم أو إجراء أي نوع من المعاملات الجزائية ولا يحق للمجلس البت في المنافع المشتركة بين قريتين كالزراعة والتجارة والمراعي والشجر البري وتعمير الطرق الخصوصية والجسور ومجاري المياه^(١) وختاماً، فإن ولاية حلب شهدت نظاماً إدارياً كام من الممكن أن يكون جيداً، غير أن المكلفين بتنفيذ ذاك النظام لم يلتزموا بمضمونه، بل تجاهلوه وبدأوا يمارسون أعمالاً بعضها مخالف للنظام الذي أقره دستور سنة ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م.
- وما يمكننا قوله: إن ولاية حلب قياساً ببقية الولايات الأخرى حظيت بموظفين وإداريين جيدين عملوا على العمل بمضمون النظام، ولا سيما من الناحية العسكرية، كذلك فإن المركز شدد الرقابة على والي حلب ومعاونيه وموظفيه، لأن وجود القناصل الأوروبية وكثرة الجاليات أرغم الموظفين بمختلف رتبهم للعمل على تنفيذ النظام استناداً إلى سجلات الإحصاءات العامة (إيستاتستيق عمومي إداري سي)^(٢).
- وتوضح السجلات الإحصائية عن ولاية حلب في العامين ١٢٩١-١٢٩٢هـ/ ١٨٧٤-١٨٧٥م المعلومات التالية:

عدد السكان في الكيلو متر مربع	عدد السكان	مساحة الأراضي المزروعة	عدد النواحي
٧,٨٥	٩٢١٣٤	١١٧٢٤٨ كم ^٢	٤٥

(١) الدستور، مج ١، المواد ١٠٧-١٠٨-١٠٩-١١٠، ص ٤١٧-٤١٨.

(٢) نظارت أمور تجارت ونافعة، إيستاتستيق عمومي إدارة سي، استانبول ١٣١٦، ص ٣-٢.

- ١٧١ -

عدد الأفضية	عدد السنجاق	عدد سكان مدينة حلب	
٢١	٣	٢١٠٧	ذكور ١٥٩٦ إناث ٥٥١

مساحة الأراضي المزروعة حنطة ١١٠,٠٠٠ دونم محصولها ٧٢,٠٠٠٠٠ كيله^(١).

مساحة الأراضي المزروعة شجير ٤٠٠,٠٠٠ دونم محصولها ٣٠,٠٠٠٠٠ كيله.

عدد المشافي في حلب مشفيان، مصاريفهم ٨٥٤٥٧ قرشاً سنوياً.
عدد الأطباء ثلاثة أطباء وراهبة وتسعة موظفين^(٢).

جدول إحصائي بأحوال السكان في حلب وولايتها ١

٤١٢٣٢٢	عدد الذكور	٨١٩٢٣٨	عدد سكان الولاية
٣٥٧٠٧٠	عدد ذكور المسلمين	٤٠٦٩١٦	عدد الإناث
٤٢٢٨	عدد ذكور الروم	٣٥٥٥١٥	عدد إناث المسلمين
٢٨٣٢٩	عدد ذكور الأرمن	٣٥٨٨	عدد إناث الروم
٨٨٦٨	عدد ذكور الكاثوليك	٢٥١٣٦	عدد إناث الأرمن
٥٤٣٦	عدد ذكور اليهود	٩١٢٢	عدد إناث الكاثوليك
٤٨٣٣	عدد ذكور البرونستانت	٥٣٢٥	عدد إناث اليهود
٣٦٢	عدد ذكور اللاتين	٤٩٤٨	عدد إناث البرونستانت
١٠٢٩	عدد ذكور الموازنة	٣٧٢	عدد إناث اللاتين
٨٨	عدد ذكور الكلدان	١٠٠٧	عدد إناث الموازنة
٢٠٧٩	عدد ذكور السريان	٦٤	عدد إناث الكلدان
١٢٤٤٠	عدد مواليد الذكور سنوياً	١٨٣٩	عدد إناث السريان
٩٣١٤	عدد وفيات الذكور	٦٥٩٢	عدد الإناث
٤,٩٥	نسبة الزواج	٦٢٣٠	عدد وفيات الإناث
عدد المدارس، مدرسة إعدادية واحدة بلغ عدد طلابها ٧٩ طالباً		٠,١١	نسبة الطلاق

(٢) الكيلة تساوي ٣٤ كيلو تقريباً، وهناك الكيلة الاستانبول وتساوي ٣٦ كيلو تقريباً.

(٣) نظارت امور تجارت، مصدر سابق، ص ١٩٢.

عدد حالات الطلاق ٩٨ حالة . عدد حالات الزواج من الفتيات البكر ٣٤٧٠ . عدد حالات الزواج من الثيب ٥٨٩ . عدد المشافي في حلب مشفيان . مصاريفها ٨٥٤٥٧ قرشاً . عدد العاملين في كل مشفى ٣ أطباء وراهبة وموظفين و ٨ خدم . عدد الأسرة ٣٢ سريراً . عدد المحكوم عليهم بجنحة ١٣٠٣ . عدد المحكوم عليهم بجنايات ؟؟؟؟؟			
عدد المدارس الابتدائية عدد طلابها	١٤ مدرسة ١١٤٨	٦٣٣ ١٢٩٨١ ما بين ذكور وإناث	عدد المدارس الرشدية عدد طلابها
مطبوع ٠٤٧	عدد الكتب ٣٨٤٢	مخطوط ٦٢٩٥	وجد في حلب ٢٣ مكتبة

إن قراءة هادئة لحلب وتوابعها خلال مرحلة التنظيمات القضائية، نلمس ومن خلال الوثائق أن التنظيمات التي شهدتها الدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قد أسهمت إسهاماً كبيراً في تحسين أوضاع الولاية، فازدادت وارداتها نتيجة لقُدوم الأجانب إليها بكثرة، هذا التوافد الأوروبي خلق جواً اقتصادياً وثقافياً، لأن الأوروبيين وإن سعوا إلى الحصول على مواردها إلا أن تطلعهم للأخذ بيدي المسيحيين، خلق جواً تنافسياً لا يلمسه إلا قلة من الباحثين، حيث تجسّد في تدافع الأوروبيين بمختلف طوائفهم لتأمين وتحصين المسيحيين من طوائفهم، والقارئ للأحداث قد يقرأ هذا على أنه ظاهرة غير صحية. أما بالنسبة للتاريخ الاقتصادي فإن حدوث مثل ذلك يسهم في زيادة تطور المدينة ولو تحت جناح ما يسمى بالدعم الطائفي، وفي الغالب فإن تفسير الأمور بهذه المنهجية لا يعدّ عملاً جيداً، بل عمل قد يحتمل الأمور أكثر مما تحتل .

ما نهدف إليه من تقديم بعض النماذج الإحصائية يدفعنا للقول: إن هذه المعلومات لم تكن لنحصل عليها، لولا حدوث التنظيمات التي أرغمت الموظفين على قيام كل فرد بواجبه، وأي انحراف في تأدية العمل إلا تأديته يعدّ عملاً كانت الولاية بأمر الحاجة إليه .

لاشكّ هناك فرق ما بين التنظيم والإصلاح، ولهذا فإن الإصلاح الذي يفهمه الباحثون يرمي إلى وجود انحراف في مؤسسة الدولة فينبغي إصلاحها غير أن هذا لم يكن موجوداً في الدولة التي حكمت بموجب أعراف وتقاليد، وأن لهذه الدولة أن تقرر أنظمة مدوّنة تتعدى فرمانات السلاطين وتوجيهاتهم، فالنظام الذي أقرّه الدستور أرغم الجميع للمثول أمامه حذرين من تجاوزه بما فيهم السلطان الذي كان هو القانون والدستور بأن واحد .

ليست كل الولايات مثل ولاية حلب ولاسيما المدينة، فحلب في ظل السيطرة العثمانية لم تكن ثغراً كما كانت في عهد المماليك، بل شكلت عقد ربط وضبط ما بين المركز والولايات القريبة والبعيدة منها، هذه المهمة الضبطية جعلت السلاطين

يتطلعون لضمان الاستقرار فيها، فمنها تنطلق القوات لضبط الولايات الخارجة عن القانون وإليها يتوافد الأوروبيون ولاسيما الإنجليز الذين يتطلعون إلى نقل المؤن إلى قواتهم في الهند عبر نهري دجلة والفرات إلى البصرة ومنها عبر البحر إلى الهند . ومن ناحية أخرى، فلقد شددت الدولة كثيراً على ضبط ولاية حلب، لأسباب كثيرة (تعرضنا إلينا في سياق البحث) هذا الضبط دفع الدولة إلى إقامة جهاز إداري قلما شهدته ولاية عثمانية، ومرد ذلك تمكن الدولة من الاطلاع على أمور الولاية ومحاسبة المسؤولين ولاسيما بعد صدور فرمان شريف همايون ١٨٥٦م^(١).

(١)- لزيادة الاطلاع، انظر عثمانلي قانوني سنة ١٨٥٦، مواد قوانين الولايات ٢٥٧ - ٣٠١.

الفصل الخامس

الإصلاح في ولاية حلب اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا

شهدت الإمبراطورية العثمانية بعامة وبلاد الشام بخاصة في فترة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحولاً مهماً على جميع الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية،^(١) إذ أخذت تنحسر تلك العالمية السياسية والتجارية والثقافية للشرق الإسلامي ليحل محلها وبالتدريج التوسع الغربي وزحفه على مواطن الشرق ومنابع حضارته وثرواته، ولم يعد للشرق الإسلامي ذلك الطموح الذي كان سائداً ومتطعاً إلى وراء الحدود، فمن مرتبة الصدارة على الصعيد السياسي والعسكري ومن دون منازع أصبحت الإمبراطورية العالمية تضطر إلى قبول المهادنات وعقد الاتفاقيات لتحفظ ماء وجهها أمام الغرب، كما تحولت هذه الإمبراطورية من سيدة التجارة العالمية في البر والبحر إلى الانحسار في بحيراتها الداخلية وعجزها عن المقاومة حتى في الداخل، فقد انتقلت في هذه الفترة من مهمة فرض سيطرتها على العالم إلى مهمة الثبات في وجه ما يزحف إليها في عقر دارها من مظاهر غربية في المجالات جميعها، وكانت قضية الامتيازات الأجنبية القطار البطيء الذي استقلته أطماع الغرب للتغلغل وبقوة في شرايين الاقتصاد الشرقي، ومن ثم أخذت تغير في دورته الطبيعية التي تقوم على الإنماء والاكتفاء الذاتي إلى وضع دورة جديدة له تقوم على أساس أنه رافداً للاقتصاد الغربي ينتج الخيرات والثروات لتصب في معامل الغرب وبنوكه، ودعمت كل ما يمكن أن يساعدها في ذلك وحاربت ما يعرقله،

أ- التداعيات الاقتصادية:

كانت الزراعة من أهم القطاعات الاقتصادية التي تأثرت بهذه الأوضاع السابقة الذكر حيث تعدّ الدعامة الأساسية في اقتصاد بلاد الشام لأن نسبة العاملين فيها كانت ما بين (٦٠-٧٠٪) من السكان في حين الذين يمتنعون التجارة والصناعة تتراوح نسبتهم ما بين (١٠-١٥٪)^(٢) وهذا يعني أن الطابع العام لاقتصاد بلاد الشام هو الزراعة، وهي حرفة السكان الأساسية وبالتالي فإن الضرر الذي يقع عليها ينعكس على حياة السكان ومجتمعهم، وقد تعرضت للإهمال والظلم من قبل القائمين باسم الدولة على الإشراف عليها كأصحاب الإقطاعات الذين ينالون رضا الدولة ماداموا يقدمون لها ما يترتب عليهم من التزامات وكذلك ملتزمي الضرائب إن لم يكونوا من الفئة السابقة فكانوا أيضاً ينالون الرضا بالطريقة السابقة بغض النظر عن الممارسات التي يقومون بها من ظلم واستعباد وتعذيب ومصادرات للفلاحين والمالكين الصغار، فضلاً عن فساد المرابين الذين يستغلون الظروف ليقرضوا المحتاجين من الفلاحين قروضاً تصل فوائدها إلى ١٠٠٪، وإذا صدف ونجا الفلاح من سيف هذا وذاك فإن ممارسات الجند أو غارات البدو بانتظاره ويحتاج إلى معجزة كي ينجو من الجميع^(٣)

(١) يوسف نعيسة، ملكية الأرض والعلاقات الزراعية في بلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر،

مجلة دراسات تاريخية، العددان ٣٦، ٣٥، دمشق آذار، حزيران، ١٩٩٠م، ص ١٦١

(٢) بدر الدين السباعي، أضواء على قاموس الصناعات الشامية، دار الجماهير الشعبية، دمشق ١٩٧٧م ص ١٢

(١) غرايبة، مرجع سابق ص ٩٦

أما الصناعة فقد بقيت تنصدر المكان الأرقى بين صناعات العالم حتى أواخر القرن السابع عشر، لأنها عند دخول العثمانيين البلاد العربية كانت تعيش فترة انتعاش، بل لاقت عاملين مهمين ساعدا على ازدهارها، وهما :
- سهولة انتقال البضائع بين البلاد العربية بعد خضوعها لدولة واحدة (الدولة العثمانية).

- تأمين سوق جديد لها في أصقاع الدولة والولايات التابعة لها.
لكن مع مرور الزمن ظهرت عوامل أخرى دفعت بعجلة الصناعة إلى الخلف، وأخذت تتراجع منها:
- نقل الصناع والحرفيين إلى استانبول بالقوة.
- القيود التي كبلت بها الدولة الصناعة ومنعت الحرفيين والصناع من الابتكار والإبداع.

إطلاق أوربا العنان لمبدعيها وصناعها لغزو العالم فنمت التجارة وانطلقت حركة الكشف الجغرافية فتحوّلت طرق التجارة العالمية عن البلاد العربية.^(١)
لقد وصلت الصناعة نتيجة هذه العوامل إلى حال أسوأ من الزراعة، لأن القيود التي فرضت عليها من الخارج كانت أسوأ مما تواجهه في الداخل ولا سيما أنها دخلت في منافسة غير شريفة مع الصناعات الغربية. على الرغم من هذا السوء الذي وصلت إليه الأوضاع فقد استطاعت طبقة من المجتمع العربي أن تشكل تكتلاً محلياً تأقلم مع الواقع المفروض عليه، وشكل نوعاً من الارتباط أو التعاون الاقتصادي والسياسي مع الغرب.^(٢)

والتجارة أيضاً مرت بالظروف السيئة نفسها التي شهدتها كل من قطاعي الزراعة والصناعة، وعلى الرغم من أن حلب مركز تجاري مهم عبر القرون فقد تأثرت تجارتها بالوضع العام للاقتصاد العثماني من ناحية العجز المالي العثماني وتدني الإنتاج في المحاصيل فضلاً عن الحروب وما سببته من نقص في اليد العاملة بسبب التجنيد ومن ثم فقدان المنطقة أهميتها التجارية بسبب تحول طرق التجارة العالمية وانخفاض عدد القوافل التجارية العابرة للصحراء متجهة إلى بغداد وبلاد فارس.^(٣)

وأما عصب الاقتصاد وشريانه الحيوي هما الأمن والمواصلات الذين كانا مفقودين في الدولة العثمانية ، وهذه العوامل مجتمعة تعطي انطباعاً واضحاً عن الوضع المأساوي الذي وصل إليه اقتصاد الإمبراطورية العثمانية بعمامة واقتصاد بلاد الشام بخاصة.

(٢) ليلى الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق، منشورات جامعة دمشق ط٣، ١٩٩٢م، ص ١٧٨-١٧٩

(١) عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث ، منشورات جامعة دمشق، دمشق ١٩٨٥م ص ١١٥

(٢) روجر أوين الشرق الأوسط والاقتصاد العالمي ترجمة سامي الرزاز ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، ط١، ١٩٩٠م ص ٢٣٩

إن قراءة واعية لتداعيات الإصلاح توصلنا بشكل مؤكد أن الزراعة قد وردت كمادة أساسية في المشاريع الإصلاحية والفرمانات السلطانية، لكنها أهملت على الصعيد الميداني.

١- الزراعة:

كلنا يعلم أن الزراعة مصدر الرزق والإنتاج في ولايات الدولة العثمانية ، فمنها تفتت شعوبها وجيوشها ومن فائض هذا الإنتاج تُعْمَرُ خزينة الدولة وتغطي نفقاتها وحروبها،^(١) أما فيما يتعلق بولاية حلب التي تعد مدينة متكاملة اقتصادياً إلى حدٍ ما، فإن الزراعة تشكل مورداً أساسياً مهماً لنسبة كبيرة من سكانها حيث السهول الخصبة تنتشر على جانبي نهري قويق وعينتاب إلى الشرق والجنوب الشرقي من حلب،^(٢) فضلاً عن البساتين والكروم المحيطة بالمدينة التي تميزت بتربتها الخصبة التي تصلح لزراعة المحاصيل الزراعية جميعها،^(٣) إضافة إلى تنوع أراضيها بين سهول وجبال وبحيراتٍ وأنهاراً، وتتميزت بمناخها المعتدل،^(٤) وقد كانت نسبة كبيرة من الأراضي تزرع بعلاً، ما عدا الأراضي الواقعة على ضفاف الأنهار، أي يمكن القول أن العوامل الطبيعية كانت مساعدة للزراعة، ولكن السياسة العثمانية السلبية كانت معطلة لها ، إذ أنها لم تتخذ خطوة لتحسين الإنتاج الزراعي سواء كان ذلك في مجال المشاريع واستصلاح الأراضي، أم في تشديد الرقابة على تعسف الولاة وملتزمي الضرائب ووضع حد لأعمالهم الوحشية مع الفلاحين وتخفيف الضرائب عنهم، حيث كان الفلاح مجبراً على إنتاج محصول يستطيع إخفاؤه عن الجباة والإقطاع ليؤمن لعائلته ما يكفي لسد رمقهم، وكان الظلم كبيراً لدرجة أن اضطر الفلاح إلى هجر أرضه وتركها بوراً كالمناطق الواقعة بين حلب وأطراف الفرات،^(٥)

إن ملكية الأرض في بلاد الشام ومختلف المناطق الزراعية في الإمبراطورية العثمانية كانت مسألة معقدة إلى حد ما، لأنها شهدت تعاقب الحضارات المتتالية عليها وتنوعت أنظمتها الاقتصادية، وبعد أن دخلت البلاد في ظل الإسلام طبقت أحكام الشريعة على الأراضي وملكيتها،^(٦) وعندما سيطر العثمانيون على بلاد الشام

(٣) حكمت قفلجمللي، التاريخ العثماني ، تعريب فاضل لقمان، دار الجيل ، دمشق، ١٩٨٧م، ص ٨٣

(٤) فريد جحا: الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر ، دار الأهالي ، دمشق ط ١، ١٩٨٨م ص ٦١

(١) ريجينكوف ونسكايا، سوريا ولبنان وفلسطين ص ٢٧٧

(٢) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٢

(٣) جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر، ترجمة عمر الاسكندري ، مصر ، دار الطباعة الحديثة ط ٣، ١٩٥٧م ص ٩٤

(٤) كانت ملكية الأراضي تندرج تحت هذه الأصناف:

١- الأراضي المستولى عليها (الخراجية) وقد بقيت بيد أصحابها مقابل الخراج الذي يدفعونه عنها للدولة

٢- الأراضي المفتوحة بالقوة : وتعد غنيمة يوزعها الإمام بعد اقتطاع خمسها لبيت مال المسلمين

٣- الأراضي التي دخل أهلها الإسلام بإرادتهم، فدفعوا عنها العشر

٤- الأراضي التي لا يملكها أحد فتكون ملكاً لبيت مال المسلمين. أبو يوسف يعقوب ، كتاب الخراج ، المطبعة السلفية القاهرة ١٩٧٦م ص ٦٥ ؛ أنور محمود د بور ، نظام استغلال الأراضي الزراعية في الشريعة الإسلامية ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٧م ص ١٥٠-١٥١

خول السلطان العثماني نفسه بالملكية المطلقة على رعايا دولته التي أقامها بحد السيف، بوصفه خليفة المسلمين ، فاستولت الدولة على الأراضي الزراعية المنتجة واتخذت أحقية الانتفاع بإنتاجها، وقام السلطان بتوزيع المساحات الواسعة من أراضي الميري في بلاد الشام على شكل إقطاعات عسكرية على جنوده وأعوانه، مقابل ضريبة سنوية يدفعها الممنوح إلى خزانة الدولة،^(١) وإمداد الدولة بالجند عندما تكون في حالة حرب،^(٢) ولا يسقط حقه في الأرض إلا إذا تمرد على الدولة أو تخلف عن تأدية واجبه،^(٣) ولكن ذلك لا يعني تملكه الأرض أو الإقطاع الممنوح له وإنما يفوض بجباية الضرائب المفروضة عليها^(٤).

وكانت الأراضي مقسمة إلى أقسام رئيسية هي:

- الأراضي الأميرية (الميري)^(٥) أراضي الدولة وهي مالكة لها كلياً، وقد أعطي السلطان بموجب الشريعة تفويضاً يمنحه حق التصرف بها وتوزيعها.

- أراضي المؤسسة الدينية: كانت تسمى في العراق وسوريا ولبنان باسم (وقف) وفي مصر بـ (رزق) وفي شمال أفريقيا بـ (الجبوس).

- الأراضي الخاصة^(٦): وهي قليلة في الإمبراطورية.

- الأراضي المشاعية: وقد حولها العثمانيون إلى أراضي أميرية^(٧).

وبقي هذا النظام سائداً حتى أوائل القرن التاسع عشر حيث عمت الفوضى ولم يعد أحدٌ يؤدي ما يترتب عليه فاستبد الإقطاعيون بالأراضي وحولوها إلى ملكيات شخصية متوارثة، وانقطعوا عن تسديد الأموال المفروضة ، فقام السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧م بوقف الإقطاعات المنحلة التي توفي أصحابها أو انتهت مدة إقطاعها، وأدخل إيراداتها في الأوقاف العامة لتأمين نفقات الإصلاح والجيش الجديد،

(١) ناصر الدين سعيدوني : "نظرة في أراضي الميري في بلاد الشام أثناء العهد العثماني" ، بحث قدم إلى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام ، جامعة دمشق ١٩٧٨م، ج١، ص ٣٥٩ أنظر ؛ أبولياك، الإقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم، منشورات دار المكشوف ، بيروت ١٩٤٨م ص ١٣٥ ؛ حنا، مرجع سابق، ج ٣ ص ١٤

(٢) كان على صاحب كل مقاطعة أو قرية أن يقدم فارساً (خيلاً) عن كل خمسة آلاف أقة من حاصل المقاطعة وقد قام هؤلاء بدور بارز في حروب الدولة العثمانية، وعلى هذا الأساس قسمت المقاطعات إلى الأنواع الثلاث الآتية: أ: التيمار (المقاطعة الصغيرة) ويقبل واردها عن عشرين ألف أقة

ب- الزعامت (المقاطعة المتوسطة) واردها يتراوح ما بين العشرين ألف والمائة ألف أقة

ج- الخاص (المقاطعة الكبيرة) يزيد واردها عن المائة ألف أقة. الحصري مرجع سابق ص ٢٣-٢٤

(٣) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م ، مكتبة أطلس دمشق ط ٢، ١٩٩٣م ص ٤٧-٤٨ ؛ جب ووبوين مرجع سابق ص ١ ج ٦٧

(٤) الحصري، مرجع سابق ص ٢٣

(٥) يذكرها الدكتور علي الحسني باسم (ديموز) الأراضي العامة وهي ملك الدولة وتوزع بطريقة التيمار والزعامت وصاحب التيمار أو الزعامت يوزعها على الفلاحين، تاريخ سوريا الاقتصادي ص ١٤٩-١٥٠ ؛

Lewis, Bernard, Studies in The Ottoman Archives (B.S.O.A.S.1954) vol.XVI Part.

3P.p 469-501

(٦) يذكره الحسني ؛ بالأراضي العائدة للأشخاص وليس عليها إلا دفع الأعشار والرسوم المصدر السابق ص

Lewis: Studies in The Ottoman Archives p490 ١٥٠

(٧) فتال، مرجع سابق، ص ٨٣

وتابع السلطان محمود الثاني ١٨٠٧-١٨٣٩م السياسة نفسها خصوصاً مع الإقطاعيين الذين كانوا يتآمرون مع الولاة،^(١) كما أنشأ مديرية خاصة لتنظيم أمور الأوقاف بعد ما أصابها من فساد والتفاف على القانون بتحويلها إلى أملاك شخصية كي لا تقوم الدولة بمصادرتها.^(٢)

هذا على صعيد الإمبراطورية العثمانية بعامه، أما على صعيد بلاد الشام فكانت الضربة القاضية تجاه النظام الإقطاعي في عهد محمد علي باشا، في فترة الحكم المصري لسورية، فأقدم ما بين (١٨٣٣-١٨٣٥)م على حل الجيوش العسكرية الإقطاعية في سوريا، وجرّد السكان من السلاح بالقوة وقد أنهى بذلك النظام الإقطاعي للأرض،^(٣) بالإضافة إلى توفير الأمن للممتلكات وإقامة نظام ضرائبي أقل استبداداً من سابقه، كما شجّع البدو على التوطين بمنحهم الأراضي والإعفاء من الضرائب لسنوات، واتسعت حدود المعمورة نحو الشرق، واهتم بإعمار القرى، ففي حلب فقط تم إعمار ١٧٠ قرية.^(٤) على الرغم من أنه أبقى على سلطة الحكام المحليين فإنه قيدهم بعدم تجاوز الضرائب المقررة فخفف الأتوات والالتزامات عن الفلاحين،^(٥) كما شجعت الحكومة المصرية على استصلاح الأراضي القابلة للزراعة أو غير المزروعة ومنح بعضها للضباط المصريين لاستثمارها، فقد استصلح ما يقارب ١٣٨٢ فدان في ١٠٢ قرية في حلب منها ٢٢ قرية بين الفرات والساجور و ٣٩ قرية شرق حلب وجبول والباب و ٢٤ قرية جنوب شرق وجنوب غرب حلب و ١٧ قرية في سهل العمق،^(٦) كذلك قدمت للفلاح ما يلزمه من أدوات الفلاحة كالبنار والمحاريث والدواب وأمدته إما بالقروض أو بالمنح المالية، واهتموا بالري واستجرار المياه إلى الأراضي الزراعية وتجهيف المستنقعات، وساعدوا على محاربة الآفات الزراعية، ومن أجل تشجيع الزراعة كان إبراهيم باشا يجتمع بالفلاحين ويشاركهم بالأعمال الزراعية، كما أنه منح من يحيي أرضاً بوراً ملكيتها، ورفع عنه ظلم الموظفين.

وهكذا كانت فترة الحكم المصري رغم قصرها جسراً عبوراً بلاد الشام من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وكانت في الوقت نفسه البوابة التي أطلت منها الحضارة الغربية على البلاد ليبدأ بتغيير الجو العام الفكري والثقافي والاقتصادي الذي نقله من إطاره الطبيعي إلى الرأسمالي (سلعة=نقود=سلعة)^(٧)

(١) رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا مج ١ ص ٣٦-٣٧

(٢) رافق، العرب والعثمانيون، مرجع سابق، ص ٣٧٩

(٣) بولياك، مصدر سابق، ص ٢٠١

(٤) Lewis, Norman N :The frontier of settment in Syria 1800-1950, International Affairs ,London, Vol13, no, 1955 P79

(٥) حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين ، ص ١٢٤

(٦) Lewis Norman : nomads and satters in Syria and jordan 1800-1890. Cambridge University press, 1987.p39-40

(٧) حنا، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٢٩-١٣٠

ولكن لم يكن كل ما قام به المصريون من أعمال قد نال رضا الأهالي فالتجار وجدوا أن الإجراءات المصرية كانت لصالح التجار الأوروبيين في مجال الإعفاء الجمركي ولم يحصلوا على مثلها إلا في العام ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م ثم تراكمت أسباب النقمة من ضرائب جديدة إلى المصادرة للمؤن والحيوانات إلى نزع سلاح السكان إلى فرض التجنيد الإجباري^(١) الذي كان له تأثير كبير في الاقتصاد الزراعي حيث دفع كثيراً من الفلاحين إلى الهرب من أرضه أو تشويه أحد أعضاء جسمه للتخلص من الخدمة العسكرية^(٢)

بعد خروج المصريين من بلاد الشام عاد الحكم العثماني إليها وأراد وراثة النظم القوية التي أسسها المصريون ولا سيما إلغاء نظام الإقطاع العسكري، فقد نص خط كلخانه على ذلك حيث عدّه السبب في إلحاق الضرر بالزراعة إذ جاء فيه "إن أصول الالتزامات هي من آلات الخراب ولم يُجَنَّ منها ثَمَرٌ نافِعٌ في وقت من الأوقات"^(٣) والبديل هو أن الدولة ستأخذ نسبة معينة من الأهالي في كل بلد بحيث لا تؤثر في الزراعة، كما منعوا مصادرة الأموال.^(٤)

ولكي تطبق الإمبراطورية ما أذاعته عينت موظفين ليحلوا محل الملتزمين والإقطاعيين في جباية الضرائب المترتبة على الفلاحين وهؤلاء وفق التسلسل الإداري يتبعون مدراء المال يليه دفتر دار الولاية، وكلهم تابعون لنظارة المالية ولكن الأهلية والكفاءة إضافة إلى الأمانة كانت تنقص هؤلاء الموظفين وبالتالي انعكس الأمر سلباً على هذا النهج الجديد الذي لم تستطع الدولة الاستمرار فيه فعادت إلى نظام الالتزام بعد أن قللت من أضراره.^(٥)

- أقسام الأراضي حسب قانون ١٢٧٥هـ - ١٨٥٨م:

في العام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م أصدرت الدولة العثمانية قانون الأراضي في مئة وثلاث وعشرين مادة وخاتمة^(٦) وبموجب هذا القانون قسمت الأراضي إلى خمسة أقسام:

نظام الملكية: وقد قسمت إلى أربعة أنواع وهي:

- الأرض التي لا تزيد مساحتها عن النصف دونم (٥٠٠) متر وهي مخصصة للسكن.

- الأرض التي تحولت عن طريق الفرز أو التملك الصحيح إلى مملوكة.

- الأرض التي تمت السيطرة عليها بعد دخول العثمانيين ويدفع عنها مالها ضريبة العشر.

(٢) الغزي، مصدر سابق، ج٣، ص ٣٦٢

(٣) رافق، بلاد الشام ومصر، ص ٤٠٧

(٤) الدستور، مصدر سابق، مج ١، ص ٣

(٥) عبد العزيز عوض، "نظام ملكية الأرض في بلاد الشام وأثاره الاقتصادية والاجتماعية ١٨٣٩-١٩١٤م" مجلة دراسات تاريخية، السنة الحادية عشر ١٩٩٠م، العددان ٣٥-٣٦ ص ٥٢ ؛

Englhard:La Turquie et Le Tanzemat,Voi.1. P113

(١) عوض، نظام ملكية الأرض في بلاد الشام، ص ١٥

(٢) نص قانون الأراضي كاملاً في الدستور مج ١ ص ١٤-٤٣

- الأرض التي قررت الدولة إبقائها بيد أصحابها من غير المسلمين ويدفعون عنها الخراج^(١) لخزينة الدولة.^(٢)

وهذا النوع من الأرض تجري عليها أحكام الشريعة كالوقف والرهن والهبة والإرث في حال وفاة صاحبها، ولكن إذا توفي من دون وريث فإن ملكيتها تعود للدولة على مبدأ الأرض المحلولة أو المنحلة.^(٣) وهناك الكثير من وثائق سجلات المحكمة الشرعية في حلب التي تشير إلى هذه الأراضي مثل (مزرعة السيد) في ظاهر المدينة التي يملكها السيد حسين الدواليبي^(٤) ووثيقة أخرى تثبت ملكية يوسف الزنديق لأرض موجودة في مزرعة تربة لالا^(٥)^(٦)

- الأراضي الأميرية: تعود ملكية هذه الأرض للدولة ولها حق التصرف فيها كيفما تشاء، وتعطيها لمن تشاء بموجب سند الطابو الذي تشترط فيه الدولة على من منحه هذه الأرض بإيجار سنوي وهي لا تنتقل بالإرث أو الوصية، وإذا انقطع عن زراعتها مدة ثلاث سنوات متتالية لا يحق له استعادتها إلا بعد دفع البديل أو قد تصبح أرضاً منحلة،^(٧) كما لا يحق له غرسها بالأشجار المثمرة وإنما يزرعها حبوب فقط.^(٨) واستندت الدولة في وضع يدها على الأراضي الأميرية إلى ما يلي:

- احتفظت الدولة بقسم كبير من الأراضي عند دخول البلاد العربية.
- تضع الدولة يدها على الأرض في حال لم يكن هناك إثبات على ملكيتها من قبل أحد الرعايا.

- وفاة أصحاب الأراضي الخراجية أو العشرية من دون وريث له

- عدم معرفة المتصرف بالأراضي منذ وقت سابق.^(٩)

ومع تطور العلاقات الإنتاجية في الزراعة وانعكاسها على حيازة الأرض أصبح هناك تقارب كبير بين الأرض المملوكة والأميرية حيث أصبح من حق

(٣) ضريبة الخراج نوعا إما مقاسمة أو مقاطعة، فالمقاسمة ضريبة نسبية تؤخذ من المحصول بنسبة تتراوح بين الخمس والنصف، وأما المقاطعة : فهو مقدار من المال يؤخذ عن الأرض سواء زرعت أم لم تزرع. شاكر ناصر حيدر ، أحكام الأراضي والأموال غير المنقولة، مطبعة الاعتماد، بغداد ١٩٤٧م ص ٤-

٥ ؛ عوض ، نظام ملكية الأرض في بلاد الشام ص ٥٣

(٤) يوسف قزما خوري ، مختارات من القوانين العثمانية دار الحمراء بيروت ط ١، ١٩٩٠م ص ٧ ؛ عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، ص ٢٣٠-٢٣١

(٥) سعيد حمادة ، النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان ، المطبعة الأمريكية بيروت ١٩٣٦م ص ٥١

(١) وثائق المحكمة الشرعية في حلب رقم السجل ٣١٣، رقم الوثيقة ٢٠٠، ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م ص ١٢٦

(٢) وثائق المحكمة الشرعية في حلب رقم السجل ٣١٦، رقم الوثيقة ٥٧، ٧ شوال ١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م ص ٤٢
(٣) تربة لالا: يذكر قلعة جي أنها مزرعة تقع قرب كرم الجبل وأن الكلمة تركية وتعني مربية. عبد الفتاح حلب

القديمة والحديثة ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٩م ص ١٣١-١٣٢

(٤) كرد علي، خطط الشام، ج ٤ ص ١٩٣

(٥) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، ص ٢٣١

(٦) عوض، نظام ملكية الأرض في بلاد الشام، ص ٥٣

مالكها بيعها وتأجيرها بشرطين أن يدفع ما يترتب عليه سنوياً وأن يستصلحها لجعلها صالحة للزراعة، ولا يحق له وقفها إلا بموافقة الحكومة^(١).
- الأراضي الموقوفة: هي الأملاك التي لم يعد ريعها يذهب لمنافع شخصية^(٢)

وإما أن يكون هذا الوقف صحيحاً أو غير صحيح، فالوقف الصحيح هو من كان صاحبه يملك مطلق الحرية بالتصرف فيه فيوقفه وفقاً للشرع وليس عليه معاملات قانونية. أما الوقف غير الصحيح فهو ما يوقفه السلاطين من الأراضي الأميرية لجهة خيرية مع بقاء تبعيتها لبيت المال^(٣). ففي الوثيقة رقم ٣٢ من سجل الأوامر السلطانية لحلب كتاب من القاضي إلى متولي التكايا والزوايا في حلب لتأمين أجور خدمات الخطابة والإمامة والتدريس والأذان من حاصلات وقف الأراضي التابعة لهذه التكايا والزوايا^(٤). ويذكر أن نصف عقارات حلب وأراضيها موقوفة^(٥) حتى سميت (حلب الوقف)^(٦) والوقف نوعان:

الوقف الخيري: إما ديني بحت كالمساجد والمعابد أو ديني دنيوي كالمدارس ودور الصناعات والفنادق والمستشفيات والمقابر وغيرها^(٧). والوقوف الخيرية في حلب كثيرة جداً^(٨)

الوقف الأهلي (الذري): وهو نوعان أيضاً، طائفي حيث يوقف الأملاك على طائفة مخصوصة، وذري وهو ما يوقفه على ذريته وحسب^(٩) وأهل الذمة كان لهم أوقاف^(١٠) يعود ريعها لأبناء طائفتهم ويتولاها موظفون من أبناء جلدتهم^(١١)

(٧) عبد الله سعيد، تطور الملكية العقارية في جبل لبنان، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت ط١٩٨٦، ص ١٤

(٨) سعيد، تطور الملكية العقارية، ص ٧٩

(١) الدستور، مج ١، مصدر سابق، ص ١٥

(٢) سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم السجل ٥٦ وثيقة ٣٢ حررت ١٢٦٦هـ ص ١٧

(٣) فقد أوقف الحلبيون دورهم، راجع سجلات المحاكم الشرعية في حلب: سجل رقم ٢٨١، وثيقة ٥٢١، ١٢٧٥ هـ، ص ٣٤٦ ومحلاتهم: سجل رقم ٢٧٨، وثيقة ٢١، ١٢٧٣ هـ، ص ١٢ وبساتينهم: سجل رقم ٢٨٦، وثيقة ١٥٢، ١٢٧٨ هـ، ص ١٠٩

(٤) الغزي مصدر سابق ج ٢ ص ٤١٢

(٥) كرد علي، خطط الشام، ج ٥ ص ١١٧

(٦) راجع سجلات المحاكم الشرعية في حلب: سجل رقم ٢٧٥، وثيقة رقم ٧٨٣ في ٢٢ جمادى الثاني ١٢٧٣ هـ، ص ٤٠٢ + سجل رقم ٢٦٤، وثيقة رقم ٤١، ١٢٦١ هـ، رمضان ١٢٦١ هـ ص ٣٤ وسجل رقم ١/٢٧٨، وثيقة رقم ١٩، ١٢٠ شوال ١٢٧٥ هـ، ص ٥٦

(٧) كرد علي، خطط الشام، ج ٥ ص ١١٧

(٨) للإطلاع على بعض نماذج الأوقاف الأهلية راجع سجلات المحاكم الشرعية في حلب سجل رقم ٢٦٨ وثيقة رقم ٣٠٥، ١٢٧٠ هـ، ص ١٣١ وسجل رقم ٢٧٠، وثيقة رقم ٩٢٥، ١٢٧١ هـ، ص ٤٧٥ - سجل رقم ٢٦٣، وثيقة رقم ٣٤، ١٢٦٨ هـ، ص ١٦

(٩) راجع سجلات المحاكم الشرعية في حلب: سجل رقم ٢٧٢ وثيقة ١٤٨، ١٢٧١ هـ، ص ٨١ سجل رقم ٢٧٨، وثيقة ٣٧، ١٢٧٣ هـ، ص ١٧

- الأراضي المتروكة: وهي أراضي النفع العام كمرعى ومحتطب، ولا يحق للفرد التصرف بها أو تملكها لأنها في متناول الجميع للانتفاع من رزقها النابت ومائها الجاري،^(٢) وهي نوعان الأول لا يجوز تملكه كالطريق العام والثاني لجميع أهالي القرية الساحات والأحراج والمراعي والأوقاف العامة والموسمية والمساجد والبيادر^(٣) وقد نص القانون على كيفية الاستفادة منها والانتفاع بها. وسميت في بلاد الشام (بالمشاع)^(٤)

- الأراضي الموات: تكون الأرض من هذا النوع إذا اتسمت بصفة مما يأتي:

- أن تكون خالية.
 - لا يملكها أحد أو يتصرف بها.
 - أن تكون مشاعة أو متروكة.
 - أن تكون بعيدة عن القرى والقصبات مسافة ميل ونصف أو مسير نصف ساعة أو إلى درجة لا تسمع منها صوت الشخص الجهير.^(٥)
- وهي دائماً مشاع للجميع ومن يحيي أرضاً ميتة بإذن سلطاني تصبح ملكاً له ويكون إحيائها بحراثة أو غرسها بالأشجار أو فتح الأقينية فيها أو حمايتها بسور...^(٦)

لقد كانت غاية قانون الأراضي ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م إضفاء الصفة الشرعية على الملكية الفردية للأرض بعد أن كانت القاعدة العامة هي ملكية الدولة لها، فقد ألغى النظام الإقطاعيات العسكرية، وتبعية الفلاح لأصحاب التيمار السباهية الفرسان، وساعد على تطوير الملكية الخاصة للأرض وجعلها سلعة متداولة خاضعة لقانون العرض والطلب،^(٧) و ملكية الأرض كانت غير رسمية حيث الحدود غير دقيقة وأوراق الملكية فيها شهادة شهود بانتقالها من مالك إلى آخر وسواء ضاعت الأوراق أم بقيت، المهم هو وضع اليد عليها واستغلالها وفي حال نشب خلاف فإن شهادة الشهود الشفوية دليل على الملكية.

ولكي تتخلص الدولة من المشاكل الناجمة عن هذه الفوضى، زادت على ضريبة الأعشار مبلغاً صغيراً من المال وشكلت لجاناً لتسجيل الأراضي في

(١٠) يوسف نعيسة مجتمع مدينة دمشق ١١٨٦-١٢٥٦هـ/١٧٧٢-١٨٤٠م، دار طلاس، دمشق ط٢، ج٢ ص ٤٥٦-٤٥٧

(١) دعبس المر، أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية، مطبعة بيت المقدس، القدس ١٩٢٣م مصدر سابق ص ٣٩

(٢) الدستور، مج ١، ص ١٦؛ خوري، مختارات من القوانين العثمانية، ص ٨

(٣) عوض، نظام ملكية الأرض في بلاد الشام، ص ٥٤

(٤) الدستور، مج ١، ص ١٦؛ المر، المصدر السابق، ص ٣٩

(٥) المصدر سابق، ص ٣٧-٣٨؛ عوض، نظام ملكية الأرض، ص ٥٤

(٦) لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٦٠؛ زهير غنايم، لواء عكا في عهد التنظيمات، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٩م ص ٣٢٦-٣٢٧؛ حنا، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٣٧؛ سعيد، تطور الملكية العقارية، مرجع سابق ص ١٤٥

الإيالات التابعة للإمبراطورية وأخذت بسن القوانين^(١) فأصدرت في سنة ١٢٧٦هـ - ١٨٥٩م لائحة تعليمات تتعلق بسندات الطابو وتعريفها وثلاثين مادة، وأصدرت الدولة في العام ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م قانون الطابو وتضمن ثلاثة وثلاثين مادة وزيلاً لها^(٢) وقد أعطي الدفتردارية صلاحية إجراء المزايدات العلنية لتمليك الأراضي الأميرية، وإعفاء من يستصلح أرضاً بوراً أو ميتة من الرسوم والضرائب وتسجل لهم مقابل ثلاث قروش^(٣)، وكان شرط تملك الأرض أن يثبت المزارع أنه يستثمرها من مدة لا تقل عن العشر سنوات وأنه يدفع الضرائب المترتبة عليها إضافة إلى دفع رسوم تسجيل الأرض^(٤).

ومن الطبيعي أن نسبة كبيرة من الفلاحين لا يستطيعون تحقيق هذه الشروط. هذا فضلاً عن السبب الأهم والأخطر وهو جهلهم بفوائد هذا القانون بل وخوفهم منه معتقدين أن سندات التملك هذه ورسوم التسجيل غايتها فرض ضرائب جديدة عليهم وسوقهم إلى التجنيد الإلزامي فقاموا بتسجيلها بأسماء المتوفين من أفراد العائلة، أو بأسماء أعيان المنطقة^(٥) في حين تهافت أصحاب النفوذ السياسي والديني والعسكري على امتلاك هذه الأراضي لأن كل السبل ميسرة لهم فهم يملكون الثروة والنفوذ في الدوائر العقارية وقادرين على رشوة الحكام^(٦) وبالتالي جاء هذا القانون على أرض الواقع مخالفاً للأهداف المرجوة منه حيث أفرز المجتمع الريفي إلى طبقتين طبقة المالكين للأرض وطبقة المربعين^(٧) وحتى الأجانب في الدولة العثمانية أصبح من حقهم تملك الأراضي في الدولة من خلال تحقيقه الشروط الآتية: أن يتقدم بطلب أصولي إلى الجهات المختصة فتقوم الدولة بالتحقيق عن صاحب الطلب بشكل دقيق من قبل مجلس الولاية ثم يرفع الطلب مرفقاً مع الدراسة الوافية عن الشخص صاحب الطلب إلى الإرادة السنية حيث تبت في الموضوع^(٨).

كما أنه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر استتب الأمن في حلب وأوقفت غارات البدو فأتى المجال إلى التقدم واستصلاح مسطحات واسعة في شمال سوريا وشمال العراق لتنمية الزراعة، فأمكن زيادة المحصول الزراعي من الأراضي القديمة والمستحدثة، وتم توطيد العلاقات بين أسواق المدن والأرياف^(٩). ولم تكن كل القرارات العثمانية بشأن الزراعة تأتي برد فعل سلبي عليها، بل بعضها كان ذو تأثير إيجابي، كالقرارات التي صدرت لتشجيع بعض المحاصيل

(١) الحسني، مصدر سابق، ص ٢٣٣

(٢) الدستور، مج ١، مصدر سابق، ٥١-٦٢

(٣) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، ص ٢٣٤

(٤) غنائم، لواء عكا، مرجع سابق ص ٣٢٦

(٥) فيليب خوري أعيان المدن والقومية العربية ترجمة الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٩٣م ص ٥١

(٦) بولياك، مصدر سابق، ص ٢١١

(٧) سعيد، تطور الملكية العقارية، ص ١٤٥

(٨) سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب، رقم السجل ٥٦، وثيقة ٣٨، حررت عام ١٢٦٦هـ، ص ٢١

(٩) غاويه وفيرت، مرجع سابق، ج ٢ ص ٦٧٠

الزراعية، مثل تشجيع زراعة القطن في ولايات الدولة في ١٢٧٨هـ/١٨٦١م وإقامة المعارض السنوية وصرف مكافأة للمزارعين المجدين كما أعفت الدولة آلات القطن من الرسوم الجمركية المترتبة عليها. وصدر في العام ١٢٧٨هـ/١٨٦٢م إعفاء أشجار الزيتون من ضريبة العشر منها لمدة ثلاث سنوات ومنها لمدة عشر سنوات^(١) وفي العام ١٢٨٩هـ/١٨٧٠م أصدرت الدولة قرار إعفاء غراس التوت من ضريبة العشر أيضاً لثلاث سنوات بشرط الزراعة الصحيحة للغراس، وأن يربي دودة الحرير أو يبيع ورق التوت لمن يربّيها.^(٢)

٢- الصناعة:

لم تكن فترة العصور الوسطى تتميز بالصبغة السياسية والعلمية الإسلامية فحسب وإنما كانت تتميز أيضاً بالصبغة الاقتصادية حيث كان المجال مفتوحاً أمام الإبداع والاختراع والابتكار وفي جميع المجالات، وكان هناك حوافز أيضاً لتنشيط هذه الإبداعات من خلال تشجيع السلاطين والأمراء، فبدأ ذلك المظهر الاقتصادي الإسلامي أكثر رقياً وتطوراً مما هو عليه في أوروبا، ومع دخول العثمانيين البلاد العربية شهد هذا المظهر الاقتصادي انتعاشه الأخير من خلال انفتاح أسواق الإمبراطورية على بعضها في ظل حكم سياسي واحد.^(٣)

ولكن هذا الانتعاش لم يدم طويلاً، لأن منظور الدولة العثمانية لتسهيل سبل التطور الاقتصادي في البلاد بعكس ما هو متعارف عليه في البلدان الأخرى، حيث كانت كل الدول تسعى إلى حماية صناعاتها الوطنية من خلال حماية سوقها المحلية من المنافسات الأجنبية وإيجاد أسواق خارجية لها لتأمين مواردها الأولية من جهة ولتصريف فائض منتجاتها من جهة أخرى، في حين الدولة العثمانية فتحت أسواقها على مصراعيها للبضائع الأجنبية وسهلت لها كل سبل التسويق وخفضت الرسوم المفروضة عليها، فضلاً عن حرمان إنتاج صناعاتها المحلية من التصدير للخارج،^(٤) كما قامت بأخذ أمهر الصناعات إلى عاصمتها استانبول، ووضعت قيوداً كثيرة على المهن والحرف من خلال تنظيمها في أطر وأصناف مكبلة بالعادات والتقاليد والمراقبة من قبل القاضي والمحاسب وبالتالي قضت على الطموح الذاتي والاندفاع الخاص فلم يكن ههما إلا جمع الضرائب والإتاوات المفروضة.^(٥) كانت ولاية حلب من ضمن ولايات الدولة العثمانية التي انعكست عليها تلك السياسة السلبية للدولة العثمانية، فضلاً عن الكوارث الطبيعية^(٦) التي أجبرت الكثير من

(٣) الدستور ، مج ٢ ص ٣٨٤+٣٨٧

(٤) الدستور، مج ٢، ص ٣٩٣-٣٩٤

(٥) الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص ١٧٨-١٧٩

(١) عيساوي، مرجع سابق، ص ٣٣

(٢) الصباغ، المرجع السابق، ص ١٧٩-١٨٠؛ حمادة، النظام الاقتصادي في سوريا، ص ١٢٧، رافق،

بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، ص ٢٥٤

(٣) من الكوارث الطبيعية الزلزال الذي أصاب حلب سنة ١٨٢٢م وأدى إلى موت وتشريد الآلاف من سكانها.

سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم السجل ٤٣ وثيقة ٦٢ في ١٦ ذي الحجة ١٢٤١هـ ص ٥٩-٦٠

المهنيين والحرفيين على مغادرة حلب إلى الشام، فافتقرت حلب إلى خبرة هؤلاء في صناعاتها الحرفية^(١) واضطراب حبل الأمن،^(٢) وبدائية الصناعة المحلية واعتمادها على الوسائل البسيطة والإنتاج المحلي و رأس المال الموظف في مجال الصناعة كان ضئيلاً. كما أن الوراثة في الحرفة أو الصنعة كان من أهم العوامل التي أخرت الكثير من الصناعات المحلية، و أدت إلى انقراض بعضها، لأنها تنتقل بالوراثة في أفراد العائلة حصراً، ولا يجوز لأي كان أن يفتح محلاً صناعياً إلا إذا دفع مالاً لخزينة الدولة^(٣)، و بعد الحصول على الموافقة يبقى مقيداً بالحدود المتعارف عليها^(٤) من دون تجديد أو تطوير في الإنتاج،^(٥) وقد شجعت الدولة العثمانية نظام الطوائف الحرفية لأن ذلك يسهل عليها التعامل مع نسبة لا بأس بها من المجتمع من خلال الشيخ الذي يصله الأمر فيبلغه لجميع أفراد الطائفة، وعن طريقه أيضاً تستعين الدولة ببعض خدمات الحرف في أوقات السلم والحرب، كذلك فإن شيخ الطائفة يحل مشاكل طائفته من دون إيصالها للدولة.^(٦)

كانت الصناعات التقليدية سائدة في حلب وكانت ضمن تنظيماتها الحرفية بعيدة عن التأثير بظهور الآلات الكبيرة التي قام عليها الإنتاج الرأسمالي الغربي الضخم وأخذت المسافة تزداد باطّراد ما بين تقدم غربي متسارع^(٧) وتأخر شرقي

كذلك الأوبئة الكوليرا في عام ١٨٢٣م والطاعون الذي عصف بحلب لمرات عديدة في الأعوام (١٨٠٢-١٨٠٧-١٨١٣-١٨١٤-١٨٢٧)م الطباخ مصدر سابق ج ٣ ص ٣٠٦

(٤) عيساوي، المرجع السابق، ص ٥٤٥

(٥) في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر حدثت فتنة كبيرة بين انكشارية حلب وأشرافها اثرت وبشكل سلبي على الحياة الاقتصادية في البلاد ولا سيما الصناعة كانت ذروتها في ١٢١٢هـ-١٧٩٨م

Bodman . Herbert . L . Jr .Political Factions In Aleppo,1760-1826.The University of North Carolina Press,1963.p.p118-125

وهناك الثورات التي قامت ضد الولاة والتي أدت إلى تعطيل الحركة الاقتصادية ؛ كالثورة التي قامت ضد

الوالي خورشيد باشا في ١٢٣٤هـ-١٨١٩م الطباخ مصدر سابق ج ٣ ص ٣٠٣

(١) كان التنظيم الحرفي يقوم على الشكل التالي: ١- شيخ المشايخ ٢- النقيب ٣- شيخ الحرفة ٤- الشاويش ٥- المعلم ٦- الصانع ٧- الأجير أو المبتدئ. محمد أديب تقي الدين الحصني منتخبات التواريخ لدمشق المطبعة الحديثة، دمشق ١٩٨٣م، ج ٣، ص ١١٣٠-١١٣١

(٢) في الوثيقة رقم ١١٥ من سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم ٢٤ كتاب رفع من القاضي إلى الوالي يتضمن تعهداً من سبعة أفراد يعملون في حرفة طباعة الأقمشة ألا يخالفوا أوامر هذه الحرفة ، وتضمنت الوثيقة ؛ أنه في حال وفاة أحدهم تنتقل مهمة عمله إلى ابنه الأكبر وإن لم يكن له ولد فتنقل إلى أحد الممارسين فيها بشرط أن يكون موثقاً من قبل أرباب المصلحة وبمعرفة أصحاب الصنعة. حررت في أوائل شعبان ١٢٠٩هـ ص ٧٧

(٣) الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص ١٨٠-١٨١

(٤) جيب وبوين، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٦

(٥) قامت الثورة الصناعية في أوربا فاخترع ريتشارد كرايت أولى آلات غزل القطن سنة ١٨٠٠هـ-١٧٦٧م

واستبدل طاقة الإنسان بطاقة الماء في ١٨٨٤-١٧٧١م، ثم استخدمت قوة البخار لإدارتها في ١٢٠٤هـ-١٧٩٠م، كما تم اختراع آلة تمشيط الغزل سنة ١٨٨٨هـ-١٧٧٥م، نعيمة مجتمع مدينة دمشق ص ٤٨

مستمر^(١) فالسمة العامة للإنتاج الصناعي في البلاد هي الإنتاج الحرفي والمنزلي الذي يفتقر إلى رأس المال والتمركز والتركيز ويعتمد على الوسائل البسيطة في الإنتاج وعلى التقسيم البدائي للعمل فكانت النتيجة إنتاجاً ضئيلاً بسيطاً^(٢) وكان للامتيازات الأجنبية الدور الأخطر في تراجع الاقتصاد المحلي في فترة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث عجزت الدولة في ظلها عن حماية الإنتاج المحلي أو التخطيط أو تطوير الصناعات الوطنية. ففي ظل هذه المعاهدات التي أبرمت في القرن التاسع عشر تم نهب ثروات البلاد من مواد أولية بستان قانوني^(٣)، ثم جاءت فترة الحكم المصري لبلاد الشام لتفتح أبواب البلاد على مصراعيها للبضائع الأجنبية بسبب التسهيلات الكبيرة التي قدمها لها محمد علي واستطاعت منافسة البضائع المحلية في عقر دارها ولا سيما البضائع الفرنسية، وردا على هذا الود الفرنسي المصري قام السلطان محمود الثاني بعقد معاهدة عام ١٨٣٨م مع بريطانيا قدم فيها كل التسهيلات التي تحتاجها البضائع الأجنبية لتقضي على الصناعات المحلية ثم عمم السلطان هذه الاتفاقية مع بقية دول أوربا^(٤) وأخذت البضائع الأجنبية تتدفق عبر الموانئ السورية لتغطي حاجة السوق المحلية وصار حجم الواردات يزيد على الصادرات بمقدار الضعف^(٥) وفي عشرينيات القرن التاسع عشر كانت البضائع الأوربية تتدفق على أسواق بلاد الشام ثم في الثلاثينات أخذت البضائع المصرية تتزاحم لتجد لها سوقاً أيضاً، ولكن الأخطر على الصناعة المحلية في بلاد الشام كان المنتجات الأوربية، لأن الجو العام والإقبال السكاني أخذ يتحول بالتدريج نحو الزي الأوربي^(٦)

ومع صدور خط همايون عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م أضحت الدولة العثمانية والولايات التابعة لها بمنزلة مستعمرة مشتركة بين الدول الأوربية وظفت فيها رؤوس الأموال وسوقت فيها المنتجات ونهبت منها المواد الأولية^(٧) كما أنه قبل الثورة الصناعية كان التفاعل التجاري ما بين أوربا وبلاد الشام يتم على أساس التبادل التجاري ما بين منتجات بلاد الشام ومنتجات أوربا، لكن هذه الطريقة قد تغيرت بعد قيام الثورة الصناعية حيث غدت تجارة أوربا انتقائية فيما تستورده من منتجات شامية يخدم صناعاتها^(٨) وبالتالي كسدت الصناعات التي لم ترغب بها تجارة أوربا واستنزفت مواد البلاد الأولية والنقد الذهبي والفضي فيها، فعلى سبيل

(٦) رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، ص ٢٥٤ ؛ حمادة، مرجع سابق ص ١٢٧

(٧) السباعي، مرجع سابق، ص ١٤-١٥

(١) غرايبة ، مرجع سابق، ص ١٥٩

(٢) عبد الكريم رافق، "الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوربي"، مجلة دراسات تاريخية ، العددان

١٧-١٨ آب وتشرين الثاني ١٩٨٤م ص ١٢٦ ؛ أوين ، مرجع سابق، ص ١٣٢ ؛ عيساوي ، مرجع سابق،

ص ٦٣٢

(٣) ريجينكوف ونسكايا، سوريا ولبنان وفلسطين، ص ٣١٩

(٤) عيساوي، المرجع السابق، ص ٥٤٣

(٥) لوتسكي، مرجع سابق، ص ٣٧٤

(٦) رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص ١٥٧

المثال مقابل البضائع الفرنسية المصنعة أخذت فرنسا المواد الأولية من الأصباغ والجلود والألبان والزيت وخيوط الغزل، وانكلترا باعت أقمشتها القطنية مقابل النقد المعدني الثمين^(١) وهكذا كثرت المعوقات التي تعاني منها الصناعة المحلية من تحول الطلب نحو البضائع الأجنبية إلى الافتقار إلى المواد الخام ورأس المال و إلى قلة الأيدي الماهرة، وإن وجدت فهي غالية غلاء الوقود والنقل في البلاد^(٢) ومما ساعد على التفوق الأوربي هو يدوية الصناعة في حلب كما في بقية بلاد الشام ولم تعتمد إلى استخدام القوى المحركة كالماء والهواء، ولهذا بقي إنتاجهم محدوداً^(٣) حسب الطلب.^(٤) ففي مجال الصناعات النسيجية التي كانت تشكل مصدر رزق لحوالي ستين ألفاً من سكان حلب،^(٥) وقد تراوحت الأنوال في حلب التي هي عماد الصناعات النسيجية ما بين العامين ١٨٣٨ - ١٨٧٦م حيث كانت بداية التغلغل الرأسمالي ودخول الآلات والمصانع الصغيرة^(٦)

السنة	عدد الأنوال
١٨٣	٤٠٠٠
١٨٤	١٥٠٠
١٨٤	٥٠٠٠
١٨٥	١٠٠٠٠
١٨٥	٥٥٦٠
١٨٥	١٠٠٠٠
١٨٥	١٤٠٠ ^(٧)

(١) نعيصة، مجتمع مدينة دمشق مرجع سابق، ج ١ ص ٣٠٤

(٢) عيساوي، مرجع سابق، ص ٥٥٥

(٣) في الملحق رقم (٦) جدولاً يبين إنتاج حلب من النسيج للعام ١٢٧٧هـ-١٨٦١م

(٤) ليلي الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٣ ص ٦٧-٦٨

(٥) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٩٢

(٦) Farley, J, Lewis: The Resources of Turkey. London. 1863. P:23- -- عيساوي، مرجع سابق،

ص ٥٤٦-٥٤٧ ؛ أوين مرجع سابق ص ٢٤٠

(٧) يذكر القنصل البريطاني في حلب أنه قبل حوالي عشر سنوات كان في حلب ما يقارب العشرة آلاف نول (١٠٠٠٠) تنتج أربعة مليون قطعة في السنة تلبي طلبات ولايات الدولة العثمانية وأصبح في العام ١٨٥٨م

٨	
٩	١٨٥
١	١٨٦
٢	١٨٦
١	١٨٧
٢	١٨٧
٤	١٨٧
٥	١٨٧
٦	١٨٧

ويعود هذا الفارق الكبير في عدد الأنوال في حلب ما بين سنة وأخرى إلى المنافسة الأجنبية وإلى تقليد الصناعات الحلبية من قبل المصانع الفرنسية والبريطانية والسويسرية ووصولها إلى الأسواق المحلية بأسعار منافسة للأسعار المحلية^(١) وتقل عنها بمقدار الربع على الرغم من أنها كانت أقصر عمراً وأقل جودة لكن الفقراء أقبلوا عليها لأن مستواهم المعيشي يجبرهم على البحث عن الأرخص والأقل جودة^(٢).

وفي فترة السبعينات من القرن التاسع عشر ازدهرت هذه الصناعة بعض الشيء بسبب الحرب الفرنسية الألمانية على الألزاس واللورين، ولأن الدولة رفعت بعض الضرائب الجمركية عن هذه الصناعات وقلت كلفة الإنتاج المحلي^(٣) ولهذا كثرت فيها الكرخانات^(٤) والقيسارات^(١) على الرغم من ذلك فإن المنشآت الصناعية

لا يتجاوز عدد الأنوال الألفان وثمانمائة نول قيد الاستخدام. غاوبه وفيرت، مرجع سابق، ج ٢ ص ٨٠٦-٨٠٧

(١) عيساوي، مرجع سابق، ص ٥٦٤

(٢) ليندا شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشرن ترجمة عمرو الملاح ودينا الملاح، دار الجمهورية، دمشق، ط١، ١٩٩٨م، ص ٨٠

(٣) أوين، مرجع سابق، ص ٢٤٠

(٤) الكرخانة: مؤلفة من كلمتين (الكار) ومعناها العمل و(الخان) وتعني البيت فأخذت مدلول المعمل وهي عند الغزي (البصمة خانة) المحلات التي كانت تطبع فيها المناديل الحلبية، الغزي، مصدر سابق، ج ٢ ص ٢٩١،

بقيت ورشاً منزلية بسيطة وصغيرة، فأكبر تجمع لم يتجاوز فيه عدد الأنوال الخمسة عشر نولاً وغالبيتها مصنوعة من الخشب لم تتجاوز كلفة النول الواحد (٠,٥-٠,٣) جنيهًا استرلينيًا، وحتى الأغنياء لم تتجاوز أسعار أنوالهم ما بين (٥-٧) جنيهات.^(٢)

ولكي يواجه الصناع المحليون هذه المنافسة مع التفوق الأوربي قرروا التنافس بشكل تكتلات تعتمد إلى التضامن لاستيراد المصانع الأوربية الحديثة، وقد واجهت في البداية مشكلة خطيرة وهي عجز الفنيين المحليين من إدارة وإصلاح هذه الآلات الجديدة عليهم بالشكل المطلوب^(٣) ففي العام ١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م دخل إلى نواحي إنطاكية معمل إنكليزي يضم آلات الحلج والغزل والطي انتهى به الأمر إلى الإقفال في ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠ م^(٤) كما أن الصناعة الحلبية عملت على إنتاج السلع الرخيصة لتغطي حاجة السوق المتزايدة، حيث عدد السكان بتزايد مستمر والمستوى المعيشي في تحسن فضلاً عن الرغبة للبدو والمزارعين وفقراء المدن بالمنتج المحلي^(٥) إضافة إلى عامل آخر مهم، وهو انخفاض تكلفة الإنتاج المحلي للقطن والحريز والصوف فكان عاملاً مهماً في إنتاج سلع رخيصة منافسة للأجنبية، أو أنها توجهت لصناعة أقمشة باهظة الثمن لا تستطيع المعامل الأجنبية تقليدها.^(٦)

وكان الإجراء الأكثر ذكاء هو توظيف الغزل المحلي الذي تنتجه النسوة يدوياً يصبغ بالنيلة ويصنع مخصصاً للبدو والفلاحين وهو لا يناسب ذوق أهل المدن، الذين صنع لهم منسوجات استخدم فيها الغزل الأجنبي ولا سيما الإنكليزي الرخيص والمتين^(٧) وهكذا ظهرت الصناعة المحلية التي مزجت ما بين المحلي والمستورد من ناحية المادة والزي.^(٨)

وقد ذكر العديد من قناصل الدول الأوربية أن الصناعات اليدوية والحرف التقليدية بقيت حتى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر تنافس الإنتاج الأوربي وقد صُدِّرت المنسوجات الحلبية القطنية والحريرية إلى فرنسا وروسيا وألمانيا على الرغم من أنه كان هناك حظر على دخول الصناعات الأجنبية إلى تلك البلدان لحماية صناعاتهم المحلية إلا العالية الجودة منها ولا يمكن تقليدها^(٩) كما صدر ثلاث

(٥) القيسارة: باحة واسعة مربعة يحيط بها بناء مؤلف من طابقين حيث تقام أنوال النسيج . جها، الحياة الفكرية

في حلب في القرن التاسع عشر، ص ٦٢

وقد كثرت القيسارات ووجد فيها محلات تجارية (دكاكين) معدة لنسيج الأقمشة كقيسارية المشاطية

والهزارة والشونة. وثائق المحاكم الشرعية في حلب السجل ٣٢٥ رقم الوثيقة ٦٥ تاريخ ١٤ ربيع الأول

١٤٤٠ هـ، ص ١٤٤

(١) أوين، مرجع سابق، ص ٣٦٤-٣٦٦

(٢) رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية، ص ١٦١ ؛ أوين، مرجع سابق، ص ٣٦٤

(٣) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٩٧ ؛ عيساوي، مرجع سابق، ص ٥٦٥

(٤) عيساوي، المرجع السابق، ص ٥٤٤

(٥) أوين، مرجع سابق، ص ٣٦٣-٣٦٤

(٦) عيساوي، المرجع السابق، ص ١٣٣

(٧) رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية، ص ١٦٠

(٨) غاوبه وفيرت، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٠٣

الإنتاج السوري إلى آسية الوسطى واستانبول عام ١٢٧٨هـ/١٨٦١م وأقل من الثلث إلى مصر، كما صدرت حلب إلى مصر حوالي تسعة ملايين متر من القماش القطني عام ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م وإلى الدولة العثمانية سبعة ملايين متر في العام نفسه.^(١)

أما في مجال الصناعات الأخرى فكان التأثير الغربي فيها ضئيلاً ومحدوداً على بعض من فروعها وقد يكون سبب التأثير بالذوق الأوربي كصناعة العمائم والنعال والنراجيل^(٢) وفي مجال الدباغة قام أحد التجار بإحضار مدبغة أوربية تدور على البخار لدبغ الجلد الإفرنجي المستخدم في صناعة القندرات^(٣) (الأحذية) ولكنها انتهت بالإفلاس لأنه لم يحقق الربح اللازم ولأن الصناع لم يرغبوا باستعمال إنتاجه،^(٤) فقد أخذ بعض الحرفيين بإحياء بعض الحرف والصناعات الأخرى كالنقش على الأواني النحاسية التي عادت إلى الانتعاش من جديد عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م بسبب الإقبال عليها^(٥) وأدخلت صناعات أخرى كصناعة الأغباني (الزنانير الهندية) عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م.^(٥)

ولكن المميز في صناعة القرن الثامن عشر في حلب هو ظهور التخصص في مجال العمل ففي مجال النقل مثلاً وجد التراس^(٦) والرجّاد^(٧) والسواق^(٨) والطنبرجي^(٩) والعرجي^(١٠). وفي مجال صناعة النسيج وجد ثلاث وعشرون حرفة على أساس تقسيم العمل بشكل دقيق. وفي مجال المواد الغذائية وجد ما يقارب سبع وأربعون مهنة في هذا المجال. وفي مجال التجارة وجد تجار الحبوب بالجملة وتجار الأغنام والأقمشة وقد تخصصوا في أنواعها كل نوع على حدة وتجار الأحذية وغيرها.^(١١)

٣- التجارة^(١٢):

(٢) عيساوي، مرجع سابق، ص ٥٤٤-٥٤٥

(٣) المرجع السابق ص ٥٥٥

(٤) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٩٤

(٥) الحسني، مصدر سابق، ص ٣٢٤

(٦) الطباخ، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٦٤

(٧) التراس: هو الذي تخصص في نقل الحبوب، القاسمي، مصدر سابق، ج ١، ص ٦٩

(٨) الرجّاد: وهو الذي يقوم بنقل السنابل إلى البيدر، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٥

(٩) السواق: وهو الذي تخصص في نقل الطحين، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٥

(١٠) الطنبرجي: سائق الطنبر عربية على عجلتين بطول ذراعين تسحبه دابة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٤

(١١) العرجي: سائق العربية يعمل عند الوجهاء ممن يملكون العربات أو عند المعلمين الذين يملكون العربات ويؤجرونها، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٥

(١٢) سميليا نسكايا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، ترجمة

يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت ط ١، ١٩٨٩م ص ٢٠٠+٢١٥؛ عماد عبد الغني، السلطة في بلاد

الشام في القرن الثامن عشر، بيروت دار النفائس ص ٢٦٢-٢٦٣

(١٢) كان لا يزال شرق المتوسط حتى القرن السابع عشر الميلادي بحيرة عثمانية ولكن هذا الوضع تغير في

القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث سيطر الأوربيون على تجارة الشرق، وكان القراصنة سابقا يهددون

تكتسب حلب أهميتها التجارية العالمية والمحلية من عوامل تاريخية وجغرافية، فقد كانت صلة وصل تجاري ما بين أوروبا والشرق الأقصى كما أنها غدت محطة مهمة جداً في شبكة التجارة المحلية^(١) وحينما أصبحت حلب تابعة للدولة العثمانية استفادت إلى حد كبير من امتداد حدودها باتجاه الشرق حيث أصبحت مركزاً مهماً لشبكة واسعة من طرق التجارة الدولية الكبيرة، كما أصبحت نقطة عبور إجبارية لبضائع الخليج والهند الفاخرة، كما تفوقت في نهاية القرن الثامن عشر على تجارة القاهرة مع مرسيليا، وفي ظل هذا النشاط التجاري الواسع تفوقت على دمشق و أصبحت حلب مركزاً للتجارة المحلية في الإمبراطورية نتيجة تضخم الإنتاج والاستهلاك داخلها، وكان ميناء إسكندرون وطرابلس منفذاً لبضائع حلب الصادرة والواردة، وظل هذا الوضع التجاري النشط حتى نهاية القرن التاسع عشر،^(٢)

وفي ظل الحكم العثماني تميز وضع حلب التجاري لا سيما فترة القرنين الأولين حيث وصلت تجارة حلب إلى معظم مناطق الإمبراطورية ولاسيما أسواق العراق والأناضول، وتابعت نشاطها التجاري بين إيران والشرق الأقصى من جهة^(٣) وأوروبا من جهة أخرى^(٤) وبسبب هذا النشاط التجاري كثرت الفنادق والأسواق والخانات^(٥) في المدينة أو على الأطراف أو على الطرقات لتصرف البضائع إما بشحنها إلى ما وراء البحار أو تسويقها في الداخل، ومن الطبيعي في

التجارة بعامة أما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان القراصنة من الأوربيين أنفسهم وبالتالي فإن تهديدهم اقتصر على السفن العثمانية إما بدافع المجد والشهرة وكسب المال أو بدافع الحرب المقدسة، فانتعشت التجارة الأوربية وتراجعت التجارة العثمانية، ومن ثم اقتنع تجار المشرق أن نقل بضائعهم على سفن ترفع علماً أوربياً يؤمن السلامة لها، ولم يكتف الأوربيون بالسيطرة على التجارة الخارجية وإنما تطلّعوا إلى تجارة الإمبراطورية الداخلية فشركة الشرق البريطانية وجدت أنها ستحقق أرباحاً طائلة عن طريق سيطرتها على التجارة الداخلية للإمبراطورية العثمانية. Masters , Trading Diasporas Nations,the Genesis of National Identities in Ottoman Aleppo. The International History Review 1983..p362-364

(٣) Barker & Edward: Syria and Egypt under the last five Sultans of turkey . London 1876,vol 11 ,p253

(٤) ريمون، مصدر سابق، ص ٣٧ ؛ حتي مرجع سابق، ج ١ ص ٣١٨ ؛ محمد الأرناؤوط، "منشآت محمد باشا دوكاجين في حلب ودورها في تنشيط التجارة بالمدينة". بحث في مجلة الحوليات العربية السورية . تصدرها وزارة الثقافة، مج ٤٣/١٩٩٩ م ص ١٩٦

(١) في الملحق رقم (٧) خريطة العلاقات التجارية لمدينة حلب في النصف الأول من القرن التاسع عشر
(٢) رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، ص ٢٤٢
(٣) يذكر الأرناؤوط أن عدد الخانات في حلب في نهاية العهد المملوكي كان ثلاث أو أربع خانات وبعد دخول العثمانيين حلب بنصف قرن أصبح عدد الخانات فيها عشر خانات كبيرة وفيما بعد تجاوز عددها المائة واستدل على أن كثرة الخانات في المدينة يدل على ازدهارها التجاري . الأرناؤوط مجلة الحوليات السورية، مرجع سابق، ص ١٩٦

ظل هذه الحركة التجارية النشطة أن تشهد المدينة تزاحماً سكانياً كبيراً، وانعكس هذا الأمر على زيادة موارد الولاية المالية،^(١)

وقد كان المسلمون يسيطرون على التجارة في حلب حتى القرن الثامن عشر، إذ انه بعد ذلك تناقص عدد المسلمين الذين يعملون في التجارة ليحل محلهم النصارى ولاسيما الأرمن منهم، والسبب في ذلك هو سوء استخدام الامتياز الممنوح للقناصل في منح البراءات.^(٢)

وقد كانت التجارة هي العامل الأول في سعي الدول الأوروبية للحصول على الامتيازات في ولايات الدولة العثمانية والدليل على ذلك أنه أولى الامتيازات التي منحت في الإمبراطورية كانت لتسهيل التجارة والإعفاء من الرسوم الجمركية^(٣) إذ أخذت الدول الأوروبية تتسابق للحصول على هذه الامتيازات مستغلة نفوذها السياسي أو علاقاتها الخاصة مع السلاطين أو عن طريق الجوّاري والمحظيات حتى أصبحوا يسيطرون على الحركة الاقتصادية في الدولة العثمانية،^(٤)

وكانت بلاد الشام من المناطق التي سعت أوربا للتغلغل فيها بالتدريج ولاسيما ولاية حلب،^(٥) فسيطروا على حركة التجارة التي كانت تؤديها حلب ما بين أوربا والشرق، كما أن الروس قطعوا طريق الحرير الفارسي عندما احتلوا بلاد فارس في الربع الأول من القرن الثامن عشر^(٦) وبعد أن كان الفرنسيون يسيطرون على جزء كبير من التجارة في حلب تغير وضعهم بسبب حملتهم على مصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م^(٧) أما الإنكليز فلم يكن حظهم وافراً في تجارة حلب فبعد أن كانت تجارتهم تسير عبر ثمانية بيوت تجارية اقتصرت في العام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م على تمثيلها بالقنصل الإنكليزي.^(٨) كما أعلنت شركة الشرق الإنكليزية عن إغلاق مقرها في حلب بسبب تراجع حجم التبادل التجاري في العام نفسه^(٩) ومع بداية القرن التاسع عشر مالت الكفة التجارية لصالح بريطانيا ضد فرنسا في الإمبراطورية العثمانية ولاسيما في حلب، بعد حملة نابليون على سورية حيث ساءت العلاقات الفرنسية العثمانية وتحسنت العلاقات البريطانية العثمانية، وأخذ

(٤) عثمان مهملات، حلب التراث، منشورات دار القلم العربي، حلب، ط ١، ١٩٩٤م ص ٣٤؛ رافق بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام ص ٢٤٢؛ الأرنؤوط المرجع السابق ص ١٩٦

(٥) جيب وبوين، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٢-١٦٢

(٦) رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٢٤٢

(٧) راجع دور الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية في الفصل الأول

(١) في القرن التاسع عشر الميلادي قام فنسنزو من عائلة ماركوبولي الرومية بشراء خان في حلب وقام بإجراء تعديلات كبيرة عليه بما يتناسب مع احتياجات مؤسسته، وأنه كان هناك بنك في حلب تعود ملكيته إلى فنسنزو نفسه. غاوية وفيرت، مرجع سابق ج ٢ ص ٥٨١-٥٨٢

(٢) رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ص ٢٤٧

(٣) محمود فيصل الرفاعي، حلب بين التاريخ والهندسة، معهد التراث العلمي العربي، حلب ١٩٩٦م ص ٩٧

(٤) عيساوي، مرجع سابق ص ٢٢١؛ راسل مصدر سابق ج ٢ ص ٢٥٠؛ ماسترز مرجع سابق ص ١٥١

(٥) غاوية وفيرت، مرجع سابق، ج ٢ ص ٦٢٥

طموح التجار البريطانيين^(١). يتطلعون إلى الأسواق الجديدة التي انفتحت أمامهم كمورد لموادهم الأولية وسوق مهم لتصريف منتجاتهم الصناعية^(٢). وبعد دخول بلاد الشام تحت الحكم المصري المعروف بصداقته للفرنسيين لم تتأثر تجارة إنكلترا فيها بل على العكس فإن التجارة قد ازدهرت أضعاف ما كانت عليه سابقاً^(٣).

وفي فترة الحكم المصري وبسبب الأمان الذي ساد البلاد فإن السيولة المادية قد توافرت للتجارة، لأن كثيراً من التجار^(٤) أحسوا بالأمان فأخرجوا أموالهم لينتفعوا بها^(٥)، وتوجت بريطانيا نفوذها في الإمبراطورية العثمانية بالاتفاقية التجارية التي عقدها مع السلطان العثماني عام ١٨٣٨م^(٦) وعلى أثر هذه المعاهدة تدفقت البضائع الأوروبية على الأسواق السورية عبر مينائي اسكندرون وحلب وغطت حاجة السوق المحلية، وأصبحت قيمة الواردات^(٧) تفوق قيمة الصادرات بأضعاف^(٨).

وفي ظل الحكم المصري دخلت أول باخرة إلى ميناء اسكندرون عام ١٢٥٢هـ-١٨٣٦م على الرغم من أن تكاليف النقل بالبواخر كان مكلفاً اقتصر على الركاب والبريد والسلع الباهظة الثمن^(٩)، وقد كان هناك جهود عثمانية مبذولة لتقييد هذه الامتيازات الممنوحة قدر الإمكان وذلك لسببين الأول يتعلق باحتفاظ السلطنة بالقدر الأكبر من السيادة على أراضيها، والثاني يتعلق بتأمين الحماية لبعض المنتجات المحلية كالملح والتبغ^(١٠) ولمنع التهريب^(١١) والتحكم في دخول الأسلحة

(٦) في الوثيقة رقم ١٢٧ من سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم ٣٦ ما يبين أن التجار الإنكليز حصلوا على أمر سامٍ بالتعرفة الجمركية للبضائع المتبادلة والتعرفة هي ٣٪ من البضائع المباعة وحصل على هذه الميزة الروس والنمساويين ولم يحصل عليها الفرنسيون اعتباراً من ١٩ جمادى الأولى ١٢١٦هـ ص ١٠٠-١٠١

(٧) أوين، مرجع سابق، ص ١٢٤؛ عيساوي، مرجع سابق، ص ٢٥٩

(٨) أبو فخر فندي، سورية والصراعات الدولية ١٨٣١-١٨٤٠م، دم، ٢٠٠٠م ص ٨٢

(١) في الملحق رقم (٨) نبين المؤسسات التجارية التي كانت في حلب في عام ١٨٤٠

(٢) نعيصة، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٢٧٤

(٣) اتفاقية بلطة ليمان وقعت بين الباب العالي وبريطانيا عام ١٨٣٨م وتم بموجبها ما يلي: ١- رفع جميع الاحتكارات التجارية ٢- السماح لتجار بريطانيا بشراء البضائع من أي بقعة من الإمبراطورية ٣- تحديد ضريبة البضائع المستوردة بـ ٥٪ فقط، بينما على البضائع المصدرة بـ ١٢٪، وعلى البضائع العابرة بـ ٣٪. ثم وقعت هذه الاتفاقية مع البلدان الأوربية الأخرى. شيلشر، مرجع سابق ص ٨١؛ الدوري؛ أوين، مرجع سابق، ص ١٣٢. عيساوي مرجع سابق ص ٦٣٢؛ إميل وإسماعيل خوري، السياسة الدولية في المشرق العربي من سنة ١٧٨٩-١٩٥٨ مدار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت ١٩٥٩م، ج ٢ ص ١٣٤

(٤) في الفترة ما بين عامي ١٨٤٠-١٨٥٠م تضاعفت الواردات البريطانية إلى سورية من (١,٤٤٠,٠٠٠) جنيه إسترليني إلى (٣,٧٦٢,٠٠٠) جنيه. لوتسكي، مرجع سابق، ص ١٤٦

(٥) نسكايا وريجنكوف، سوريا ولبنان وفلسطين، ص ٣١٩

(٦) عيساوي، مرجع سابق، ص ٣١٥-٣١٧

(٧) أمر سامي يقضي بتطبيق التعرفة المقررة من الدولة عند بيع محصول التبغ في مراكز استانبول وحلب إلى التجار وعدم ترك مجال لتدخل أي طرف آخر. سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم ٣٦ وثيقة رقم ٢٥

في ٢٤ جمادى الأولى ١٢٢٩هـ، ص ٢١

إلى الإمبراطورية كالمعاهدات التجارية التي عقدتها الدولة العثمانية مع فرنسا وبريطانيا وبلجيكا وإيطالية وروسية والولايات المتحدة وإسبانية والدانمرك والنمسا وبروسيا.^(٢)

أ- التجارة الداخلية:

عانت من بعض الإشكالات التي كانت تؤثر فيها نوعاً ما كالمواصلات السيئة بسبب وسائل النقل القديمة المقتصرة على الجمال والبغال، فقد كانت المواصلات التي تصل بين حلب والمناطق المجاورة لها سيئة وغير كافية ولا سيما طريق حيوانات النقل الذي يصل حلب بميناء إسكندرون.^(٣) وهناك قضية أخرى أيضاً وهي الأمن حيث كان يصل في بعض الفترات إلى درجة الانعدام وذلك بسبب اضطراب الأوضاع السياسية وبالطبع كله ناشئ عن ضعف الدولة العثمانية بعامه فكانت القوافل التجارية تتعرض للإغارة والسطو ومن دون رادع من قبل اللصوص وقطاع الطرق.^(٤) ولكن عندما وجدت الدول الأوروبية ولا سيما فرنسا وإنكلترا أن أعمال اللصوصية وقطع الطرق التي تقوم بها القبائل البدوية تعطل أعمالهم ومصالحهم التجارية أقامت مع زعماء هذه القبائل علاقات صداقة بهدف نشر الأمن وحماية القوافل التجارية واستطاعوا تحويلهم من مصدر للربح والسرقة والنهب إلى حماة لهذه الطرق وحراس لها.^(٥) كذلك الضرائب التي فرضتها الدولة على عمليات الاستيراد والتصدير والبيع والشراء في الأسواق، فضلاً عن الرسوم الجمركية التي وضعتها الدولة على كل ما يدخل إلى المدينة^(٦) وكانت الأسواق موزعة في أنحاء المدينة ومن خلالها يتم التبادل التجاري بين الريف والمدينة بالمقايضة ما بين منتجات الريف الزراعية ومنتجات المدينة الصناعية،^(٧) كما كان التبادل التجاري للغلال الموسمية يتم في أسواق موسمية أيضاً أو نصف سنوية،

(٨) تتضمن الوثيقة رقم ٣٩ من سجل الأمر السلطاني لولاية حلب رقم ٣٦ تعليمات صدرت من قبل الدولة بمنع عرض بعض البضائع الأجنبية إلى البيع والشراء لكونها محظورة في الدولة . كما تنبه على أمناء الجمرك لمنع بعض الأطراف من تمرير بعض البضائع خفية، وخصوصاً الموانئ التي ليس فيها جمرك. حرر في ١٢٢٩ هـ، ص ٢٩-٣٠

(٩) هرشلاغ، مرجع سابق، ص ٦٢-٦٣

(١) محفوظات الخارجية البريطانية ٣٠٧٠/٧٨ نقلاً عن غاوبه وفيرت، مرجع سابق ج ٢ ص ٦٨٤
(٢) في العام ١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦ م أغارت قبيلة عنزة على قافلة متوجهة من بغداد إلى حلب وسلبت منها بضائع بلغت قيمتها ستة آلاف جنيه، كما أغارت قبيلة شمر عام ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م على قافلة أخرى متوجهة من الموصل إلى حلب، عيساوي، مرجع سابق، ص ٢٢٤

(٣) لقد صادق الفرنسيون قبائل ولد علي ، والشمر، والفدعان، وبنو صخر، والموالي، وهي القبائل المسيطرة على البادية الشامية ، بينما صادقت إنكلترا قبائل الرولة وغيرها في البادية من الجانب العراقي، وكانت الدولة العثمانية عندما تصطدم بإحدى هذه القبائل تستعين بأصدقاء هذه القبيلة إما من الفرنسيين أو الإنكليز لحل الخلاف. رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٢٤٧-٢٤٨

(٤) الصباغ، المجتمع العربي السوري، ص ٨٦

(٥) نستدل على ذلك من وثائق المحاكم الشرعية في حلب السجل رقم ٣٠٧ وثيقة ٢١١ ص ١٣٢ سنة ١٢٩٥ هـ - ١٧٧٨ م والسجل ٣٠٩ وثيقة ٢٢٥ ص ١٥٨ سنة ١٢٩٧ هـ - ١٨٨١ م والسجل رقم ٣١٣ وثيقة ٥٢ ص ٢٩ سنة ١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ م

ولكن نسبة كبيرة من الفلاحين اضطرت إلى بيع محاصيلها قبل نهاية الموسم بسبب الفقر والحاجة.^(١)

ومع بداية القرن التاسع عشر ظهرت سلسلة من العلاقات التي أثرت إلى حد كبير في البنين الاقتصادي وإلى ازدياد حدة الصراع الطبقي وبتطور العلاقات النقدية ، ومع منتصف هذا القرن تراجع سوق القبيلة والقرية ليحل محله السوق الداخلي الذي قام نتيجة التخصص في الزراعة في أنواع معينة من المحاصيل الزراعية التي ستصدر إلى الخارج^(٢) وأخذت البلاد بالتدريج تتحول إلى مصدر لخامات الصناعات الأوربية وسوق لتصريف منتجاتها، وأخذت الوساطة التجارية تزداد أهمية بين الفلاح والسوق، وقد غابت النزاهة عن هذه المهنة كلياً حيث تداخلت مع عمليات الربا.^(٣)

لم يقتصر هذا النشاط التجاري الداخلي على ما ذكرناه بل أصبح هناك تفاعل تجاري أيضاً بين مركز المدينة والألوية والأقضية التابعة له^(٤) فقد كان بعد ذلك سكان هذه المناطق يتوجهون إلى حلب للحصول على حاجاتهم.

ولكن بعد دخول البضائع الأجنبية وغزوها أسواق الإمبراطورية العثمانية وقد استطاعت هذه البضائع بمساعدة الدولة نفسها بما منحتة للتجار الأجانب من امتيازات جمركية وحرية الحركة والتجوال في البلاد العثمانية أن تنافس بقوة البضائع المحلية ووصل تأثيرها إلى التجارة الداخلية في حلب في العقد السابع من القرن التاسع عشر^(٥) كما أن تجارة حلب الداخلية وصلت إلى ولايات عديدة من الإمبراطورية العثمانية كالشام وحمص وحماة وبغداد وغيرها.^(٦)

ب- التجارة الخارجية:

تعرضت لأزمات عديدة ففي العقد الثاني من القرن التاسع عشر تعرضت للركود بسبب الاضطرابات الداخلية التي حلت في حلب، والأخطر من ذلك أن التاجر المحلي كان يدفع للتاجر الأجنبي ٣,٥٪ من قيمة البضائع لكي يسمح له المتاجرة باسمه، وهذا الواقع المؤلم قد فرضته الدولة على التجارة في الدولة العثمانية إذ إن التاجر الأجنبي لا يدفع من المكوس والضرائب سوى (٤٪) على بضائعه بينما التاجر المحلي كان عليه دفع من (١٨ إلى ٢١ ٪) على بضائعه.^(٧)

(١) راسل، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٨

(٢) حنا ، ملامح من تاريخ الفلاحين، مرجع سابق ج ٣ ص ٢٣١

(٣) سميليا نسايا، الحركات الفلاحية في جبل لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة عدنان جاموس ، بيروت، د.ن، ١٩٧٢م ص ١٧-٢٢

(٤) كقضاء إدلب فقد اشتهر بصناعة الحصر وكانت تباع في سوق الحصارين بحلب . وثائق المحاكم الشرعية بحلب سجل رقم ٣٠٧ وثيقة ١٤٤ سنة ١٢٩٥-١٨٧٨م ص ١٤٤ ومن الأقضية ؛ مرعش وعينتاب وبيره جيك وأورفة

(٥) عيساوي، مرجع سابق، ص ٥٤٦

(٦) عبد الله فايز حنا، الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠-١٩٤٥، دمشق، دار دمشق ١٩٧٣م ص ١٦

(١) كرد علي، خطط الشام، ج ٤ ص ٢٤٩

من ثم جاءت الفترة الأكثر رخاءاً بالنسبة للتاجر الأجنبي وهي فترة الحكم المصري التي وفرت الأمن للفئات غير الإسلامية التي أصبحت تأخذ الوكالات الرسمية للتجار الأجانب، كما شجعت التجارة مع أوروبا لتموين الجيش من عائدات الجمارك وإبقائه في بلاد الشام.^(١) ففي سنة ١٢٥١ هـ - ١٨٣٤ م سمح المصريون بإقامة ثلاثة بيوت تجارية في حلب ترتبط مباشرة مع إنكلترا.^(٢)

ولم يكن هذا التسهيل الحكومي وحده وراء نجاح التجارة البريطانية في حلب وإنما يعود إلى أسباب أخرى، منها: فائض الانتاج لديهم وكون البلدان العربية سوقاً مناسبة، وتقبل الأسواق الكميات الكبيرة من هذه البضائع المصنعة و الرخيصة، ولأن التاجر الأجنبي كان يقنع بقدر ضئيل من الربح ويقدم تسهيلات كبيرة للتاجر المحلي الذي يتعامل بهذه البضائع الأجنبية خصوصاً في الدفع.^(٣)

ولا يخفى أيضاً دور السياسي وتأثيرها الإيجابي في التجارة البريطانية في سواحل بلاد الشام بعد أن وقف البريطانيون إلى جانب السلطان العثماني في نزاعه مع واليه محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا فأخذت السفن البريطانية تجوب هذه السواحل بحرية تامة وكان توقيع اتفاقية عام ١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨ م بين الباب العالي وبريطانيا البوابة الأكثر اتساعاً حيث دخلت التجارة البريطانية عبرها إلى كل أصقاع الإمبراطورية العثمانية.^(٤)

وبعد خروج المصريين من بلاد الشام وبموجب الاتفاقية السابقة انتعشت التجارة في حلب حتى قامت الفتنة فيها عام ١٢٦٧ هـ - ١٨٥٠ م^(٥) وكانت الفرصة الذهبية للتجار المحليين ليرزوا ويسيطروا على التجارة بالمنتجات الصناعية الأوروبية بعد انسحاب الشركات الأوروبية منها، فالمسيحيون واليهود الذين استقروا في مانشستر وليفربول ومرسيليا قاموا بشحن البضائع إلى شركائهم في حلب واستطاعوا بدھائهم وبرشوة ضباط الجمارك إدخال البضائع بالحد الأدنى من الرسوم المفروضة ثم سوقوها بخيرتهم في البلاد وبهذا الشكل انتقلت تجارة البلاد إلى أيدي هؤلاء التجار المحليين^(٦) ليتهربوا من الديون المترتبة عليهم، وغالبية هؤلاء من المسيحيين واليهود، وقد استغلوا حماية القنصل لهم أفضل استغلال في مجال الترجمة والمقاولات وقد كان يحق للقنصل منح خمسين براءة للمتعاون معه وتتجدد مع تعيين كل قنصل، فكانت الأعداد التي نعمت بالرعاية الأجنبية كبيرة جداً.^(٧)

(٢) ديفد دين كوفنز، الإصلاح الإسلامي ترجمة مجيد الراضي، دار الثقافة للنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٩ م ص ٢٠

(٣) عيساوي، مرجع سابق، ص ٢٦١

(٤) شيلشر، مرجع سابق، ص ٨٩؛ رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي، ص ٢٤٦

(٥) المرجع نفسه، ص ٨١

(١) عيساوي، مرجع سابق، ص ٢٦٧

(٢) محفوظات الخارجية البريطانية ١٩٥٠/٧٤١؛ زه س ٣٧٤٠/١ نقلاً عن غاوبة وفيرت، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٥٥

(٣) جيب وبوين، مرجع سابق، ج ١ ص ١٦٣

ونتيجة للشكاوى الكثيرة التي قدمها التجار الأوروبيون تم إنشاء المحاكم التجارية وقد تشكلت أول محكمة في حلب عام ١٢٧٠هـ - ١٨٥٣م للنظر في القضايا التي يعاني منها التجار الأجانب وبالطبع كان الأوروبيون يسيطرون عليها،^(١) وبعد حرب القرم ١٢٧٠-١٢٧٣هـ/ ١٨٥٣-١٨٥٦م وإصدار الدولة العثمانية المرسوم الإصلاحي همايون ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م كانت بداية جديدة لوضع الإمبراطورية العثمانية والولايات التابعة لها، حيث زادت الامتيازات الممنوحة للأجانب وتمتع بها عملاؤهم أيضاً، كما ظهرت السكك الحديدية والبنوك والتعدين.^(٢) وتلا هذه الفترة انتعاش كبير لتجارة الحبوب في حلب ومن الأسباب التي أدت إلى هذا الانتعاش:

- ١- حرب القرم وزيادة الطلب الأوروبي لها بعد ارتفاع أسعارها
- ٢- طلب العاصمة العثمانية للحبوب لتمويل جيش الحلفاء
- ٣- اتساع رقعة الأراضي التي أصبحت تزرع الحبوب بعد أن رفعت الدولة القيود المفروضة على تصديره^(٣).

وبعدها كانت أحداث عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م التي أثرت في أوضاع بلاد الشام كلها، وعلى أثرها أخذ تجار حلب يتطلعون إلى خارج إطار مدينتهم للتوسع في أعمالهم التجارية، ولأن المسافات قصرت باستخدام السفن البخارية وسرعة التنقل وصل بعض التجار الحلبيين إلى أوروبا^(٤)، وافتتحوا لهم فروعاً فيها وأخذوا وظيفة الوساطة التجارية ما بين حلب وأوروبا، كذلك أصبح لتجار حلب نشاط وافر في العراق وبلاد العجم، ولهم فيها متاجر ومؤسسات تجارية مهمة، لا سيما في بغداد والموصل، وهذا ما أثر سلباً على الجاليات الأوروبية في حلب.^(٥)

وعلى الرغم من أن ميناء إسكندرون من أكثر موانئ بلاد الشام تمتعاً بالحماية الطبيعية من الأمواج والرياح فإن خطوط الملاحة البخارية قد تأخرت بالوصول إليه حوالي عقدين من الزمن عن موانئ المتوسط فلم تصل إليه حتى عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م حيث أصبحت ترسو فيه السفن البخارية الفرنسية والإنكليزية والروسية والعثمانية ففي العام نفسه رسا في الميناء حوالي ١٧٢ سفينة تجارية وصلت حمولتها الإجمالية إلى ١٨٠٠٠ طن و ٢٠٥ سفينة شراعية حمولتها الإجمالية ٢٢٠٠٠ طن.^(٦) وبهذا أقصيت السفن الشراعية التي كانت تعيق التجارة بسبب رسوم التأمين الباهظة والتأخيرات الكثيرة والنفقات الكبيرة،^(٧) فضلاً عن

(٤) أوين، مرجع سابق، ص ١٣٢

(٥) لوتسكي، مرجع سابق، ص ٣٧٤

(١). شيلشر مرجع سابق ص ٩٨

(٢) كأسرة آل ظاهر، وتلتها آل أسود وصلوا إلى مرسيليا ومانشستر وليفربول . توتل اليسوعي، مصدر سابق ج ٢ ص ١٠٣؛ بخاش ج ١ ص ١٧٩

(٣) عينتابي وعثمان، حلب في مئة عام ج ١ ص ١٧ + ٥٤

(٤) محفوظات الخارجية البريطانية ز ه س ٤٠٢٤/١ نقلا عن غاوبة وفيرت، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٦٥

(٥) في الملحق رقم (٩) جدولين الأول يبين تكليف النقل من حلب إلى عدة مدن والمدة التي تستغرقها والجدول

الثاني يبين قدرة وسائل النقل على الأوزان التي تستطيع حملها

اختصار الزمن حيث أصبحت البواخر تؤم الموانئ مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع لتنتقل كل شيء ينتفع به، وأصبح التجار يصدرون أصنافاً جديدة من الإنتاج كانت مهمة سابقاً، كما مكنت الملاحة البخارية من شحن بضائع سريعة العطب إلى مراكز الاستهلاك كان سابقاً مستحيلًا شحنها لولا اختصار الوقت في شحنها^(١)

بلغت قيمة صادرات حلب في سنة ١٢٧٢هـ - ١٨٥٥م (١,٢٥٤,١٣٠) جنيهاً إسترلينياً وأما الواردات فبلغت قيمتها (١,٤١٤,٠٥٩) جنيهاً إسترلينياً ويعود هذا التفوق في الواردات على الصادرات إلى سياسة الدولة التي انتهجتها سواء في مجال الصناعة وعرقلة تطورها أو في مجال التجارة حيث التسهيلات التي قدمت لدخول البضائع الأجنبية ففي الفترة ما بين ١٢٦٨-١٢٧٢هـ/١٨٥١-١٨٥٥م ارتفعت واردات حلب من المنتجات القطنية البريطانية من ١٤٦,٤٠٥ جنيه إلى ٤٤٤,٦٨٩ جنيهاً إسترلينياً بينما نجد ارتفاعاً كبيراً في صادرات حلب من الحبوب في عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م إلى بريطانيا يصل إلى ٢٤٠,٠٠٠ جنيه إسترليني^(٢)، بينما في العام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م تفوقت الصادرات وقيمتها ٢١,٦٥٠,٠٠٠ فرنك على الواردات وقيمتها ٢١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك^(٣) (٤)

فهل الإمبراطورية العثمانية هي التي تحكمت بهذه التطورات التجارية أم أن حاجة السوق في بريطانيا هي التي فرضت هذا الواقع على تجارة الإمبراطورية ولم يكن أمامها إلا الاستجابة؟

مع بداية العقد السابع من القرن التاسع عشر أخذت حلب تشهد تقلصاً في تجارتها لعدة أسباب منها: دخول الملاحة النهرية البخارية إلى العراق وتسيير البواخر الصغار ما بين بغداد والبصرة مما أدى إلى سحب قسط من تجارة القوافل إلى البصرة^(٥)، وافتتاح الخط الحديدي المصري من الإسكندرية إلى السويس أيضاً أثر في تجارة حلب لأن طريق الهند قد قربت من تلك الناحية^(٦).

وقد وجه افتتاح قناة السويس ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ضربة قاسية لتجارة حلب فتحوّلت عنها تجارة العراق وأصبحت تصل عبر نهر الفرات إلى البصرة لتصديرها^(٧). وقد ذكر الغزي أنه بعد افتتاح قناة السويس خسرت حلب عُشر

(٦) غاوبة وفيرت، مرجع سابق، ج ٢ ص ٦٦٦

(١) Farley: The Resources of Turkey. P238

(٢) والملاحظة هنا أن القطن جاءت في المرتبة الثانية في الصادرات وقيمتها ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك بينما الأنسجة القطنية في الواردات تحتل المرتبة الأولى وقيمتها ١٣,١٥٨,٠٠٠ فرنك. الحسني مصدر سابق ص ٢٩٠ - ٢٩١

(٣) في الملحق رقم (١٠) نبين حجم التبادل التجاري بين حلب وفرنسا قبل عام ١٧٨٩م وعام ١٨١٦م كما نبين واردات وصادرات حلب إلى بريطانيا في الأعوام ١٨٧٣-١٨٧٤-١٨٧٥-١٨٧٦م

(٤) عيساوي، مرجع سابق، ص ٢٢٤

(٥) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٤

(٦) محمود علي عامر، "نهر دجلة والفرات وأهميتهما الاقتصادية في العهد العثماني"، مجلة كلية الآداب

صنعاء العدد ٧ ص ١٦٥ ؛ غاوبة وفيرت، مرجع سابق، ج ٢ ص ٦٦٨

تجارتها^(١) وليس ذلك فحسب بل إن افتتاح القناة قد أدى إلى تخفيض أسعار بعض السلع المحلية التي كانت تصدر إلى أوروبا من حلب لكي تستطيع المنافسة في أسواق أوروبا بعد أن أصبحت هذه السلع تتشحن من الهند والصين عبر قناة السويس بأسعار أقل، وحتى الحاج الذين كانوا يصلون جدة عبر حلب أصبحوا يصلونها عبر قناة السويس أيضاً.^(٢)

ومن ناحية أخرى وبفضل قناة السويس ارتبطت حلب بشبكة البرق العثمانية ومنها بالشبكة العالمية عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ومنذ ذلك الحين أصبحت إمكانية الحصول على الأسعار والعروض والطلبات بسرعة كبيرة أيضاً سواء كان في السوق العالمية أم في الأسواق داخل الدولة العثمانية، كذلك أدت إلى تطوير العلاقة بين أوروبا وبين ولايات الدولة العثمانية وتوثيقها.^(٣)

وهكذا فقد كان للتجارة دور كبير في القضاء على العلاقات الإقطاعية التي سادت البلاد رداً طويلاً من الزمن، لتسهم في تشكيل نواة الطبقة البرجوازية في البلاد التي ظلت تنتمي إلى الأرض ولكنها أدت دوراً تجارياً بين الفلاح والرأسمال الأجنبي.^(٤)

٤ - الضرائب:

لم يكن النظام الضريبي العثماني موحداً فهناك تفاوت كبير في دفع الضرائب ما بين طبقات المجتمع العثماني وصل إلى حد إعفاء بعضهم كالأشراف ورجال دين وكبار موظفي الدولة وغلب عليه الطابع التقليدي في جبايته والتظلم في تحديد حجم الضرائب^(٥) حيث كثرت الضرائب وبشكل غير مقبول فقد وصل في بعض الولايات إلى سبع وتسعين ضريبةً ورسماً.^(٦) وقد تفنن الولاة العثمانيون في فرض الضرائب غير الرسمية التي تصب في خزائنهم الخاصة ومنها رسوم فتح بندر^(٧)، مباشرة حمام^(٨)، ضريبة العزوبة^(٩)، ضريبة الزواج^(١٠)، قدوم غلمانية^(١١)، عيدية^(١٢)، رسم قدوم^(١٣)، رسم خلعت^(١٤)، وظل هذا النظام الضرائبي الفاسد يرهق كاهل الأهالي في بلاد الشام حتى قدوم الحكم المصري الذي حدد الضرائب الرسمية بخمسة أنواع:

(١) الغزي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٤

(٢) غاوية وفيرت، مرجع سابق، ج ٢ ص ٦٦٩

(٣) المرجع السابق، ج ٢ ص ٦٦٩

(٤) مسعود ضاهر، الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧-١٨٦١م، بيروت معهد الإنماء العربي، ط ٣، ١٩٨٦م ص ٣٧٥-٣٧٦

(٥) حنا، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٣٨

(٦) محمد كرد علي، غوطة دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ط ٣، ١٩٨٣م، ص ١٣٩

(٧) عند افتتاح محل تجاري أو دكان يتوجب على صاحبه دفع رسم معين حسب المحل.

(٨) ضريبة مفروضة عند افتتاح أو استئجار حمام.

(٩) يؤخذ ست بارات عن كل شاب غير متزوج

(١٠) تؤخذ عند عقد الزواج وكان يؤخذ عن زواج الأرملة ثلاثون بارة.

(١١) عندما يرزق الرجل بمولود وإذا كان ولداً بكرًا يستوجب دفع ستون بارة.

(١٢) بمناسبة كل عيد يقدم للوالي عيدية.

(١٣) مع قدوم الوالي الجديد يجب دفع رسم الترحيب به مالياً.

- أ-الميري أو الخراج
- ب- الجزية أو الجوالي ضريبة الأعناق على المسيحيين.
- ج-الجمارك والمكوس.
- د-ضريبة الأعناق العامة الفردة أو الفريضة
- هـ- الاحتكار.

ثم أضافوا إليها ضريبة الميري الخضراء على الزيتون والتوت^(٢) وبعد رحيل المصريين وعودة العثمانيين حاولوا الاستفادة من النظم المصرية في هذا المجال، حيث جاء في خط كلخانة "يتعين على كل فرد من أهالي البلاد (ويركو) مناسب بالنسبة لأملكه ومقدراته، كيلا يؤخذ من أحد شيء زائد عن مقداره"^(٣) فألغيت كل الضرائب غير الرسمية وبقيت الضرائب الرسمية وهي: - الأعشار:

كانت ضريبة الأعشار على الحاصلات الزراعية أشد الضرائب وطأة على الفلاح حيث كان يجبي من الفلاح ضعف القيمة المطلوبة، فضلاً عن الزيادة المخصصة للسماصرة والملتزمين وأرباب النفوذ والتكفل بمصاريف إقامتهم في القرية.^(٤)

أما في فترة التنظيمات فعادت هذه الضريبة إلى أصلها حيث تؤخذ بمقدار ١٠٪ عن الأراضي العشرية ثم أخذت عن الأراضي الخراجية منذ عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م كما أنها لم تقف عند قيمة ١٠٪ بل أصبحت ١٢٪ بحجة تنفيذ المشاريع الإصلاحية ثم زيدت ربع بالمائة في عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م لوفاء الديون المترتبة على الدولة لروسيا.^(٥) ولكن على أرض الواقع لم يتغير من ثقل هذه الضريبة على كاهل الفلاح لأن جبايتها كانت تصل إلى العشرين بالمائة لإرضاء الملتزمين والعشارين والسماصرة وأرباب النفوذ.^(٦)

- الويركو: (الضريبة) وهي نوعان
- ويركو التمتع:

صدرت هذه الضريبة منذ ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م في عهد السلطان محمود الثاني وتسمى رسم الاحتساب، وكانت بأشكال متعددة^(٧) وفي العام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م تطورت وأصبحت موحدة تؤخذ عن الثروة المقدرة للفرد على

(٧) ومنها تقدم الهدايا للوالي. الحسني، مصدر سابق ص ١٥٢
(٨) عبد الله سعيد: النظام الضريبي في لبنان وأثره في الزراعة في النصف الثاني في القرن التاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية العددان ٤٣-٤٤ أيلول كانون الأول ١٩٩٢م ص ٢٢٢-٢٢٣

(٩) الدستور، ج ١، ص ٢

(١٠) كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٠٤؛ رستم، المحفوظات الملكية، ص ١٢١-١٢٢

(١) الحسني، مصدر سابق، ص ٢٣٠

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج ٥ ص ٩٠-٩١

(٣)- يومية أو شهرية الدكاكين، أو رسم المأكولات، المستهلكات، المنسوجات، الذهب، الفضة، أو

غيرها.. سعيد، النظام الضريبي في لبنان مرجع سابق ص ٢٣١

نسبة أملاكه وأراضيه وأمواله وحيواناته وأرباحه،^(١) تغير وضع هذه الضريبة بعد التنظيمات فأصبحت من الضرائب الموحدة ١٢٥٥-١٢٧٥ هـ/١٨٣٩-١٨٥٨ م حيث يؤخذ بنسبة ثلاثين بالآلف من مجموع الربح السنوي وارتفعت في العام ١٢٩٧ هـ/١٨٧٩ م إلى الأربعين بالآلف.^(٢)

- ويركو الأملاك:

كان يتم تحصيل هذه الضريبة عن البساتين والأراضي التي لا تدفع العشر.^(٣) حيث يتم تحصيل أربعة بالآلف عن الأراضي الأميرية المستثمرة من السكان بينما الأراضي المشجرة فضريتها ثمانية بالآلف. وقد تساهلت الدولة بتحصيل هذه الضريبة بتفسيطها على عشرة أقساط في السنة.^(٤) وفي العام ١٢٧٨ هـ/١٨٦١ م صدر نظام ويركو الأملاك وبموجب هذا النظام أعطي مختارو القرى صلاحية توزيع هذه الضريبة على قراهم وتسجيلها بدفاتر تتضمن المعلومات الدقيقة عن القرية للتوزيع العادل لهذه الضريبة بين الأهالي، وهذا ما لم يحصل لأن الوساطة والمحسوبية أخذت دورها فكانت سلاحاً قوياً بيد متنفذي القرى.^(٥)

- ضريبة المسققات:

بدأت الحكومة بجبايتها منذ عام ١٢٧٥ هـ/١٨٥٨ م وقد حددت نسبها بما يلي:

- البيوت التي لا تتجاوز قيمتها العشرين ألف قرش يجبى عنها خمسة بالآلف
- البيوت التي تزيد عن العشرين ألف قرش فما فوق يجبى عنها ثمانية بالآلف
- المسققات المعدة للإيجار والبساتين والكروم المستثناة من الأعشار يجبى عنها عشرة بالآلف

- مسققات الأوقاف يجبى عنها أربعة بالآلف.^(٦)

- ضريبة البذل العسكري:

أو ما سمي الإعانة الجهادية، ولغير المسلمين بالإعانة العسكرية، أو الويركو المقطوع، أو المال المقطوع أو المحدود،^(٧) وقد تساهلت الدولة أيضاً في تحصيلها بتفسيطها على عشرة شهور كالويركو، كما رفعتها الدولة عن الفقراء من الفلاحين في مواسم الحرث والزرع.^(٨)

- ضريبة العمال المكلفين:

(٤) كرد علي، خطط الشام، ج ٥ ص ٩٨

(٥) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ص ١٧١

(٦) سعيد، تطور الملكية العقارية، ص ١٩١

(٧) الحسني، مصدر سابق ص ٢٣١

(١) حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين، ج ٣ ص ٢٤٣

(٢) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، ص ١٧٣؛ سعيد، النظام الضريبي في لبنان،

ص ٢٣٩

(٣) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ص ١٧٣

(٤) الدستور، مج ٢ ص ٢٧

صدر نظام الطرق والمعايير في عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م وحدد الشبان الذين يشملهم بالعمر ما بين ١٦-٦٠ سنة في المدن والقرى والقصبات وشمل أيضاً حيوانات الحمل والجر والعربات بالعمل مدة عشرين يوماً على مدى خمس سنوات بمعدل أربعة أيام في السنة قد تزيد في حال الضرورة على ألا تتجاوز العشرة أيام في الخمس سنوات وقد راعى القانون أيضاً عدم العمل في مواسم الزراعة والصناعة كما راعى البعد الجغرافي للعمال عن موقع العمل إلا بموافقة الباب العالي^(١) وقد أجاز النظام للمكلفين دفع البذل النقدي وكانت في بلاد الشام ستة عشر قرشاً عن السنة وتختلف من ولاية إلى أخرى حسب أجره العامل^(٢).

- ضريبة المعارف:

سابقاً كانت هذه الضريبة جزءاً من الويركو وتجبى معها ومقدارها (٥٪) من قسم المسقفات ثم تقدمها الحكومة لمصلحة الأشغال العامة لتنفقها على المدارس^(٣). ثم صدر نظام المعارف في ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م حيث أنشئ صندوق المعارف وقد تعددت موارده من المخصصات الأميرية وأقساط طلاب المدارس العالية، وإعانات أهالي الولاية السنوية وتخصيصات الوقف^(٤).

- رسوم المواشي:

اقتصرت الدولة العثمانية في أول عهدها في رسم الماشية على الغنم فقط بمعدل رأس غنم واحد من كل عشرة أغنام فكان استحقاقها عينياً ثم أصبح نقداً بمعدل بارة عن كل قرش من ثمنها أي ما يعادل ٢٪ وفي عام ١٢٤١هـ/١٨٢٦م استحققتها الدولة عينياً وفي عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ازدادت قيمتها نقداً فأصبحت أربعة قروش عن كل رأس غنم وعشرة قروش عن كل رأس إبل أو جاموس^(٥)، ثم ازدادت أيضاً فأصبحت ثمانية قروش عن كل رأس ضأن أو ماعز وعشرين قرشاً عن رأس الإبل أو الجاموس^(٦).

- الرسوم الجمركية: وهي نوعان داخلية وخارجية

١- رسوم داخلية:

مع صدور نظام إيرادات الرسوم في سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦٢م أعفيت منتجات القضاء المستهلكة داخل القضاء من الرسوم الجمركية ويفرض عليها فقط ضريبة (تمغة ٢٪) أو بنسبة بارة واحدة لكل قرش من قيمة المنتج إذا سوقت في أقضية ليس لها جمارك^(٧) وحدد النظام بعض الرسوم التي تؤخذ على بعض المواد فعلى أقة القهوة ثمانون بارة، وأخشاب الأحراش الأميرية ٢٠٪ والخاصة ١٠٪ وعلى السمك

(٥) الدستور ، مج ٢ ص ٢٦١-٢٦٧؛ غنايم، مرجع سابق ص ٤٩٦ ؛ عوض الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ص ١٧٥

(١) الحسني، مصدر سابق ص ٢٣١

(٢) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ص ١٧٤

(٣) الدستور ، مج ٢ ص ١٨٥-١٨٧

(٤) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ص ١٧٥-١٧٦

(٥) كرد علي، خطط الشام، ج ٥ ص ٩٣

(٦) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ص ١٧٦

المصطاد ٢٠٪ وقد يؤخذ الرسم نقداً أو عيناً وعلى ما يباع في الأسواق بارة واحدة على كل قرش من سعر المبيع^(١) وفي عام ١٢٧٨ هـ / ١٨٦٢ م أصدرت الدولة نظام احتكار الدخان وتلته بإصدار رسم بيعية الخان في مراكز الإيالات والألوية والنواحي بنسبة ٣٠٪ من أجرة المحل السنوية مع إلغاء ضريبة يومية الدكاكين^(٢) وفي عام ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م صدر نظام يسمح بتصدير الدخان إلى الخارج وفق شروط معينة^(٣) وفي عام ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م منع استيراد الملح الأجنبي وأشرفت الدولة على إدارة الملاحات واحتكرت الدولة وبشكل كلي المنتج والبائع للملح في كل أنحاء الإمبراطورية، وشددت الجزاء النقدي على الملح المهرب ومصادرتة^(٤) وفي عام ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م أصدرت الدولة نظام رسوم المسكرات حيث أعفت ٢٠٠ أقة من الخمر بصيغة الاستهلاك الشخصي وأخذت ١٠٪ من قيمته وقد أعفت الدولة أماكن بيع الخمر من الضريبة أو الرسم وفرضت على أماكن شربه بنسبة ٢٥٪ من أجره السنوي^(٥).

٢- رسوم خارجية:

تحدد قيمة هذا الرسم بموجب المعاهدات التجارية مع الدول، وبرز دور الامتيازات الأجنبية وتأثيرها في الدولة بقدرتها على تخفيض هذه الرسوم بنسبة ٣٪ من قيمة كل من الصادرات والواردات^(٦) ولأن عائدات الدولة من هذه الإيرادات كانت ضعيفة حاولت التعويض من خلال سياسة الحظر والاحتكار التي مارستها الدولة على البضائع بالامتيازات التي تمنحها للتاجر الأوربي بتحديد سلعة في الامتياز الممنوح له (وهذا يعني أن هذه السلعة مسموح له المتاجرة بها وغير المذكورة محظورة عليه)^(٧) ولكن التاجر الانكليزي الأوربي تخلص من هذا القيد أيضاً بتوقيع معاهدة بلطة ليمان ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م التي حررتة من كل قيود الاحتكار والحظر وسمحت له بشراء البضائع من كل أصقاع الإمبراطورية ولا يدفع سوى العوائد الجمركية فقط، وحددت بنسبة (٥٪) على الواردات و (١٢٪) على الصادرات و (٣٪) على العبور^(٨) ثم وقعت هذه الاتفاقية مع بقية بلدان أوربا وأمريكا في ١٢٧٧ هـ / ١٨٦١ م وتم رفع النسبة على الواردات من ٣ إلى ٨٪ وخفضت على الصادرات من ١٢ إلى ٨٪ واستمرار تخفيضها سنوياً ١٪ حتى تصل إلى ١٪ فقط^(٩).

٦- جباية موارد الولاية:

(١) الدستور ، مج ٢ ص ٣٤

(٢) الدستور، مج ٢ ص ٥٥٤-٥٧٩

(٣) الدستور ، مج ٢ ص ٥٨٠-٥٨٥

(٤) الدستور ، مج ٢ ص ٦١٠-٦٣١

(٥) الدستور ، مج ٢ ص ٦٣٢-٦٤١

(٦) بازيلى، مصدر سابق ص ٢٨٨

(٧) كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٩٥

(٨) عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب، ص ٢٠٣ ؛ بازيلى، المصدر السابق ص ٢٩٠

(٩) كرد علي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٩٦

١- قبل التنظيمات:

كانت الدولة تكلف واليها بجمع الموارد المالية^(١) من الولاية ويقوم هو بدوره بتكليف الملاكين الإقطاع بذلك وقد زود بقوة مسلحة لتساعده بجمع الضرائب بالقوة، وغالباً ما كانت هذه القوة تستخدم في غير مكانها لمصالح شخصية^(٢) وبسبب المساوئ الكبيرة لهذه الطريقة من إفقار الفلاح، واتساع الأراضي الموات على حساب الميرية، وتحويل الإقطاعيين الكثير من أراضيهم إلى أوقاف ذرية أو ملكيات وراثية، فضلاً عن عجزهم عن أداء مهمتهم الأساسية في حفظ الأمن وترسيخ سلطة الدولة ولهذا فقد تراجعت الإقطاعات في بلاد الشام إلى حد كبير^(٣) وقد دخل في منافسة قوية في القرن السابع عشر مع نظام الالتزام حتى تلاشى نهائياً في القرن التاسع عشر ليحل النظام الجديد محله الذي يقوم على بيع الضرائب في الأقاليم والولايات للمتنفذين أو أصحاب العصبية المحلية أو كبار الموظفين مع إعطائه صلاحيات واسعة في جمع ضعف ما هو مطلوب منه^(٤).

كانت الدولة تهتم فقط لضمان وصول الضرائب إلى خزانة الدولة من دون الاهتمام بحال رعاياها تاركة إياهم تحت رحمة من توليه على جمع أموالها، فكان حالهما أسوأ من بعض، فالدولة تأنّ تحت تأثير شح الموارد وتضخم النقد، والرعايا يئنون تحت ظلم الولاة والموظفين والمتنفذين وغيرهم من السيوف المطلقة على رقابهم، والمستفيد من هذا وذاك هو الطبقة المتسلطة فقط، فالملتزم بالضرائب لسنة واحدة لن يكون همه إلا جمع أكبر قدر من المال وبأي طريقة كانت،^(٥) ومع نهاية القرن السابع عشر وجد نظام المالكانة^(٦) وجاء هذا النظام الجديد وانتشر بسرعة حتى ساد في القرن الثامن عشر وأبطأ في عملية الانهيار التي تصيب الاقتصاد العثماني، وخفف العبء عن الفلاح نوعاً ما لأن هذا النظام ترك الزمن الكافي لأصحاب المالكانة لامتصاص دم الفلاح على البطيء وبالتدريج بدل أن يكون في سنة واحدة، وأخذت أحوال الفلاح تتحسن لأن هؤلاء المتسلطين وجدوا أن تحسن مصلحتهم مرهونة بحال الفلاح.^(٧)

٢- بعد التنظيمات:

(٣) كان الإقطاع يتولى جمع الأعشار والرسوم الشرعية من الأهالي Gebb & Bowen : Islamic Society and The West, vol.1, part 11, p.21 كما أخذوا صلاحية تحصيل رسوم الجمر والخمور. بولياك

مصدر سابق ص ١٤٣

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٧

(٥) المصدر السابق، ص ١٢٠؛ سعيدوني، مرجع سابق، ص ٣٧٢

(٦) حنا، ملامح من تاريخ الفلاحين، ج ٣ ص ٤١-٤٢

(١) الصباغ، المجتمع العربي السوري، ص ٦٢-٦٣

(٢) المالكانة تصبح ملكاً لشاغلها مدى حياته وله الحرية في البيع والشراء بشرط موافقة الدولة، وتعرض للمزاد في حال وفاته والأفضلية تكون لأولاده. جيب وبوين، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٨-٨٩

(٣) جيب وبوين، المرجع السابق ص ٨٣

حرصت الدولة وبشكل كبير على تنظيم جباية الأموال الأميرية،^(١) ولكنها سعت أيضاً التخفيف من مساوئ هذه النظم من خلال إصدار القوانين والأنظمة المتلاحقة التي تحد من أضرار النظم المتبعة في جباية أموال الولاية^(٢).

ورغم أن خط كلخانة قد ألغى نظام الالتزام في ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م لكن الدولة لم تستطع التخلي عنه نهائياً ولم تستقر على نوع معين في جباية مواردها المالية فتارة تستوفيها عن طرق الأمانة على ذمة الحكومة وبمعرفة جباة خصوصيين كما في عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م وتارة أخرى تعود للالتزام كما فعلت عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م حيث ألزمت عشر كل قضاء لمدة سنتين، من ثم عادت في ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م وعهدت بتحصيل الأعشار لموظفي الدولة، وبقيام حرب القرم ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م أعيد نظام الأمانة لتأمين تمويل الجيش^(٣) وفي بعض الأحيان تضطر الدولة إلى الإيعاز إلى ولايتها بجمع الضرائب ولو قبل أوانها لنقص تعانيه في واردات الدولة كما حصل في العام ١٢٦٦هـ/١٨٥٩م.^(٤) وبعد إعلان التنظيمات الخيرية في العام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م عادت الدولة لنظام الالتزام، ولكنها منعت موظفي الدولة وأعضاء المجالس المحلية من التعهد بأي التزام، كما منعت تلزيم أعشار لوائين ملتزم واحد ومدة الالتزام سنة واحدة، وإذا تأخر الملتزم عن القرية يقوم المختار مع مجلس الاختيارية باستيفاء العشر المقرر ويدون في دفتر مختوم من طرف المختارين ويسلم للملتزم الذي لا يحق له الاعتراض.^(٥) وفي عام ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م صدر نظام استيفاء الواردات العشرية والرسومية من الملتزمين تضمن سبع عشر مادة. فمثلاً التعليمات التي صدرت بخصوص استيفاء الواردات العشرية عن القطن والحبوب تمنع الملتزم أو أتباعه من أخذ أي شيء من الأهالي مجاناً ومنعته أيضاً من تسخير الفلاحين في نقل حاصلات الأعشار من دون مقابل. ومنعت الملتزم أيضاً من إجبار الفلاح على نقل محصوله إلى سوق أبعد من سوق المنطقة المحلي^(٦) كان ملتزم أعشار القرى يسمى عشاراً وكان العشار يعين في كل قرية رشاماً مهمته الحفاظ على البيادر ويمنع حتى أصحابها أخذ أي شيء منها قبل أن يأخذ العشر عنه،^(٧) لقد كان الملتزمون في بعض الأحيان يتعرضون للخسارة كما حصل في ملتزمي أطراف حلب عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م حيث انتهى بهم التزامهم إلى الإفلاس، ولهذا كان هؤلاء يتضامنون سوية بصوت واحد لمنع رفع

(٤) قسم نظام ميزانية الدولة الإيرادات إلى قسمين: الأولى الأمانة وهي التي تحصلها الدولة مباشرة وهي الويركو والمال المقطوع عن بعض الإيالات والإعانة العسكرية ومحصولات المعادن والأموال الأميرية. الثانية الالتزام وهي الإيرادات التي تحصلها الدولة بالوساطة ما بينها وبين الرعايا من قبل الملتزم وهي الجمارك والأعشار والرسوم وحاصلات الطابو والعقود والأوراق الصحيحة. الدستور مج ٢ ص ٢٦

(٥) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ص ١٨٦

(٦) كرد علي، خطط الشام، ج ٥ ص ٩٣-٩٤

(١) سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم السجل ٥٦ رقم الوثيقة ٣٢ حررت في أواسط رمضان ١٢٦٦هـ ص ١٧

(٢) الدستور، مج ٢ ص ٣٦-٤٠

(٣) يمكن مراجعة النص كاملاً في الدستور، مج ٢ ص ٢-٤٨

(٤) القاسمي، ج ١، مصدر سابق، ص ١٥٥+ج ٢، ص ٣١٠ - ٢٠٧ -

قيمة الأعمار في أثناء المزايدة عليها لأن هذه المنافسة كانت العامل الأخطر في تقليل أرباحهم.^(١)

٧- النقود والأوزان والمقاييس:

شهد القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين مرحلة الانحسار العثماني من الهيمنة العالمية إلى سعيها بالحفاظ على كيان الدولة وحدودها، وقد شهدنا التراجع الاقتصادي الحاد الذي شهده وضع الإمبراطورية وكذلك النقد العثماني عانى في تلك الفترة من القضية نفسها وكانت السمة الغالبة على وضعه في هذين القرنين:

- انخفاض قيمة النقد العثماني بشكل مستمر وفقدانه قوته الشرائية، وما رافق ذلك من ارتفاع الأسعار.

- فقدان الثقة بالعملة المحلية نتيجة تراجعها المستمر والتوجه نحو العملات الأجنبية لأنها أكثر ثباتاً وأماناً.

- استنزاف الأسواق من العملات المحلية الذهبية والفضية بسبب الأوضاع الاقتصادية وارتفاع قيمة الواردات للدولة مقابل انخفاض الصادرات^(٢) ففي عام ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م أصبحت الصفقات التجارية في حلب تعقد بموجب صكوك (كمبيالات)

- كذلك سحب كميات كبيرة من هذه العملات من السوق وتحويلها إلى مصاغ وحلي لتتنزين بها النساء.^(٣)

- سعى الأوروبيون أنفسهم إلى إغراق السوق العثمانية بالنقود المزيفة لإضعاف الاقتصاد.^(٤)

- تحول أسلوب التجار الأجانب من طريقة المقايضة التي كانت متبعة قبل قيام الثورة الصناعية إلى طريقة البيع النقدي حيث يقدمون للأسواق السلع المطلوبة ويستنزفون النقد الذهبي والفضي من السوق.^(٥)

وعند قدوم المصريين جاءت معهم نقودهم وكان الفارق بين قيمتها وقيمة النقود العثمانية متراوحة ما بين ٥-٧٪ فامتحن بعض التجار أخذ النقود المصرية إلى استانبول لتبديلها وتحقيق الربح من الفارق بين العملة ورغم التشدد المصري فإنه لم يحل المشكلة^(٦) ونتيجة لهذا التدهور الاقتصادي وهبوط سعر العملة فقد

(٥) الحسني، مصدر سابق، ص ٢٢٩-٢٣٠

(١) ليلي الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٩ م ج ١ ص ٣٩٠؛ عيسوي، مرجع سابق، ص ٥٩٣

(٢) علي الزين العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية دار الكتاب اللبناني بيروت، ودار الكتاب المصري القاهرة ط١، ١٩٧٧ م ص ١٧٧

(٣) الصباغ، الجاليات الأوربية، المرجع السابق ج ١ ص ٣٩١-٣٩٢

(٤) كرد علي خطط الشام ج ٣ ص ٩٥-٩٦

(٥) يوسف نعيسة، المرجع في وثائق تاريخية عن الشام في أثناء حملة محمد علي باشا ١٢٤٧-

١٢٥٦هـ/١٨٣١-١٨٤٠م، دار طلاس، دمشق ط٢، ص ٥٦

اختفت النقود الصغيرة من السوق فاقترح سك كميات كبيرة منها وطرحها في الأسواق حتى لا تتعطل حركة البيع والشراء بين العامة.^(١)

كانت النقود المتداولة خلال فترة القرن الثامن عشر في بلاد الشام هي البارة^(٢) و القرش^(٣) والزهر اوي^(٤) والمثلّيك^(٥) وفي القرن التاسع عشر سكت عملات جديدة منها البشّلك^(٦) ولكنها لم تؤدّ إلى تحسن الأوضاع لأنها كانت قليلة الوزن، كما قام السلطان عبد المجيد ١٢٥٥-١٢٧٨ هـ / ١٨٣٩-١٨٦١ م بسك مجموعة من النقود عرفت بالنقود المجيدية ومنها الليرة الذهبية المجيدية وقيمتها ١٠٠ قرش ونصفها خمسون قرشاً والريال المجيدي^(٧) والبرغوث الصغير والبرغوث الكبير^(٨) ثم دخلت العملات الأجنبية إليها مع التجارة الأوربية الوافدة، فقد وجد في أسواق حلب الليرة الذهبية بأنواعها^(٩) : كالعثمانية وتعادل مائة قرش،

(٦) نعيصة، وثائق تاريخية عن الشام، ص ٢٠٠

(٧) البارة: كلمة فارسية الأصل تعني الجزء أو القطعة ودخلت التركية بمعنى الفلوس بعامّة أمر بضربها من الفضة السلطان مراد الرابع في بداية القرن السابع عشر ولا تعادل من القرش سوى عشره (أي كل عشر بارات تعادل قرشاً أو أربع أقباج) وكانت تسمى ؛ المصرية، ثم ضربت في القرن التاسع عشر وقد قلت فيها كمية الفضة فأصبح القرش الواحد يعادل أربعين بارة، وبعد أن ضرب في الدولة المجيدي أصبحت البارة تسك من النحاس. عامر، المكايل والأوزان ص ١٥٧

(١) القرش: كلمة لاتينية (Grossus) كان الأوربيون يطلقونها على الدينار المسكوك في أوربا بأنماط مختلفة، دخلت الكلمة إلى الدولة العثمانية (Gurus) ومنها إلى البلاد العربية، والقرش نوعان: قرش صاغ ويعادل أربعون بارة. وقرش رائج ويعادل عشر بارات. وقد يلفظ قرش بالقاف أو غرش بالعين وكلاهما جائز. عامر ، المكايل والأوزان والنقود، ص ١٩٠

(٢) الزهراوي: سمي بهذا الاسم لوجود زهرة على أحد وجهيه ويساوي خمسة قروش صاغ أي ٢٠٠ بارة وهو موجود منذ عام ١٨٠٠ في عهد السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧ م وهناك نصفه ويساوي ١٠٠ بارة وبقي مستعملاً حتى العام ١٩٠٠ م الأب أنستانس الكرمل، النقود العربية والإسلامية وعلم النميات، مكتبة الثقافة المدنية ٢، ١٩٨٧ م ص ١٠٢ أما الدكتور عامر فيحدد استخدامه في سورية وفلسطين والأردن ويساوي قرشاً صاغاً وأطلق علي الأردنيون أسم وزري . عامر، المكايل والأوزان ص ١٨٨-١٨٩

(٣) المثلّيك: تحريف للكلمة (Metalike) بمعنى معدن سكت في عهد السلطان محمود الثاني وهي مزيج من النحاس والنيكل وكانت تعادل ربع قرش صاغ أي عشر بارات. الكرمل، المصدر السابق ص ١٠٦

(٤) البشّلك: (Beslik) نقد عثماني ضرب من الفضة ومنه القديم وكان يعادل ٧٢ قرشاً والبشّلك الجديد ويعادل خمسة قروش صاغ وعشرين قرشاً رائجاً ويعادل مائة بارة وكان منه النصف بشّلك. عامر المكايل والأوزان والنقود مرجع سابق ص ١٨٧

(٥) ريال مجيدي: وكان يعادل عشرين قرشاً أي ثمانمائة بارة، سك في سنة ١٨٣٩ م وكان منه النصف مجيدي والربع مجيدي وبقي متداولاً في تركيا حتى عام ١٩٣٥ م. عامر، المكايل والأوزان والنقود ص ١٨٩

(٦) البرغوث الصغير: وهي تحريف عن الكلمة التركية (برغوش) أي قرش واحد ولفظ عن أهالي الشام برعوط لصغر حجمه سك من الفضة عام ١٨٥٠ م وكانت قيمته قرش صاغ واحد.

البرغوث الكبير: سك في عهد السلطان عبد العزيز من الفضة وكان أكبر من القطعة التي سكت في عهد عبد المجيد وكان يعادل قرشين فسمي برعوط كبير. عامر، المكايل والأوزان ص ١٨٦-١٨٧ ؛ الكرمل، المصدر السابق ص ١٠٤

(٧) من ضمن وثائق المحاكم الشرعية في حلب هناك وثيقة تشير إلى تركة المتوفاة فاطمة والتي تشير إلى وجود الليرة الذهبية العثمانية (المجيدية) وكان سعرها ١٥ قرشاً، والليرة الفرنسية ١٤٨,٥ قرشاً والريال المجيدي الفضي ويعادل ٢١,٤ قرشاً . سجل رقم ٣٠٧ وثيقة ٩٦ تاريخ ١٢٩٤ هـ-١٨٧٧ م ص ٦٨

والفرنسية^(١) والإنكليزية^(٢)، وكان أيضاً الريال المجيدي^(٣) ويذكر الغزي أن العامة من التجار والباعة كانوا يتداولون العملة العثمانية ولكن قيمتها تتبع لأسعار الذهب والفضة وغالباً ما يكون أعلى من السعر التي تحدده الحكومة^(٤) ويذكر نعوم بخاش في يومياته في العام ١٢٧٥ هـ - ١٨٥٨ م كان سعر الليرة الإنكليزية / ١٢٧ قرشاً وسعر المجيدية / ١٢٠ قرشاً والريال المجيدي / ٢٤ قرشاً^(٥) وقد كان للعملة عدة أسعار وتختلف من مدينة إلى أخرى والسبب في ذلك يعود إلى أن للعملة العثمانية نوعين: الأول العملة الذهبية الأصلية، والثاني: العملة المغشوشة التي تنتشر في السوق للتجارة والتداول بين الناس وبهذا أخذت العملة أربع قيم وهي:

- القيمة الخالصة: وتكون عندما تدفع قيمة الشيء نقداً بالذهب أو الفضة.
- القيمة المغشوشة عندما يكون الدفع بالنقد النحاسي .
- القيمة الصاغ: وهو الذي تحدده الحكومة.
- القيمة الشرك أو الجورك (النقود المغشوشة): وهي قيمة الشيء بالعملة الدارجة^(٦).

وذلك يعني أن الحكومة وحدها هي التي كانت تستخدم في معاملاتها الحكومية النقود الذهبية والفضية التي تتساوى قيمتها المعدنية والرسمية، وأما المعاملات اليومية فلها نقود رمزية حيث قيمتها الاسمية أعلى من قيمتها الحقيقية وهنا أيضاً تصنف في ثلاث قيم وهي:

- القيمة القانونية: الليرة الذهبية تعادل ١٠٥,٢٦ قرش والمجيدية الفضية تساوي ١٩ قرشاً

- قيمتها لتجارة التجزئة: الليرة الذهبية ١٠٨ قرش،
- القيمة التجارية وتختلف من مكان لآخر وهي خاضعة لقانون العرض والطلب في ارتفاعها أو انخفاضها^(٧)

ومما زاد في اضطراب أوضاع البلاد الاقتصادية هو محاولات الحكومة تنظيم سعر صرف العملات فمثلاً في العام ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٠ م قامت الحكومة بسحب عملاتها من السوق لتطرح بدلاً عنها عملات أقل قيمة وغير كافية لحاجة

(٨) العملة الفرنسية التي كانت متداولة هي من فئة العشرين فرنكا (النايليوني) (الليرة الفرنسية) وتساوي رسمياً ٨٧,٥ / قرش. وفي السوق تساوي ١٠٩ / قرش غنايم، مرجع سابق، ص ٥٢١

(٩) العملة الإنكليزية فكانت الجنية وتساوي رسمياً ١١٠ / قرش وبسعر السوق تساوي ١٣٧ / قرش. ولكن هذه الأسعار للعملات الأجنبية لم تكن ثابتة بل تختلف من سنة لأخرى ومن مدينة لأخرى . المرجع السابق ص ٥٢١

(١) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٩٢ ؛ مهملات، حلب التراث، ص ٣٧

(٢) الغزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٩٢

(٣) بخاش، مصدر سابق ج ٣، ص ١٠٥

(٤) سليم عرفان المبيض، النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الأجنبية، من القرن السادس قبل الميلاد حتى عام ١٩٤٦ م الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩ م ص ٢٥٩

(٥) عيساوي، مرجع سابق، ص ٥٩٥

السوق، وكررت عملها ثانية في عام ١٢٧٧هـ-١٨٦٠م عندما قررت خفض سعر الصرف في القروش الشرك للعملات الأجنبية والعثمانية الصحيحة بنسبة ٢٠٪^(١) وكانت الدولة العثمانية تصدر لائحة^(٢) بقيمة النقود الذهبية المتداولة في الدولة العثمانية بالقروش لمنع الغش والتلاعب بأسعار العملات التي تصدرها الدولة^(٣) ونتيجة لعدم استقرار سعر العملة فإن حركة السوق المحلية أخذت تثبت تعاملاتها التجارية وتدون في الوثيقة سعر العملة التي تم على أساسها العمل^(٤) ولهذا فضل الكثير من التجار التخلص من مشكلة تذبذب أسعار صرف العملات المحلية بالتوجه نحو التعامل بالعملات الأجنبية الأكثر ثباتاً، ولهذا نجد في كثير من تركات الميسورين في حلب عملات أجنبية كالليرة الفرنسية والجنية الإنكليزي^(٥) وبعضهم استخدم الحوالات (الشيكات) لتسهيل معاملاتهم التجارية بين المدن ويقلل من التعرض لعمليات السطو عبر الطرق غير الآمنة ولكن حتى هذه كانت تعاني من تعدد النقد واختلافه بين مدينة وأخرى^(٦) وهكذا يمكن أن نستخلص ما آلت إليه أوضاع حركة الاقتصاد العثماني في ظل هذا التذبذب لأسعار العملات في الدولة:

- فقدان النقد العثماني الثقة في البيع والشراء والإقتناء، لأن كل سلطان عثماني كان يسك النقود الذهبية تفاخراً وتعظيماً وخزينة الدولة خاوية واقتصادها منهار متجاهلاً ظروفه الداخلية السيئة وما يحيط به من ظروف خارجية^(٧).
- كانت عمليات تزوير أو غش العملة أو زيادة سعر صرفها تؤدي إلى زيادة أسعار السلع والبضائع في السوق بشكل مطرد .
- امتناع التجار عن التوسع في تجارتهم خشية الخسائر من اضطراب أسعار العملات.

(١) المرجع السابق ص ٥٩٦

(٢) سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم ٣٦ وثيقة رقم ٥ حررت أواسط ربيع الأول ١٢٢٩هـ: أمر سامي بلزوم الرجوع إلى التعليمات الصادرة عن الباب العالي في التعامل بالنقود الذهبية وخلافها بعد أن عم الفساد في نسب تداول هذه النقود وأدت إلى الإضرار بمصالح الدولة والمواطنين والنسب هي :

١- فئة يلدر التوني=١٣ قرشا
٢- فئة مجر التوني =١٢,٥ قرشا
٣- فئة فندق التوني=٥١٠ قرشا
٤- فئة زر محبوب التوني= ٨ قرش
٥- فئة مصر زر محبوب التوني= ٧ قرش
٦- فئة الريال= ٥٥ قرش و ١٠ بارات
٧- والفئات الأخرى بحدود=٥٥ قرش
٨- فئة التون اسبانيا المفرد=٣٠٩ قرش
٩- فئة التون اسبانيا المزدوج= ٢٣ قرشا و ١٠ بارات
يضاف إلى ذلك أن تكون ربيعة فندق التوني بـ ١١٠ أفجة وسعر الجهادية بـ ٥ قرش.

(٣) عامر، المكايل والأوزان والنقود ص ١٧٥

(٤) سجلات المحاكم الشرعية في حلب رقم السجل ٣٠٢ وثيقة ٤٦ / حيث تذكر الوثيقة أن المدعوة مريم بنت علي قامت ببيع نصف دارها بثمن قدره ٤٠ / ليرة ذهبية مجيدية وأن قيمة كل ليرة ١٠ / قرش. تاريخ

الوثيقة محرم ١٢٨٩هـ ص ٣٤

(٥) بخاش مصدر سابق ج ١ ص ٤٣٢

(٦) الصباغ، الجاليات الأوربية، ج ١ ص ٣٩٦-٣٩٧

(١) عامر، المكايل والأوزان والنقود ، ص ١٧٧

- المشكلات الكثيرة التي تمت بين الدائن والمدين في عمليات التبادل التجاري، لأنه في ظل هذا الاضطراب لم يكن هناك ضمان للحقوق، لا سيما أن العقود لم تكن تنص على السداد بالعملة نفسها.^(١)

كانت الضحية الأولى لهذا الوضع هو طبقة صغار الصناع والتجار والفلاحين والمأجورين، إذ لم يقف خوفهم عند مسألة الطعام واللباس وإنما مسألة الضرائب التي يترتب عليهم دفعها بالنقد الصحيح.^(٢)

أما بالنسبة للمكايل والأوزان فإن جميع الدراسات التاريخية والأثرية التي تطرقت إلى الفترة العثمانية تؤكد أن العثمانيين قبلوا الواقع الاقتصادي الذي كان سائداً في المناطق التي خضعت لنفوذهم، واستخدموا مكايل وأوزان الشعوب التي تكونت منها دولتهم ثم إمبراطوريتهم، لكنهم أضافوا إليها مكايل وأوزان خاصة بهم جاء ظهورها نتيجة التطور الاقتصادي.^(٣)

وبالنسبة للموازين في حلب فقد كان الرطل مستخدماً منذ أكثر من خمسمائة عام وكان يزن ٧٢٠ درهم ويقسم إلى ١٢ وقية وكل وقية ٦٠ درهم^(٤) وكل درهم ١٦ قيراط وكل قيراط ٤ قمحات وكل مائة رطل تساوي قنطاراً ومع قدوم الحكم المصري فرض إبراهيم باشا على حلب استعمال الحقة وتزن ٤٠٠ درهم.^(٥) ومنذ العام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م استعملت حلب رطلاً يزن ٨٠٠/ درهم وقسم إلى ١٢/وقية، وفي العام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م أمر الوالي أن يزداد الرطل ٢٠٠/درهم ليصبح ١٠٠٠/ درهم مقسماً إلى عشر أواق وكل أوقية ١٠٠/ درهم وذلك بسبب ارتفاع الأسعار وحرصاً من الوالي على الفقراء مما سيلحق بهم من خسائر بفروق الأسعار^(٦) وفي سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م تم تعديل الدراهم التي يوزن بها الحرير والذهب فأصبح الرطل واحداً لكل البضائع ويساوي ٣/كيلو و ٢٠٧/ غرامات و ٤/سانتيغرام^(٧)

وأما بالنسبة للمكايل والأوزان فلم يطرأ عليها تغيير وبقي ما كان متعارف عليه.

ب- أوضاع ولاية حلب اجتماعياً:

(٢) رافق، الاقتصاد الدمشقي، ص ١٣٠

(٣) الصباغ، الجاليات الأوربية، ج ١ ص ٣٩٦

(٤) عامر، المكايل والأوزان والنقود، ص ٥٨

(١) الدرهم أساس نظام الأوزان في الإسلام مأخوذ من اليونانية دراخما والدرهم عند الأتراك كان يوزن ٧٤/حبة شعير، وقد يوزن ٧٢/حبة أو يوزن ٦٠٠ حبة خردل وسط. عامر، المكايل والأوزان والنقود، ص ٦٣

(٢) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٨٧

(٣) عائشة الدباغ، الحياة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، دار

الفكر بيروت، ١٩٧٢م صوفي سنة ٤٤

(٤) الغزي المصدر السابق ج ١ ص ٨٧

١- السكان:

حلب من أكثر ولايات الإمبراطورية التي امتزج بها العثمانيون دمويًا، فنادرًا ما نجد أسرة حلبية ليس لها جذور عثمانية، وكثيراً ما نجد أسراً حلبية نصفها في حلب والنصف الآخر في تركية، كما ظهر هذا الاندماج في الملابس والموسيقى والمنازل والأسماء والكنى والحرف وصور الأجداد باللباس العثماني، ولا تزال آثار هذا الاندماج موجودة حتى الآن في حلب.^(١)

لا تزال قضية تعداد السكان من المشاكل الكبيرة التي تعاني منها بلدان العالم الثالث إذ لا يزال وعي بعض المجتمعات قاصراً عن إدراك أهمية الإحصاء السكاني وما النتائج المترتبة على عدم إعطاء المعلومات الدقيقة وهذه مشكلة لا تزال تعاني منها في القرن الواحد والعشرين فكيف ومحور الموضوع يعود إلى الوراء ما يقارب القرنين من الزمن، حيث الدولة لم تكن تهتم بهذه القضية لأنها في الأساس تفتقد إلى التخطيط وإلى العمل على تأمين راحة ومتطلبات رعاياها، وهؤلاء الرعايا أيضاً كانوا يجهلون هدف الإحصاء إذ لم ينظروا إليه إلا كمصدر للخطر من حيث تقديم المعلومات عنهم للحكومة، فاقترضوا الشر وامتنعوا عن تسجيل أسمائهم تهرباً من الجندية وتخلصاً من الضرائب كابوسهم الدائم،^(٢) يذكر السير هاملتون وجيب بوين أن عدد سكان حلب وصل إلى /١٥٠,٠٠٠/ نسمة في العام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م^(٣)

وأول إحصاء للسكان في حلب كان في العام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م وقد شمل هذا الإحصاء الذكور فقط من دون الإناث لأن العرف يقضي بأنه من العار ذكر أسماء الإناث سواء زوجة أم بنت أم أخت أو غيرها ولهذا لم يعط هذا الإحصاء معلومات كافية عن عدد سكان حلب في ذلك العام وقد بلغ عدد الذكور حسب الإحصاء حوالي ستون ألفاً^(٤) ويبدو أن عدد سكان حلب في تلك الفترة كان يتناقص لأسباب عدة منها الفقر وشح الثروات والهجرة بسبب ركود التجارة وانتشار الأمراض والأوبئة التي كان يذهب ضحيتها الألوف من الأرواح.^(٥) ومن ثم في العام ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م جرى إحصاء في حلب وبلغ عدد السكان فيها حوالي المائة ألف نسمة وموزعة على الطوائف على الشكل الآتي: المسلمون وعددهم /٦٦٥٠٠/ نسمة، المسيحيون وعددهم /٢٩٠٠٠/ نسمة، اليهود وعددهم /٤٥٠٠/ نسمة.^(٦) أما إحصاء عام

(٥) عبد الجليل التميمي، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، زغوات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ١٩٨٨م، ص ٢١٦-٢١٧

(١) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٣٢

(٢) جيب و بوين، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٤ وقد ذكرت هذا التقدير لعدد سكان حلب ريجينكوف و نسكايا، سوريا ولبنان وفلسطين ص ٣٤٨

(٣) الطباخ، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٥١؛ الغزي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦٦

(٤) Barker & Edward: Syria and Egypt under the last five Sultans of Turkey. vol II. P.203

(٥) Farley: The Resources of Turkey. P.236

١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م فيذكر أن تعداد سكان ولاية حلب بلغ (٦٧١٥٤٢) نسمة^(١)، وهذا يعني أن عدد سكان الولاية تضاعف ست مرات خلال عشرين سنة وقد يكون ذلك محتملاً إن كانت هذه الزيادة ناتجة عن الوافدين إلى حلب مع حساب الزيادة الطبيعية لنمو السكان^(٢). وأما إنشاء دائرة النفوس في حلب فقد تأخر حتى العام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م حيث أنشأتها الدولة العثمانية لتقييد أسماء المواليد والوفيات والإعلام عن الشبان الذين بلغوا السن القانوني لدخولهم الجندية^(٣).

٢- الأوضاع الاجتماعية في حلب

لقد شهدت حلب في ظل الحكم العثمانية في القرن الثامن عشر تحولات كبيرة في البنية الاجتماعية والسياسية، ففي ميزان القوة السياسية أخذت القوات العسكرية في حلب تضم في صفوفها عناصر محلية أكثر فأكثر نتيجة تطوع السكان المحليين في صفوف الجندية إضافة للعناصر القروية التي انضمت إليها، فاكتملت حلب بقوتها العسكرية في وقت كانت فيه الإمبراطورية تعاني التقلص العسكري و الضرائبي، كما برزت قوة الأشراف كسلطة سياسية، وكثر أيضاً الذين ادعوا هذا النسب الشريف وبرزوا كسلطة سياسية من خلال منصب نقيب الأشراف فأصبحت حلب مسرحاً لصراع سياسي بين القوتين، والغاية هو سعي كل منهما للسيطرة على الآخر وإخضاعه^(٤).

وأما التطور الاجتماعي فقد بدا في ظهور طبقة الملاكين البيروقراطيين المرتبط بعملية الملكيات الخاصة للأراضي في المدن وضواحيها، وبذلك أثبتوا وجودهم وحلوا محل السلطتين السابقتين، العلماء الذين استمدوا سلطتهم من الأسس الدينية، والأغوات الذين استمدوا سلطتهم من أسس عسكرية^(٥)، وبرز حوالي اثنتي عشر عائلة^(٦) محلية من حلب، وتحول أفرادها إلى شركاء ناشطين في الحياة الاقتصادية والدينية والسياسية للمدينة، واستطاعت هذه العائلات أن تفرض سيطرتها على المناطق الزراعية الداخلية لحلب، وأن تثبت سلطتها بشكل شرعي إذ تولي أفراد هذه العائلات المناصب العالية في الدولة مرات متكررة (مثل منصب قائمقام، والمتسلم، وغيره)^(٧).

قد أدت الطوائف المسيحية واليهودية دوراً بارزاً في حلب، حيث كانت عمليات الصرافة والتجارة الخارجية والصناعات تحت سيطرة اليهود، كما كان

(٦) في الملحق رقم (١١) جدول يبين عدد سكان ولاية حلب موزعين على الأفضية التابعة للولاية حسب الطوائف

(١) سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م ص ١٨٠-١٨١

(٢) الغزي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٧١

(٣) Bodman. Political Factions in Alippo, p. 99؛ ماسترز، مرجع سابق، ص ١٥٦

(٤) فيليب خوري، أعيان المدن والقومية العربية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٢١+٢٩

(٥) من هذه العائلات الجابري، الكواكبي، المدرس، القدسي، طه، ليق، مومت، عامري، ولتظهر رقيها ونفوذها أضافت لأسمائها العربية لاحقة عثمانية هي (زادة) فصارت مثلاً جابري زادة، أو قدسي زادة. ماسترز، مرجع سابق، ص ١٥٨

(١) ماسترز، مرجع سابق، ص ١٥٨

أكثر القناصل الأوربيين^(١) منهم، كما استطاعوا السيطرة على أمور القوافل التجارية وصار يوم استراحتها هو السبت حيث عطلة اليهود الأسبوعية وكانوا يتلاعبون بأسعار النقد أيضاً،^(٢) أما المسيحيون فقد انقسموا إلى عدة طوائف فتبنى كل قنصل أوربي طائفة منهم.^(٣)

ومن ناحية أخرى شهدت البلاد بعامة في فترة الحكم المصري مبدأ المساواة ونودي به في الأزقة والشوارع، حيث ألغيت الفوارق ومنحت الحرية الدينية بين جميع الأجناس والديانات^(٤) وأصبحوا يمارسون ما كان محظوراً عليهم سابقاً فصار رجل الدين المسيحي يخرج بحرية بقلنسوته، ويتقدم الجنائز حاملاً الصليب، وطبق العدل على الجميع.^(٥)

أما اليهود الذين كانوا منبوزين سابقاً من الجميع^(٦) فقد تمتعوا في هذا العهد بحرية كاملة فزاروا مقدساتهم وكانت محظورة عليهم سابقاً وأمن لهم الحماية في مجال أعمالهم أيضاً،^(٧) ولكن هذه الحرية كان لها نتائج سلبية^(٨) من خلال بعض الممارسات الخاطئة^(٩) لها فساءت العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة في حلب، أدت إلى احتقان شعبي كبير بين المسلمين أخفوه في صدورهم وتربصوا بالسوء بجيرانهم^(١٠)، وابتهج المسلمون بخروج المصريين من الديار الشامية ولكن ليس بالشكل المأمول، لأن الطريق الذي شقه المصريون أخذ العثمانيون بتعبيده، ولا سيما بعد صدور خط شريف كلخانة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م^(١١) فجاءت رسالة من الصدر الأعظم إلى والي حلب يؤكد على حماية المسيحيين (نفوساً وأموالاً، وأعراضاً) بضمانة السلطنة^(١٢).

(٢) قناصل إسبانيا ودويلات إيطاليا والنمسا والمجر وتسكانيا وبخاصة من عائلتي مركبولي وبيجوتو. بخاش، مصدر سابق ص ٤٨

(٣) Barker & Edward: Syria and Egypt under the last five Sultans of Turkey. P.33

(٤) القنصل الفرنسي وضع تحت رعايته الموارنة واللاتين والروم الكاثوليك والسريان الكاثوليك والأرمن الكاثوليك والرهبنات اليسوعية والفرانسيكان. غرايبة، مرجع سابق ص ٨٢

(٥) سالم، مرجع سابق، ص ٢٤٧٢

(٦) جحاء، مرجع سابق، ص ٥٤؛ جمال باروت، حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر (حلقة حلب دراسة ومختارات) منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط ١٩٩٤، ص ٦٠

(٧) يذكر راسل نقلاً عن الرحالة دارفيو "أن اليهود أخط شعب على الأرض، ويحملون ضغينة مميته للمسيحيين" راسل، مصدر سابق، ج ١ ص ١٧٥

(٨) سالم، مرجع سابق، ص ٢٥٨-٢٦٠

(٩) ففي الوثيقة رقم ٢٠٨ من سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم ٥٥ رفع شكوى من الأهالي إلى قاضي حلب على الطائفة الأرمنية التي حاولت طمس آثار المدرسة التابعة للأوقاف والمعروفة باسم مدرسة المحتسب وقد رفع القاضي الشكوى على الوالي تاريخ ٥ محرم ١٢٦٥ هـ - ١٨٤٨ م ص ١٣٢-١٣٣

(١) أصبح المسيحيون يتعاطون الخمر علناً من دون مراعاة تحفظ المسلمين عليه. عوض الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ص ٣١٩

(٢) توتل اليسوعي، مصدر سابق، ج ٢ ص ٧٠

(٣) غرايبة، مرجع سابق ص ٢٦

(٤) توتل اليسوعي مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٥؛ باروت، حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر، ص ٢١-٢٢

وفي المجال الاقتصادي فقد شهدت البلاد تغيراً ملحوظاً خلال هذه الفترة من الزمن إذ إن تنامي النفوذ السياسي والاقتصادي في الإمبراطورية أدى بالمقابل إلى تحسن أوضاع الرعايا المسيحيين في البلاد على حساب المسلمين لا سيما أن المسيحيين فضلوا الشراكة مع الأوربيين القادمين، وفصلوا شراكتهم مع المسلمين كما كان فيما سبق من القرون، خصوصاً أن القرن التاسع عشر عصر انحلال الطوائف الحرفية فترافق ازدهار وضع المسيحيين في البلاد مع فقر المسلمين في الضواحي الشرقية من حلب^(١). وفي النتيجة تفجر هذا الاحتقان بصراعات طائفية بين المسلمين والمسيحيين ومنها:

١- فتنة حلب ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠:

لأول مرة في تاريخ حلب تحدث فتنة ولم يراع فيها أهلها إخوانهم المسيحيين وهي تعرف بما قاله عنها الأوربيون "إن مسلمي هذه البلاد يحبون الإفرنج كثيراً، وهم يختلفون بذلك عن كل الذين عرفتهم في سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية، والحلبيون هم أكثر سكان الإمبراطورية وداعة وأقلهم إيذاءً وأفضلهم معاملة، وهم أناس طيبون لا يستطيعون إلحاق الأذى بمن جاورهم"^(٢) والوقائع تشير إلى أن هذه الفتنة لم تكن موجهة ضد المسيحيين مباشرة، وإنما السبب الحقيقي الكامن وراء هذه الفتنة هو غضب العامة في حلب من الضرائب المتراكمة عليهم وأنها جاءت بتدبير بعض الزعامات المحلية^(٣) والدليل على ذلك هو يوم الفتنه الواقع في اليوم الثاني من عيد الأضحى المبارك من عام ١٢٦٦هـ / ١٨٤٩م حيث توجه الثائرون إلى الدرك الموجودين في مخفر باب الحديد، الذين فروا هاربين، وكذلك فعل الوالي عندما جاء وشاهد الجموع ثائرة فزادهم جبن الوالي هيجاناً^(٤)، ثم توجهوا نحو بيوت أعيان المسلمين وقد فروا إلى الثكنة العسكرية التي بناها إبراهيم باشا عند سماعهم خبر الفتنه، وبعدها توجهوا نحو أعيان المسيحيين والغاية تأمين الأموال لشراء الأسلحة لأنهم يعدّون المسيحيين أيضاً شركاء في السعي للتخلص من الضرائب. ورفعوا شعار (تحرير المسيحيين من الضريبة والمسلمين من الجندية). ولكن بفضل

(٥) Bruce Masters. The 1850 Events in Alippo: An After shock of Syria's Incorporation into the Capitalist world system. int. J.Middle East studies 1990. p.16

(٦) مقولة ل دارفيو نقلأ عن راسل، مصدر سابق، ج ١، ص ١

(١) من هذه الزعامات عبد الله بك البابنسي وهو متسلم في حلب منذ العهد المصري فكان يأخذ المقاطعات الأميرية ويصرفها على أتباعه وقد أقرته الحكومة المصرية على ذلك بما فيه خير على أتباعه الذين عدتهم جنداً لها وقت الحاجة، وعندما عادت حلب إلى السيطرة العثمانية أبقت عبد الله بك في منصبه وبعد فترة أخذت تطالبه وبقيّة متسلمي البلاد مثل يوسف باشا نقيب الأشراف بأموال الدولة الأميرية وكانوا يماطلون برشوة موظفي الدولة العثمانية إلى أن تسلّم ولاية حلب مصطفى ظريف باشا، وهددهم ببيع أملاكهم لتسديد ما يترتب عليهم، ولكي يتخلصوا من هذه الأزمة قاموا بتدبير هذه الفتنه وبدءاء كبير. الغزي، مصدر

سابق، ج ٣، ص ٣٧١؛ Masters: The 1850 Events In Alippo p.14

(٢) لسوء الحظ؛ كان قسم كبير من جنود حلب المرابطين فيها في مهمة إلى دمشق لإخماد فتنه حصلت فيها.

توتل اليسوعي، مصدر سابق ج ٢ ص ٦٩

الأنامل الفرنسية والإنكليزية ممثلة بالقنصلين ومعهما الإكليروس المسيحي في حلب تحولت الانتفاضة إلى مجزرة طائفية بين المسلمين والمسيحيين.

ومما زاد في الأوضاع سوءاً هو الأحياء والضواحي التي اكتظت بالفلاحين الذين جاؤوا المدينة هرباً من ظلم الإقطاع والجباة و العسكر كذلك تدخل البدو لمناصرة الانتفاضة فعاثوا فساداً في أحياء المدينة المسيحية من سلب ونهب وقتل وتخريب، وقد نجا المسيحيون الذين يعيشون في أحياء مختلطة، ومن ثم تمكنت الدولة العثمانية من تهدئة الأحوال في حلب بإرسال محمد باشا القبرصلي^(١) الذي ألقى القبض على مثيري الفتنة وعوض المسيحيين عن خسائرهم وكان ذلك في ١٥ شهر محرم ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م^(٢)

٢- أحداث ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م:

مع بداية القرن التاسع عشر أصبح من الواضح تماماً إن هناك تنافساً فرنسياً إنكليزياً كبيراً انتقل مسرحه إلى بلاد الشام بدءاً من حملة نابليون على مصر وسورية ثم الموقف المتناقض لكليهما من التأييد الفرنسي لتوسع محمد علي في بلاد الشام إلى الرفض الإنكليزي الكامل لهذا التوسع ولم يقف هذا التنافس عند المجال السياسي والعسكري وإنما تغلغل في المجتمع المحلي من خلال النشاط الثقافي والديني لهاتين الدولتين ومحاولة كل منهما كسب طائفة محلية إلى جانبها، وللأسف لم يبق هذا التنافس ضمن مجاله الإنساني أو إطاره الإيجابي بل تعداه إلى أبعد من ذلك بكثير ومما يؤسف عليه أكثر هو موقف الدولة العثمانية التي وجدت أن مصلحتها في هذا الانقسام الطائفي وفي تأجيجه، فكانت النتيجة زيادة الأحقاد والضغائن.

والمشكلة أن الاحتقان الشعبي لا ينتهي إلا بالكارثة الشعبية فكانت أحداث سنة ١٢٧٦هـ- ١٨٦٠م أبرز الأمثلة على ذلك وعلى الرغم من أن هذه الأحداث بدأت في لبنان بين الدروز والموارنة إلا أنها امتدت إلى دمشق وكادت تعصف بها لولا العقلاء في المدينة^(٣) كذلك وصلت شرارتها إلى حلب وعندما سمع الأهالي في حلب هذه الأحداث أخذت المدينة بمن فيها تموج ما بين تعصب واضطراب إسلامي إلى خوف مسيحي تملكه إلى حد الحذر في أثناء السير في الشوارع والأزقة، كما توجب عليه النزول عن دابته في حال دخوله حياً مسلماً^(٤) وأخذ المتعصبون من المسلمين

(٣) محمد باشا القبرصي: جاءت كنيته من ولادته في قبرص، جاء إلى استانبول بحجة العلم لكنه دخل الحياة العسكرية وتابع دراسته في أوروبا، وعاد إلى تركيا لتكليفه الدولة بوظيفة في البلقان فارتقى في الرتب إلى درجات عالية، تولى الصدارة العظمى ثلاث مرات في عهد عبد المجيد وعبد العزيز، كما عين والياً على القدس الشريف، ثم سفيراً في لندن عام ١٨٤٨م، ثم في العام ١٢٦٦هـ- ١٨٥٠م كلف بولاية حلب لإخماد الفتنة فيها. عنتابي، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢

(١) الغزي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٦٦-٣٨٢؛ الطباخ، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٦٩؛ توتل اليسوعي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٢؛ باروت، مرجع سابق، ص ٣٠-٣١

(٢) للإطلاع على أحداث ١٢٧٦هـ- ١٨٦٠م راجع كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ٨٧؛ شيلشر، مرجع سابق

(٣) توتل اليسوعي، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٠١

الذين تأثروا بالأحداث ينشرون المناشير ويعلقونها على أبواب المساجد والجوامع التي تحرض على قتل المسيحيين، فعم الاضطراب والخوف حلب وأخذ المسيحيون يخبئون أموالهم في أماكن سرية في بيوتهم أو ينقلونها إلى إحدى البيوت المسلمة التي تربطهم بها علاقات الصداقة والثقة،^(١) ولكن الأمن والاطمئنان عادا إلى المدينة بفضل سلوك الحكومة هذه المرة حيث انتشر الجنود في كل أنحاء المدينة شوارع وأزقة وأحياء وانتهت الأحداث من دون أن ينال الحلبيين أي ضرر.^(٢)

٣ - الوضع الخدمي:

كثيرة هي التطورات التي تتأثر بها المجتمعات الإنسانية من دون الحاجة إلى إذن الحكومة أو إلى المناشير الإصلاحية التي تبيح هذا السلوك الاجتماعي وتمنع ذلك، فالتطور في هذا المجال كشعاع الشمس لا بد أن يصل إلى كل الأصقاع مادام هناك تواصل بين الحضارات شرقية كانت أم غربية لا تنقطع حتى في أحلك الظروف وإنما قد تخف حدتها، ومن هنا فإن التطور الاجتماعي والعمراني في حلب كان يسير بشكله الطبيعي المتنامي بحكم أهميتها التجارية وتواصلها مع الحضارات الأخرى عن طرق القناصل والتجار والرحالة.

أما دور الدولة في هذا التطور فيكون بالتسهيلات التي تقدمها ليتغلغل في المجتمع ببسر، وما شهدته حلب ظهر في عدة أمور منها:

لأول مرة في حلب تؤسس البلدية^(٣) في العام ١٢٨٣هـ/١٨٦٥م وكانت وظيفتها تشبه إلى حد كبير ما هو مناط بالبلديات حالياً من أمور النظافة في الشوارع والأزقة ورشها وتنويرها ليلاً وترميم ما يخرب من مرافقها العامة^(٤) والحفاظ على هذه المرافق بعد السماح للعمران أن يصل إليها، وإعطاء تراخيص البناء والحفاظ على الطرق وفرش الأزقة بالبلاط، كما تعهدت بإصلاح قناة حلب ومجاري المياه فيها.^(٥)^(٦) وظهر في المدينة أحياء جديدة مثل حي العزيزية

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٨

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠١

(٣) في عام ١٢٨٤هـ-١٨٦٧م أصدر والي حلب مضبطة بأسماء المرشحين للاشتراك في الانتخابات لتشكيل أول مجلس بلدي لمدينة حلب وعرض هذه المضبطة في أحياء حلب وأسماء المرشحين هم : شريف زادة نعمان بك، أسعد بك زادة محمد بك، سيد عبد الله جمالي، ركبى زاده عبد الكريم أفندي، كيالي زادة محمد أغا، محسن زادة محسن أفندي، قاطرجي زادة قدور أغا، جزار زادة محمود أفندي، ناصر أغا زادة علي أفندي، حموي زادة سرور أفندي، رفاعي زادة شمس أفندي، يمن زادة محمد أغا، طالب أغا، أنطوان شعراوي، توتوري هلال، رزق الله أسود، خواجه الياس بليط، خواجه فرج الله ضاهر، رزق الله نعوم بخاش، خواجه أويديس ألكسان، جرجي عبد الله غزالي، ميخائيل برسنيخ، حاخام شحادة دويك، موسى بيطاي، نسيم الست. عنتابي مرجع سابق ص ٦٨-٦٩

(٤) في الوثيقة رقم ٦٨ من السجل ٥٦ لأوامر حلب السلطانية أر سام يقضي بترميم الجامع الأموي الكبير وجامع حبيب النجار في إنطاكية ورفع إشعار بالنفقات حرر في ١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م ص ٣٤

(٥) كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ٢٧٤

(١) في الوثيقة رقم ٤٣ من سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب رقم ٥٦ كتاب من القاضي إلى والي يفيد بإرسال لجنة كشف إلى جامع (سليمان الأيوبي) للكشف على مجاري المياه لتنظيف الصرف الصحي فيه

حرر في ٢٨ شوال ١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م ص ٢٣

وظهرت فيه الشوارع المتقطعة عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م وبسبب حادثته ورقيه، لم يسكن فيه إلا الطبقة البرجوازية المسيحية،^(١) وفي مجال إنشاء الطرق لتسهيل المواصلات، ومنها الطرق الذي قررت الدولة العثمانية إنشاؤه عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م في الحدود الشمالية لولاية حلب والذي يصل ميناء اسكندرون بالبلاد العثمانية وليصبح هناك اتصال بين كل من كلس وعنتاب وبيره جك مع البحر^(٢) وفي العام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م تم إنشاء طريق للعربات ما بين حلب واسكندرون^(٣)

في العام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م استبدل المدخنون الحلييون استعمال الغليون بتدخين التبغ بلفه بورق السيكارة وكما هو الحال مع كل جديد يدخل إلى نمط الحياة الروتيني يلقي الاستهجان ثم سرعان ما يلقي القبول والرواج.^(٤) أما فيما يتعلق بالبرق أو التلغراف: فبعد عامين من صدور نظام البرق العثماني تم تمديد السلك التلغرافي إلى حلب في عام ١٢٧٨هـ/١٨٦١م^(٥) ومن ثم مدد إلى مراكز عديدة في حلب ويعود السبب في ذلك لأهمية حلب بالنسبة للدولة العثمانية وضرورة الحفاظ على الأمن فيها من خلال ربطها بشكل مباشر بالعاصمة ووصول الحدث فور وقوعه.

في سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م أحضر التجار معهم من مصر بذور البندورة فزرع في حلب فأنجب وأخصب، وقد اعتقد الحلييون أنه محرم لأنه من بدع الإفرنج ولا سيما الناضج منه وبعضهم كان ينطق بالشهادتين عند رؤيته، لكن فيما بعد ألفوه لدرجة أن أصبح يضاف إلى كل مأكولاتهم.^(٦)

في العام ١٢٤٦هـ/١٨٦٣م بدأت حلب باستعمال زيت الكاز (البترول) في المصاييح (النبات) ولشائعة سرت بين الناس اقتصرُوا عنه في البداية ومفادها أن رائحته تؤذي الصدر ونوره يضر البصر.^(٧)

في العام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م وجدت في حلب دائرة الطابو وحررت الأملاك وأول من تولاها راغب أفندي الجابري^(٨) كما تشكل المجلس البلدي وأول رئيس له أحمد بهاء الدين أفندي القدسي وبقي حتى عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م^(٩)

(٢) الغزي، مصدر سابق، ج٣، ص٣٠٦؛ الطباخ، مصدر سابق، ج٣، ص٣٧٨

(٣) كرد علي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٢

(٤) غرايبة، مرجع سابق، ص١٥٤

(٥) الغزي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٨٨؛ الطباخ، المصدر السابق، ج٣، ص٣٥٥

(٦) الغزي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٨

(٧) الغزي، مصدر سابق، ج٣، ص٣٨٩؛ عنتابي، مرجع سابق، ص٢٧

(١) المصدر السابق، ج٣، ص٣٩١؛ عنتابي، مرجع سابق، ص٥٠

(٢) الطباخ، مصدر سابق ج٣، ص٤٥٨ عنتابي المرجع السابق، ص٦٠

(٣) المصدر السابق ج٧ ص٤٤١ عنتابي المرجع السابق، ص٦٠

في يوم الخميس ١٢٨٦هـ/ من ٢٨ تشرين الثاني ١٨٦٩م في مركز ولاية حلب جرى امتحان مكتب الصنائع الذي مضى على افتتاحه سنة كاملة، وقد حضر الامتحان الوالي وكل مأموري الولاية ومتنفيذها.^(١)

وحينما أرادت الحكومة توسيع الأسواق في حلب عام ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م اصطدمت بمعارضة الأهالي، ولاسيما الأعيان منهم الذين رفضوا أن تخرب محلاتهم لذلك قامت الحكومة بتدبير حريق كبير بدأ من سوق الصياغة وامتد إلى سوق العقادين والقوافين والطرابيشية والبادستان والطيبية وسوق العطارين، لأجل قطع النار عن الجامع وباقي الأسواق قاموا بهدم قبة كانت فوق الجامع، وفي اليوم الثاني قاموا بهدم القبو والجملون وكانا من الخشب، وبعدها شرعوا في بناء القبو من الحجر وزادوا في عرض الأسواق.^(٢)

في العام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م تم افتتاح دير اليسوعيين بحضور الأبوان كنوت وكوش من بيروت،^(٣) وفي العام نفسه وضع حجر الأساس لكاتدرائية مار إلياس في محلة الجديدة في حلب.^(٤)

٤- الوضع الصحي:

لم يكن هناك وعي صحي في حلب كما كان في كل الولايات التابعة للدولة العثمانية، والاهتمام بالنظافة كان قليل جداً إلى أن ظهرت البلدية، حيث كانت جيف الحيوانات تنتشر على جوانب الطرقات، كما كان كثير من الحجاج يرفضون دفن أمواتهم في الطريق فينقلونها معهم من دون تحنيط جيد لها فكانت تنتشر الأمراض على الطرقات من أكثر الأمراض التي أصيبت بها حلب كان مرض الطاعون فقد أصاب البلاد مرات عديدة في الأعوام (١٢٦٣-١٢٧٨-١٢٩٢)هـ/ (١٨٤٦، ١٨٦١، ١٨٧٥)م وكان الاعتقاد سائداً أنه الداء الذي لا دواء له اعتقاداً منهم أنه عقاب الله للأثمين من عباده.^(٥) أما المرض الآخر فهو الكوليرا (الهيضة) أو الهواء الأصفر الذي أصاب حلب مرات عدة ؛ في الأعوام (١٢٨٢-١٢٩٢)هـ/ (١٨٦٥، ١٨٧٥) ولكثرة الضحايا التي وقعت بسبب هذا المرض أخذ الناس يدورون في الشوارع يستغيثون بالله ويقرأون سورة الدخان عسى الله أن يستجيب لدعائهم وينقذهم من المرض الذي بلغ عدد ضحاياه اليومي حوالي الثلاثمائة^(٦). وكثرت الوفيات وانتشرت الأوبئة.^(٧)

(٤) عنتابي، مرجع سابق ص ٧٩ مأخوذة من جريدة الفرات العدد ١٣٥ السبت ٢٩ تشرين الثاني ١٨٦٩م

(٥) الطباخ، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٦٩

(٦) توتل اليسوعي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٥

(٧) الغزي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٧

(١) راسل، مصدر سابق، ج ٢ ص ٤١٩-٤٢٠. الغزي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٩٩-٣٠٠؛ توتل اليسوعي،

مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٦

(٦) الغزي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٩٩-٣٠٠؛ توتل اليسوعي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٦

(٣) الدباغ، الحياة الفكرية في حلب، ص ٢٢

وفي العام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م قام أحد الأطباء الأجانب المولودين في حلب بإدخال لقاح الجدري البقري إلى حلب ولكنه لم ينتشر استخدامه إلا بعد دخول إبراهيم باشا حلب^(١)

كان اهتمام المصريين بالصحة والطب الوقائي وتفادي الأوبئة والأمراض كبيراً جداً، فحافظوا على النظافة في الشوارع بتنظيفها صباحاً ومساءً، وطهروا مجاري المياه والأنهار، ولاسيما مصادر الشرب، واتخذوا جميع التدابير الممكنة التي تحد من انتشار الأوبئة أو انتقالها، كما أرسلوا عدداً من طلبة العلم في مجال الطب إلى مصر لتعلم أصوله هناك، وترافق هذا الاهتمام الطبي باهتمام يوازيه في مجال الأدوية وتركيبها من الأعشاب والنباتات وحرصاً منهم على توافرها عمدوا إلى إنشاء الصيدليات^(٢) كما أقامت مستشفى عسكرياً في غربي تكية الشيخ أبي بكر الوفاي لمعالجة مصابي المعارك والحروب^(٣)

وأما الطب الحديث فلم يدخل إلى حلب إلا متأخراً ففي العام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م جاء الأطباء الغربيون إلى حلب وأخذوا يطبقون طرق الطب الحديثة على المرضى وقد تلقوا علومها في أوروبا وقد أخذ بعض الحليين يتعلم مهنة المداواة وفق العلوم الحديثة فوصل بعضهم إلى درجة إتقانها وشرع بمداواة المرضى عن طريقها^(٤)

ج- أوضاع ولاية حلب ثقافياً.

١- الوضع العلمي:

بيدي فيليب حتي رأيته في العصر العثماني فلم يجد هناك ما يشجع في ذلك العصر على الإبداع أو الإنتاج في الفن والعلم والأدب، فعدّ ذلك العصر عصر جمود، تدهور فيه الاقتصاد وانهار فيه المجتمع وكثرت فيه الضرائب^(٥). أما الدكتور أحمد طربين فيصف الحالة العلمية في العصر العثماني قائلاً بأن هؤلاء شجعوا العلم انطلاقاً من الأساس الديني ومن مبدأ الحض عليه ومن هنا أبدعوا في العلوم النقلية الدينية المتوارثة على حساب العلوم العقلية الدنيوية، فانحطت الآداب بعامة، وقد رأى أن الانحطاط كان في النوع أكثر منه في الكم، إذ أصبح من النادر في ذلك العهد أن تجد مفكراً أو عالماً نابغاً، وإنما المؤلفات التي ظهرت كانت تفتقر إلى الأصالة والإبداع وإلى انحسار في الأفكار وتشبتها، ولكنه لا يعزو السبب كله إلى العثمانيين وإنما يرى أنه كان هناك ضعف وانحدار في المستوى العلمي والعقلي ومن مظاهر هذا الضعف انتشار الطرق الصوفية وتحول أفكار المتصوفة من السمو

(٤) Barker & Edward: Syria and Egypt under the last five Sultans of Turkey vol 1 p322

؛ الغزي، مصدر سابق ج ٣ ص ٢٥٩

(٥) نعيصة، المرجع في وثائق تاريخية عن الشام، ص ٥٩-٦٠

(٦) الغزي، مصدر سابق ج ٢ ص ٣٣٩

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ١٧٦-١٧٧

(٢) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. ترجمة كمال اليازجي. دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣م، ص ٣٢٠

الروحي إلى طقوس الدراويش وكرامات الأولياء^(١) ويمكن القول إن الوضع العلمي المتردي لم يصل إلى هذا الحد لأن العثمانيين منعه أو أنهم لم يرغبوا في ارتقائه أو أنهم وضعوا العراقيل في طريق تطوره ورقيه، بل لأن الأمر لا يعنيهم سواءً ارتقى أم انحط، ففي الفترة الأولى كان السلاطين يبحثون عن المجد والشهرة في ساحات الحروب وتوسيع رقعة الإمبراطورية، وفي الفترة الثانية بحث السلاطين عن إشباع رغباتهم وملذاتهم في أحضان الغانيات والجواري والمحظيات وبالتالي لم تكن الناحية العلمية وحدها التي عانت الإهمال وإنما الدينية والسياسية والعسكرية أيضاً ووصل الحد إلى أن أهمل السلاطين أمور الدولة.

أما في فترة القرن الثامن عشر فقد كان العثمانيون وإمبراطوريتهم شبه معزولين عن الغرب وتياراته الفكرية، وقليلون جداً هم العثمانيون الذين كانوا يعرفون ما يدور في الغرب وما يعصف به من نظريات و تطور.

على الرغم من هذه العزلة كانت نوافذ النور تفتح شيئاً فشيئاً ليبزغ منها فجر اليقظة العربية، فكان اهتمام المستشرقين من الباحثين والرحالة قد التفتوا إلى الشرق فأخذوا يتناولونه في دراساتهم، كذلك دخلت أول مطبعة بحروف عربية إلى حلب، والدور الكبير الذي قامت به في نشر الوعي من خلال منشوراتها، فضلاً عن الاندفاع الجارف للمسيحيين المحليين من أهالي حلب نحو العلم والثقافة خصوصاً في مجال اللغة العربية، وترافق ذلك مع ظهور المدارس والإرساليات التبشيرية فأقبل عليها أولئك المتعطشون للثقافة من المسيحيين الذين أصبحوا رواد النهضة الثقافية العربية.^(٢)

ومما مهد لتسهيل هذا التدفق الغربي على بلاد الشام هو قدوم إبراهيم باشا إليها حاملاً معه النظرية التي طبقها والده محمد علي باشا في مصر اعتماداً على منجزات الغرب التي تغلغت في بلاده بعد الحملة الفرنسية عليها ١٧٩٨م، ففتحت بوابة بلاد الشام على مصراعيها لتستقبل المراسلين والمسافرين والتجار والمستشرقين الثقافيين والسياسيين.^(٣)

وتجلى هذا الانفتاح في حلب على حضارة الغرب بالإقبال على التعليم فيها حيث يذكر البخاش في مذكراته أن الناس أقبلوا بشكل كبير على تلقي العلوم في الفترة المصرية بما فيهم النساء فقد ذكر أن نسبة من النساء المتزوجات اللواتي عدن إلى المدارس بعد زواجهن، ويذكر أيضاً الإقبال الذي شهدته المدينة على تعلم اللغات الأجنبية، وأن التوجه العام للمدينة أصبح الإقبال على القراءة والإطلاع،^(٤) والسبب في هذا الإقبال أيضاً يعود لأن الحكومة المصرية أخذت تعين المثقفين والمتتورين في وظائف الدولة فتوجه الكثير من الناس أيضاً نحو العلوم الحديثة

(٣) أحمد طربين، التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث، مطبعة الإنشاء دمشق، ١٩٧٠م ص ١٠
(١) شاكر النابلسي، عصر التكايا والرعايا، وصف المشهد الثقافي العثماني لبلاد الشام في العهد العثماني ١٥١٩-١٩١٨م، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٩٩م ص ٢٤٩

(٢) النابلسي، مرجع سابق ٤١٦-٤١٧
(٣) يذكر البخاش أنه باع نسخة بخط يده من مقامات الحريري بثلاثة جنيهات إسترلينية. مصدر سابق ص ٦٩-٨٤-١٢٨

لأجل هذه الغاية،^(١) كما ظهر الاهتمام المصري بالعلم والثقافة بالمدارس والمكتبات الإسلامية والمسيحية التي بنيت في عهدهم، فقد أسس إبراهيم باشا المدارس الابتدائية^(٢) في كل البلاد الشامية، والتجهيزية^(٣) في المدن الرئيسية في بلاد الشام، وأسس الكليات في دمشق وحلب فقد ضمت كلية حلب /٤٠٠/ طالب ارتدوا اللباس الرسمي، وتلقوا فيها العلوم العسكرية والتدريب وبعض المواد الضرورية كالهندسة وعلم المساحة^(٤) وكان الطابع العام الغالب على نظام هذه المدرسة الطابع العسكري^(٥)، حيث السكن والطعام مؤمن لهم ويتقاضون مرتبات فيها.^(٦)

كما أسس إسماعيل بك حكمدار حلب من قبل إبراهيم باشا عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م المدرسة الإسماعيلية وأوقف لها الأموال وبنى فيها مكتبة^(٧)، وأضاف مدرسة إلى جامع القرواوية^(٨)، وعلى الرغم من قصر فترة الوجود المصري في بلاد الشام فإن فائدتها كانت عظيمة جداً ففي المجال العلمي اتجهت أنظار الناس إلى التعليم الحكومي الرسمي أو المدني لما قدمه من معارف وعلوم جديدة كانت قبلهم مهملات تماماً في العهد العثماني، والمدارس التبشيرية التي سنذكرها كانت تعمل في نطاق ضيق الأهداف وتعمل على نشر فكر طائفي مغلق.^(٩)

وبعد خروج المصريين من الديار الشامية تنبه رجال الفكر والعلم في الدولة العثمانية إلى ضرورة إتباع نوع جديد من التعليم يختلف عن التعليم الديني في المواد والمبادئ والأسس، فأصدر الباب العالي في العام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م فرمان إصلاح التعليم وإنشاء المدارس الأميرية (الإعدادية) والرشدية (الثانوية) ولكن كما ذكرنا سابقاً بقي حبراً على ورق.

(١) عمده إبراهيم باشا إلى نشر الكتب التي لم تكن منتشرة في بلاد الشام وهي ضرورة للتعلم كالكتب في مجال الهندسة والجبر والحساب وعلم المثلثات والطبيعية. تيسير الزواهرية تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق من ١٨٤٠-١٨٦٤م/ ١٢٥٥-١٢٨٢هـ منشورات جامعة مؤتة الكرك الأردن ١٩٩٥م. ص ١٤٠

(٢) هي المرحلة الأولى من مراحل الدراسة مدتها من ثلاث إلى أربع سنوات، تستقبل الطلاب ما بين سن السبعة والثانية عشر من العمر، يتعلم الطالب فيها القراءة والكتابة واللغة وأصول الدين ومبادئ الحساب وتقدم للطلاب؛ المسكن والغذاء واللباس، يقوم على إدارتها وكيل وبعض المدرسين وبعض الموظفين والعمال. فندي مرجع سابق ص ١٠٥

(٣) المرحلة الثانية من التعليم تستقبل خريجي المدارس الابتدائية مدة دراستها ما بين الأربع والخمس سنوات، يتلقى الطالب فيها تعلم العربية والتركية والفارسية والحساب والجبر والتاريخ والجغرافية، وتقدم السكن والطعام واللباس للطلاب، ويتكون جهازها الإداري من وكيل وثلاث مراقبين واثنين عشر مدرسا. فندي مرجع سابق ص ١٠٥-١٠٦

(٤) الطباق مصدر سابق ج ٣ ص ٤٤٢؛ الزواهرية مرجع سابق ص ١٤٠

(٥) لقد نص القانون على منع ترقية الجنود الذين لا يجيدون القراءة والكتابة، وخصص مرتبات لأبناء الجنود الذين التحقوا بهذه المدارس. الزواهرية مرجع سابق ص ١٤٠

(٦) فندي، مرجع سابق، ص ١٠٦

(٧) طلس، مرجع سابق، ص ٢٢٤

(٨) بناه بكتمر القرواوي الحلبي عام ١٢٦٨-١٢٧٠م وحوله الحاج إسماعيل أغا بن عبد الرحيم أفندي شريف إلى مدرسة مؤلفة من إحدى عشرة غرفة. الغزي، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٣٥

(٩) فندي، مرجع سابق، ص ١٠٨

ففي العام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م تأسست أول مدرسة أميرية في حلب^(١) وهي المدرسة المنصورية، وكانت تعلم مبادئ العلوم الدينية واللغة العثمانية والفارسية وقد شهدت إقبالا كبيرا من قبل طلبة العلم^(٢) وفي سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م افتتح أول دار إصلاح وسمي إصلاح خانة وأدخل إليه مائة من الفقراء وصاروا يتعلمون صناعة الأحذية والأقمشة الحريرية والصوفية^(٣) إلى جانب هذه المدارس التي بناها المسلمون في حلب كان هناك نوعان آخران من المدارس قامت ببناهما الطوائف المسيحية وكانت تسمى في بعض الأحيان مكاتب كالمكتب الذي أسسه نعيم بخاش عام ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م وكان رواد هذا المكتب من الصغار والكبار ذكورا وإناثا من كل الطبقات من أغنياء وفقراء، مسيحيين ومسلمين ويهود على أن الغالبية كانوا من المسيحيين الروم، وقد ذكر البخاش بعض الكتب التي كان يدرسها،^(٤) والمدارس الأجنبية وهي التي أقامتها الإرساليات الدينية التي أمت البلاد وحظيت بدعم إحدى الدول الأجنبية وحمايتها وبالمقابل كانت تنشر لغة هذه الدولة وتبث أفكارها بين الناشئة^(٥) ومن الدول السبابة في هذا المجال كانت فرنسا التي دعمت الإرسالية العازارية التي أسست مدرسة في حلب استقبلت التلاميذ للمرحلة الابتدائية من كل الأديان والتعليم فيها بالمجان^(٦) كما أسس الآباء الفرنسيون معهد الأرض المقدسة عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م^(٧) وكانت تدرس العربية والإيطالية والفرنسية إجبارية والألمانية والإنكليزية اختيارية^(٨) وكان للرهبنة اليسوعية مدرسة للبنات في حلب تضم منتهي تلميذة^(٩) كما تأسست في العام ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م مدرسة صناعية للبنات من روم وأرمن وسريان فوق كنيسة المواردنة واشتروها بسعر ١٨٠٠ قرش ١٢٠٠ منها من الروم وباقي الطوائف ٦٠٠

(١) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٨٢

(٢) بنيت المدرسة على أثر الطلب الذي رفعه الوالي إسماعيل باشا في أثناء ولايته على حلب عام ١٢٧١هـ- ١٨٥٤م وقد كانت المدرسة سابقا تدرس القرآن الكريم والتجويد ثم حولتها الحكومة إلى مكتب

الرشدية. الغزي مصدر سابق ج ١ ص ١٣٧ ؛ الدباغ، مرجع سابق، ص ١٠٦

(٣) الطباخ، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٧٠؛ الغزي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٧

(٤) تراوح عدد الطلاب ما بين ٨٢ كحد أعلى و ٣٢ كحد أدنى ومن الكتب التي كانت تدرس السواعي أول كتاب لتعلم القراءة ، والمزامير، ثم الرسائل، ثم ديوان ابن الفارض ومقامات الحريري، وسفر ابن سيراخ وهو سفر من أسفار الحكمة في العهد القديم، وديوان بهاء الدين زهير ، وكتاب الديباجات. بخاش، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧+١٢٥-١٢٦، ج ٣ ص ٤ ج ٢ ص ٣٠٢+٧

(٥) الحصري، مرجع سابق، ص ١٢

(٦) بخاش، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٩ ؛ توتل اليسوعي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٢ الدباغ، مرجع سابق، ص ٩٨-٩٩

(١) هنا أكثر من رواية لبدء هذه المدرسة منها أنها كانت سنة ١٨٥٨م ورواية أخرى كان في العام ١٨٥٩م وكانت تسمى ؛ المعهد الشيبيني، وتره سنتا

(٢) الدباغ، مرجع سابق، ص ١٠٠ ؛ محمد عدنان البخيت، بحث في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني ، ص ١٧٦-١٧٧

(٣) جحا، مرجع سابق، ص ٨٠ ؛ الدباغ، مرجع سابق، ص ١٠٠ - ٢٢٤ -

قرش^(١) أما المدارس الطائفية التي بنيت في حلب فكان منها التي أنشأها البروتستانت فقد أنشؤوا مدرستين الأولى عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م والثانية ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م^(٢) ولكن الروم الأرثوذكس كانوا قد سبقوا هؤلاء في بناء مدرستهم بموجب فرمان سلطاني التي كانت تسمى روم الفسافسة في ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م والمدرسة المارونية تأسست عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م وتجاوز عدد تلامذتها السبعين طالباً وقد درس فيها اللغة الإيطالية^(٣) ومدرسة السريان وكانت تسمى مدرسة الترقى للذكور وجعل قسماً منها للبنات وكان تأسيسها عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م أو قبل ذلك^(٤) وفي سالنامة ولاية حلب لعام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م جدول يبين المدارس المشهورة في حلب مع عدد الموظفين في كل مدرسة:

مكان المدرسة	المدرسة	عدد الموظفين	مكان المدرسة	المدرسة	عدد الموظفين
مطلة سى	مدرسة حسامى سى	١٧	مطلة سى	مدرسة سى	٢١
مطلة سى	مدرسة رحمة سى	٩	مطلة سى	مدرسة سى	١١
مطلة سى	مدرسة أشرفية سى	١	مطلة سى	مدرسة سى	٦
مطلة سى	مدرسة عبد الجليل سى	٨١	مطلة سى	مدرسة سى	٢٦
مطلة سى	مدرسة جاورى سى	١٣	مطلة سى	مدرسة سى	٥
مطلة سى	مدرسة حلوية سى	٣	مطلة سى	مدرسة سى	٢
مطلة سى	مدرسة جلابى سى	١١	مطلة سى	مدرسة سى	١٠

(٤) بخاش، مصدر سابق، ج ٢ ص ٣٩٤

(٥) جها، المرجع السابق، ص ٨١؛ الدباغ، مرجع سابق، ص ١٠١

(٦) الدباغ، مرجع سابق، ص ١٠٠-١٠٢

(٧) بخاش، مصدر سابق، ص ٤١٤

٢- الطباعة:

يعود أول ظهور للطباعة في الإمبراطورية العثمانية إلى العام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م على يد اليهودي ربي إسحق جرسون باللغة العبرية الذي طبع أول كتاب في الأستانة في ذاك العام، أما دخول الطباعة بشكل رسمي فكان في العام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م بصدر الفرمان السلطاني يؤيده فتوى شيخ الإسلام^(١) وأما أول مطبعة بحروف عربية دخلت البلاد العربية كانت إلى حلب على يد البطريرك الملكي أنثاسيوس الدباس التي جاء بها من بخارست في العام ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م^(٢) وقد توقفت المطبعة عن العمل عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م وقد طبعت عشرة كتب فقط واستخدمت ثلاثة أشكال من الحروف^(٣) وبعد ذلك خلت حلب من المطابع حتى أحضر الإيطالي (بلفنتي) مطبعة حجرية إلى حلب عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م وهي أول مطبعة في بلاد الشام تنشر كتاب غير ديني وهو ديوان الشعر لابن الفارض^(٤) ثم تم تأسيس المطبعة المارونية في محلة الصليبية في حلب عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م من قبل المطران يوسف مطر وقد شاركه في تنظيمها اللبنانيون، وكانت بداية طباعتها تطبع الكتب الدينية الخاصة بالطائفة المارونية ومن ثم طبعت الكتب في مجالات العلوم المختلفة فكانت من أولى المطابع العربية في العالم وطبع فيها الكثير من الكتب العلمية والأدبية والتاريخية لمؤلفين حليبيين وغيرهم وطبع فيها عدد من الصحف اليومية والمجلات^(٥) وكانت هذه المطبعة صغيرة وحروفها أيضاً حتى جرى تعديل عليها في العام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م حيث تغيرت حروفها عدة مرات حيث كانت تستعين بالمطبعة الأمريكية في بيروت،^(٦)

وبعد صدور قانون المطابع في الدولة العثمانية^(٧) عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م أسس والي حلب المؤرخ جودت باشا مطبعة الحكومة (مطبعة ولاية حلب)^(٨) في

(١) قبل القرن الثامن عشر كانت النظرة الإسلامية على الطباعة على أنها رجس من عمل الشيطان، لأن نجاسة الحيوان الذي يستخدم جله للطباعة تمنع من طباعة اللغة العربية المقدسة (لغة القرآن الكريم ولغة رسوله محمد ص) كما كان هناك عامل آخر يحاول منع دخول الطباعة إلى البلاد وهو فئة العاملين في نسخ الكتب إذ إن دخول الطباعة إلى البلاد سيبتل مهنتهم التي يسترزقون منها. ذوقان قرقوط، الطباعة ودورها في النهضة الأوروبية وفي اليقظة العربية، مجلة دراسات تاريخية العددان ١٣-١٤ ت ١-٣ ١٩٨٣م ص ١٩٠-١٩٣

(١) هناك آراء عدة حول تاريخ ظهور هذه المطبعة في حلب فبطرس البستاني يذكر أنه كان في العام ١٦٩٨م أما لويس شيوخو فيقول في العشر الأوائل من القرن الثامن عشر وآخرون ومنهم جرجي زيدان أنه ذلك تم في العام ١٧٠٢م، ج ٤ ص ٦٥

(٢) صابات، مرجع سابق، ص ٩٥

(٣) صابات، مرجع سابق، ص ٩٦؛ البخيت، مرجع سابق ص ١٨٢

(٤) توتل اليسوعي، مصدر سابق، ج ٢ ص ٩٣ عينتابي، مرجع سابق ص ٣٠؛ صابات، المرجع السابق ص ٩٧

(٥) سهيل الملاذني، الطباعة والصحافة في حلب، دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩٦م ص ٢١

(٦) للإطلاع على نص القانون كملا راجع الدستور ج ٢ ص ١٩٤

(٧) كان طاقم المطبعة في العام ١٢٨٧هـ- ١٨٧٠م مدير علي أفندي، خطاط: علي أصغر أفندي باشا مرتب: أحمد أفندي، مرتب: نوري أفندي- واسيل أفندي، ليطوغرافيا: عاوني جبر أفندي، ديكر: أحمد - ٢٢٦ -

حلب عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م لإصدار جريدة الفرات الأسبوعية بالعربية والعثمانية والأرمنية وأدارها جبرائيل برغود^(١) وعلى الأغلب أن معدات المطبعة قد جاءت من الأستانة شأنها شأن كل المطابع الرسمية في ولايات الدولة العثمانية، وكانت تعنى أيضاً بإصدار مطبوعات الحكومة المختلفة^(٢) أما مطبعة العزيزية فيقال أن تأسيسها كان ما بين العامين ١٢٩٤-١٢٩٧هـ/ ١٨٧٧-١٨٧٩م وقد تأسست لتطبع جريدة الشهباء الأسبوعية لصاحبها هاشم عطار، الذي تعاون في تأسيسها مع عبد الرحمن الكواكبي ولكن عطلت الجريدة بأمر والي حلب كامل باشا ووضعها تحت رقابة الحكومة^(٣)

٣- الصحف:

لم يتطرق الخطان الإصلاحيان اللذان صدرا عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م والعام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م لأمر الطباعة والنشر في الدولة العثمانية، ولم يصدر أي لائحة سلطانية بهذا الخصوص حتى العام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م عندما أصدر السلطان اللائحة التنظيمية التي تخص طبع كل أنواع الجرائد وأوراق الحوادث الملكية والسياسية التي تطبع في دار السعادة والممالك الشاهانية ونشرها^(٤)

ولكن الصحافة بعامه كانت ضعيفة في بلاد الشام وكان تقدمها بطيئاً لتأخر العثمانيين الاهتمام بها من جهة ولقدوم فترة الاستبداد الحميدي على سورية من جهة أخرى ففي حلب كانت الصحف قليلة جداً ثم اقتضرت على صحيفة الفرات الرسمية في العهد الحميدي فاضطر الكثير من مثقفي بلاد الشام إلى الهجرة وإنشاء الصحف ونشر الأفكار التي أبدعوها خارج البلاد^(٥) حيث لم يخضعوا للرقابة العثمانية^(٦)

جريدة الفرات: صدرت في الثالث والعشرين من شهر محرم ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م وهي الجريدة الرسمية لحلب وكانت تصدر باللغتين العثمانية والعربية وهي جريدة أسبوعية تنشر الأخبار المحلية لولاية حلب وبعض الأنباء الأدبية والاجتماعية، صدرت في عهد والي حلب جودت باشا وضمت أوامر الحكومة وإعلاناتها^(٧) وبعض الحوادث الداخلية والخارجية ١٢٨٣-١٢٨٥هـ/١٨٦٦م- ١٨٦٨م المؤرخ التركي المشهور وقد حرر بعض المقالات الرسمية فيها وشملت مواضيع عن سياسة الدولة الإصلاحية ثم أسند تحريرها إلى مؤسس ومحرر القسم

أفندي، كاتب أفندي، مرتب: أوخانس أفندي - وحيد أفندي- مصطفى أفندي، سكه جي: عبد العزيز أفندي، معاون: عبد الرحمن أفندي سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧هـ-١٨٧٠م ص ٧٢

(٨) جرجي زيدان، تاريخ أدب اللغة العربية، دار الهلال ١٩٥٧م، ج ٤ ص ٥٥؛ الطباخ، مصدر سابق ج ٣ ص ٤٥٨، ؛ الغزي، مصدر سابق ج ٣ ص ٢٩٣؛ صابات، مرجع سابق ص ٩٨

(١) صابات، مرجع سابق، ص ٩٨

(٢) الملاذني، الطباعة والصحافة في حلب، مرجع سابق ص ٢٣

(٣) الدستور، ج ٢، ص ١٨٨ حيث النص كاملاً لهذه اللائحة

(٤) أصدر رزق الله حسون صحيفة (آل سام في لندن) عام ١٨٧٢م وصحيفة مرآة الأحوال في لندن ؛ عام ١٨٧٦م. جها، مرجع سابق ص ١٢٧

(٥) الملاذني، مرجع سابق، ص ٦١

(٦) الدباغ، مرجع سابق، ص ٨٠-٨١

التركي هو حالت بك^(١) وأول من استلم قسمها العربي كان أحمد مصطفى زادة ثم خلفه عبد الرحمن الكواكبي^(٢) لمدة خمس سنوات، ومنذ العدد الخمسين وحتى العدد مئة صدرت بثلاث لغات العربية والعثمانية والأرمنية^(٣) ثم العدد مئة وواحد صدر باللغتين العربية والعثمانية فقط، وفي بعض الأحيان كان يصدر مع هذه الجريدة ملحق باسم (علاوة فرات) أو (غدير فرات)^(٤)

السالنامة: وفي العام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م صدرت سالنامة^(٥) ولاية حلب للمرة الأولى وكانت صغيرة تم طبعها في المطبعة الحجرية، وكان حالت بك هو من أشرف على إصدارها وكانت تضم معلومات وإحصائيات عن الولاية فيما يتعلق بالأمور المالية وأسماء الموظفين وبعض المعلومات التاريخية والجغرافية عن المدينة^(٦)

مجلة الزهرة: صاحبها يوسف الشلفون صدر العدد الأول منها بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٨٦هـ السبت ١ كانون الثاني ١٨٧٠م هي مجلة أسبوعية في ثمان صفحات تتضمن كل النواذر والنكات الأدبية والتاريخية وغرائب الأخبار وطرائفها والوقائع المضحكة كانت تطبع في المطبعة العمومية في بيروت.^(٧)

الخاتمة

إن الفترة الزمنية التي يتناولها البحث غنية جداً بالأحداث سواء على الصعيد الداخلي للإمبراطورية العثمانية أو على الصعيد الخارجي .

(١) حالت بك من مشاهير الكتاب الأتراك ومكتوبجي ولاية حلب ورئيس دائرة المراسلات والشؤون الإدارية ، ونائب عن الوالي في أعماله وإدارة الولاية، وبقي في حلب مدة ثمان سنوات. الطباخ، مصدر سابق، ج٣ ص ٤٥٩

(٢) عبد الرحمن بن أحمد الكواكبي: ١٢٦٥-١٣٢٠هـ/١٨٤٧-١٩٠٢م، ولد في حلب تلقى علومه في أشهر مدارس حلب الكواكبية برع في أسلوب الكتابة، بدأ حياته مأموراً لإجراء حلب ثم محرراً في جريدة الولاية ثم رئيساً لغرفة التجارة ، ثم رئيساً لمجلس إدارة المصرف الزراعي في حلب، حرر في صحف الفرات و الاعتدال والشهباء إلى أن هاجر إلى مصر عام ١٨٩٤م اشتهر بكتابه طبائع الاستبداد، وأم القرى، كان في صحافته ناقداً لاذعاً وثائراً على الجور العثماني ومن أشهر دعاة الإصلاح ولهذا وضعته الدولة تحت المراقبة وأحياناً تحت الإقامة الجبرية وعطلت صحافته، ولكنه لم يتراجع عن نشر آرائه وأفكاره ، صدر بحقه حكم الإعدام في حلب وانتهى بالبراءة في بيروت. زيدان مصدر سابق ج٤ ص ٣١٣ ؛ الطباخ مصدر سابق ج٧ ص ٥٠٨؛ جوزيف الياس، تطور الصحافة السورية في مائة عام ١٨٦٥-١٩٦٥م بيروت، دار النضال ١٩٨٢م ج١ هامش ص ٤٩-٥٠

(٣) الغزي، مصدر سابق ج٣ ص ٣٩٥ عنتابي، مرجع سابق ص ٦٤-٦٥

(٤) الغزي، مصدر سابق ج٣ ص ٣٠٠

(٥) سالنامة كلمة فارسية مؤلفة من كلمتين (سال) وتعني سنة و(نامة) وتعني ورقة وكانت تسمى ؛ (سنوية الولاية) و(فهرست السنة) وتطلق على كتاب يصدر سنوياً الغزي، المصدر السابق ج٣ ص ٣٩٤

(٦) المصدر السابق، ج٣ ص ٣٩٤

(٧) عنتابي، مرجع سابق ص ٨١

داخلياً كانت الإمبراطورية مضطربة بقواها المتصارعة على كافة الأصعدة ، ففي المجال السياسي كان السلطان العثماني بشكل عام في حالة قلق دائم ، على رأسه أولاً ثم على عرشه ثانياً ، فعصفت بالعرش العثماني المسألة الذنبية خاصة بعد قانون الفاتح الذي أباح قتل الأخوة حفاظاً على العرش، لذلك لم يخلو المسرح السياسي العثماني من التكتلات والأحلاف التي تضمن استمرار التوازن بالحدود الدنيا من الأمان والاطمئنان ، وزادت الأوضاع اضطراباً بتدخل النساء في سياسة الدولة وتعيين الموظفين وانتشار الرشوة وشراء المناصب التي أصبحت تعطى لعديمي الخبرة ولمن لا يحسنون التصرف في الظروف الصعبة، وبسبب هذا الوضع المضرب فإن الكثير من رجال الدولة العثمانية فقدوا حياتهم ثمناً لهذه الاضطرابات وعلى رأسهم السلطانين سليم الثالث ومصطفى الرابع . كما أن تولي الصدور العظام تسيير شؤون الدولة وقيادة الجيوش في الوقت الذي انشغل فيه السلاطين العثمانيين بالحدائق الخلفية لقصورهم بدأت الدولة تفقد هيبتها ومكانتها العالمية.

و بالنسبة للجيش الإنكشاري الذي كان عماد الدولة وصانع أمجادها فقد تحول إلى أداة للفساد والفوضى، لأنه خلع بزته العسكرية واستبدلها ببزة مدنية يمارس مهناً متعددة من تجارة ووساطة وسمسرة، فلم يرتد بزته العسكرية إلا في أوقات ملحة وضرورية وعلى الرغم من ذلك فلقد أثر الانسحاب من ساحة القتال، وعرض الدولة لعدة هزائم وأجبرها على توقيع بعض المعاهدات التي لم تنل الدولة منها إلا الخسارة وفقدان الهيبة، فأصبح الجيش الإنكشاري عبئاً ثقيلاً على الدولة وسلاطينها وأوجب تصفيته نهائياً في الواقعة الخيرية ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م في عهد السلطان محمود الثاني .

أما على الصعيد الاجتماعي فقد كان الانقسام حاداً في المجتمع العثماني في تلك الفترة وقد برز بشكل كبير بالموقف من الإصلاح واتجاه الدولة العثمانية نحو التغريب ، ولكن في الواقع إن هذا الانقسام يعود إلى خلفية أعمق من قضية تأييد الإصلاح أو معارضته، حيث أن تطبيق المجتمع العثماني وسيادة العلاقات الإقطاعية فيه فضلاً عن فرز المجتمع العثماني طبقاته ما بين تابعة ومستفيدة من السلطة الحاكمة وأخرى متضررة، فكل هذه التناقضات ظهرت بشكل واضح بالموقف من الإصلاح وتغريب الدولة العثمانية.

أما السبب الرئيسي في اضطراب الأوضاع في الدولة العثمانية وما تعرضت له من مشاكل وضغوط كان عائداً إلى الوضع الاقتصادي، فشغب الإنكشارية وفسادها كان سببه قلة مواردها المالية، كذلك القوى المتنفة في الدولة وقفت في وجه كل ما يهدد مصالحها فكانت السبب في اضطراب الأحوال الاجتماعية في البلاد.

وبالنسبة للخارج فقد كان القرنان الثامن عشر والتاسع عشر فترة الحصاد لأوروبا لتجني ثمار عصر النهضة والكشوف الجغرافية وانطلاقة الثورة الصناعية ومن ثم الثورة الفرنسية وما ترتب على هذه الأحداث العظيمة من ازدهار أوربي في المجالات كافة، ولا سيما سياسياً واقتصادياً ، حيث خرجت أوروبا في هاتين الناحيتين من الإطار القاري لتجوب العالم، فكانت الإمبراطورية العثمانية بولاياتها الواسعة التربة الخصبة التي وجدوها، وكانت بداية تدخلهم في الدولة العثمانية عن طريق الامتيازات الأجنبية التي منحت لهم منذ وقت مبكر، ورغم أن هذه الدول الأوروبية كانت في بعض الأوقات

متضاربة متجاذبة فيما بينها فإن برنامجها الاستعماري ظل موحداً بأهدافه الإستراتيجية العامة من حيث حماية رعاياها وتحويل الإمبراطورية إلى سوق لتصريف منتجاتها الصناعية ومورد لموادها الأولية .

في هذا الجو العام المضطرب جاءت نتائج الإصلاحات مضطربة أيضاً، فرغم أن أسباب الإصلاح كانت متداخلة ما بين داخلية وخارجية، فإن الإصلاح قد عصف بالعالم ككل وفرض نفسه بالقوة على الدولة العثمانية خلال تلك الفترة رغم سياسة الانعزال التي مارسها الدولة العثمانية خلال تلك الحقبة والمعارضة الشديدة لكل ما هو جديد(العلماء على سبيل المثال كانوا يكفرون كل من يأخذ عن الغرب أو يقتبس منه شيئاً، والإنكشارية قالت في الجيش الجديد ما كفرنا ولا نريد أن نكفر)، مع أنه في البداية كانت هناك رغبة صادقة في تحسين أحوال الدولة عن طريق الاقتباس عن الغرب، لكن فيما بعد تغيرت عملية الاقتباس عندما فرضت أوروبا نفسها على الدولة العثمانية لتسيير دفة الإصلاح بالشكل الذي يوافق رعاياها ومصالحها، فكانت التنظيمات التي صيغت بفكر غربي **بعيدة** عن معالجة الواقع العثماني بمضمونه الإسلامي، ولهذا كانت نتائجها مرضية لأوروبا أكثر من كونها حلاً لمشاكل الدولة العثمانية، وكان ذلك مقابل وقوفها إلى جانب السلطان محمود وابنه عبد المجيد؛ لأنهما حاولا تنفيذ إصلاحات داخلية لا يتقبلها واقع الدولة ولا أطماع الأهالي.

وتتسارع الأحداث ليتحمل ابنه عبد المجيد إرثاً مثقلاً بالمشكلات، فأرغم هو الآخر على تقديم تنازلات متعددة الجوانب وعلى حساب رعيته وأراضيها وعلى حساب القانون الإسلامي (على اعتبار أنه خليفة المسلمين)، وقد ساق ضعفه عليه وعلينا أحداث حرب الأماكن المقدسة التي تمخضت عن حرب القرم ١٢٧٠-١٢٧٣هـ / ١٨٥٣-١٨٥٦م، ليقدم تنازلات كبيرة للمسيحيين واليهود في مضامينها ونتائجها، وعلى هامش تنازلاته ولدت عدة مشكلات عرفت تاريخياً بالمسألة الشرقية .

أما مسألة التنظيمات فلقد شهدت بعض الولايات تحسناً إدارياً، لكن مع الأسف الشديد لم ينعم الأهالي بها لأن الدول الأوروبية تدخلت من خلال منظومتها العسكرية وبقي على السلطان العثماني الحاكم أن يصدر احتجاجات أفلاطونية.

لقد تمت قراءة تاريخ حلب كولاية (١٢٠٤-١٢٩٣)هـ / (١٧٨٩-١٨٧٦)م ضمن منظور الإصلاح المسمى الإصلاح العثماني. وبحكم أن ولاية حلب قريبة من مركز السلطة العثمانية، وهي صلة الوصل بينها وبين الولايات العربية التابعة لها فإن الاهتمام بها كان كبيراً. ولكونها مقراً عسكرياً تنطلق منه الجيوش لقمع الفتن والاضطرابات في الولايات الأخرى، كانوا يعينون عليها ولاية من ذوي المراتب العليا في الدولة وبهذا كانت ولاية حلب متميزة عن غيرها من الولايات، حيث أن ولايتها وموظفيها عانوا مراقبة سلطوية قاتلة، حالت دون سيطرة الجند على مقاليد الأمور فيها قياساً بالولايات الأخرى، فضلاً عن هذا وذاك فإن أي ظلم كان يرتكب، كانت أوروبا من خلال قناصلها توصله إلى آذان ولاية الأمر في استانبول، وهكذا يمكن القول إن وجود الأجانب في الولاية أسهم في ضبطها أمنياً وحدّ من جبروت ولاية الأمر فيها.

إن ما شهدته حلب من تبدل في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية يعود إلى التوافد الأوروبي عليها، حيث فرض على المدينة وأهلها واقعاً يحمل في معظم

أجزائه بعض المزايا التي تربي عليها الأوروبيون ومن المستحيل أن يستقروا في حلب دون أن تكفل لهم دولهم شيئاً مما هو موجود في تراثهم وعاداتهم.

لقد انفردت حلب بتسارع التطور العلمي والاقتصادي والاجتماعي أكثر من استانبول نفسها، وبتعبير آخر الإصلاح العثماني الإطار أوروبي الجوهر، فضلاً عن ذلك كله التنوع البشري التي شملته حلب سواء دينياً أو قومياً، وإن دل على شيء فيدل على عظمة حلب ونباهة أهلها تماشياً مع التطور الذي يمكن أن نسميه منعكسات الإصلاح العثماني عليها.

لقد كانت الأوضاع الاقتصادية في حلب تعاني من أزمات متعددة تعود في أسبابها إلى:

تدهور الحالة الزراعية في الولاية شأنها شأن باقي ولايات الدولة العثمانية، رغم أن القوانين العثمانية التي صدرت كانت غايتها القضاء على نظام الالتزام والإقطاعات العسكرية، وتحسين أحوال الفلاح بتمليكه قطعة من الأرض، وإصلاح نظام الضرائب، لكن تطبيق هذه القوانين على أرض الواقع جاء بنتيجة سلبية، لأن الفلاح لم يكن قادراً على أن يبرز إثباتاً بملكيته للأرض وكان عاجزاً أيضاً عن دفع قيمة الأرض، وجاءت الفرصة المناسبة لانتقال ملكية الأراضي إلى أيدي المرابين والمتنفذين وأعيان المدن، وأصبح الفلاح وأسرته يعيش تحت رحمة تلك الفئة التي سلبته أرضه فتحول من مالكا للأرض إلى أجيراً يعمل مقابل لقمة العيش،

ونتيجة للتطورات في السوق العالمية من زيادة الطلب على بعض المحاصيل الزراعية دون غيرها أجبر السوق المحلية على التحول من نظرية الاكتفاء الذاتي إلى السعي لمواكبة الاقتصاد العالمي من خلال زراعة المحاصيل الزراعية التي تحتاجها السوق العالمية، وقد ساعد على ذلك تطور وسائل النقل والمواصلات.

أما الصناعة فقد أصيبت الصناعة الحلبية بنكسة كبيرة جداً خصوصاً أن الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لدول أوربا أدى إلى تدفق كبير للصناعات الأجنبية إلى الأسواق العثمانية والتي استطاعت من خلال تلك التسهيلات أن تنافس الصناعات المحلية بالكم والسعر، خصوصاً أن سياسة الدولة العثمانية كانت سلبية تجاه الصناعات في الولايات التابعة لها، وحتى الإصلاحات والتنظيمات وما صدر من قوانين لم تنعكس على الصناعة بشيء إيجابي، ورغم هذه العوائق فقد استطاعت الصناعة الحلبية أن تنتج سلعاً رخيصة تنافس بها أسعار السلع الأجنبية، وأن تجد لها سوقاً بين الطبقات الفقيرة في المدن وبين المزارعين في الأرياف وبين سكان البدو أيضاً، كما استطاعت بعض الصناعات الحلبية منافسة الصناعة الأوربية وقد تفوقت عليها في بعض الحالات.

أما التجارة فكانت أكثر جوانب الاقتصاد تأثراً بالأوضاع، لا سيما أن الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدولة العثمانية للتجار الأوروبيين جعلتهم يسيطرون على التجارة في ولايات الدولة العثمانية كما سهلت عملية تدفق رؤوس الأموال وتكوين المراكز التجارية التي سيطروا من خلالها على التجارة، وهكذا تكونت طبقة برجوازية من التجار (هم الرعايا الأجانب في الدولة العثمانية) الذين ارتبطوا بالتجار الأجانب وحصلوا على حمايتهم ولعبوا فيما بعد دور الوساطة التجارية مع الدول الأوربية التي زاد نشاطها

التجاري وزادت حاجة الأسواق الأوربية إلى المواد الأولية وإلى التوسع في الأسواق الخارجية لتصرف فائض صناعاتها، وهكذا تمكنت البرجوازية الأوربية بالتعاون مع البرجوازية المحلية من السيطرة على الأسواق المحلية لتخرج عملية النشاط التجاري من أيدي أهل المدينة الذين اتجهوا إلى الزراعة، فأصبحت الدولة العثمانية وولاياتها عبارة عن مستعمرة أوربية تستورد منها المواد الأولية وتصدر إليها صناعاتها.

وانعكس الوضع سلباً على النقد العثماني حيث أصبحت العملة العثمانية في تناقص مستمر وضعفت قوتها الشرائية بسبب التلاعب بأوزانها ومعدنها، فاتجه السوق إلى التعامل بالنقد الأجنبي الأكثر قيمة ولكنه أكثر ثباتاً، ولم تنجح المحاولات العثمانية في تحسين وضعها النقدي رغم المحاولات العديدة التي قامت بها.

أما الناحية الاجتماعية فإن ولاية حلب بحكم موقعها الجغرافي وأهميتها التجارية ضمت العديد من العناصر السكانية المختلفة الجنسيات والأديان، إضافة إلى ما يتميز به الحلبيون من حسن المعاملة، لذلك فإن الدولة العثمانية لم تدخل في هذه التركيبة السكانية الحلبية لكن الظروف الاقتصادية التي ذكرت سابقاً أتاحت لبعض الفئات لعب دور الوسيط التجاري فحققت أرباحاً طائلة وأفرزت المجتمع الحلبى إلى طبقات منها من شكل البرجوازية الناشئة، وبالمقابل فإن الكثير من التجار وصغار الكسبة من الصناع وغيرهم أدى بهم هذا الوضع إلى الإفلاس، فقامت بعض الفتن كأحداث ١٨٥٠م (فتنة حلب)، وأحداث ١٨٦٠ م في دمشق وامتد تأثيرها إلى حلب .

ولكن في خضم هذه الظروف شهدت ولاية حلب حركة تفاعل حضاري اجتماعي كبير ما بين العناصر المحلية من السكان والعناصر التي وفدت إليها فطراً الكثير من المستجندات على المجتمع الحلبى جاءت مع العناصر الأجنبية من مختلف الجنسيات والأديان.

أما الناحية الثقافية فقد خيم عليها الركود في بلاد الشام عامةً خلال الفترة العثمانية، وذلك نتيجة إهمال الدولة للتعليم، وشدة الضرائب وتبديل الولاية المستمر، كل ذلك انعكس سلباً على التعليم في البلاد بشكل عام، وانشغال العامة بلقمة العيش وتأمين متطلبات الحياة القاسية، ورغم أن الحياة الثقافية في بلاد الشام قد شهدت فترة انتعاش خلال فترة الحكم المصري من تشجيع للتعليم وافتتاح المدارس ودخول البعثات التبشيرية إلى البلاد ولكن الفترة المصرية كانت قصيرة جداً مقارنة بفترة الخمول العثمانية التي استمرت أربعة قرون، والإصلاح في هذا المجال لم يؤثر على حلب إلا من خلال زيادة توافد الأوروبيون إليها، ولجوء هؤلاء الأوروبيون إلى فتح المدارس وتشجيع الطباعة والصحافة.

وبالرغم من هذه الظروف فقد حافظت الثقافة العربية بأصالتها على الحدود الدنيا من الاستمرار حيث انتشرت العلوم النقلية والشروح والتعليق والحواشي وشروح الشروح ولكن ندر الإبداع والابتكار.

Summary

Ottoman reform and reflected the mandate of Aleppo

1204-1293 Hegra / 1789-1876

This research study addresses the reform of the Ottoman Empire in terms of internal and external causes that led to the reforms, and reform attempts, then what the sultan had done to do reforms and regulations, starting with the (Slim III) in the 1204 H / 1789 until the end of Abdul Aziz 1293 H / 1876, then examined the reflection of these reforms and regulations to the mandate of Aleppo during the search period.

Research has been divided into an introduction and pave the historic, five chapters and a conclusion.

In the Introduction we have clarified the search target and the difficulties of access to view that end the question from reader mind.

The preface is a simple introduction for a state came from Central Asia and the circumstances was not clear, it was able to emerge as an empire through a documented history of its periods, and the advent of Mustafa Kemal ends the period of the Empire which kings of Europe and their princes used to kiss the threshold of the ruling authority.

The first chapter have touched on the reasons for the reforms from the Janissaries corruption and administrative chaos and the influence of European women who married to sultans ,in addition to the defeats that the State suffered after giving the management to prime minister and the Sultans stay in Alharmk Palace, and to confirm the collapse the foreign privileges granted to them which were the gateway to enter European domination on the Ottoman empire to control its management.

In the second chapter treat the attempts to reform starting with Sultan Ahmed III (1115-1143 H / 1703 – 1730) ending with first Abdul-Hamid (1188-1204 H/ 1774-1789), with a presentation of the unrest caused by the attempts of reform. we have reviewed the

sultans who did the reform , they were selim III (1204-1222 / 1789-1807), Mahmud II (1223-1255 H. / 1808-1839) and then associated with the reforms a stage of regulations initiated by Sultan Abdul-Majid (1255-1278 H. / 1839-1861) and his uncle, Sultan Abdul Aziz, 1278-1292 H. / 1861-1875 they released firmans that satisfied the will of a European according to sources and references.

While the third chapter, speak about Sultans of reform in order to recognize the reflect of reforms on the mandate of Aleppo which the Ottoman Empire and Europe interested in .

The forth chapter is to study the Aleppo geographically, historically and administratively in order to highlight the systems adopted in Aleppo, before the start of its reform and access to it.

In Chapter V has been reviewed developments in Aleppo after the reform and its implications on the economic life, social and cultural impacts on those features of Aleppo and its inhabitants.

In conclusion, it is a summary of the vision has been drawn through Aleppo suffered from the events before and after the reform, and the result of Aleppo did not benefit from the reform, however, because the decision was with the European countries was the most important results can be reached, as well as other benefits gained by the reform of Aleppo If it is late.

مصادر ومراجع البحث

وثائق غير منشورة سجلات المحاكم الشرعية في كل من حلب ودمشق

- ١- سجل رقم ٢٦٣، سنة ١٢٦٨هـ
- ٢- سجل رقم ٢٦٤، سنة ١٢٦١هـ
- ٣- سجل رقم ٢٦٨، سنة ١٢٧٠هـ
- ٤- سجل رقم ٢٧٠، سنة ١٢٧١هـ
- ٥- سجل رقم ٢٧٢، سنة ١٢٧١هـ
- ٦- سجل رقم ٢٧٥، سنة ١٢٧٣هـ
- ٧- سجل رقم ٢٧٨، سنة ١٢٧٣ - ١٢٧٥هـ
- ٨- سجل رقم ٢٨١، سنة ١٢٧٥هـ
- ٩- سجل رقم ٢٨٦، سنة ١٢٧٨هـ
- ١٠- سجل رقم ٣٠٢، سنة ١٢٨٩هـ
- ١١- سجل رقم ٣٠٧، سنة ١٢٩٤ - ١٢٩٥هـ
- ١٢- سجل رقم ٣٠٨، سنة ١٢٩٥ - ١٢٩٦هـ
- ١٣- سجل رقم ٣٠٩، سنة ١٢٩٧هـ - ١٨٨١م.
- ١٤- سجل رقم ٣١٠، سنة ١٢٩٧هـ.
- ١٥- سجل رقم ٣١٣، سنة ١٢٩٨ - ١٣٠٠هـ.
- ١٦- سجل رقم ٣١٦، سنة ١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م.
- ١٧- سجل رقم ٣٢٥، تاريخ ١٤ ربيع الأول ١٣٠٤هـ.
- ١٨- مديرية الوثائق التاريخية في دمشق سجل محكمة العونية سجل رقم ٦٢٨ سنة ١٢٨٧هـ.
- ١٩- مديرية الوثائق التاريخية في دمشق سجل الوثائق الشرعية سجل رقم ٥٧٢، ١٢٨٧هـ.

سجل الأوامر السلطانية لولاية حلب

- ١ - سجل رقم ٢
- ٢ - سجل رقم ٢٤
- ٣ - سجل رقم ٣٦
- ٤ - سجل رقم ٤٠
- ٥ - سجل رقم ٤٣
- ٦ - سجل رقم ٤٤
- ٧ - سجل رقم ٥١
- ٨ - سجل رقم ٥٢
- ٩ - سجل رقم ٥٥
- ١٠ - سجل رقم ٥٦
- ١١ - سجل رقم ٥٧
- ١٢ - سجل رقم ٧٠
- ١٣ - سجل رقم ٧٨

السالنامات

- ١ - سالنامه ولاية حلب ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م
- ٢ - سالنامه ولاية حلب ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٤ م
- ٣ - سالنامه ولاية حلب ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م
- ٤ - سالنامه الدولة العثمانية ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م
- ٥ - سالنامه ولاية حلب ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م

المصادر العثمانية

1. Ali kemal Meran:PadesahAnalari,Istanbul,1997
2. Hakki, Ismail: uzun carsili,Osmanli Tarihi.Ankara1963
3. Mehmet Ozan:Osmanl 11 Tarihi,Ankara,1990
4. Mustafa Oglu:Goringel,Istanbul1989
5. Zek Can:Osmanl.Tarihi.Ankara,1983

- ١- أرشيف رئاسة الوزراء ، عينيات دفترية رقم ١١٣ ص ٥٨
- ٢- أولياء (جلبي)، تحفة التواريخ ،استانبول ١٢٢٠
- ٣- أولياء (جلبي)، تحفة الكبار،استانبول ١٢٢٦هـ
- ٤- تقرير الداما،رستم باشا، ورقة ٦-٢
- ٥- تقرير الصدر الأعظم ، فؤاد باشا، ورقة ٦-٧
- ٦- تقرير فؤاد باشا، مكتبة نور العثمانية تحت رقم ١٠٩٣
- ٧- تقرير مصطفى باشا، مكتبة نور العثمانية تحت رقم ٨٦٥٣
- ٨- رفيق (باشا)، عثمانلي تنظيماتي،استانبول ١٢٢٧
- ٩- سجل أوراق مهمة دفترية رقم ١٢١٣ ص ٩٣
- ١٠- سجلات الديوان الهمايوني سجل رقم ١٣
- ١١- سجل رقم ١٠٥
- ١٢- سجل رقم ١٠٩
- ١٣- سجل رقم ١١٠
- ١٤- سجل رقم ١١٥
- ١٥- سجل رقم ١١٩
- ١٦- صولاق (باشا زادة)، تاريخ صولاق ،استانبول ١٢٠٣هـ
- ١٧- كاتب (جلبي)،وقعة نونيس،استانبول ١٢٣٠هـ
- ١٨- مذكرات فوزي قورت أوغلي، مكتبة نور عثمانية ورقة ١١
- ١٩- مصطفى (السلحدار) ،تاريخ السلحدار،استانبول ١٢٠٩هـ
- ٢٠- مصطفى(أوزجان)،والمكاتب السلطانية، استانبول ١٢٣٠
- ٢١- مهمة أوراق دفترية،غرة ١٣٧
- ٢٢- نظارت أمور تجارت ونافعة، إيستانستنيق عمومي إدارة سي، استانبول ١٣١٦،
- ٢٣- نور (رضا) تورك تاريخي(عثمانلي تاريخي) أنقرة ١٩٥٣م

المصادر العربية

١. توتل اليسوعي (فردينان) وثائق تاريخية عن حلب المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٤٠م أربعة أجزاء

٢. الحسني (علي عبد العزيز) تاريخ سورية الاقتصادي مطبعة بدائع الفنون دمشق ١٣٤٢هـ
٣. رستم (أسد) بشير بن السلطان والعزیز ١٨٠٤-١٨٤١م منشورات المكتبة البوليسية
٤. زيدان (جرجي زيدان) تاريخ أداب اللغة العربية، دار الهلال، ١٩٥٧م، أربعة أجزاء
٥. سرهنك (إسماعيل) حقائق الأخبار عن دول البحار المطبعة الميرية القاهرة، ١٨٩٧م
٦. الطباخ (محمد راغب بن محمود بن هاشم) أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء سبعة أجزاء ، نقحه ووقف على طباعته محمد كمال المطبعة دار القلم العربي حلب ط ١٣٤١، ١٣٥١/١٩٢٣م
٧. الغزي (كامل) نهر الذهب في تاريخ حلب، ثلاث أجزاء ،تحقيق شوقي شعث ومحمود فاخوري ،دار القلم العربي حلب -مطبعة الصباح دمشق ص ٢ ، ٢٠٠٢م
٨. فريد بك (محمد) تاريخ الدولة العلية العثمانية تحقيق إحسان حقي دار النفائس بيروت ط ١ ١٤٠١ هـ ١٩٨١م
٩. كامل (مصطفى) المسألة الشرقية مطبعة الآداب مصر ط ١، ١٨٩٨م
١٠. كرد علي (محمد) خطط الشام مكتبة النوري دمشق ١٩٨٣
١١. كرد علي (محمد) غوطة دمشق دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ط ٣، ١٩٨٣م
١٢. الكرملی (الأب أنستانس) ، النقود العربية والاسلامية وعلم النميات ،مكتبة الثقافة المدينية ط ٢، ١٩٨٧م
١٣. لبيب (حسين) تاريخ المسألة الشرقية، مطبعة الهلال ١٩٢٧م
١٤. الماوردي (القاضي أبو حسن البصري) الأحكام السلطانية والولايات الدينية تخريج تعليق عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٩٠م، ط ١
١٥. المر (دعيبس) أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية ، مطبعة بيت المقدس، القدس ١٩٢٣م
١٦. يعقوب (أبو يوسف) ، كتاب الخراج ، المطبعة السلفية القاهرة ١٩٧٦م

منشورات عربية ذات صبغة وثائقية

١. رستم (أسد) المحفوظات الملكية المصرية بيروت المطبعة الأمريكية ١٣٥٩-١٣٦٢هـ/١٩٤٠-١٩٤٣م
٢. رستم (أسد) الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي منشورات الجامعة الامريكية بيروت ١٩٣٠م ج ٣+٤

٣. القرآن الكريم
٤. نسكاي (إيرينا سميليا)، سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر من خلال (مذكرات رحالة وتقارير علمية واقتصادية ووثائق قنصلية وسياسية وعسكرية)، ترجمة يوسف عطا الله ، راجعه وقدم له مسعود ضاهر ، دار النهار بيروت ، ١٩٩٣م
٥. نعيسة (يوسف) ، المرجع في وثائق تاريخية عن الشام في أثناء حملة محمد علي باشا ١٢٤٧-١٢٥٦هـ/١٨٣٣-١٨٤٠م، دار طلاس، دمشق ط٢

المصادر العثمانية المعربة

- ١- آصاف (يوسف بك) تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن. مكتبة مدبولي القاهرة ط١ ١٤١٥هـ-١٩٩٥م
- ٢- أنكه (لهارد) تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية نقله إلى العثمانية علي رشاد ترجمه إلى العربية د. محمود علي عامر قدم وعلق عليه سمر بهلوان دار الزمان دمشق ط١، ٢٠٠٨م
- ٣- جودت (أحمد) تاريخ جودت ترجمة عبد القادر الدنا جزءان د.ن بيروت ١٣٠٨هـ ١٨٩٠م
- ٤- الدستور ترجمه إلى العربية نوفل نعمة الله نوفل مراجعة وتدقيق خليل أفندي خوري مجلدان المطبعة الأدبية بيروت ١٣٠١هـ ج١
- ٥- فارس، (سليم) كنز غائب في منتخبات الجوائب ، مطبعة الجوائب، الاستانة ١٢٩٤هـ

المصادر الأجنبية المعربة

- ١- أبولياك، الاقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم، منشورات دار المكشوف ، بيروت ١٩٤٨م
- ٢- الأخوين راسل (الكسندر وباتريك) تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر، ترجمة خالد جبيلي، شعاع للنشر والعلوم حلب ط١، ١٩٩٩م
- ٣- باتريك (ماري ملز) سلاطين بني عثمان مؤسسة عز الدين بيروت ط١ ١٩٨٦/٥٤٠٧م
- ٤- بازيل (قسطنطين) سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، دار الحداثة بيروت ١٩٨٨م
- ٥- رثيف أفندي (محمود) التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية تعريب وتحقيق خالد زيادة جروس برس طرابلس لبنان ط١ ١٩٨٥م
- ٦- كيرك (جورج) ، موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر ترجمة عمر الاسكندري ، مصر ، دار الطباعة الحديثة ط٣، ١٩٥٧م
- ٧- م مصطفى (سيد) الاصلاح العثماني في القرن الثامن عشر نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية ١٨٠٣م تحقيق خالد زيادة المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط١ ١٩٧٩م

المراجع الأجنبية المعربة

- ١- إدم (إدهم) غوفمان (دانيال) ماسترز (بروس) المدنية العثمانية بين الشرق والغرب حلب از مير استانبول ، تعريب د.رلى ذبيان مكتبة العبيكان
- ٢- أوزتونا (يلماز) تاريخ الدولة العثمانية ترجمة عدنان محمود سلمان ،مراجعة وتنقيح د. محمود الانصاري مجلدان مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، استانبول ١٩٩٠م ٥١٤١٠م
- ٣- أوغلي (أكمل الدين إحسان) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح سعادوي، استانبول، مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامية، ١٩٩٩م
- ٤- أوين (روجر) الشرق الأوسط والاقتصاد العالمي ترجمة سامي الرزاز ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، ط١، ١٩٩٠م
- ٥- إينالجيك، (خليل) الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ،ترجمة محمد الأرنؤوط دار المدار الإسلامي بيروت ط١، ٢٠٠٢م
- ٦- بروكلمان (كارل) الأتراك العثمانيون وحضارتهم ،دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٩م
- ٧- جيب (السير هاملتون) و بوين (هارولد) المجتمع الاسلامي والغرب وأثر الحضارة الغربية في الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى ترجمة عزت عبد الرحيم ، دار المعارف مصر ١٩٧١م
- ٨- حتي (فيليب) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج٢ ، ترجمة كمال اليازجي . دار الثقافة بيروت ١٩٨٣م
- ٩- حوراني (ألبرت) خوري (فيليب س) ويلسون (ماري ك) الشرق الأوسط الحديث جزءان ترجمة أسعد صقر ج١ طلائع الإصلاح وتبدل العلاقات مع أوربا ١٧٨٩-١٩١٨م دار طلاس ط١ ١٩٩٦م
- ١٠- خوري (فيليب) أعيان المدن والقومية العربية ترجمة عفيف الرزاز ، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، ط١، ١٩٩٣م
- ١١- ريمون (أندريه) المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩١م
- ١٢- شليشر (ليندا) ، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ترجمة عمرو الملاح ودينا الملاح ،دار الجمهورية، دمشق، ط١، ١٩٩٨م
- ١٣- عيساوي (شارل) التاريخ الإقتصادي للهِلال الخصيب ، ترجمة رؤوف عباس حامد ، مركز دراسات الوحدة العربية ص١ ١٩٩٠
- ١٤- غاوبه (هاينتز) و فيرت (أويغن) حلب دراسات تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبية الاجتماعية والحركة الاقتصادية لأحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الأدنى، جزءان، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة

الثقافة دمشق ٢٠٠٧م

- ١٥ - قفلجملي (حكمت) التاريخ العثماني، تعريب فاضل لقمان، دار الجيل، دمشق، ١٩٨٧م
- ١٦ - كوبريلي (محمد فؤاد) قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان، تقديم احمد عزت عبد الكريم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م
- ١٧ - لوتسكي (فلاديمير) تاريخ الأقطار العربية الحديث ترجمة عفيفة البستاني دار الفارابي ببيوت ط٨، ١٩٨٥م
- ١٨ - مانتران (روبير) تاريخ الدولة العثمانية ترجمة بشير السباعي، جزءان، الفكر للدراسات القاهرة ١٩٩٣م
- ١٩ - نسكايا (إيرينا سميليا) البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، ترجمة يوسف عطا الله، بيروت دار الفارابي ط١، ١٩٨٩م
- ٢٠ - نسكايا (إيرينا سميليا)، الحركات الفلاحية في جبل لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة عدنان جاموس، بيروت، د.ن، ١٩٧٢م
- ٢١ - هانج (سير ولسلي) جدول لمقرنة السنوات الهجرية بالسنوات الميلادية ، ترجمة عبد العزيز مصطفى المراغي ، مطبعة الشرق.

المجلات والحواليات

- ١ - مجلة الحواليات العربية السورية .
- ٢ - مجلة الحوار.
- ٣ - دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشناوي، إبراهيم زكي خورشيد، دار المعرفة بيروت، ١٩٣٣م، ج ١
- ٤ - مجلة دراسات تاريخية
- ٥ - المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام ، جامعة دمشق ١٩٧٨م،
- ٦ - مجلة كلية الآداب صنعاء
- ٧ - الموسوعة الفلسطينية
- ٨ - مجلة الاجتهاد
- ٩ - الموسوعة الشعرية سيدي (CD) إنتاج شركة العريس السعودية ٢٠٠٣م

المراجع العربية

- ١ - إسماعيل (حلمي محروس) تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى جامعة الاسكندرية مؤسسة الشباب ١٩٧٧م
- ٢ - أنور (محمود د بور)، نظام استغلال الأراضي الزراعية في الشريعة الإسلامية، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٧م
- ٣ - أنيس (محمد) الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤م مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٩٣م

- ٤- باروت (جمال) حيركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر دراسة ومختارات منشورات وزارة الثقافة دمشق ط١٩٩٤م
- ٥- البحراوي (محمد عبد اللطيف) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩م دار التراث ط١٣٩٨-١٩٧٨م
- ٦- برجاوي (سعيد أحمد) الامبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٣م
- ٧- البشري (طارق) المسألة القانونية بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي في التراث وتحديات العصر، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٥م
- ٨- بشور (أمل ميخائيل) سوريا ولبنان في عصر الإصلاح العثماني حقبة التنظيمات من سنة ١٨٤٠-١٨٨٠م المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس ٢٠٠٦م
- ٩- بيات (فاضل) دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، دار المدار الاسلامي، بيروت ط١، ٢٠٠٣م
- ١٠- بيات (فاضل) الدولة العثمانية في المجال العربي دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً (مطلع العهد العثماني، أواسط القرن التاسع عشر) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط٢٠٠٧م
- ١١- بيهم (محمد جميل) فلسفة التاريخ العثماني-أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها، بيروت، المطبعة التجارية، ١٩٥٤م
- ١٢- التميمي (عبد الجليل) الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني زغوات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ١٩٨٨م
- ١٣- التونجي (محمد) بلاد الشام إبان العهد العثماني دار المعرفة بيروت
- ١٤- جحا (فريد) الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر، دار الأهالي، دمشق ط١٩٨٨م
- ١٥- الجميل (سيار) العثمانيون وتكوين العرب الحديث من أجل بحث رؤيوي معاصر مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ط١٩٨٩م
- ١٦- حسون (علي) العثمانيون والروس، دمشق بيروت، المكتب الإسلامي ١٩٨٣م
- ١٧- حسون (علي) تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية المكتب الإسلامي بيروت ط٤، ٢٠٠٢م
- ١٨- الحصري (ساطع البلاد) العربية والدولة العثمانية جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧م
- ١٩- الحصني (محمد أديب) تقي الدين منتخبات التواريخ لدمشق المطبعة الحديثة دمشق ١٩٨٣م ج٣
- ٢٠- الحكيم (يوسف) سوريا والعهد العثماني المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٦م
- ٢١- حمادة (سعيد) النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، المطبعة الأمريكية

- بيروت ١٩٣٦م
- ٢٢- حنا (عبد الله فايز) الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠-١٩٤٥، دمشق، دار دمشق ١٩٧٣م
- ٢٣- حنا (عبد الله فايز): ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، ٥ مجلدات، دار البعث للطباعة والنشر، دمشق، دون تاريخ،
- ٢٤- حليم (إبراهيم بك) تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية) مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط ١، ١٩٨٣م
- ٢٥- حوراني (ألبرت) الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩م دار النهار بيروت د ب
- ٢٦- حيدر (شاكر ناصر)، أحكام الأراضي والأموال غير المنقولة، مطبعة الاعتماد، بغداد ١٩٤٧م
- ٢٧- خوري (رئيف) الفكر العربي الحديث الحديث (أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والمعاصر) تحقيق وتقديم محمد كامل الخطيب بيروت ١٩٤٣م
- ٢٨- خوري إميل وإسماعيل، السياسة الدولية في المشرق العربي من سنة ١٧٨٩-١٩٥٨م مدار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت ١٩٥٩م.
- ٢٩- خوري (يوسف قزما)، مختارات من القوانين العثمانية دار الحمراء بيروت ط ١، ١٩٩٠م.
- ٣٠- الدباغ (عائشة)، الحياة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، دار الفكر بيروت، ١٩٧٢م صوفي سنة ٤٤
- ٣١- رافق (عبد الكريم)، دراسة اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، مكتبة نوبل، ٢٠٠٢م
- ٣٢- رافق (عبد الكريم)، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، دمشق ط ٢، ١٩٦٨م
- ٣٣- رافق (عبد الكريم)، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق ١٩٨٥م
- ٣٤- رافق (عبد الكريم) المشرق العربي في العهد العثماني منشورات جامعة دمشق ط ١٩٩٩م
- ٣٥- رافق عبد الكريم العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م، مكتبة أطلس دمشق ط ٢، ١٩٩٣م ٦٧
- ٣٦- الرفاعي (محمود فيصل)، حلب بين التاريخ والهندسة، معهد التراث العلمي العربي، حلب ١٩٩٦م
- ٣٧- الزواهرة (تيسير) تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق من ١٨٤٠-١٨٦٤م/١٢٥٥-١٢٨٢هـ منشورات جامعة مؤتة الكرك الأردن ١٩٩٥م
- ٣٨- زيادة (خالد) اكتشاف التقدم الأوربي دراسة في المؤثرات الأوربية على العثمانيين في القرن ١٨، دار لطليعة للطباعة والنشر بيروت ط ١ ١٩٨١م

- ٣٩- زيادة (خالد) كاتب السلطان حرفة الفقهاء والمتقنين رياض الرئيس للكتب والنشر لندن قبرص ط١، ١٩٩١م
- ٤٠- زيادة (نقولا) الأعمال الكاملة أبعاد التاريخ اللبناني الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ٢٠٠٢م
- ٤١- زيادة(خالد)تطور النظرة الإسلامية إلى أوروباببيروت معهد الإنماء العربي ١٩٨٣م
- ٤٢- الزين (علي) العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية دار الكتاب اللبناني بيروت ، ودار الكتاب المصري القاهرة ط١، ١٩٧٧م
- ٤٣- سالم(لطيفة محمد) الحكم المصري في بلاد الشام ١٨٣١-١٨٤٠م مكتبة مدبولي القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م
- ٤٤- السباعي (بدر الدين) ، أضواء على قاموس الصناعات الشامية ، دار الجماهير الشعبية،دمشق ١٩٧٧م
- ٤٥- سعيد (عبد الله) ، تطور الملكية العقارية في جبل لبنان، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت ط١٩٨٦، ١م
- ٤٦- سنو (عبد الرؤوس) النزعات الكيانية والإسلامية في الدولة العثمانية ١٨٧٧-١٨٨١م بلاد الشام -الحجاز كردستان ألبانيا، بيسان بيروت لبنان ط١ ١٩٩٨م
- ٤٧- السيد (سيد محمد) دراسات في التاريخ العثماني، دار الصحوة القاهرة ١٩٩٦م
- ٤٨- شقيرات (أحمد صدقي علي) تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن ١٨٦٤ - ١٩١٨م ألاء للطباعة والتصميم ، عمان الأردن، ط١، ١٩٩٢م
- ٤٩- الشناوي (عبد العزيز) الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ٣ اجزاء القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٣، ١٩٨٠م.
- ٥٠- الشهابي (قتيبة) نقود الشام دراسة تاريخية للعملة التي كانت متداولة في الشام ، وزارة الثقافة،دمشق ٢٠٠٠م
- ٥١- صابات(خليل)تاريخ الطباعة في الشرق العربي القاهرة ١٩٦٦م
- ٥٢- الصلابي(محمد)الدولة العثمانية،عوامل النهوض والسقوط، دار المعرفة،بيروت، ط٢٠٠٤، ٢م
- ٥٣- ضاهر (مسعود) الدولة والمجتمع في المشرق العربي ، دار الآداب ١٩٩١ م
- ٥٤- ضاهر(مسعود)الجنود التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية١٦٩٧-١٨٦١م، بيروت،معهد الإنماء العربي،ط٣، ١٩٨٦م
- ٥٥- طريبن (أحمد) التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث،مطبعة الإنشاء دمشق، ١٩٧٠م
- ٥٦- طقوش (محمد سهيل) العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ٦٩٨-١٣٤٣هـ/١٢٩٩-١٩٢٤م دار العلم بيروت ١٩٩٥م
- ٥٧- عامر (محمود علي) الدولة العثمانية تنتهم سلاطينها دار الصفدي دمشق ط١، ٢٠٠١م

- ٥٨- عامر (محمود علي) تاريخ الإمبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية دار الصفدي دمشق ط ١ ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م
- ٥٩- عامر (محمود علي) الدولة العثمانية تاريخ ووثائق دمشق دار الرحاب ط ١ ، ٢٠٠١م
- ٦٠- عامر (محمود علي) المكايل والأوزان والنقود منذ فجر الإسلام وحتى العهد العثماني ، مطبعة ابن حيان دمشق ١٩٩٧م
- ٦١- العزاوي (قيس جواد) الدولة العثمانية (قراءة جديدة لعوامل الانحطاط) مركز دراسات الإسلام والعالم الدار العربية للعلوم، فلوريدا بيروت ط ١ ، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م
- ٦٢- عماد (عبد الغني) السلطة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر، بيروت دار النفائس
- ٦٣- عمر (عمر عبد العزيز) تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢م دار النهضة بيروت ١٩٨٨م
- ٦٤- عنتابي (محمد فؤاد) وعثمان (نجوى) حلب في مئة عام ١٨٥٠ - ١٩٥٠م معهد التراث العلمي العربي حلب ط ١ ، ١٩٩٣م
- ٦٥- عوض (عبد العزيز محمد) الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤- ١٩١٤م تقديم د. أحمد عزت عبد الكريم دار المعارف مصر ١٩٦٩م
- ٦٦- عوض (عبد العزيز) مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث الموسوعة العربية للدراسات والنشر بيروت ط ١ بيروت
- ٦٧- عياش (عبد القادر) من ملامح وادي الفرات مطابع ألف باء الأديب دمشق ١٩٧٢م
- ٦٨- غرايبة (عبد الكريم) سورية في القرن التاسع عشر (محاضرات) ١٨٤٠- ١٨٧٦م جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية والعالمية ١٩٦١-١٩٦٢م
- ٦٩- غربال (محمد شفيق) منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة على ما هي عليه اليوم جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية ١٩٦١م
- ٧٠- غنايم (زهير) لواء عكا في عهد التنظيمات ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٩م
- ٧١- فتال (هند) -رفيق سكري، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، جروس برس بيروت ط ١ ، ١٩٨٨م
- ٧٢- فندي (أبو فخر) ، سورية والصراعات الدولية ١٨٣١-١٨٤٠م ، دم، ٢٠٠٠م
- ٧٣- قسطون (وديع عبد الله) الإفرنج في حلب في القرن ١٨ مطبعة الضاد، حلب ١٩٦٨م
- ٧٤- قلعة جي (عبد الفتاح) حلب القديمة والحديثة ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٩م
- ٧٥- كوثراني (وجيه) السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام ،مركزات دراسات الوحدة العربية،بيروت ط ١
- ٧٦- كوثراني (وجيه)الفقيه والسلطان، دار الرشيد بيروت ١٩٨٩م.
- ٧٧- الصباغ(ليلي) تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق، منشورات جامعة

- دمشق، ط ٣، ١٩٩٢م
- ٧٨- الصباغ(ليلي) الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر ،بيروت ،مؤسسة الرسالة ،ط ١، ١٩٨٩م
- ٧٩- الصباغ(ليلي)،المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني،دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٣
- ٨٠- المبيض (سليم عرفان) ، النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الأجنبية، من القرن السادس قبل الميلاد حتى عام ١٩٤٦م الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩م
- ٨١- مخزوم (محمد) أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة معهد الإنماء لعربي بيروت ط ١ ١٩٨٦م
- ٨٢- مصطفى (أحمد عبد الرحيم) في أصول التاريخ العثماني، دار الشرق ط ٢ ١٩٩٣م
- ٨٣- الملاذني (سهيل) الطباعة والصحافة في حلب،دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع،دمشق ١٩٩٦م
- ٨٤- مهملات (عثمان)، حلب التراث، منشورات دار القلم العربي ،حلب، ط ١ ، ١٩٩٤م
- ٨٥- نخبة من الباحثين الرقة درة الفرات مراجعة د. سهيل زكار محافظة الرقة ، ط ١، ١٩٩٢م
- ٨٦- نعيصة(يوسف)مجتمع مدينة دمشق ١١٨٦-١٢٥٦هـ/١٧٧٢-١٨٤٠م،دار طلاس،دمشق ط ٢.
- ٨٧- نوار (عبد العزيز)الشعوب الاسلامية ، دار النهضة بيروت ١٩٧١م
- ٨٨- نوار(عبد العزيز سليمان) وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث جامعة بيروت العربية ١٢٧٥هـ
- ٨٩- الوديناني (خلف بن دبلان بن خضر)الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى ١٣٢٧هـ ١٩٠٩م مكة المكرمة ١٩٩٦م
- ٩٠- الياس (جوزيف) تطور الصحافة السورية في مائة عام ١٨٦٥-١٩٦٥م دار النضال بيروت ١٩٨٢م ج ١
- ٩١- يحيى (جلال) العالم العربي الحديث دار المعارف مصر ١٩٦٦م

المراجع الأجنبية

- 1- Alison,A.History of Europe.Paris 1841
- 2- Bacharach (Jere) I:Amiddle East Studies Handbook,Univercity of Washigton press London1984
- 3- Barker & Edward: Syria and Egypt under the last five Sultans of turkey . London 1876
- 4- Bodman,Herbert,L.Jr:Political Fanction in Aleppo 1760-1826. The university of Carolina,press1963
- 5- Encyclopædia Britannica Article 2008 .DVD
- 6- Englhardt: la turquie et le tanzimat:ou histoire des reformes dans l'empire ottoman dequis 1826 j usqu'anos joars
- 7- Farley. J. Lewis: The Resources of Turkey .London .1863 .
- 8- Gibb,H.A.R.and Bowen,Horl:Islamic Society and the West ,vol1,Part1,London1950,vol1,Part2,London 1954.
- 9- Inalcik (Halil):The Ottoman Empire:The Classical Age 1300-1600. London1973
- 10- Kitsikis(Dimitri):L Empire Ottoman, Paris,PUF,1985
- 11- Lewis (Bernard):Islam et Lasitie:La Naissance de la Turquie Moderne,Paris,fayard,1988.
- 12- Lewis (Norman) : nomads and satters in Syria and jordan 1800-1890. Cambridge University press, 1987. - Lewis(Bernard) :The Emergence of Modern Turkey. London1961
- 13- Lewis(Bernard):Studies in The Ottoman Archives (B.S.O.A.S.1954
- 14- Lewis(Bernard):The Impactof the French on Turkey. J. w. H.1(1953)
- 15- Lewis(Norman) :The frontier of settment in Syria

1800-1950,International Affairs ,London ,1955

16- Masters (Bruce) :Trading Diasporas Nations,the Genesis of National Identities in Ottoman Aleppo. The Internaional History Review 1983

17- Masters (Bruce): The 1850 Events in Alippo: An Aftershock of Syria's Incorporation into the Capitalist world system .int. J.Middle East studies1990

18- Sauvaget:Alep Essai sur les development d,une grandes Villes Syrienne Paris 1941.

مواقع الانترنت

<http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-egypte>

<http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-turistique>

<http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-traveller>

<http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-arabic-history>

<http://encyclopedia.aarabiah.net/Turkey-istanbul>

<http://encyclopedia.aarabiah.net/istanbul>

<http://encyclopedia.aarabiah.net/turkey-culture>

www.hukam.net/family.

<http://www.hukam.net/maps>

ملاحق البحث

ملحق رقم (١)

سلاطين الدولة العثمانية* من النشوء حتى الانهيار

تسلسل	الحاكم	فترة الحكم		حياة السلطان		ملاحظات
		من	إلى	من	إلى	
	العثمانيون في ياني سهير					
١	"الغازي" عثمان (١) بن أرطغرل	١٣٠٠	١٣٢٦	١٢٥٨	١٣٢٤	
	العثمانيون في بورصة					
٢	أورخان بن عثمان (١)	١٣٢٦	١٣٥٩			
	العثمانيون في إدرنة					
٣	مراد (١) بن أورخان	١٣٥٩	١٣٨٩	١٣٢٦	١٣٨٩	منذ ١٣٦٦ م في إدرين
٤	يلدرم "الصاعقة" بايزيد (١) بن مراد (١)	١٣٨٩	١٤٠٢	١٣٥٧	١٤٠٣	
٥	جلبي محمد (١) بن بايزيد (١)	١٤٠٣	١٤٢١	١٣٨٧	١٤٢١	
	عيسى بن بايزيد	١٤٠٢	١٤٠٦			خرج على أخيه في بورصة
	سليمان بن بايزيد (١)	١٤٠٤	١٤١٠			خرج على أخيه في إدرنة والرميلة؟
	جلبي موسى بن بايزيد (١)	١٤١٠	١٤١٣			خرج على أخيه في إدرنة
٦	مراد (٢) بن محمد (١)	١٤٢١	١٤٤٣	١٤٠٢	١٤٥١	
٧	"الفاتح" محمد (٢) بن مراد (٢)	١٤٤٣	١٤٤٤	١٤٣٢	١٤٨١	
٢-٦	مراد (٢) بن محمد (١)	١٤٤٤	١٤٤٤	١٤٠٢	١٤٥١	
٢-٧	"الفاتح" محمد (٢) بن مراد (٢)	١٤٤٤	١٤٤٥	١٤٣٢	١٤٨١	
٣-٦	مراد (٢) بن محمد (١)	١٤٤٥	١٤٥١	١٤٠٢	١٤٥١	
٣-٧	"الفاتح" محمد (٢) بن مراد (٢)	١٤٥١	١٤٥٣	١٤٣٢	١٤٨١	
	العثمانيون في القسطنطينية					
٣-٧	"الفاتح" محمد (٢) بن مراد (٢)	١٤٥٣	١٤٨١			
٨	بايزيد (٢) بن محمد (٢)	١٤٨١	١٥١٢	١٤٥٢	١٥١٢	تنازل
٩	"الرهيب" سليم (١) بن بايزيد	١٥١٢	١٥٢٠	١٤٦٦	١٥٢٠	

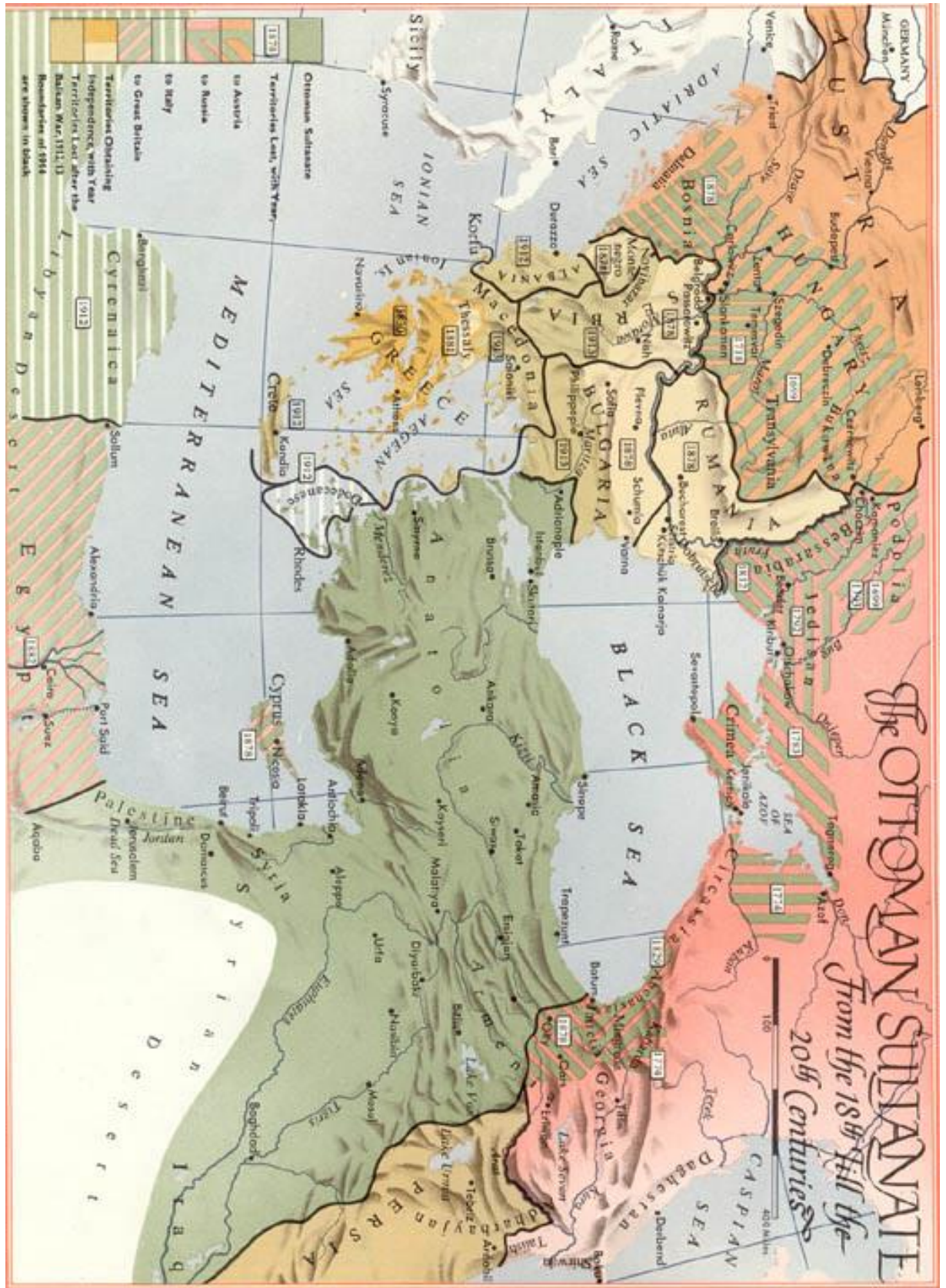
١٠	"القانوني" سليمان (١) بن سليم	١٥٢٠	١٥٦٦	١٤٩٥	١٥٦٦	
١١	"السكران" سليم (٢) بن سليمان (١)	١٥٦٦	١٥٧٤	١٥٢٤	١٥٧٤	
١٢	مراد (٣) بن سليم (٢)	١٥٧٤	١٥٩٥	١٥٤٦	١٥٩٥	
١٣	محمد (٣) بن مراد (٣)	١٥٩٥	١٦٠٣	١٥٦٦	١٦٠٣	قتل
١٤	أحمد (١) بن محمد (٣)	١٦٠٣	١٦١٧	١٥٩٠	١٦١٧	
١٥	مصطفى (١) بن محمد (٣)	١٦١٧	١٦١٨	١٥٩١	١٦٣٩	عزل
١٦	عثمان (٢) بن أحمد (١)	١٦١٨	١٦٢٢	١٦٠٤	١٦٢٢	عزل ثم قتل
١٥-٢	مصطفى (١) بن محمد (٣)	١٦٢٢	١٦٢٣	١٥٩١	١٦٣٩	عزل
١٧	مراد (٤) بن أحمد (١)	١٦٢٣	١٦٤٠	١٦٠٩	١٦٤٠	
١٨	إبراهيم بن أحمد (١)	١٦٤٠	١٦٤٨	١٦١٥	١٦٤٨	عزل ثم قتل بالسم
١٩	محمد (٤) بن إبراهيم	١٦٤٨	١٦٨٧	١٦٤٢	١٦٩٣	عزل
٢٠	سليمان (٢) بن إبراهيم	١٦٨٧	١٦٩١	١٦٤٢	١٦٩١	عزل
٢١	أحمد (٢) بن إبراهيم	١٦٩١	١٦٩٥	١٦٤٣	١٦٩٥	
٢٢	مصطفى (٢) بن محمد (٤)	١٦٩٥	١٧٠٣	١٦٦٤	١٧٠٣	عزل
٢٣	أحمد (٣) بن محمد (٤)	١٧٠٣	١٧٣٠	١٦٧٣	١٧٣٦	عزل
٢٤	محمود (١) بن مصطفى (٢)	١٧٣٠	١٧٥٤	١٦٩٦	١٧٥٤	تنازل
٢٥	عثمان (٣) بن مصطفى (٢)	١٧٥٤	١٧٥٧	١٦٩٦	١٧٥٧	
٢٦	مصطفى (٣) بن أحمد (٣)	١٧٥٧	١٧٧٤	١٧١٧	١٧٧٤	
٢٧	عبد الحميد (١) بن أحمد (٣)	١٧٧٤	١٧٨٩	١٧٢٥	١٧٨٩	أول من تلقب بالخليفة
٢٨	سليم (٣) بن مصطفى (٣)	١٧٨٩	١٨٠٧	١٧٦١	١٨٠٨	عزل ثم قتل
٢٩	مصطفى (٤) بن عبد الحميد (١)	١٨٠٧	١٨٠٨	١٧٧٩	١٨٠٨	
٣٠	"عدلي" محمود (٢) بن عبد الحميد (١)	١٨٠٨	١٨٣٩	١٧٨٥	١٨٣٩	
٣١	عبد المجيد (١) بن محمود (٢)	١٨٣٩	١٨٦١	١٨٢٣	١٨٦١	
٣٢	عبد العزيز بن محمود (٢)	١٨٦١	١٨٧٦	١٨٣٠	١٨٧٦	تنازل ثم قتل
٣٣	مراد (٥) بن عبد المجيد (١)	١٨٧٦	١٨٧٦	١٨٤٠	١٩٠٤	عزل
٣٤	عبد الحميد (٢) بن عبد المجيد (٢)	١٨٧٦	١٩٠٩	١٨٤٢	١٩١٨	عزل

	١٩١٨	١٨٤٤	١٩١٨	١٩٠٩	"رشاد" محمد (٥) بن عبد المجيد (٢)	٣٥
تنازل	١٩٢٦	١٨٦١	١٩٢٢	١٩١٨	"وحيد الدين" محمد (٦) بن عبد المجيد (٢)	٣٦
عزل و به إنتهت الخلافة	١٩٤٤	١٨٦٨	١٩٢٤	١٩٢٢	عبد المجيد (٢) بن عبد العزيز	٣٧

www.hukam.net/family.php

ملحق رقم (٢)

خارطة الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر



http://www.hukam.net/maps/atlas-007/R_Roolvink_012.jpg

ملحق رقم (٣)

تعريب الخط الهمايوني الذي قرئ في كلخانة

لقد علم الجميع أنه لما كانت حصلت الرعاية التامة للأحكام الجلييلة القرآنية والقوانين الشرعية منذ بداية ظهور دولتنا العلية وصلت قوة واستحكامات سلطتنا السنية وجميع تبعاتها إلى أعلى مرتبة من الرفاه والمعمورية لكن بحسب ما وقع منذ مئة وخمسين سنة من عدم الانقياد إلى الشرع الشريف والامتثال إلى القانون المنيف بداعي الغوائل المتعاقبة والأسباب المتنوعة قد تبدلت تلك القوة الأولى والعمار بها هو عكس ذلك من الضعف والافتقار لما كان من الأمور الواضحة عدم إثبات الممالك التي لا تكون إدارتها تحت قوانين شرعية كانت أفكارنا الملوكانية الخيرية منحصرة منذ جلوسنا الهمايوني في مجرد اعمار الممالك والأنحاء وترقية الأهالي والفقراء ونظراً لموقع ممالك دولتنا العلية الجغرافي وخصب أراضيها وقابلية واستعداد أهاليها لا بد مع توفيق الباري تعالى أن يحصل المطلوب بطرف خمس أو عشر سنين متى حصل التشبث بالوسائل اللازمة بعد الاعتماد على معونة الله واستمداد عنايته الإلهية والتوسل بجانب صاحب الرسالة والاستناد على روحانيته النبوية ولذلك نرى من اللازم المهم الأجل حسن إدارة ممالكنا المحروسة وضع بعض قوانين جديدة تتعلق موادها الأساسية بأمنية النفوس والمحافظة على الأموال والعرض والناموس وكيفية تعيين التكاليف وجمع العساكر المقتضية ومدة استخدامها. ذلك لأن لا شيء في الدنيا أعز على الإنسان من النفس والعرض والناموس فإذا رآها في التهلكة ولم يمل عند ذلك إلى الخيانة بحسب ما في خلقته الذاتية وجبلته الفطرية لا بد له أن يتشبث ببعض الصور لأجل المحافظة على نفسه وناموسه ومن المسلم أن هذا الأمر يكون مضرراً بالدولة والمملكة كما يسلم الإنسان متى كان مستأثماً على نفسه وناموسه لا بد له من أن لا ينفصل عن الصدق والاستقامة وتكون أشغاله وأعماله عبارة عن حسن الخدمة لدولته وملته لكن عندما تفقد الأمانة على المال لا يعود يلتفت لا إلى الدولة ولا إلى الملة ولا ينظر إلى إعمار الملك بل يكون دائماً غير خال من بلبلة الفكر والاضطراب وبعبس ذلك إذا كان بحالة الأمانة الكاملة من أمواله وأملاكه فإنه مهتماً بأشغاله وتوسيع دائرة معاشه وتزايد غيرته يوماً فيوماً على دولته وملته ومحبه لوطنه ولا ريب أنه يجتهد بحسن السلوك الموافق لذلك كما أن مادة تعيين التكاليف تستلزمها كل دولة بسبب الاحتياج إلى العساكر وغيره من المصاريف المقتضية لأجل المحافظة على بلادها وبما أن الأمر لا يدرك إلا بالأموال ولا يدرك المال إلا من عطاء الأهالي كان التبصر في صورة حسنة له من أهم الأمور ومع أن أهالي ممالكنا المحروسة قد تخلصت قل الآن والله الحمد والمنة من بلية اليد الواحدة التي كانت تظن فيما سلف إيراداً لم تنزل أصول الالتزامات التي هي من ألت الخراب ولم يجن منها ثمر نافع في وقت من الأوقات جارية حتى اليوم وكأنما هي عبارة عن تسليم مصالح إحدى البلاد السياسية وأمورها المالية لإدارة أحد الناس وربما إلى مخالف جبره وتغلبه فإنه إذا لم يكن في حد ذاته صالحاً ينظر لحين ما هو لمنفعته الخصوصية وتكون جميع حركاته وسكناته مبنية على الغدر والظلم ولذلك يلزم بعد بعد الآن أن يتعين على كل فرد من أهالي البلاد ويركو مناسب بالنسبة لأملاكه ومقدرته كي لا يؤخذ من أحد شيء زائد عن مقدرته وكذلك يجب تحديد مصاريف دولتنا العلية العسكرية وغيرها برأ وبحراً وتعيينها بقوانينها المقتضية وعلى ذلك يصير إجراؤها وهكذا مادة العساكر أيضاً لأنها من الأمور المهمة كما تحرر ومع أن عطاء العساكر لأجل محافظة الوطن وهو من فرائض ذمة الأهالي لم يزل على ما هو جار لحد الآن غير منظور فيه إلى عدد النفوس الموجودة في كل بلدة بل يطلب من بعضها ما هو زائد عن درجة احتماله ومن البعض الآخر ما هو أنقص وكما أن هذا الأمر يوجب عدم الترتيب والخلل في منافع مواد الزراعة والتجارة كذلك استخدام الذين يحضرون إلى العسكرية إلى نهاية عمرهم يوجب الملل

وقطع النسل فيجب وضع بعض أصول حسنة لأجل ما يطلب عند اللزوم منكل بلدة من الأنفار للعسكرية وتأسيسه بطريق المناوبة أيضاً فتكون مدة الاستخدام أربع أو خمس سنين والحاصل إذا لم تتحصل هذه القوانين النظامية لا يمكن تحصيل القوة والعمار والراحة لأن أساسها جميعاً هو عبارة عن هذه المواد المشروحة كذلك يلزم أن تنتظر دعاوى أصحاب الجرائم بعد الآن علناً بوجه التدقيق بمقتضى القوانين الشرعية وقبل أن يصدر الحكم لا يجوز إعدام أحد أصلاً لا خفياً ولا جلياً ولا بطريق التسميم وأن لا يحصل تسلط من طرف واحد على عرض وناموس شخص آخر بل كل واحد يكون مالكا أمواله وأملاكه ومتصرفاً بهما بكمال حريته وليس لأحد أن يتداخل معه بذلك وإذا بالفرض وقع أحد بتهمة أو قباحة وكان ورثاؤه أبرياء الذمة من تلك التهم والقباحة لا يحرمون من حقوق إرثهم بواسطة ضبط أمواله ولكي تكون أهل الإسلام وباقي الملل الذين هم من تبعة سلطتنا السنية نائلين مساعدتنا هذه الشاهانية بدون استثناء أعطيت من طرفنا الشاهاني الأمنية الكاملة بمقتضى الحكم الشرعي لجميع أهالي ممالكنا المحروسة على نفوسهم وأعراضهم وناموسهم وبما أن باقي القضايا سوف يعطى لها قرار باتفاق الآراء فيلزم تكثير أعضاء مجلس الأحكام العدلية بقدر اللزوم وأن يجتمع أيضاً هناك وكلاء ورجال دولتنا العلية في بعض أيام يصير تعيينها ويتكلموا جميعاً بحرية غير متأخرين عن إبداء آرائهم ومطالعاتهم ويتذكروا من جهة القوانين المقترضة فيما يخص هذه الأمنية على الأنفس والأموال وتعيين الويركو ويتكالموا عن قضية التنظيمات العسكرية أيضاً في دار شورى الباب السر عسكري وكلما تقرر قانون يعرض لطرفنا الهمايوني لأجل المصادقة عليه وتوشحه بخطنا الهمايوني ليكون دستوراً للعمل إلى ما شاء الله تعالى وبما أن هذه القوانين الشرعية سيصير وضعها لإحياء الدين والدولة والملك والملة يعطى العهد والميثاق من جانبنا الهمايوني بعدم حركة تخالف القوانين الشرعية من العلماء والوزراء وغيرهم أياً كان بحسب القباحات التي تثبت عليهم غير ملتفت في ذلك إلى رتبة ولا خاطر وبما أن جميع المأمورين لهم والحالة هذه معاشات وافية وستترتب معاشات أيضاً لمن وجد بينهم بلا معاش يجب أن ينظر بقانون قوي يتأكد به بعد الآن عدم وقوع مادة الرشوة الكريهة المنفور منها شرعاً التي هي السبب الأعظم في خراب الملك وبما أن هذه المواد المشروحة هي كناية عن تغيير الأصول العتيقة وتجديدها بتمامها ينبغي أن تعلن إرادتنا هذه السلطانية مشاعةً إلى أهالي دار السعادة وجميع ممالكنا المحروسة وأن يعلم بها رسماً جميع السفراء المقيمين في دار سعادتنا لتكون الدول المتحابة أيضاً شهوداً على إبقاء هذه الأصول إلى الأبد إن شاء الله تعالى ونلتمس من ربنا تعالى وتقدس أن يوفقنا جميعاً والذين يفعلون حركة تخالف هذه القوانين المؤسسة فيكونون مستحقين لعنة الله تعالى وعدم الفلاح إلى الأبد أمين.

في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ يوم الأحد الموافق في ٢ تشرين الثاني ١٨٣٩م

نقلاً عن الدستور ترجمه إلى العربية نوفل أفندي نعمة الله نوفل مراجعة وتدقيق خليل أفندي خوري، جزءان، طبع برخصة دائرة المعارف الجلييلة المطبعة الأدبية في بيروت سنة ١٣٠١هـ ، ج ١ ص ٢-٣-٤

ملحق رقم (٤)

تعريب الفرمان العالي الموشح بالخط الهمايوني

الذي جرى شرف صدوره خطاباً للوكالة المطلقة بخصوص الإصلاحات

بعد الألقاب

لما كان من أقدم أفكار الخيرية السلطانية تحصيل سعادة الأحوال لصنوف تبعتي الشاهانية التي هي وديعة الباري ليدي المؤيدة الملوكانية واستكمالها من كل جهة شوهدت والله الحمد بكثرة وافرة لثمار هممي المخصوصة الشاهانية التي ظهرت في هذا الباب منذ يوم جلوسي الهمايوني المقرون باليمن وقد أخذت معمورية ملكنا وثروة ملتنا في الازدياد من وقت إلى وقت إلا أنه لما كانت عدالتي السلطانية تطلب تجديد وتأكيذ النظامات الخيرية التي توقفت بوضعها وتأسيسها لحد الآن لإيصال الحالة الموافقة لشأن دولتنا العلية واللائقة لا سيما لأن حيث تضاعف بعناية الله تعالى تأكيد الحقوق السنية التي لدولتي العلية في الخارج بحسب تأثير المساعي الجميلة من حمية عموم تبعتي الشاهانية وهمة ومعاونة نوايا الدول المفخمة الخيرية التي هي معنا باتفاق خاص باهر الإخلاص على ما يجعل هذا العصر مبدأ زمان مقرون بالخير لدولتنا العلية أصبح من اقتضاء إرادة مراحمي المعتادة الملوكانية أن تترقى أنا فأناً في الداخل أيضاً الأسباب والوسائل المستلزمة لتزايد قوة ومكنة سلطنتي السنية وتحصيل سعادة الأحوال الكاملة من كل وجه لجميع صنوف تبعتي الشاهانية المرتبطين مع بعضهم بالروابط القلبية والوطنية والمتساوين في نظر معدلة شفقتي الملوكانية وبناء على ذلك قد صدرت إرادتي العادلة السلطانية بإجراء الخصوصات الآتية وهي: بما أن تلك التأمينات التي صار الوعد والإحسان بها من طرفي الأشرف السلطاني لأجل أمنية النفوس والأموال وحفظ الناموس في حق جميع تبعتي الموجودين في أي دين ومذهب كان بدون استثناء بموجب خطي الهمايوني الذي تلي في كلخانة وقد جرى الآن تأكيدها وتأييدها مع التنظيمات الخيرية يجب اتخاذ التدابير المؤثرة لأجل إخراجها بكمالها إلى الفعل أما الامتيازات والمعافيات الروحانية جميعها التي أعطيت من طرف أجدادي العظام أو أحسن بها في السنين الأخيرة إلى جماعة المسيحيين وباقي التبعة الغير مسلمة الموجودين في ممالك المحروسة الشاهانية فقد صار تقريرها وإبقاؤها الآن أيضاً يلزم أن تحصل المبادرة فقط إلى رؤية امتيازات كل جماعة من المسيحيين والتبعة الغير المسلمة ومعاينة امتيازاتهم الحاضرة بظرف مهلة معينة وتحصل المذاكرة في إصلاحاتها التي أوجبها الوقت وأثار التمدن والمعارف المكتسبة في مجالس مخصوصة تتشكل في البطرِكَخانات بإراداتي واستحساني الملوكي وتحت نظارة بابنا العالي ويصير توفيق الرخصة والاقتدار للذين صار التكرم بإعطائهما من طرف حضرة ساكن الجنان السلطان أبي الفتح محمد خان الثاني ومن خلفائه العظام إلى البطاركة وأساقفة المسيحيين للحال والموقع الجديد الذي صار التأمين به لهم من نيات فتوتي السلطانية ومن بعد أن تحصل أصول انتخاب البطاركة الجاري والحالة هذه يصير كذلك إجراء أصول نصبهم وتعيينهم لمدة حياتهم تطبيقاً إلى أحكام براءة البطركية العلية بالصحة والتمام وحين نصب البطرِكَ أو المطران والمرخص والاييسكبوس والحاخام يقتضي أن يفوا الأصول التحليفية تطبيقاً إلى صورة يحصل القرار عليها فيما بين بابنا العالي ورؤساء الجماعات المختلفة الروحانيين ثم يصير منع الجوائز والعائدات التي تعطى إلى الرهبان تحت أي صورة وأسم كان بالكلية ويتخصص عوضها إيرادات معينة إلى البطاركة ورؤساء الجماعات وكذلك يتعين معاشات إلى

باقي الرهبان على وجه الحقانية بالنظر إلى أهمية رتبهم ومناصبهم بحسب القرار الذي يعطى بعد الآن وتحال إدارة المصالح المالية المختصة بجماعة المسيحيين وباقي التبعة الغير المسلمة لحسن محافظة مجلس مركب من أعضاء منتخبة فيما بين رهبان كل جماعة وعوامها بدون أن يحصل إيراث سكنة الأبنية المختصة بإجراء العبادات في المداين والقصبات والقرى التي جميع أهلها من مذهب واحد ولا في باقي محلاتهم كالمكاتب والمستشفيات والمقابر حسب هيئتها الأصلية لكن إذا لزم تجديد محلات نظير فيلزم عندما يستصوبها البطررك أو رؤساء الملة أن تعرض صورة رسمها وإنشائها مرة إلى بابنا العالي لكي تقبل تلك الصورة المعروضة ويجري اقتضاؤها على موجب تعلق إرادتي السنية الملوكانية أو تتبين الاعتراضات التي ترد في ذلك الباب بطرف مدة معينة وإذا وجد في محل جماعة أهل مذهب واحد منفردين يعني غير مختلطين بغيرهم فلا يقيّدوا بنوع ما عن إجراء الخصوصات المتعلقة بالعبادة في ذلك الموضوع ظاهراً وعلناً أما في المدن والقصبات والقرى التي تكون أهلها مركبة من جماعات مختلفة الأديان فتكون كل جماعة مقتدرة على تعمير وترميم كنائسها ومستشفياتها ومكاتبها ومقابرها اتباعاً للأصول السابق ذكرها في المحلة التي تسكنها على حدتها لكن متى لزمها أبنية يقتضي إنشاؤها جديداً يلزم أن تستدعي بطاركتها أو جماعة مطارنتها الرخصة اللازمة من جانب بابنا العالي فيصدر رخصتنا السنية عندما لا توجد في ذلك موانع ملكية من طرف دولتنا العلية والمعاملات التي تتوقع من طرف الحكومة في مثل هذه الأشغال لا يؤخذ عنها شيء وينبغي أن تؤخذ التدابير اللازمة القوية لأجل تأمين من كانوا أهل مذهب واحد مهما بلغ عددهم ليحروا مذهبهم بكل حرية ثم تمحى وتزال مؤبداً من المحررات الديوانية جميع التعبيرات والألفاظ والتمييزات التي تتضمن تدني صنف عن صنف آخر من صنوف تبعتنا سلطنتي السنية بسبب المذهب أو اللسان أو الجنسية ويمنع قانونياً استعمال كل نوع تعريف وتوصيف يوجب الشين والعار أو يمس الناموس سواء كان بين أفراد الناس أو من طرف المأمورين ولما كانت قد جرت فرائض كل دين ومذهب يوجد في ممالك المحروسة بوجه الحرية وجب أن لا يمنع أحداً أصلاً من تبعتي الشاهانية عن إجراء فرائض ديانته ولا يعاين من جراء ذلك جوراً ولا أذية ولا يجبر أحد على ترك ديانته ومذهبه أم انتخاب مأموري سلطنتي السنية وخدامها فهو منوط بتنسيبي وإرادتي الملوكانية وبما أن جميع تبعة دولتي العلية من أية ملة كانوا سوف يقبلون جميعاً عندما يفون الشروط المقررة سواء كان من جهة السن أو الامتحانات في النظمات الموضوعة للمكاتب بدون فرق ولا تمييز في مكاتب دولتي العلية العسكرية والمكية وعدا ذلك تكون كل جماعة مأذونه بعمل مكاتب ملية للمعارف والحرف والصنائع لكن تكون أصول تدريس مثل هذه المكاتب العامة وانتخاب معلمها تحت نظارة وتفتيش مجلس معارف مختلط منصوبة أعضاؤه من طرفي الشاهاني أما جميع الدعاوي التي تحدث فيما بين أهل الإسلام والمسيحيين وباقي التبعة الغير مسلمة أو بين التبعة المسيحية وبين باقي تابعي المذاهب المختلفة الغير مسلمة تجارية كانت أو جنائية فتحال إلى دواوين مختلطة والمجالس التي تعقد من طرف هذه الدواوين لأجل استماع الدعوى تكون علنية بمواجهة المدعي والمدعى عليه والشهود الذين يقيمانهم ينبغي أن يصادقوا على تقاريرهم الواقعة دائماً واحدة فواحدة بيمين يجرونه حسب اعتقادهم ومذاهبهم أما الدعاوى العائدة إلى الحقوق العادية فينبغي أن ترى شرعاً أو نظاماً بحضور الوالي وقاضي البلدة في مجالس الإيالات والألوية المختلطة أيضاً وتجري المحاكمات الواقعة في هذه المحاكم والمجالس علناً وأما الدعاوي الخاصة مثل الحقوق الإرثية فيما بين شخصين من المسيحيين وباقي التبعة الغير مسلمة فتحال أن ترى إذا أرادت أصحاب الدعوى بمعرفة البطررك أو الرؤساء والمجالس وينبغي تنظيم أصول ونظمات المرافعات التي تجري في الدواوين المختلطة بمقتضى قوانين المجازاة والتجارة بأسرع ما يمكن ثم تضبط وتدون وتنتشر وتعلن مترجمة بالألسن المختلفة المستعملة في ممالك المحروسة الشاهانية

وتحصل المباشرة في ظرف مدة قليلة لأن تتصلح بقدر الإمكان كل السجون المخصصة لحبس وتوقيف أصحاب مظنة السوء أو المستحقين التأديبات الجزائية مع إصلاح أصول الحبسية في جميع المحلات لأجل توفيق الحقوق الإنسانية مع حقوق العدالة وتلغى وتبطل بكل حال أيضاً كل أنواع المجازاة الجسمانية بتمامها وكافة المعاملات التي تمثل الأذية والإضرار في الحبوس ما عدا المعاملات الموافقة للنظامات الانضباطية الموضوعة من جانب سلطنتي السنية وما يحصل من منع الحركات التي تقع خلافاً لذلك وزجرها بكل شدة ويجري تكدير المأمورين الذين يأمرهم بها الأشخاص الذين يجرونها فعلاً وتأديبهم بمقتضى قانون الجزا أيضاً وينبغي أن تنظم أمور أموال جميع تبعتي الملوكانية أصحاب السكنية وأرواحهم وكما أن مساواة الويركو توجب مساواة باقي التكاليف كذلك المساواة الحقوقية تستلزم المساواة في الوظائف أيضاً فينبغي أن يكون المسيحيون وباقي التبعة الغير مسلمة مجبورين أن ينقادوا إلى القرار المعطى أخيراً بحق إعطاء الحصة العسكرية مثل أهل الإسلام وتجري في هذا الخصوص أصول المعافية من الخدمة الفعلية أما بإعطاء البذل وإما إعطاء دراهم نقدية وتعمل النظامات اللازمة بحق صورة استخدام التبعة عدا عن الإسلام فيما بين صنوف العسكرية وتنتشر وتعلن في أقرب وقت أمكن وأن ينوضع أمر انتخاب الأعضاء الذين يوجدون في مجالس الإيالات والألوية من الإسلام والمسيحيين وغيرهم بصورة صحيحة وتحصل مطالعة استحصال الوسائل المؤثرة بأمر التشبث بإصلاحات النظامات الكائنة بحق صورة تركيب وتشكيل هذه المجالس لأجل حصول التأمين على ظهور الآراء المستقيمة فتعلم دولتي العلية نتيجة الآراء وما يعطى من الحكم والقرار على وجه الصحة وتناظر على ذلك وبما أن القوانين الكائنة بحق قضايا بيع الأملاك والتصرف في العقارات متساوية بحق تبعتي الملوكانية كافة فمن بعد أن تعمل الصور التنظيمية فيما بين سلطنتي السنية والدول الأجنبية تعطى المساعدة للأجانب أن يتصرفوا في الأملاك أيضاً بحسب إلتباع قوانين دولتي العلية وامثال نظامات الضابطة البلدية وإعطائهم أصل التكاليف التي تعطيها الأهالي الوطنيون أما الويركو والتكاليف التي تطرح على جميع تبعتي السنية فيما أنها تؤخذ بصورة واحدة غير منظور فيها إلى الصنف والمذهب ينبغي أن تحصل المطالعة والمذاكرة بالتدابير السريعة لإصلاح سوء الاستعمالات المتوقعة في أخذ واستيفاء هذه التكاليف والأعشار خاصة وتجري أصول أخذ الويركو شيئاً فشيئاً على خط مستقيم وتؤخذ هذه الصورة إذا كانت قابلة للأخذ عوض أصول إيرادات دولتي العلية وأعضاء المجالس من التعهد بإحدى الإلتزامات التي تجري مزايدتها علناً أو أخذ حصة منها ويشدد في المجازاة على ذلك ثم توضع وتتعين التكاليف المحلية أيضاً في صورة لا توجب الخلل في المحصولات ولا تمنع التجارة الداخلية مهما أمكن ويضم على المبالغ المناسبة التي يصير تعيينها وتخصيصها لأجل الأمور النافعة الويركو المخصوص الذي سوف يصير وضعه وتأسيسه في الإيالات والسناجق التي تستفيد من الطرق والمسالك الذي يصير إنشاؤها وإحداثها براً وبحراً ولكن كان قد عمل أخيراً نظام مخصوص بحق تنظيم واراءة دفتر إيرادات ومصرفات سلطنتي السنية في كل سنة ينبغي أن يحصل الاعتناء بإجراء أحكامه بتمامها وتحصل المباشرة بحسن تسوية المعاشات المخصوصة لكل من المأموريات وتجلب مخصوصاً من طرف جلالة مقام وكالتي المطلقة رؤساء كل جماعة والمأمور المعين لها من طرفي الأشرف الشاهاني لكي يوجدوا في المجلس العالي عند التذكر في المواد العائدة والراجعة لعموم تبعة سلطنتي السنية وهؤلاء المأمورون يتعينون لسنة واحدة وعندما يبتدئون في مأمورياتهم يجري تحليفهم وينبغي أن أعضاء المجلس العالي ينصحون ويفيدون في اجتماعاتهم العادية والتي هي فوق العادة عن أرائهم ومطالعاتهم باستقامة ولا يحصل لهم تكديراً أصلاً من جراء ذلك وتجري أحكام القوانين الموضوعة فيما يخص الإفساد والارتكاب والإعتساف توفيقاً إلى أصولها المشروعة بحق جميع تبعت سلطنتي السنية من أي صنف كانوا أو في أية

مأمورية وجدوا ويصير تصحيح أصول سكة دولتي العلية وتعمل أشياء توجب الاعتبار لأموها المالية كالبانكات وتعيين الراس مال المقتضي إلى الخصوصات التي هي منبع الثروة المادية لمالكي الشاهانية وتفتح الطرق والجداول المقتضية لأجل نقل محصولات ممالكي الشاهانية وتجري التسهيلات الصحيحة بمنع الأسباب الحادثة دون توسيع أمر الزراعة والتجارة ويلتفت إلى استفادة المعارف والعلوم والراس مال لأجل ذلك من أوربا وتوضع في موقع الإجراء شيئاً فشيئاً مع النظر المدقق في أسبابها فأنت إذن أيها الصدر الأعظم الممدوح الشيم المشار إليه أنت أعلن وأشع فرماني هذا الجليل العنوان الملوكاني حسب أصوله في دار السعادة وفي كل طرف من ممالكي الشاهانية وابدل جل الهمة بإجراء مقتضيات الخصوصات المشروحة على الوجه المبين واستحصل واستكمال الأسباب اللازمة والوسائل القوية لأن تكون أحكامه الجلييلة منذ الآن مرعية الاجراء على الدوام والاستمرار وهكذا اعلموا وعلى علامتي الشريفة اعتمدوا تحريراً في أوائل شهر جمادى الآخر سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف

جمادى الآخر ١٢٧٢هـ الموافق ١٨ شباط ١٨٥٦م

ملحق رقم (٥)

وصية بطرس الأكبر

البند الأول: من اللازم أن تقاد العسكر دائماً إلى الحرب وينبغي للأمة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوجود وترك وقت لراحة العساكر أو لأجل إصلاح المالية وتوفيرها وإن كان ضرورياً يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقباً وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة أن بآن. وعلة هذه الصورة ينبغي لروسيا أن تتخذ زمن الصلح والأمان وسيلة قوية لحرب. وهكذا زمن الحرب للصلح ، وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها.

البند الثاني: في وقت الحرب ينبغي اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط الجنود ما بين الملل والأقوام الذين هم أكثر معلومات في أوروبا ، وكذلك في زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضاً ويلزم الاعتناء بما يجعل الأمة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث أنها لا تضيع سعياً أصلاً في تحسين المحسنات المخصوصة بمملكتها.

البند الثالث: عند سنوح الفرصة ينبغي وضع اليد والمداخلة في جميع الأمور والمصالح الجارية في أوروبا وفي اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص في وقوعات ممالك ألمانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها.

البند الرابع: ينبغي استعمال أصول الرشوة لأجل إلقاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً في داخلية (له) - أي بولونيا - وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الأمة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى تتمكن من المداخلة في انتخاب الملك. وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيا من تلك الأمة ينبغي حينئذ دخول عساكر روسيا إلى داخل البلاد لأجل حمايتهم والتعصب لهم بإقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك إلى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الإقامة وعندما تظهر مخالفة في ذلك من طرف الدول المجاورة فلأجل إخماد نار الفتنة مؤقتاً ينبغي أن تقاسم المخالفين في ممالك (له) ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التي تكون قد أعطيت لهم.

البند الخامس: ينبغي الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الإمكان ثم نسعى في اغتنام وسيلة لاستكمال الباقي منها. الباقي منها . ولا نتوصل إلى ذلك إلا بوجه تضطر فيه تلك الدولة إلى أن تعلن الحرب على دولة روسيا وتهاجمها والذي يلزم أولاً هو أن نصرف المساعي والهمة لإلقاء الفساد والنفرة دائماً بين أسوج والدانمرك بحيث أن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائماً باقين.

البند السادس: يجب على الأسرة الإمبراطورية الروسية أن يتزوجوا دائماً من بنات العائلة الملوكية الألمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشترآكهم في المنافع إذ بهذه الصورة يمكن إجراء نفوذهم في داخل ألمانيا ويربطون أيضاً الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحنا.

البند السابع: ان دولة انكلترا هي الدولة الأكثر إلينا في أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جداً أيضاً في أمر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها في أمر التجارة على

سائر الدول وبيع محصولات الأخشاب وسائر الأشياء إلى انكلترة وجلب الذهب من عندهم إلى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متمادياً بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن في ممالكنا .

البند الثامن: على الروسيين أن ينتشروا يوماً فيوماً شمالاً في سواحل بحر البلطيق وجنوباً في سواحل البحر الأسود .

البند التاسع: ينبغي التقرب بقدر الإمكان من استانبول والهند وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتتابعة ، تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الإيرانية ، وينبغي ضبط البحر الأسود شيئاً فشيئاً وذلك لأجل إنشاء دار صناعات بحرية فيه والاستيلاء على بحر البلطيق أيضاً ، لأنه ألزم موقع لحصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة إيران لنتمكن من الوصول إلى خليج البصرة وربما نتمكن من إعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة إلى بلاد الشام والوصول منها إلى بلاد الهند التي هي بمثابة مخزن للدنيا، وبهذه الوسيلة نستغني عن ذهب إنكلترة.

البند العاشر: ينبغي الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا (النمسا) والمحافظة على ذلك ، ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار إليها من جهة ما تبتغي إجراؤه من النفوذ في المستقبل في بلاد ألمانيا . وأما باطناً فينبغي لنا أن نسعى في تحريك عروق حسد وعداوة سائر أحكام ألمانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستمداد من دولة من دولة روسيا . ومن اللازم إجراء نوع حماية للدول المذكورة بصورة يتسنى لها فيها الحكم على تلك الدول في المستقبل.

البند الحادي عشر: ينبغي نحريض العائلة المالكة في أوستريا على طرد الأتراك وتبعيدهم من قطعة الروملي^(١) . وحينما نستولي على استانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة أوستريا حرباً وأن نسكن حسدها ومراقبتها لنا بإعطائها حصّة صغيرة من الأماكن التي نكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصّة من يدها .

البند الثاني عشر: ينبغي أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رئاسة البابا الروحية المنتشرين في بلاد المجر والممالك العثمانية في جنوبي ممالك (له) ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسيا مرجعاً ومعيناً لهم . ومن اللازم قبل كل شيء إحداث رئاسة مذهبية حتى نتمكن من إجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم فنسعى بهذه الوسيلة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوي غية نستعين بهم في ولاية كل من أعدائنا .

البند الثالث عشر: حينما يصبح الأسوجيون متشتتين والإيرانيون مغلوبين واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة أيضاً حينئذ نجمع معسكراتنا في محل واحد مع المحافظة على البحر الأسود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية . وعند ذلك نظهر أولاً لدولة فرنسا كيفية مقاسمة حكومات الدنيا بأسرها بيننا ، ثم لدولة أوستريا . ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار إليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جداً لقبول ذلك . وحيث أنه لا بد من أحدهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغي مداراة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلاً بما عرضناه عليهما واسطة لتتكيل الأخرى، وإذ تكون دولة روسيا حينئذ قد ضببطت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك أعظم

^١ - الروملي : كانت تشمل بلغاريا ورومانيا وجزءاً كبيراً من يوغسلافيا وجزءاً من شمال اليونان

قطع أوروبا حديثة الدخول في يد تصرفها فعنده يسهل عليها أن تقهر وتنكل فيما بعد أية دولة بقيت في الميدان من الدولتين المذكورتين.

البند الرابع عشر: على فرض المحال أن كلاً من الدولتين المشار إليهما لم تقبل بما عرضته عليهما روسيا فينبغي حينئذ لروسيا أن تصرف الأفكار لمراقبة ما يحدث من النزاع والخلاف بينهما فإذا وقع ذلك فعلاً فلا بد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا مع الآخر ، وفي ذلك الوقت يجب على روسيا أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالاً معسكراتها المجتمعة أول بأول على ألمانيا فتهاجم في تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين من السفن أحدهما من بحر أزاق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعة من أقوام الأناضول المتنوعة ، والثاني من ليمان (خليج) أرخانكل^(٢) الكائنة في البحر المتجمد الشمالي، فتسير هذه السفن وتمر في البحر الأبيض والبحر المحيط الشمالي مع الأسطول المرتب في البحر الأسود وبحر البلطيق وتهاجم كالسيل على سواحل فرنسا . وأما ألمانيا فإنها تكون إذ ذاك مشغولة بحالها . وبما ذكرناه تصبح أوروبا تدخل بالطبع تحت الانقياد بسهولة وبدون محاربة وتصير جميع قطعة أوروبا قابلة للفتح والتسخير.

محمد فريد بك المحامي تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٣٣٠-٣٣٤

^٢ - يقع في الشمال الغربي من روسيا ويسمونه البحر الأبيض

ملحق رقم (٦)

منتجات صناعة النسيج التقليدية في حلب عام ١٢٧٧هـ/١٨٦١م

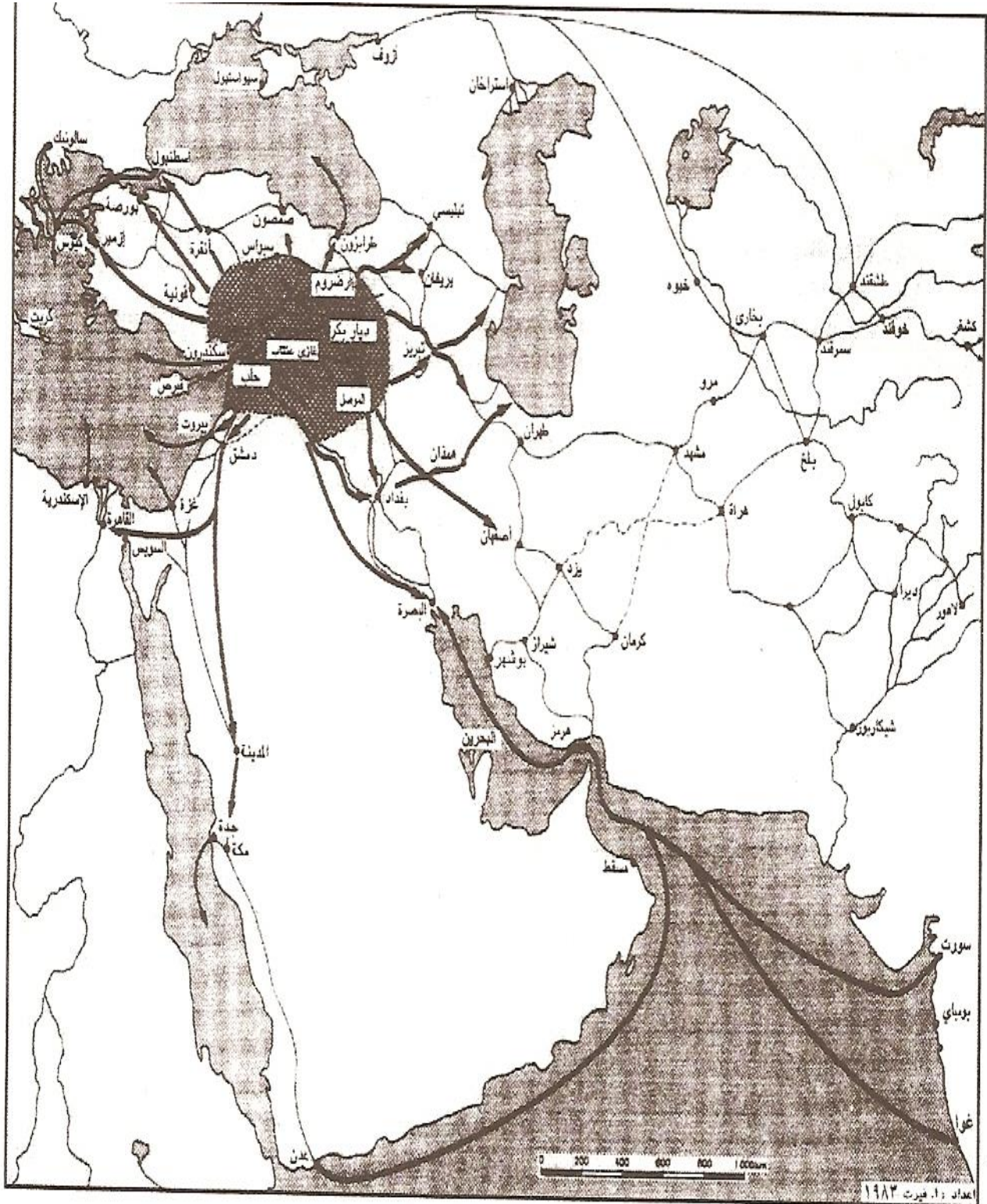
اسم المنسوج وطبيعته	عدد الأنوال	عدد العمال	عدد القطع المنتجة سنوياً	القيمة ١٠٠٠× قرش
قطن(قماش حرير، قطن مقلم)	٨٠٠	١٦٠٠	٢٠٨٠٠٠	٢٢٨٠٠
الأجيا(قماش حرير، قطن)	٤٥٠	٩٠٠	١٣٠٤٠٠	١٠٤٣٢
شخمة مقصب(حرير، ذهب)	٦٠	١٨٠	٣١٢٠	٤٦
لمفاس مقصب(حرير، قصب)	٤٠	٨٠	٢٠٨٠	١٣٠٨
زنار مطرز(وشاح حريري مطرز)	٥٠	١٠٠	١٣٠٠٠	٣٢٥
زنار حرير(وشاح حريري مقلم)	٨٠	١٦٠	٢٠٨٠٠٠	٧٢٨
زنار منكوش(وشاح مصور مقلم)	٧٠	٢١٠	٣٦٤٠	٤٣٦
غزل على الحرير(حرير، قطن مقلم)	٨٠٠	١٦٠٠	٣٣٢٨٠٠	١٣٣١٢
ظهار(شالات حرير)	٥٠	١٠٠	٥٢٠٠	١٨٢
شكشة(قطن مصبوغ عادي)	٣٠٠	٣٠٠	١٧١٦٠٠	٢٠٥٩
غزلية(قطن مصبوغ مقلم)	٩٥٠	١٩٠٠	٥٥١٤٠٠	٨٨٢٢
المجموع	٣٦٥٠	٧١٣٠	١٤٤٢٠٤٠	٦٠٥٣٢

أشرطة، كنارات، كلف	الوزن ب الدرهم	الوزن ب الكغ	القيمة ب ١٠٠٠ قرش
شريط ذهبي	١٢٠٠	٣,٨	٨٤
شريط فضي	٨٠٠٠٠٠	٢٥٤٠,٠	٣٤٠٠

محفوظات الخارجية البريطانية ١٩٥/٧٤١: ١٨٦٢٠٦٠٥

نقلاً عن هاينتز وأويغن حلب دراسات تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبية الاجتماعية والحركة الاقتصادية لأحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الأدنى ج ٢ ص ٨٠٨-٨٠٩

ملحق رقم (٧)



العلاقات التجارية لمدينة حلب
في النصف الأول من القرن التاسع عشر
مناطق نفوذ مدينة حلب منذ عام ١٨٦٩

نقلًا عن غاوية وفيرت ج ٢ ص ٦٦٤

ملحق رقم(٨)

المؤسسات التجارية في حلب

نقلاً عن ج. بورينغ ١٨٤٠م ص ٨٠-٩٤

الشركة ورأس المال	الطائفة
٣٠ شركة برأسمال إجمالي قدره ١٤ - ١٨ مليون قرش ٧ شركات برأسمال كل منها أكثر من مليون قرش ١ شركة برأسمال ٣-٤ مليون قرش	مسيحيون: تجارة جملة وتجارة خارجية
٧٠ شركة برأسمال إجمالي قدره ٦,٥ - ٧,٥ مليون قرش ١ شركة برأسمال قدره ١,٣ - ١,٤ مليون قرش	مسلمون: تجارة جملة وتجارة دولية
١٠ شركات برأسمال إجمالي قدره ٢ - ٢,٥ مليون قرش ١ شركة برأسمال قدره مليون قرش	يهود: تجارة جملة وتجارة عملة
٥٠ شركة برأسمال إجمالي قدره ١,٢ - ١,٦ مليون قرش	تجارة تجزئة بالبضائع النسيجية المحلية
٨٩ شركة برأسمال إجمالي قدره ١,١ - ١,٣ مليون قرش	تجارة مفرق بالبضائع النسيجية الأوروبية المستوردة
٣٥ شركة برأسمال إجمالي قدره ٠,٣ - ٠,٤ مليون قرش	تجارة مفرق بالتوابل والبهارات

هاينتز غاوبة وأويغن فيرت، حلب، تعريب صخر علي ج ٢ ص ٥٨٠

ملحق رقم (٩)

جدول رقم ١

تكاليف شحن ٢٥٠ كغ من حلب إلى المدن الأخرى ومدة نقلها في فترة الحكم المصري بالقرش العثماني:

عدد أيام الشحن	الأسعار في عهد إبراهيم باشا	المدينة
٧-٥	١٢٠-٦٠	إلى اسكندرون
٨	١٦٠-٩٠	اللاذقية
١٠	١٨٠-١٢٠	أضنة، طرسوس
٨	١٦٠-١١٠	مرعش
٦	١٢٠-٨٠	غازي عنتاب
٩	١٥٠-٩٠	أورفا
١٥	٢٥٠-١٦٠	ماردين
١٢	٢٢٠-١٥٠	ديار بكر
٢٢	٣٠٠-٢٢٠	الموصل
٣٠	٤٥٠-٤٠٠	بغداد

غابرة وفيرت ج ٢ ص ٦٧٩

جدول رقم ٢

قدرة وسائط النقل على الحمولة حوالي عام ١٢٦٦هـ/١٨٥٠م

١٥٠ كغ	بغل
٢٥٠ كغ	جمل
١٠٠٠ كغ	عربة على الطريق البري
٢٠-١٠ طن	سفن شراعية تركية في المواصلات الساحلية
٢٠٠-١٠٠ طن	سفن شراعية عائدة لدول جنوب أوروبا المتوسطية
٤٠٠ طن	سفن شراعية بريطانية وأمريكية
١٠٠٠ طن	سفن تجارية فرنسية ونمساوية وروسية

محفوظات الخارجية البريطانية ز ه س ٤/١١٤ ومصادر أخرى نقلاً عن غابرة وفيرت ج ٢ ص ٦٨٦

ملحق رقم (١٠)

حجم التبادل الفرنسي والبريطاني مع حلب

حجم التبادل الفرنسي مع حلب عام ١٢٠٣-١٢٣٢هـ / ١٧٨٩-١٨١٦م

٥ مليون قرش عثماني	قبل عام ١٢٠٣-١٧٨٩م
١ مليون قرش عثماني	١٨١٦-١٢٣١م
واردات ٢٠ مليون قرش صادرات ٢٣ مليون قرش	١٨٦١-١٢٧٧م

غاوبة وفيرت حلب ج ٢ ص ٦٣٥+٦٥٨

صادرات وواردات حلب من وإلى بريطانيا خلال الأعوام التالية

العام	١٨٧٣	١٨٧٤	١٨٧٥	١٨٧٦
الصادرات باللييرة التركية	٤٢٣٠٠٠	١٠٩٠٠٠٠	٨٨٠٠٠٠	٧٦٦٠٠٠
الواردات باللييرة التركية	١٠٤٣٠٠٠	١١٦١٠٠٠	١٣٤٦٠٠٠	٩٧٨٠٠٠

محفوظات الخارجية البريطانية ٣٠٧٠/٧٨، تقرير عن التجارة الإنكليزية مع تركيا ١٨٧٨-
١٨٧٩م نقلاً عن غاوبة وفيرت ج ٢ ص ٦٧٣-٦٧٤

ملحق رقم (۱۱)

عدد سكان ولاية حلب إسلام ومسيحيون ويهود موزعين على الأفضية التابعة للولاية
سالنامة ولاية
حلب ١٢٨٧/٥١٨٧م

مجموعه نفوس	خانۀ نفوس	اسلام	عیسوی	سوی	استقضاها
۸۱۸۶۶	۱۲۷۰۴	۵۹۶۸۸	۱۰۴۸۹	۱۷۱۵۲	۵۷۴
۵۷۹۶۰	۹۷۶۹	۴۷۵۹۹	۸۶۵۵	۹۸۴۴	۶۷
۵۴۴۵۴	۴۵۶۰۱	۵۰۷۱۴	۴۴۴۰	۱۹۴	۴۹
۴۵۴۷۷	۱۰۱۱۸	۴۷۴۴۶	۸۷۷۵	۷۸۰۴	۷۴
۴۹۴۴۴	۵۴۴۴	۴۴۱۸۹	۴۵۴۴	۶۰۵۵	۰۰
۴۶۴۶۰	۵۴۴۸	۴۵۴۴۴	۵۱۴۴	۱۵۰۰	۱
۴۶۰۸۰	۶۵۴۰	۴۶۰۰۰	۶۵۰۰	۰۰	۸۰
۴۴۰۰۰	۴۴۵۸	۴۴۰۰۰	۴۴۵۸	۰۰	۰۰
۴۴۸۴۰	۴۰۵۸	۴۰۵۷۰	۱۷۴۵	۴۴۴	۰۰
۴۴۸۴۰	۴۴۴۴	۴۴۴۴	۴۴۴۴	۰۰	۰۰
۴۴۴۴	۴۴۴۴	۴۴۴۴	۴۴۴۴	۱۴	۰۰
۴۴۴۴	۴۴۴۴	۴۴۴۴	۴۴۴۴	۰۰	۰۰
۴۴۴۴	۴۴۴۴	۴۴۴۴	۴۴۴۴	۴۴۴	۴۴۴

خانه و نفوس جلال لسانی بقیه سید									
مجموع خانات		نفوس خانه		نفوس خانه		نفوس خانه		مجموع خانات	
۵۶۵۸۵	۷۱۶۸	۲۱۵۸۹	۶۱۶۷	۵۸۷۲	۹۷۳	۱۲۱	۲۹	۵۶۵۸۵	۷۱۶۸
۲۴۰۲۴	۲۷۲۱	۱۱۵۵۶	۲۶۰۴	۲۶۹	۱۱۹	۰۰۰	۰۰	۲۴۰۲۴	۲۷۲۱
۲۱۹۰۸	۴۰۵۴	۱۱۵۶۶	۲۹۵۶	۱	۰۹۷	۰۰	۰۰	۲۱۹۰۸	۴۰۵۴
۱۴۰۶۶	۱۴۹۱	۵۹۹۴	۱۴۷۷	۰۰	۰۱۲	۰۰	۰۰	۱۴۰۶۶	۱۴۹۱
۱۱۴۵۸۲	۱۴۴۴۴	۵۰۷۰۴	۱۴۱۰۴	۶۷۵۵	۱۲۰۲	۱۲۱	۲۹	۱۱۴۵۸۲	۱۴۴۴۴
۴۸۸۸۲	۷۷۴۵	۱۷۴۴۴	۵۴۸۰	۷۴۰۴	۴۴۰۸	۰۰	۰۰	۴۸۸۸۲	۷۷۴۵
۲۴۴۰۵	۴۰۹۶	۱۴۷۸۲	۴۸۷۶	۵۲۲	۴۲۰	۰۰	۰۰	۲۴۴۰۵	۴۰۹۶
۲۶۶۹	۲۶۹۷	۱۴۴۱۶	۲۶۴۴	۴۹	۱۲	۱۲۷	۲۹	۲۶۶۹	۲۶۹۷
۱۸۸۲۴	۲۶۷۴	۸۰۱۹	۲۲۱۷	۱۷۵۴	۲۴	۹	۲۹	۱۸۸۲۴	۲۶۷۴
۱۸۴۶۶	۲۹۴۱	۴۵۴۴	۱۲۴۱	۵۸۰۶	۱۷۰۹	۱۰	۲۹	۱۸۴۶۶	۲۹۴۱
۱۶۱۵۸	۱۵۴۶	۴۸۴۶	۱۴۵۶	۱۴۹۵	۴۴۵	۱۷	۲۹	۱۶۱۵۸	۱۵۴۶
۰۸۷۱۶	۴۰۸۸	۴۷۴۹	۲۰۶۰	۷۷	۰۲۸	۰۰	۰۰	۰۸۷۱۶	۴۰۸۸
۴۴۸۱	۱۱۵۷	۲۹۴۶	۱۰۰۰	۴۰۹	۰۹۱	۲۹	۲۹	۴۴۸۱	۱۱۵۷
۱۹۵۹۹۱	۲۹۹۲۴	۶۸۵۴۶	۱۹۷۴۰	۱۷۱۹۴	۵۰۰۱۲	۹۱۲	۲۹	۱۹۵۹۹۱	۲۹۹۲۴
مجموع خانات		مجموع خانات		مجموع خانات		مجموع خانات		مجموع خانات	
۷۱۶۸	۲۱۵۸۹	۶۱۶۷	۵۸۷۲	۹۷۳	۱۲۱	۲۹	۵۶۵۸۵	۷۱۶۸	۲۱۵۸۹

ملحق رقم (١٢)

ولاية حلب خلال فترة البحث ١٢٠٣-١٢٩٣هـ / ١٧٨٩-١٨٧٦م

الحاكم		فترة الحكم		حياة الوالي	
		من	إلى	من	إلى
ولاية حلب من قبل العثمانيين					
حسين ... باشا		١٧٨٦			
بايراكلي كوسا مصطفى باشا			١٧٩١		
قلجي عثمان باشا		١٧٩٢	١٧٩٢		
عثمان باشا		١٧٩٢	١٧٩٢		
إبراهيم آغا قرا أغازي		١٧٩٢	١٧٩٣		
سلسمان فوزي باشا		١٧٩٣	١٧٩٤	١٧٩٤	
عزام زاده عبد الله باشا		١٧٩٥	١٧٩٨		
شريف محمد باشا		١٧٩٨			
ابراهيم باشا			١٨٠٤		
حامد حمود محمود باشا		١٨٠٤	١٨٠٥		
علاء الدين باشا		١٨٠٥	١٨٠٨		
يوسف ضياء الدين باشا		١٨٠٨	١٨٠٩	١٨١٨	
شاملي راغب محمد باشا		١٨١١	١٨١٣		
شعبان أوجلو جلال الدين محمد باشا		١٨١٣	١٨١٦		
خورشيد أحمد باشا		١٨١٦	١٨٢٠		
مظفر باشا		١٨٢٠	١٨٢٤		
محمد وحيد باشا		١٨٢٤	١٨٣٠		
علي باشا		١٨٣٠	١٨٣٢		
من قبل الباشاوات في مصر					
إسماعيل باي		١٨٣٢-٥	١٨٤٠-١٠		

		١٨٤٤	١٨٤٠	...
				الولاية من قبل العثمانيين
		١٨٤٥	١٨٤٤	وجيهي باشا
		١٨٤٩	١٨٤٥	عثمان باشا
		١٨٥٠	١٨٤٩	شريف مصطفى باشا
١٨٦٥	١٨١٣	١٨٥٣	١٨٥١	محمد باشا القبرصي
١٨٦٤	١٨٠٧	١٨٥٥	١٨٥٣	سليمان باشا رأفت
		١٨٥٧	١٨٥٦	إسماعيل باشا
		١٨٥٨	١٨٥٧	مصطفى باشا
		١٨٦٠	١٨٥٨	محمد باشا
		١٨٦١	١٨٦٠	إسماعيل باشا
		١٨٦٢	١٨٦١	عصمت باشا
		١٨٦٦	١٨٦٣	سريين باشا
١٨٩٥	١٨٢٢	١٨٦٨	١٨٦٦	أحمد جودت باشا
		١٨٧١	١٨٦٨	رشاد باشا
		١٨٧٣	١٨٧١	حاجي على باشا
		١٨٧٥	١٨٧٤	محمد رشيد باشا
	١٨٧٦	١٨٧٦	١٨٧٥	إسعد مخلص باشا ؟
		١٨٧٧	١٨٧٦	محمد باشا

www.hukam.net/family

ملحق رقم (١٣)

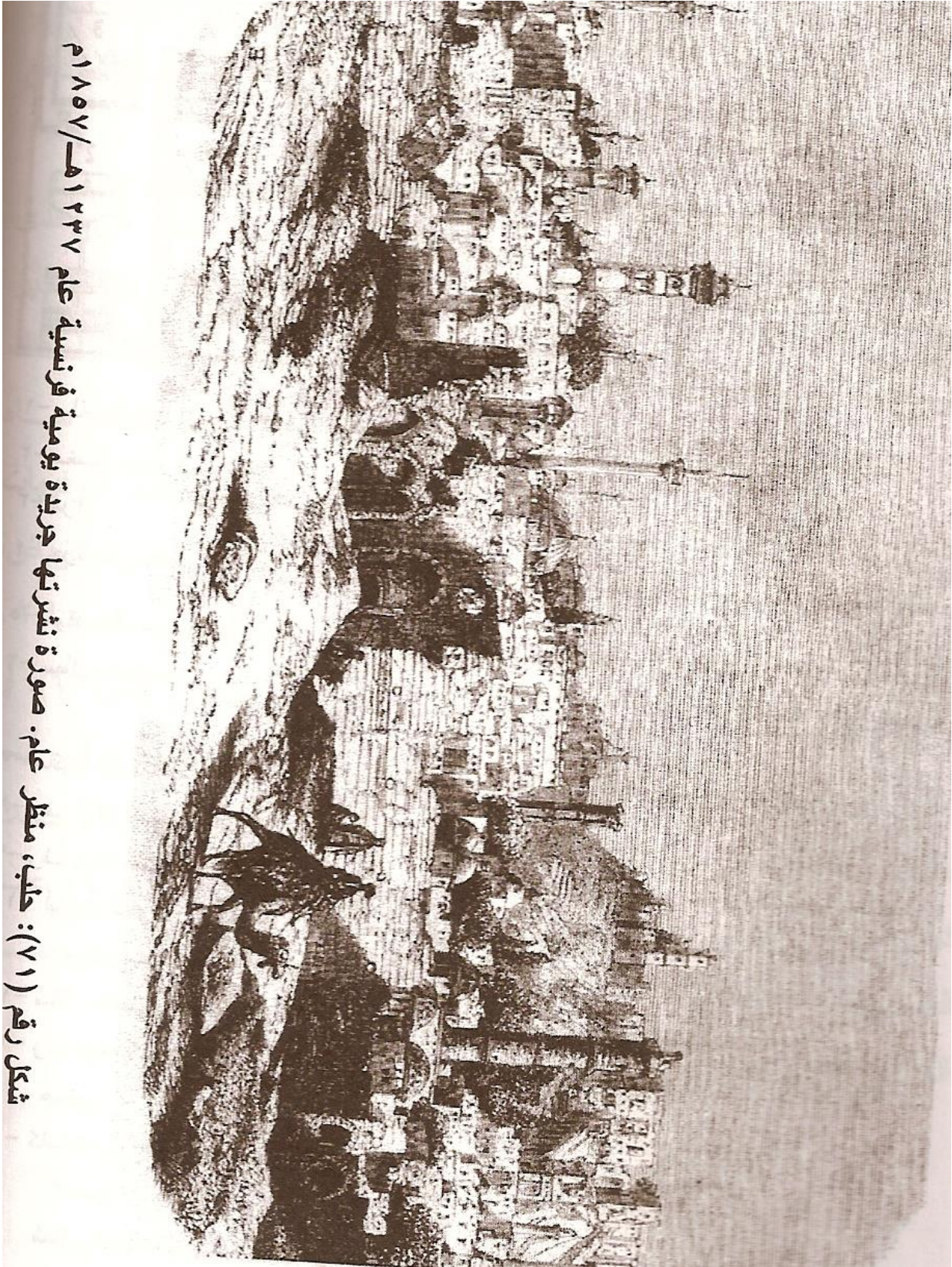
جدول بأسماء العشائر في ولاية حلب وتعداد سكانها وتوزعهم في أقضية الولاية

سالنامه ولایة حلب ۱۲۸۷ھ-۱۸۷۰م

[illegible]

ملحق رقم (١٤)

صورة لمدينة حلب عام ١٨٥٧م



شكل رقم (٧١): حلب، منظر عام. صورة نشرت في جريدة يومية فرنسية عام ١٢٣٧هـ / ١٨٥٧م

نقلًا عن غاوية وفيرت ج ٢ ص ٨٦٨



السلطان سليم الثالث
(١٧٨٩ - ١٨٠٧)

والده: مصطفى الثالث

والدته: السلطانة مهرشاه (فرنسية)

ولادته: ٢٤ كانون الأول ١٧٦١

وفاته: ٢٨ تموز ١٨٠٧ (أعدم ذبحاً)

سلطنته: ١٧٨٩ - ١٨٠٧ (١٨ سنة)



السلطان مصطفى الرابع
(١٨٠٧ - ١٨٠٨)

والده: عبد الحميد الأول

والدته: (بلغارية)

ولادته: ٨ ايلول ١٧٧٩

وفاته: ١٦ تشرين الثاني ١٨٠٨ (أعدام)

سلطنته: ٢٩ أيار ١٨٠٧ - ٢٨ تموز ١٨٠٨ (عدة أشهر)



السلطان محمود الثاني
(١٨٠٨ - ١٨٣٩)

والده: عبد الحميد الأول

والدته: السلطنة نقشدیل (فرنسية)

ولادته: ٢٠ تموز ١٧٨٥

وفاته: ١ تموز ١٨٣٩ (تلف كبدي)

سلطنته: ١٨٠٨ - ١٨٣٩ (٣١ سنة)



السلطان عبد المجيد
(١٨٣٩ - ١٨٦١)

والده: محمود الثاني

والدته: السلطانة بزمي عالم (يهودية روسية)

ولادته: ٢٥ نيسان ١٨٢٣

وفاته: ٢٥ حزيران ١٨٦١ (داء السل)

سلطنته: ١٨٣٩ - ١٨٦١ (٢٢ سنة)



السلطان عبد العزيز
(١٨٦١ - ١٨٧٥)

والده: محمود الثاني

والدته: بسمية برستو هانم (قبطية مصرية)

ولادته: ٨ شباط ١٨٣٠

وفاته: ٤ حزيران ١٨٧٦ (انتحار)

سلطنته: ١٨٦١ - ١٨٧٥ (١٥ سنة)